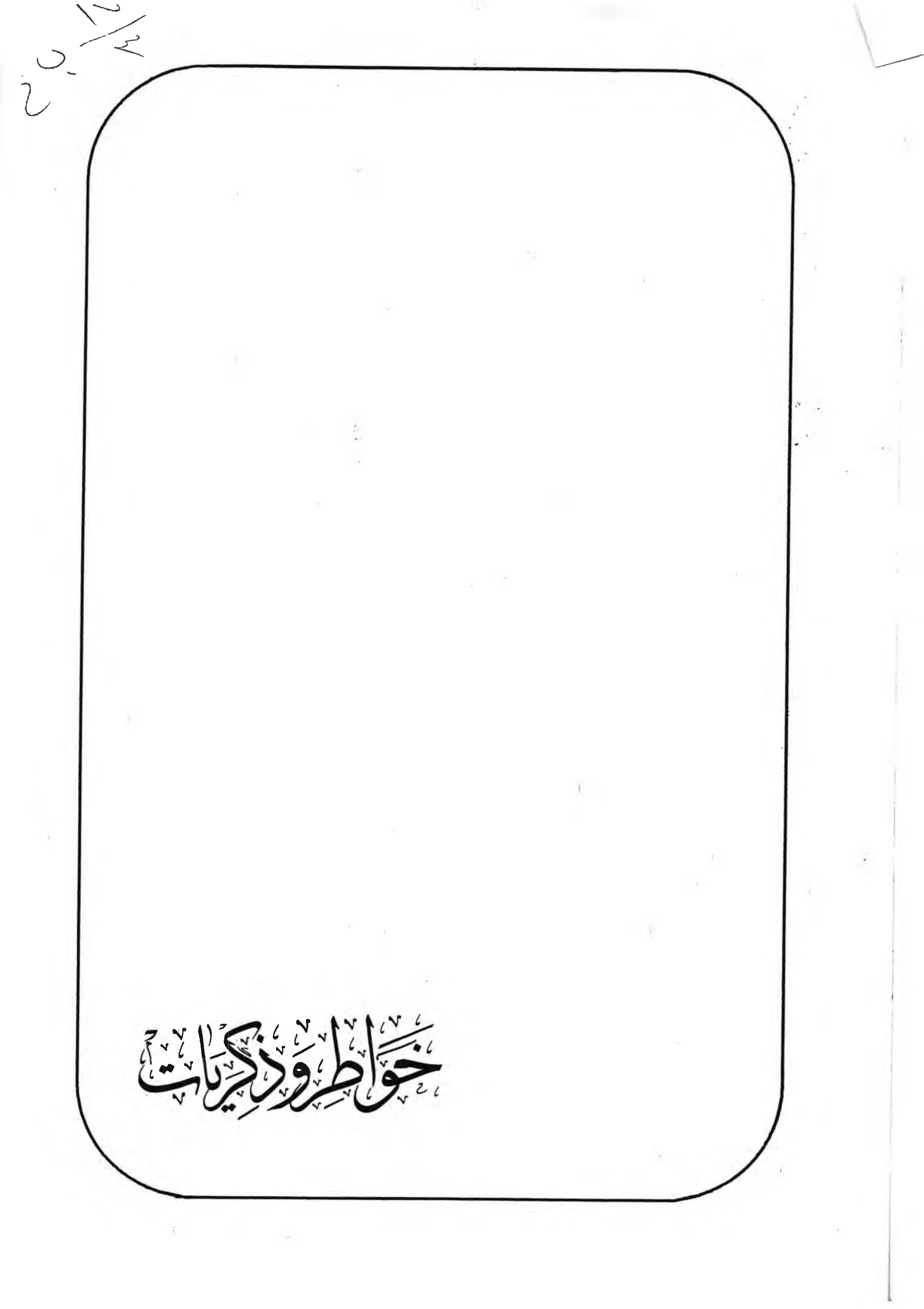

خواطر وذكريات

بسم الله الرحمن الرحيم



إبراهيم محمّد الحسون

المجلّد الأول

توزيع
المكتبة المكية

ⓒ المكتبة المكية، ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحسون، إبراهيم محمد

خواطر وذكريات / إبراهيم محمد الحسون - مكة المكرمة، ١٤٢٤هـ

٣مج

ردمك: ٥-٥٤١-١٠-٩٩٦٠ (مجموعة)

٣-٥٤٢-١٠-٩٩٦٠ (ج١)

١ - الحسون، إبراهيم محمد - ذكريات أ. العنوان

ديوي ٨١٣,٠٣٩٥٣١ ١٤٢٤/٣٧١٦

رقم الإيداع: ١٤٢٤/٣٧١٦

ردمك: ٥-٥٤١-١٠-٩٩٦٠ (مجموعة)

٣-٥٤٢-١٠-٩٩٦٠ (ج١)

جدة، ص ب: ٢٣١٦١ الرمز البريدي: ٢١٤٢٦

هاتف فاكس: ٦٦٥٠٤٩٠

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م



المكتبة المكية

طباعة-نشر-توزيع

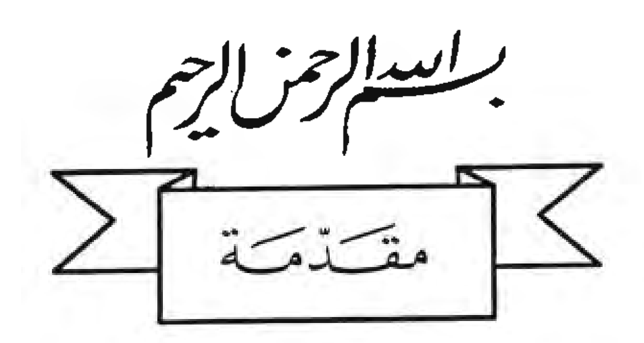


هدفنا خدمة الكتاب الإسلامي

فرع العزيزية: ٥٥٠٠٨١٢ / ٥٥٩٣٤٥٩ فرع باب المروة: ٥٧٥٥٦٧٧ / ٥٧٥٥٦١٨

فرع باب العمرة: ٥٧٢٤٨٤٢ الإدارة: تليفكس: ٥٣٦٦٢٩٩ ص.ب ٣٨٩٣

السعودية - مكة المكرمة - البريد الإلكتروني: almakkiah@hotmail.com



هذا كتاب في نظري، قيّم، مليءٌ بالصور المفيدة، الواضحة فيما تمثّله من حياة فرد عاش في القرن الهجري المنصرم، تمثّل حياة الطالب، المتشوّق إلى العلم، ينظر إليه من بعيد، ثم يقتربُ منه، وينهل منه بمقْدارِ ظروف أسرته، وحلم عصره، لا يُتاح له أن يوغل في العلم، فتبقى هذه الرغبة مسيطرةً عليه، لم يتخلّص منها، ويسلك طريقاً جانبياً يعوّض به عمّا لم يأخذه بانتظام، فيرضى عن سَيْرِه، ونتائجِ جهده، وليس له إلا أن يرضى.

صورةٌ أخرى، صورةُ صغيرٍ، لا تنقصه الشجاعة، ولا تعوزه الجرأة، مع إقدام فيه بعض المجازفة أحياناً، يفيده كل ذلك في مواقف، بعضها فتح له الطريق. رافقته بعض هذه الصفات، وكبرت معه، وجاءته بمواقف حَمدها، ومواقف عانى منها.

صورةٌ أخرى، صورة ذاك الطفل الذي جاء من نجد، وهي حينئذٍ بعيدة عما يُعدُّ في الحجاز مستوى حضاريّاً، قصر عنه هذا الطفل، فقابل الفرق في الأكل والشرب، وفي اللِّباس، وفي الحديث واللغة. ركبته الدهشة من كل ما يرى، ومن كل ما يسمع، كل شيء يحتاج إلى معرفة وهضم، ومهادنة. جاء من بيت طين إلى بيت بُني من الحجر، جاء من مدينةِ الماء فيها يُجلب بالقُرب، ويبرَّد فيها، إلى مدينة الماء فيها في الزير والشراب

والدوارق، جاء من مدينة ركوبها الجمال والحمير إلى مدينة استقبلت السيارات، كان كساؤه ساذجاً، فأصبح معقداً، في قماشه وفي تفصيله، وفي لبسه. جاء من بلد أشباه وجوههم متقاربة، إلى بلد فيها كل الأشباه، بلد عالمية. لم يكن يعرف أن هناك لغة غير العربية، فوجد الحج يغص باللغات.

صورةٌ أخرى، في هذه المذكرات صورة أولى خطوات التعليم، والجهود المبذولة فيه، واهتمام الملك عبدالعزيز به، واستفادته من النواة القائمة حينئذ، واستغلالها أكمل استغلال، وبقاؤه بجانب التعليم، يرفده ويشجعه، ويعممه، وينوع فيه. والعقبات التي قابلها، والطُرق التي تغلب بها عليها. جهوده في حماية البلاد من ويلات الحرب العالمية الثانية، ومن ما رافقها من شح في الوارد، ومعاناة في الغذاء والكساء.

صور أخرى عن الأمن واستتبابه، وبعض الوقائع الحيّة، التي تمثل بعض الجوانب التي أوصلت إلى ما أوصلت إليه من الاستقرار، في المدن والقرى والسبل.

صورٌ أخرى عن الوظائف والموظفين، وما كانت عليه الأمور في أول سنوات توحيد المملكة، رسم الكاتب فيها صوراً حيّة، تُري مدى الكفاية في إنجاز الأعمال من أقل عدد ممكن من العاملين، وتتبّع، ممثلاً بنفسه، التطور الذي تلا ذلك، من زيادة في نطاق العمل، وانتشار الأقسام، وإنشاء دوائر جديدة. وتأثير البترول والثروة المعدنية على القدرة على تطوير البلاد، حسب متطلبات تلك الحقب، بعضها تالٍ بعضا.

رسم صوراً قد لا يسهُل على أحدنا تصورها، أو حتى العلم بها، مثل حريق بئر الظهران، في وقت أشدّ ما يكون البترول محتاجاً أن يكون بعيداً عن الهزات. كان الوصف ممتعاً، وكان دقيقاً، دخل في أضيق سَمِّ الأمور الفنية. هذا وغيره ما جاء مبثوثاً في ثنايا الكتاب.

لقد سجل بعين الصقر أماكن في عنيزة، وفي جدة، وفي الظهران، وفي أم رضمة، وفي الحفر، ووصفها بدقة، سواء كانت قائمة مكتملة في

وصفها مثل عنيزة وجدة، أو حديثة بدأت من نواة عاصرها مثل الظهران والخبر وأم رضمة والحفر. لم يبق إلا القليل في عنيزة وجدة مما كان قائماً.

سوف يجد من يحتاج إلى هذه المعالم فائدة جلّى فيما حدد. بدقة وإسهاب، عن البيوت، وتجاورها، وشوارعها، والمرافق المختلفة من مساجد، ودكاكين، ومواقف دواب، ومراكز للمياه.

لقد وصف الصهاريج وصفاً دقيقاً، لم أره ورد في كتاب يمثل هذه الدقة: في الحجم، وما يتحمله، وكيف يُستفاد منه، وقياسات الاستهلاك، وصلة الأمطار بهذا، والفوائد المادية التي تُجنى من ذلك، والمستفيدون من هذه الصهاريج، ومن يستفيد منهم، وآلة الحركة عموماً في هذا الصدد. وهذا يعطي فكرة مدهشة عن معالجة الناس حينئذ لأمور الحياة، حسب الحاجة، والمقدرة.

الكتاب تاريخ أفراد، وتاريخ حقبة، وتاريخ مدن، وسِجل نهضة، وتوحيد مملكة، وسِجل صور لا بدّ من استيعابها لِمن يريد أن يعرف الأسس التي بنينا عليها ما نتمتّع به الآن من نمو وتطور.

الكتاب صفحة واضحة للمقارنة لِما كان وما نحن عليه، تُقاس عن طريقه الخطوة وبُعْدِها وطولها، وما كان وراء هذا البناء من بناء قديم اختفى، آثارٌ تلوح اليوم في مدننا مثل الوشم في ظاهر اليد.

الدكتور: عبدالعزيز الخويطر
جدة ١١/ رجب - ١٤٢٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمداً لك ربي وشكراً، حمداً يليق بجلال وجهك وعظيم سلطانك على ما أسبغته عليَّ من مِنن وآلاء، وعلى ما أحطتني به من عطف ورعاية خلال ما اجتزته عبر حياتي الطويلة، فلك الشكر مضاعفاً وجزيلاً، وصلاة وسلاماً على خير خلقك وخاتم أنبيائك سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم[١].

أخي القارىء... الآن وقد اجتزت العقد الثامن من عمري. الآن، وأَصْبَحَتْ شمسُ أصيلِ حياتي ترسل أشعتها الباهتة في الأفقَ إيذاناً بالغروب. أرى من واجبي أن ألتفتَ إلى الوراء، لأقف وقفةَ تأمُّلٍ قد يكون فيها بعض الفائدة.

وبادىء ذي بدء أحب أن أضع بين يدي القارىء إيضاحاً لا بدَّ منه: هو أنني عندما أمليت هذه الخواطر إنما استقيتها مما اختزنته الذاكرة نتيجةً لقراءاتٍ متواصلة رافقتني منذ مفارقتي مقاعد الدراسة، سواء كانت القراءة عبر مختلف الكتب، أو عبر وسائل الإعلام المسموعة أو المقروءة أو المرئية، ومعنى ذلك أنني وأنا أُملي هذه المذكرات لا أملك وسائل موثّقة أشير إليها عندما أملي، ومعنى ذلك أيضاً أنني في كتابتي هذه إنما أستوحي الذاكرة فقط، فأنا أشبه بحاطب ليل ـ كما يقول المثل ـ، ومن هنا فإني ألتمس العذر والصفح ممن تتاح له قراءة هذه الخواطر أن يعذرني عمّا قد

---

(١) ابتدأت بإملاء هذه الذكريات السبت ٢٧ شوال ١٤١٦هـ الموافق ١٦ مارس ١٩٩٦م.

يجده فيها من هفوات كتحديدٍ في وقائع التاريخ، أو إفاضة في موضوع معيَّن قد يكون الأفضل فيه الاختصار، أو استطراد في ذكر أحداثٍ جرَّ إليها السياق قد يكون في ذكرها إطالة غير محببة.





سبب إملاء هذه الخواطر

يلحُّ علي كثيرٌ من الأصدقاء باستمرار، أن أُدوِّن ما قد يسمَّى (ذكريات) عن هذه الحقبة الطويلة التي عبرتها، وكنتُ طيلة هذه المدة أجادلهم بأنَّ كتابة المذكرات إنما تكون مستحبة، بل واجبة من أناس قد أُتيح لهم في حياتهم أن يكونوا ذوي تأثير بارز في مُجْريات الأحداث، وفي تطوّر التاريخ، هؤلاء هم الذين يطلب منهم تدوين المذكرات، لأنها تحتوي على عبر ودروس وعظات، أما أنا فإني لم أجد مُبرِّراً يسوِّغ لي تدوينَ هذه المذكرات، لسببٍ يسير هو أنني مررت عبر هذا الجسر الطويل كمواطن عادي شأني شأن إخواني المواطنين.

كنت أدفع الصحبَ والأحبة بهذه الحجَّة، إلا أنهم استمروا في إلحاحهم، يسوقون الحجة تلوَ الحجَّة لإقناعي بتلبية طلبهم، فإنه على أساس أنَّ التدوين إن لم يكن فيه نفع بارز، وعظة مطلوبة فإنه على الأقل ليس فيه ضرر، وعلى ذلك، فإني رأيتُ أخيراً أنه لا مانع لديَّ من أن أجيبهم إلى ما طلبوا على أساس أن ما سأدوِّنه لن يكون إلا سَرْداً عفوياً بعيداً عن الغلوِّ ومجافاة الواقع.





لقد رأيت أنه لا بد من تقديم بعض وقفات قصيرة، مقدمةً قبل الشروع في التدوين. وتلك الوقفات ملخصة فيما يلي:

أولاً: بطاقتي الشخصيَّة:

اسمي: إبراهيم بن محمد بن حسون المحمد آل حسون، أنتمي إلى آل أبي عليَّان، الذين كان لهم الحكم فترة ليست قصيرة من الزمن في حكم مدينة بُرَيْدة إحدى مدن القصيم، وهم ينتمون بدورهم إلى تلك الدَّوْحة الباسقة التي امتدت فروعها على امتداد رقعة الجزيرة العربية وخارجها، وحفلت كتب التاريخ منذ القدم بأمجادها وسير أبطالها وأعني بها قبيلة بني تميم.

مولدي وأسرتي:

ولدت في مدينة عنيزة فيما بين ١٣٣٠ و ١٣٣٣هـ - لا أذكر التحديد بالضبط - في أسرة متواضعة، تتألف من أبٍ وأمٍ وثلاثة أبناء وابنتان. هذه الأسرة يحتويها بيتٌ من الطين يتألَّف من صالة صغيرة في حدود ٣× ٤ أمتار، وحجرتين متقابلتين، تطلاَّن على الصالة. أثاث هذا البيت هو إحدى الغرف المليئة بالتبن الذي يتكوّن منه الفراش الذي تنام عليه هذه الأسرة؛ وفي إحدى زوايا الصالة على ارتفاع نحو متر ونصف، يوجد في الجدار فُرْجة صغيرة تحتضن علبة من التنك تسع لنحو ¼ لتر من أي سائل، ذات

ماصورة نحاسيّة أعلاها، داخلها قطعة قماش ملفوفة تطلُّ من أعلى الماصورة وتنفذ إلى قعر العلبة التي تملأ كلما فرغت بالكاز، وهذه هي وسيلة الإضاءة ليلاً.

ما تكاد تغرب الشمس من كل يوم حتى يلتئم شمل هذه الأسرة في هذه الصالة ملتفة حول منخفض من الأرض، تعلوه بعض القطع من الحطب مشتعلة، وهو ما يعرف بالوجار ـ أو الموقد ـ يتحلقون في هذا المكان بعد مغرب الشمس كلَّ يوم، بادئين بتناول طعام العشاء الذي عادةً يتكوَّن من الكثير من رؤوس البصل وبعض حبّات الكوسة وقليل من البر.

حائط الشعيبي:

في الهزيع الأخير من الليل يذهب أخي الأكبر (حمد) رحمة الله عليه إلى المزرعة أي: الحائط الذي تقع الدار في جنوبه الغربي، وكلمة الحائط تعني مُتَّسعاً من الأرض، تتراوح مساحته ما بين عشرة آلاف إلى عشرين ألف متر. عادةً يحتويه سور من الطين بارتفاع نحو متر أو نحوه. هذه المساحة يتوسطها بئر يسمى بالقليب.

أما مساحة الحائط الذي ذكرنا أنها تتراوح ما بين عشرة إلى عشرين ألف متر، فالفلاحون يستخدمون طرقاً متنوّعة لزراعتها، فجزءٌ يخصَّص لزرع القمح أو الذرة أو الشعير، وآخر يستعمل لزراعة البرسيم، وقسم ثالث لأغراض شتى كالخُضْروات والبصل وأنواع البقول الأخرى.

أشجار النخيل:

وعادةً ما يكون الحائط يحتوي على مجموعة من أشجار النخيل تتراوح قلةً وكثرةً ما بين حائط وآخر بالنسبة لسعة المساحة، وبالنسبة لمقدرة الفلاح الماديّة، وعادةً ما تتراوح الأعداد ما بين ثلاثين نخلة وأكثر، وهي عادة تختار من النوع الجيِّد من أصناف النخيل، كنخلة الشقرا التي هي أصلح الأنواع للخزن، وكالسُّكريَّة، وأم حمام، وأم الخشب، والقطَّارة، والروثان، والحلوة، والدقلة.

مزارع عنيزة:

يقع حائط الشعيبي الذي وصفناه آنفاً في الجزء الشرقي من مدينة عنيزة يفصله عن سور المدينة الشرقي ثلاث مزارع، وهي:

١ ـ مزرعة الزويهرية الملاصقة لمزرعة الشعيبي من جهة الشرق، تليها مزرعة الجمعي، تليها مزرعة القرعاوية، ثم السور الذي ذكرناه آنفاً (العَقْدَه)[١].

ويقدر طول هذه المزارع من مزرعة الشعيبي إلى السور بنحو ١٥ ألف متر تقريباً.

سور المدينة:

والسور هو عبارة عن بناء ضخم من الطين، يحيط بالمدينة بارتفاع نحو أربعة أمتار، ويتَّصل بهذا السور أربعة أبواب ضخمة، كانت منافذ للدخول إلى مدينة عنيزة في أوقات سابقة، أعني أوقات الفتن والحروب، وكثيراً ما قاست مدينة عُنيزة من هذه الفتن والحروب، وخاصَّةً في القرن الحادي والثاني عشر وأوائل الثالث عشر الهجرية.

أبواب مدينة عنيزة:

كانت هذه الأبواب الأربعة تغلق ليلاً، ويحتضن هذا السور أبراجاً ضخمة من الطين على امتداده تشغل بالحراس ليلاً لمراقبة ما يجري خارج الأسوار.

أما هذه الأبواب فهي:

باب (البابية) من الشرق، وباب (الغَرْفانية) من الشمال، وباب (ساير) من الجنوب، وباب (الخلا) من الغرب. وهذه الأبواب جميعها مصنوعة من الخشب السميك مطعَّمة بألواح من الحديد، تفتح نهاراً وتغلق ليلاً.

---

(١) سور البلد يسمى باللهجة النجدية (عقدة).

بيوت محلة الشعيبي:

أما الجهة الغربيَّة بالنسبة لحائط الشعيبي فهي مجموعة بيوت من الطين، ذات طابق واحد، قد يقارب عددها الثلاثين بَيْتاً، وفي الغالب الأكثر يتألَّف كلُّ بيتٍ من هذه البيوت من بابٍ خارجي يفضي إلى حوش متوسِّط الحجم، ومنه إلى صالة من البيت التي تحتضن من غرفتين فأكثر، وفي الغالب أن يكون في بعض البيوت بئر داخل الحوش يسمَّى (الحِسُو) عليه دلو من الجلد، يُنزح فيه الماء لاستعمال أهل البيت، وقد يكون بجوار هذا الحسو داخل الحوش نخلتين أو ثلاثاً. وتمتد هذه البيوت على النحو التالي:

بدءاً من الشمال باتِّجاه الجنوب بيت الدكماري، فبيت الفاضل، فبيت الطاسان، فبيت النهابي، فبيت الدامغ، فبيت الجبر الذي يتصل جداره بحائط مزرعة الشعيبي، ويقابل بيت الجبر من الجنوب مسجد الشعيبي الذي بناه الوالد رحمة الله عليه من الطين، ثم وسَّعه وزاد فيه ابنه عبدالله بعد ذلك بنحو ٥٠ عاماً، ثم هُدِم مؤخَّراً من أساسه وأقيم البناء من جديد بالأسمنت المسلح في عام ١٤٠٥هـ على يد ابنه إبراهيم.

من غرب المسجد من جهة الشمال تمتد البيوت كالآتي: بيت الجبيع، ثم بيت الفاضل، ثم بيت البغيل، ثم بيت المُعيبد، ثم بيت العوَّاد، ثم يتَّجه الشارع إلى الغرب بَدْءاً من بيت المُعيبد، فبيت الجابر فبيت الخَبّيَّات وهما امرأتان طاعنتان في السنّ لا يوجد لهما مُعيل، ويُؤَمِّنان معيشتيهما بطحن الحبِّ على رحى يدوية، فبيت علي الصويان، ثم يتَّجه شمالاً إلى بيت الجِعِيْل، ثم يتَّصل بالشارع الموصل إلى بيت الدكماري الذي سبق ذكره.

ومن مسجد الشُّعيبي بدءاً من الشمال إلى الجنوب حوش ابن غنايم، ومحاط بجدار من الطين يفتح بابه من الشمال من جهة المسجد، ومن جهة الشرق مفتوحاً على حائط الشعيبي الذي يملكه الوالد.

بيت جدتي ميثاء الحصن:

يلي هذا الحوش من جهة الجنوب البيت الذي وُلدنا فيه جميعاً أنا

وأخوتي، وهو ملك خاص للمرحومة جدَّتي من جهة الأم السيدة مِيثاء الحِصِنْ، وقد أدركتها في صغري وكانت امرأةً طاعنة في السنّ، ويوجد في بيتها كُتَّاب تُدرس فيه الطالبات القرآن الكريم ومبادىء الكتابة، وتسمى (مطوّعة).

ثم يلي هذا البيت من الجنوب أيضاً ملاصقاً له بيت الطريِّف؛ ثم ينحرف الشَّارع إلى الشرق حيث يليه: بيت جاسر الصُّويان فبيت عبداللطيف أبو إقِعَدَهْ، فبيت الأطْرم الدقسي، فبيت إمام مسجد الشعيبي المدعو ديمان، وبيت أخيه إبراهيم الشريم، ثم تنتهي البيوت من هذه الناحية حيث يمتد حائط الشُّعيبي من جهة الجنوب بالاتّجاه نفسه حتى نهاية أرض الشعيبي من جهة الشرق الذي يفصلها عن مزرعة الزويهرية شارع بعرض مترين يمتد من الجنوب إلى الشمال حيث يتَّصل بشارع هلالة الممتد من الشرق إلى الغرب، أي من مزرعة هلالة حتى السِّلسلة، وهو شارع بعرض نحو ٣ أمتار، وفي الوقت نفسه هو مَجْرى السَّيل الذي ينحدر من الصفرا شرق عنيزة نافذاً من تحت سورها، ضمن فتحات معيَّنة تسمى (العَرْصَة)، وهذا الشارع هو المعروف بالتَّلْعَة، أي مجرىٰ السَّيْل، وهو يحُد مزرعة الشعيبي من الشمال.

(عود على بدء):

هناك شارع يبدأ من جهة الغرب مقابلاً لبيت علي الصويَّان مُتَّجهاً إلى الشَّرق، والبيوت الموجودة عليه هي كما يلي:

بيت الصُّويَّان، ثم يليه من جهة الشرق بيت أم عمرو، وهي امرأة تقوم بجلب الماء الحلو في قُرْبَةٍ على ظهرها من بئري (الحُويطَة والقُسَيْم)، وهما بئران متميِّزان بعذوبة الماء، ولذلك يوجد كثير من النساء محترفات نقل الماء من هذين البئرين إلى البيوت، في أماكن متفرِّقة من المدينة، مقابل أجر شهري لا يزيد عن ريال أو ريالين فضة، مع ملاحظة أن بئر الحُوَيْطة والقسيم واقعان في جنوب المدينة، مما يلي باب الخلا. وبئر القسيم أيضاً مشهورة بشجر العنب المتميِّز على غيره من بقية الأشجار.

ثم يلي بيت أم عمرو باتِّجاه الشرق بيت (سمَّاحة)، ثم يتَّجه جنوباً حيث بيت محمد الجابر، المعروف بـ (قِنْع)، ثم يلي بيت الحُميدي، ثم يعود باتِّجاه الشمال حيث بيت خلف، ثم يتجه إلى الشرق حيث بيت فُوزان الدَبيبي، فبيت فهّد الدوسري، فبيت محمد القبيِّلُ، فبيت العريني.

هذه مجموع بيوت محلة الشعيبي، وغرب هذه البيوت حائط المعيبد وهو يَسْني (يمتح الماء من البئر) على ثلاث بعارين، ويوجد فيه نحو ثلاثين نخلة، ثم يلي من جهة الجنوب بيت الحميدي، وهو بيت يفصله عن بيوت الشعيبي شارع يتصل به من جهة الجنوب حوش تبلغ مساحته تقريباً ٥× ٦ أمتار فيه نخلتان وفيه حُسُوْ، وهو بئر ضيِّق يبلغ عمقه من الأرض نحو عشرين متراً بجواره مسجد صغير، وله بابٌ على الشارع يأتي إليه الناس للوضوء وصلاة النفل، ثم يلي مزرعة المعيبد من جهة الجنوب مزرعة العليا، ثم مزرعة الفاضل، ثم محله الجعيفري، وهي الجزء الغربي من محلة الضليعة.

ملامح عامة عن مدينة عنيزة:

(أ) يتَّصل بمدينة عنيزة من الشرق مرتفع يسمى (الطَّبَق أو الصَّفَراء أو وادي العمران)، وهو يرتفع عن أرض عنيزة بمسافة لا تقل عن عشرين متراً أو أكثر بطريقةٍ انسيابيةٍ، يعلو هذا المرتفع بناءان: أحدهما في الجنوب، والآخر من الشمال، وكلٌّ منهما عبارة عن مبنى مستدير من الحجارة المهذبة المرصوفة بعضها فوق بعض، مثبتة بالجص، وهو من حيث صلابته يقرب من صلابة الأسمنت، ويرتفع الواحد منهما بنحو مترين عن وجه الأرض، وفي جميع دائرته فتحات متقاربة بعضها فوق بعض، يبعد كل منهما عن الآخر، وهما متقابلان بنحو ثلاثة كيلومترات، وهذه الفتحات الموجودة في كل منهما كانت ءتستعمل لإطلاق الرصاص على الأعداء، لأنهما يعتبران حِضْنَيْن متقدِّمَيْن، يرابط فيهما مجموعة من أبناء عنيزة للحراسة والإنذار في وقت الخطر، ويسمَّى كل من هذه الأبراج باسم (صَنْقَر) ومؤخراً بُني على الصنقر الشمالي مركز ابن صالح الثقافي الذي أُسِّس في مدينة عُنيزة منذ

سنوات تخليداً لذكر أحد أبناء عنيزة الذي كان أوَّل من وضع مدرسة للتعليم فيها وَفْقَ الأصول العصرية، وهو المرحوم صالح بن صالح.

أما البرج الآخر وهو الجنوبي، فقد كان قائماً في موضعه حتى بنى عليه أو بجواره مؤخراً الصديق محمد السُّليمان الصُّيخان.

عندما تقف على هذا المرتفع المسمَّى بالطبق أو الصفراء أو وادي العمران، عندما تقف باتِّجاه الغرب: تجد أنَّ عنيزة أمامك في منخفضٍ من الأرض في منظرٍ رائعٍ خلاَّب، حيث تشاهد أنَّ المدينة محاطة من جهاتها الثلاث: الشمال والغَرب والجنوب، على هيئة هلال تكسوها رمال ذهبية حمراء، وهي المعروفة بالنفود، ثم يلي هذه الرمال أشجار النخيل تحيط بها من الأربع جهات، وفي الوسط تقع مدينة عنيزة، ولذلك فقد وصفها أحد الرحالة بأنها صينيَّة تحتضن أكواباً من الذهب.

(ب) عرفت عنيزة بأنها كبرى مدن القصيم وهي مركز الثقل التجاري نظراً لوفرة أثريائها، نتيجةً لما اشتهر عنهم من حبِّ الأسفار والتنقل في مراكز التجارة.

فئات سكان عنيزة:

والشعب بمجموعه يتألَّف من ثلاث فئات:

الفئة الأولى: وتشمل الأثرياء، سواء من كان منهم مقيماً في المدينة أو من يملك مراكز تجارية خارج الجزيرة كالبحرين والبصرة وبغداد ودمشق ومصر والهند.

أما الفئة الثانية: فهي الطبقة المتوسطة، وهي التي تمتهن الأسفار على مدار السنة تنقل البضائع من مختلف المدن خارج الجزيرة إلى عنيزة عن طريق الموانىء المعروفة آنذاك، وخاصّة منها الموانىء الواقعة شرق المملكة على ساحل الخليج كالعُقير، وهي ميناء الأحساء، والجُبيل والتي تعرف أيضاً باسم (أبو عينين) أو عن طريق الكويت وهذه الفئة تعرف بكلمة (الزِّقرت) بمعنى الرجل الذي يمتهن الأسفار، أو تقوم هذه الفئة بتصدير إنتاج

الجزيرة، وهو غالباً ما يقتصر على المواشي كالإبل والخيول والأغنام، وبالأخص الخيول والإبل التي تصدر إلى الشام وفلسطين ومصر عبر فلسطين، وكانت مراكز هؤلاء تعرف بمكان يدعى (المطرية) في مصر (والميدان) في دمشق.

أما الفئة الثالثة: فتنحصر بالأُسر المتوسطة الدخل، والتي تنحصر في الغالب الأكثر في الفلاحين، على أنه يوجد غير هؤلاء فئة محدودة هم أصحاب الدكاكين كالبقالة والأقمشة وما يماثلها.

حياة الفلاحين:

وهنا لا بد من إبداء كلمة تُحدِّد كيفية حياة هؤلاء الفلاحين في تلك الحقبة.

لا بد للفلاح أن يكون ذا أسرة لا يقل عددها عن أربعة أو أكثر، ولا يمكن أن يوجد فلاح بأقل من هذا العدد، ولذا تجد الفلاح يسعى جهد استطاعته لتكثير عدد العاملين معه، وهم عادة أبناؤه وزوجاتهم، والهدف من هذا أنَّ الفِلاحة تتطلَّب العديدَ من الأيدي العاملة، التي تقوم يومياً بتأمين أعمال الفلاحة. فهذا يَسْنِي وذاك يروس، أي: يوزع المياه على أحواض الزرع، وآخر يحصد البرسيم، وغيره (يختم) الأرض: أي يحرثها بالمسحاة وغيرهم يعمل بمختلف متطلبات الفلاحة.

الديَّان:

والوضع القائم آنذاك أنَّ الفلاحة تحتاج بادىء ذي بَدْء إلى مموِّل ويعرف: (بالديان). وهذا المموِّل يقوم بشراء الدواب كالإبل والبقر والحمير وحبوب البذر، وما تتطلبه فلاحة الأرض من نفقات. يسجِّل هذه المبالغ جميعها عل الفلاح بنسبة فائدة تتراوح ما بين ١٠٪ إلى ١٣٪ ثم يسترد الديان هذه المبالغ مما تنتجه المزرعة، فمثلاً عندما يثمر النخل ويصبح جاهزاً للصرام تباع ثمرة هذا النخل وتدفع قيمتها للدائن إلا القليل الأقل، وكذلك بالنسبة لحصاد الزرع وأعني به الحبوب من القمح والذرة والشعير

وغيرها فإنها تباع أيضاً، وتدفع للديَّان نفسِه الذي يقوم بخصمها من أصل المبلغ المطلوب له، وتظل العلاقة جارية بين الديَّان والفلاح، فكل ما يحتاجه الفلاح من نقود لتأمين شراء دواب أو بذور أو أشياء تتعلق بالفلاحة يأخذه من الديَّان، بالطريقة السابقة نفسِها، من حيث الدفع والتسديد والفائدة.

أجرة الأرض:

على أن الفلاح عادة عندما يباشر استئجار الأرض، وهي فضاء لا يوجد فيها سوى البئر فقط من مالكها الأصلي، وعادةً تكون قيمة أجرة الأرض هذه سنوياً هي عدد معيَّن من أصواع الحب، ويعرف في اصطلاحهم (بالصُّبْره) بما يماثل (الحِكر) في الحِجاز.

يتم التعاقد بين الفلاح ومالك الأرض على أصواع معيَّنة في السنة، ينصُّ عليها في وثيقة تسمَّى (وثيقة الصبرة)، التي تحدِّد مدة الاستئجار بمدة لا تقل عن مائة سنة فأكثر وغالباً ما تختم هذه الوثيقة من قبل القاضي.

بعد ذلك يقوم الفلاح بغرس هذه الأرض بما يستطيع من أشجار النخل، وعادةً لا يقل عددها عن ثلاثين نخلة فأكثر.

بين الفلاح والدائن:

يظلُّ الفلاح والدائن مرتبطين على هذا النحو على امتداد الزمن في العادة يتضاعف الدَّيْن على الفلاح بحيث يلجأ الدائن إلى رهن المزرعة، حتى لا يتصرَّف بها الفلاح ضماناً لسداد حقِّه، ويحدث كثيراً أن يتضاعف الدَّين على هذا الفلاح المسكين، الذي يظلُّ يكدح في هذه الفلاحة، هو وجميع أفراد أسرته، نتيجةً لما يصيبه من نقص في موت بعض مواشي السواني، لتوالي القحط، بحيث تظل هذه المواشي تضعف شيئاً فشيئاً، لقلة الغذاء وجَوْر العمل بحيث تعجز في النهاية عن مواصلة العمل، فيضطر الفلاح إلى شراء دابة جديدة بدلاً عنها.

وكثيراً ما يحدث أن يطالب الدائن الفلاح بسداد الدين، أو يتنازل له - أي الفلاح - عن المزرعة بما فيها من نخل وأشجار ومزروعات، مقابل تسديد دَيْنه، بحيث يخرج الفلاح وأسرته لا يملكون من حطام الدنيا شيئاً.

البيوتات التجارية البارزة في مدينة عنيزة:

من البيوتات التجارية البارزة في مدينة عنيزة بيت الشملان، وبيت النّعيم، وبيت الشُبالى (الشبيلي)، وبيت القَوَاضه (القاضي)، وبيت اليحيى، وبيت الفضل، وبيت الذكران (الذكير)، وبيت القراوعه (القرعاوي)، وبيت الخروب: (الشبل)، والبسام، وكثير غيرهم، وكثير من هؤلاء توجد لهم بيوت تجارية في الهند وفي البصرة، وكانت في وقت من الأوقات تملك أسرة الذكير ثلاثة أرباع نخيل البصرة تقريباً، وكانت البصرة تحتوي على آلاف أشجار النخيل، وكذلك في الكويت الذي يوجد فيه الكثير من تجار القصيم، كبيت الحميضي، وبيت المطوّع، وبيت القضاع، وبيت العَبْدلي، والزامل، وكثيرون ممن لا تحضرني أسماؤهم.

كانت أموال التجارة تجلب إلى مدينة عنيزة على ظهور الإبل قوافل قوافل لا يقل عدد القافلة عن خمسين بعيراً فأكثر، تنقل هذه البضائع المنوَّعة من مختلف الأصناف كالأقمشة والأرز والسكر والشاي والأدوات المنزلية إلخ، وتستجلب هذه البضائع على مختلف أنواعها إلى الموانىء السعودية على الخليج، أو عن طريق الكويت، أو عن طريق بغداد، أو عن طريق البصرة، أو عن طريق مدينة سوق الشيوخ، أو مدينة السماوة العراقية، ثم تنقل على ظهور الإبل بأسماء أصحابها من التجار، وتسمى كل مجموعة من هذه القوافل (حَذْرَه).

فهذه حَذْرة الغانم، وتلك حَذْرة الشملان، والأخرى حَذْرة القراوعه وهكذا دواليك، فكنت تراها كل صباح قوافل يَتْلو بعضها بعضاً متّجهة إلى داخل المدينة عبر أسواقها، ثم تفرغ حمولتها في مخازن هؤلاء التجار وتعود إلى خارج البلد.

مزايا العنيزيين:

تميّز أهل القصيم، وبالأخص العنيزيين منهم عن غيرهم بدماثة الخلق، ولين العريكة وسماحة المُحيًا، والحرص الشديد على إكرام الضيف سواء كان المضيف ذا معرفة سابقة بهم، أو كان لقاؤه معهم لأول مرة.

فمثلاً يفد إلى عنيزة قادماً من خارجها شخصٌ ما على أحد أبنائها، فيقوم هذا الأخير أي المضيف بإقامة وليمة لهذا الضَّيْف، ويتبع ذلك أن يدعو إليها جيرانه وأقاربه بحيث لا تكاد الوليمة تنتهي حتى يتسابقون إلى هذا الضيف القادم بدعوته إلى الغداء أو العشاء ويندر أن يتخلَّص منهم إلا بعذرٍ قهريٍ كأن يكون راحلاً من عنيزة لتوِّه. هكذا يظلُّ يتنقل بين هؤلاء الذين شاركوه في وليمة المضيف الأول، على أساس جدول يحدِّدونه معه يعيِّن تلبيةَ كل داعٍ منهم في يوم محدَّد.

يضاف إلى ذلك أنَّ هذا الضيف لا يكاد يلتقي بهم لأول مرة حتى يحسُّ في قرارة نفسه بانجذابٍ نحوهم، كأنهم أصدقاؤه منذ مدةٍ لما يلحظه عليهم من بشاشة وود في أثناء الحديث، وبُعدٍ عن التزمُّت والتكلُّف، أو إظهار التحفُّظ الذي عادةً يُتخذ إزاء كل غريب يُلْتَقَى به لأول مرة.

وكان هذا الخلق السمح، والمرونة في التعامل، والتحبُّب إلى الغريب، هو نتاج طبعي لاحتكاكهم بشعوب أخرى داخل الجزيرة وخارجها واطلاعهم على أسلوب الحياة في المدن الراقية، كبغداد والبصرة ودمشق، والقاهرة، وبومباي، نتيجة لتعدُّد رحلاتهم إلى هذه الأقطار.

ولعل من أبرز ما يؤكد ذلك أنه يوجد بينهم آنذاك الكثير الكثير ممن يتعاطَوْن التدخين، الذي يعتبر في خارج عُنَيزة من الجرائم الكبرى، التي لا تقل سوءاً عن شُرب الخمر.

ولعل شاعر الفريكة وفيلسوفها أمين الريحاني لم يجاوز الواقع حينما قُدِّر له أن يزورها في منتصف العقد الرابع من النصف الأول من القرن الماضي الهجري، حينما أفاض في إطرائه لأخلاق أهلها، حتى إنه لم يتورَّع أن يصف هذه المدينة بـ (باريس نجد) كما ذكرها في أحد كتبه، إشارةً منه

إلى تفتُّح عقليات أبنائها، وتعشُّقهم للحضارة، وبُعْدِهم عن التزمُّت والانغلاق.

أسلوب المعيشة:

كان لظروف الحياة القاسية بسبب ضآلة الموارد، وضحالة الإمكانات الأثر البارز في تكييف البلد على أن يتَّبع أهلها أسلوباً معيناً في المعيشة اليومية، يتساوى فيه الفقير والغني من حيث النوعية لا من حيث الكمية. فـ ٩٠٪ من الأسر تؤمِّن معيشتها على النحو الآتي:

في الصباح قليل من التمر، ويسمى (القُدُوع)، وغالباً يكون مع القهوة.

وفي الضحى وجبة الغداء وهي تتكون كذلك من التمر وقد يوجد شيء من اللبن مع التمر.

وفي المساء وجبة العشاء، وهي عادةً تتكون ممَّا يسمَّى بالمرقوق أو المطازيز، أو القرصان، أو الجربش وواضح أنَّ هذه الأنواع كلها هي معجَّنات من القمح، وقد يكون بعضها من الذرة البيضاء ويسمى عصيداً.

تأمين التمر والقمح:

ونتيجةً لذلك فرَبُّ العائلة يهتم بتأمين شيئين لا ثالث لهما هما: التمر والقمح، فيدَّخر بعد حصاد الزرع كميةً كافية من القمح، يضعها في داخل إحدى الغرف في أوعية معيَّنة كافية لمؤونته على أقْصى قدر مستطاع، كما يهتم بتخزين كمية من التمور وقت جداد النخل أي (نضج ثمره)، تكون كافيةً لتموين أسرته مدة الشتاء، وعادةً ما تخزن هذه التمور فيما يسمى (بالجِصَّة)، وهي عبارة عن ألواح من الحجر التي تبلغ سماكته ٤سم فأكثر وارتفاعه نحو متر ونصف، وعرضه نحو متر أو أكثر قليلاً، تثبت هذه الأحجار الأربعة بمادة الجص، وهي مادة صلبة بيضاء تشبه الإسمنت من حيث الصلابة، وفي أعلى هذا المربع في أحد جوانبه فتحة بعرض نصف

متر تقريباً وارتفاع نحو ٢٠سم أو أكثر قليلاً، يثبت عليها من الداخل قطع من القماش بحيث تلفّ هذه الأقمشة من الخارج، وتغلق كأنها باب.

ويوجد في أسفل هذا المربَّع في ركن منه ماصورة صغيرة، تمتد إلى الخارج بنحو ١٠سم، وعند طرفها من الخارج يكون هناك حفرة من الأرض يوضع فيها تنكة محكمة، بحيث ينساب الدِبس الخارج من جوف الجصة إلى داخل التنكة(١).

كيفية التخزين:

أما كيفية التخزين فتتم على الشكل الآتي: ينظف داخل الجصّه تنظيفاً جيداً، ثم يدخل بها رجل أو رجلان، يتلقَّيان ما يرفع إليهما من كميات التمور، من شخص يكون خارج الجصه، فيقومان بوضع هذه الكمية من التمور في قاع الجصة، ثم يضغطان عليها بأقدامهما اللتين حرصا على نظافتهما قبل دخول الجصة، ويظلان على هذا النحو حتى تمتلأ الجصه بالتمور، وتكون استوعبت كميات كبيرة، نتيجة للضغط المستمر عليها، ثم يخرجان من الجصه ويغلقان بابها بلف القماش الموجود على الباب، وإحكام ربطه، وتتفاوت الجصه ما بين الضخامة والصغر، بحسب إمكانية ربِّ الأسرة. ومن الواضح أنَّ أصغر جصه لا يقل ما يخزن فيها عن حوالي أربعمائة إلى خمسمائة كيلو من التمور.

والتمور الصالحة للتخزين هي نوع معروف تسمى (بالشقرا)، أما ما ينساب من الجصه من الدبس نتيجة للضغط فغالباً ما يبلغ تنكتين أو أكثر، وهو يُتَّخذ غموساً كالعسل.

اللحوم:

أما بالنسبة للحوم، فالغالبية العظمى من المواطنين قد يمر على الأسرة

---

(١) الدبس هو عسل التمر؛ لأن التمر في الحصبة ترصُّ عليه فروش من الأحجار فينعصر هذا الدبس من التمر، ويخرج مع الأنبوب.

أكثر من شهر دون أن تنال أي قسط منه، نظراً لغلاء ثمنه، وعدم وجود المال لدى ربِّ الأسرة. ولكن يعوض ذلك أنه قلَّ أن تجد بيتاً لا توجد فيه بقرة حلوب أو رأسان من الضأن أو الماعز، تمد الأسرة بالحليب واللبن والدهن الذي يقدَّم مع وجبة الغداء، وبالزبد الذي يوضع مع وجبة العشاء.

القهوة والشاي:

وبطبيعة الحال هناك عنصران من الشراب هما: القهوة والشاي، فالقهوة عادة تُهَيَّأ في الصباح وبعد صلاة الظهر، وبعد صلاة العشاء، وفي الغالب يتجمع الجيران على هيئة شلل، أو مجموعات، فقهوة الصباح عند زيد، وقهوة بعد الظهر عند عمرو، وبعد العشاء عند آخر، وقد يكون مع القهوة شاي.

وعادةً تكون القهوة في مكان مستقل عبارة عن صالون من طين، في أحد جوانبه (وجار) وبجواره رفوف، تُصَفُّ عليها دلال القهوة الصفراء، وهذه للزينة مع أباريق الشاي. وتنتشر في هذه الصالة مخدَّات أو مراكي (متكآت) إذا كان صاحب الدار من أهل اليسار.

أما أفراد العائلة الآخرين فعادة يتعاطون شرب الشاي مرتين في اليوم إحداهما في الصباح، وقد يمزج بالحليب، والأخرى بعد الظهر ويسمى السكر (دوبارة) كما يسمى الشاهي (ورقاً).

موسما تناول اللحوم:

على أنه بالنسبة لندرة حصول الأسرة على اللحم خاصةً الأسر ضعيفة الحال، فإن هناك موسمين أو أكثر في السنة تظفر هذه الأسر بنصيب لا بأس به من تناول اللحوم وأعني بهما شهر رمضان من كل عام، حيث دَرَجَ الأهالي منذ القدم على أن يضمِّنوا وصاياهم قبل الموت بأن يقام لهم في كل خميس من رمضان وجبة من الطعام مع كمية كافية من اللحم، توزَّع على الفقراء، وهي عادةٌ مُتَّبعة قلَّ أن تجد عائلة لا يوجد لديها مثل هذه الوصية، فلا توجد أسرة لا تنال نصيباً من اللحم في رمضان.

أما المناسبة الثانية فهي في عيد الأضحى، حيث لا توجد أسرة لا تقوم بشراء ضحايا وذبحها، وتوزيع لحومها في ذلك اليوم، إنفاذاً لوصايا من سبقوهم من موتاهم. على أنَّ الكثير من الأسر تتوفر لديهم كمية كبيرة من اللحوم في عيد الأضحى، نتيجة لما يصلها من الجيران والأقارب، وتسمى (طُعْمَة) بحيث تُمَكنها هذه الكمية من تشريحها، ونشرها بالشمس لتجفيفها، ثم تخزن، وتسمى (قُفُرْ) تضع منه ربة البيت كميَّة محددة كل يوم مع وجبة العشاء.

اللباس الشائع:

أما اللباس الشائع آنذاك، سواء للذكور أو الإناث، فهو بالنسبة للذكور يتكون من ثوب أو ثوبين من قماش يدعى (خام جاباني)، ويعرف حالياً باسم (الدوت) مع شماغ على الرأس وعباءة من الصوف للكبار، أما الأطفال والشباب فيلبسون من القماش نفسه، إلا أن من ينتسبون منهم إلى ذوي اليسار يستبدلون بهذا القماش قماشاً آخر أبيض يسمى (زهور) أو (قرطاسي)، وهو ما يعرف حالياً بقماش (البفتة).

وواضح أنَّ هذه الملابس بالنسبة للطبقة الفقيرة - وهي الأكثر - أو الطبقة المتوسطة تظل لباسهم طيلة العام.

تنظيف الملابس:

وتنظف حينما تتَّسخ الملابس بما يعرف (بالشنان)، وهو عبارة عن أوراق صغيرة تنتجها حشائش تتواجد بكثرة من مختلف المزارع، وهي تقوم بمهمة الصابون حالياً.

وكيفية تنظيف هذه الملابس أن توضع في طست مليء بالماء لمدة معينة ثم تخرج ويوضع عليها الشنان، وتوضع على صخرة مستوية السطح، ثم تُضرب بـ (الكابون): وهو عبارة عن قطعة من الخشب بطول ١٥سم تقريباً يبلغ سمكها نحو خمسة سم ومجوفة من الوسط يثبت بهذا التجويف ذراع من الخشب بطول عشرة سم تقريباً، تمسك المرأة بذراع هذا (الكابون)

وتخبط بهذه الملابس التي رُش عليها الشنان، ثم تعصرها، ثم تعيد الكرة مرة أخرى حتى تنظف.

لباس النساء:

أما النساء، فاللباس الشائع آنذاك بالنسبة للأسرة المتوسِّطة فما دونها فهي عبارة عن (مقطع)، وهو قماش تتنوع ألوانه ويسمى (جاوه)، ينتهي هذا المقطع بأكمام تصل إلى كفوف يدي المرأة، ويصل من الأسفل حتى كعبي رجْليها، ويعلو هذا المقطع ثوبٌ واسع الأكمام يغطي كعبي المرأة، وقد يكون للمرأة أكثر من ثوب، وقد يتميَّز القماش أيضاً جودة أو رداءة نسبة إلى حالة الأسرة المادية. أما غطاء الرأس ويسمى (غُدْفَه) وهو عبارة عن قطعة من القماش، سوداء اللون، خفيف السمك، يغطي رأس المرأة وصدرها.

أما ما تلبسه المرأة عند خروجها من البيت فهو عبارة عن عباءةٍ سوداء من الصوف الأسود مفتوحة من الأمام وذات كمين على امتداد يد المرأة. وتكون ساترة للقدمين بحيث لا يرى أي شيء من جسم المرأة.

زينة النساء:

أما الزينة بالنسبة للنساء فأدواتها كما يلي:

١ ـ **الخلخال**: وهو طوق يوضع في الأرجل، ثقيل الوزن، وهو من الفضة. وقد اندرس استعمال هذا النوع.

٢ ـ **الهامة**: وهي عبارة عن قطع ذهبية موصول بعضها ببعض تنتظم أحجاراً كريمة، وتغطي هذه الهامة أعلى الرأس.

٣ ـ **الرشرش**: وهو طوق من الذهب، أو من أحجار كريمة، يوضع في العنق ويتدلى على الصدر.

٤ ـ **بناجر**: وهي أسوار من الذهب، توضع في معصمي المرأة، أو بما يسمى الآن غوايش.

٥ ـ **خواتم**: وهي ما تضعه المرأة في أصابع يديها، وعادة ما تكون من الذهب أو الفضة ذات فصوص معينة.

٦ ـ **الخماخم**: وهو ما يُعرف بالأقراط.

الروابط الاجتماعية:

ترتبط الأسر بأواصر من الود والألفة، والشعور بالاحترام المتبادل، فترى نساء الأسر يجتمعن في أوقات معيَّنة في أماكن متعددة. فيوماً في بيت زيد، وآخر في بيت عمرو، على هيئة شلل أو حلقات، يتجاذبن أطراف الحديث، وعادة ما يكون ذلك بعد صلاة المغرب حتى صلاة العشاء، أي بعد فراغهن من شؤون الأسرة إذ أن طعام العشاء قبل صلاة المغرب عادة. يتزاورن بود وألفة، ويساعدُ بعضهنَّ بعضاً، فتراهن يجتمعن في مزرعة زيد إذا كان هناك عملية حصاد، أو جني محصول، كما يساعد بعضهن بعضاً في المناسبات والأفراح، على أنَّ هذه الروح، وأعني بها روح المحبة والإيثار ليست ميزةً للنساء فقط، وإنما هي صفة لعموم أفراد المجتمع، يتجلّى ذلك في حِرصهم على تفقُّد الجيران والمعارف، والسؤال عنهم، والبحث عن أحوالهم، وتقديم المساعدات الممكنة إذا كانت هناك حاجة إلى ذلك، كما يتجلى في الثقة المفرطة بين الأفراد، فتجد الواحد يقترض من الآخر فيما قد يحتاج إليه، فيأخذ منه ما يريد، ثم يعيده إن يكن مستطيعاً لإعادته دون أن يرتبط المعطي بوثيقة أو سند.

فضُّ الخصومات والمنازعات:

ولعل أبرز ما يتجلّى ذلك في المنازعات والخصومات التي قد تنشأ بين شخص وآخر، فترى الخصمين دون أي تكلف أو شحناء يتوافقان على عرض موضوع خصومتهما على الشيخ، وهو قاضي البلد، وكان يُدعى صالح العثمان، آل قاضي، وهو رجلٌ حباه الله غزارةً في العلم، ورحابةً في الصدر، وبشاشة في الوجه مع تواضع جم، وهو إمام الجامع الكبير بعنيزة الذي يقع في وسط البلد.

قد يكون الخصمان في أماكن نائية عن المسجد، ومع ذلك يتجشَّمان مشقة الحضور لكي يؤدِّيا إحدى الصلاتين الظهر أو العصر في المسجد، وينتظرا خروج الشيخ في طريقه إلى بيته فيكون أحدهما على يمينه والآخر على يساره، ثم يشرحان له موضوع نزاعهما، وما لدى كلٍّ منهما من أدلة أو بيانات تثبت أحقيته.

يسير الشيخ ببطء وتُؤدة، وهو مُنْصِتٌ لكلِّ حرفٍ ينطقان به، ثم عند فراغهما ينطق بالحكم الذي تكوّن لديه مما سمعه، ويشعر صاحب الحق بأحقيته، فيذهب الرجلان بعد توديعهما للشيخ الذي يكون حينئذٍ قد وصل باب داره يودِّعانه، وينصرفان راضيين بالحكم، يتمُّ ذلك كله بدون أن يكون هناك تسجيل أو كتابات أو صكوك أو خصومات أو مشاحنات كما هو الحال الآن.

ومعنى هذا أنه لم تكن هناك محاكم ذات موظفين وأجهزة وسجلات وصكوك وجلسات وتعقيدات، كما هو الحاصل الآن، وجميع أحكام القاضي شفهيَّة، ويتقبلها الخصوم بكل قناعة، ورحابة صدر، ولم يحدث قط أن اعترض أيُّ خصم على مثل هذا الحكم، مهما كانت خطورة القضية. ومبعث ذلك كله طهارة القلوب ونقاء الضمائر.

الحالة الثقافية:

أما بالنسبة للحالة الثقافية فلم تكن هناك مدارس إطلاقاً، وإنما كان هناك حلقات من الشباب تجتمع في موضع معيَّن من المسجد الجامع في أوقات معيَّنة كل يوم، يتلقون العلم على يدي القاضي، وهؤلاء يتلقون بالإضافة إلى القراءة والكتابة دروساً في اللغة والحديث والتفسير وعلوم القرآن، وما إلى ذلك، وهؤلاء يسمون طلبة العلم.

الكتاتيب:

أما سوى ذلك فهي عبارة عن كتاتيب متفرقة في أنحاء البلد.

والكتَّاب مدرسة يقوم عليها شخص ما يكون ملمَّاً بالقراءة والكتابة، وحافظاً لكتاب الله، يجتمع لديه صبيان تتراوح أعمارهم ما بين ست سنوات

وأكثر. قد يفترشون الشارع، أي: يجلسون على الأرض، ويكون صاحب الكتاب، ويدعى المطوِّع، يقتعد كومة من التراب عليها بعض قطع الحصير، وهذه بمثابة الكرسي الذي يجلس عليه، وأمامه عسيب من النخل مشذَّب الخوص يبلغ طوله حوالي مترين أو أكثر، وهو متربِّع على مقْعده، ويستطيع أن يخبط بطرفه أي طفل يجده يلهو أو يلعب، أو لا يصغي لما يقوله.

أما الأطفال فمع كل واحد منهم لوح من الخشب أملس، يبلغ عشرين سم في عشرة تقريباً، وهذا اللوح يُطْلى بمادة غَرِينية بيضاء تَسْهُل الكتابة عليها، يسجل عليها المطوِّع الأحرف الهجائية، أو الآية القرآنية، بقلم من البوص، والمداد يؤخذ من نوع من الشجر معروف، أو من الهباب الذي يحدثه سراج البيت المثبت في تجويف في داخل الدار، وهو المكان الذي يوضع فيه السراج ويعرف (بالروزنة).

بداية دراستي:

كنت بدأت أول ما بدأت في الدراسة عند مطوع يدعى فهيد الحمد، وكان كُتَّابُه يقع بجوار بيت عُبيدان التميمي المؤدِّي إلى مزرعة الشِّفيع. مكثت في هذا الكتاب نحو عام ونيف، وكان موقعه يبعد عن مزرعة الشعيبي بنحو كيلومترين، وكانت الدراسة فيه فترتين: فترة صباحية تبدأ بعد طلوع الشمس بنحو نصف ساعة، وتستمر نحو ساعة أو نحوها، ثم يعود التلميذ إلى أهله، وفترة بعد الظهر تبدأ من بعد الصلاة حتى قرب صلاة العصر. وواضح أنَّ هذا المطوِّع إنما عمله تطوُّعٌ من تلقاء نفسه، وكل ما يتقاضاه عن الطالب هو ما يتبرَّع به أهله عندما يتم حفظه لجزء من القرآن، وحينذاك يقدِّم أهل الطالب بعض النقود الزهيدة في حدود ريال فضة مكافأة له.

مطوِّع الخوص:

أما المطوِّع الثاني الذي درست عليه، وكنت قد حفظت بعض السور لدى المطوِّع السابق، وكان عمري آنذاك في حدود ست سنوات أو نحوها فهو يُدعى بـ (مطوِّع الخُوص) ويقع كتَّابه في داخل حوش صغير، قد لا

تزيد مساحته عن أربعة أمتار في ثلاثة أمتار، وهذا المكان يبعد عن مزرعة الشعيبي بنحو ثلاثة كيلومترات ونصف تقريباً، ومكانه في مدخل الشارع المتَّجه من الشمال إلى الجنوب الذي تعلوه قبة أبو عليوي، يتَّجه من الشمال إلى الجنوب ماراً بقبة العُمَرى، ثم يتجه شرقاً واضعاً بيت النعيم عن يمينه ومجتازاً قبب الشملان، حتى يتَّصل بالسلسلة فالملاح فالشعيبي. ومقابل قبة أبو عليوي هذه من الشمال الشارع المتَّجه إلى مزرعة الدغيثرية وبِركتها المشهورة.

والقبة هنا تعني أن هناك بيتين يفصلهم الشارع، ويتَّصلان بسقف يفضي أحدهما على الآخر.

أما تسمية هذا المطوع بمطوع الخُوص فلم أدرك سرَّه حتى الآن؟ ولا أعرف علاقته بالخوص؟ وإنَّما الذي أعرفه أن له ميزةً خاصةً، فقد يحدث عندما نكون نحن التلاميذ ملتفين حوله أن يرفع رأسه فجأة، فينظر إلينا بعيونٍ شاخصة منتفخ الأوداج، ثم يبدأ جسمه في الاهتزاز، فما نكاد نلحظ منه ذلك حتى نفر منه هاربين للشارع فيجري خلفنا بالعسيب، فما يكاد يجري بضع خطوات حتى يسقط في وسط الشارع لا حراك فيه ويظل نحو خمسة دقائق أو أكثر على هذا الوضع ونحن نراقبه عن بعد.

فما يكاد يصحو ويستوي واقفاً، ويتَّجه إلى كتابه، فنلحق به، ويعود الوضع كأن لم يكن شيء حدث.

وواضح من هذا أنَّ ما كان يعتريه هو ما يعرف الآن بنوبات الصرع.

مزرعة السُّويطي:

مكثت عنده نحو عام كامل، حفظت خلاله الكثير من سور جزء عم، ثم فُتح بعد ذلك كُتَّاب آخر في مزرعة تسمى السُّويطي، وهذه المزرعة قد اُتخِذت أرضُها مبانٍ سكنية، وأُسِّس فيها مسجد السويطي، ولم يبق فيها غير البئر آنذاك، وهذه المزرعة كما علمت تعود ملكيتها في الأصل إلى آل (أبا الخيل)، وهم أسرة الزميل عبدالرحمن بن عبدالله أبا الخيل وزير العمل السابق.

كتَّاب عبدالعزيز الدامغ (هابولا):

أما الكُتَّاب الذي أنشىء على هذه المزرعة فكان يديره عبدالعزيز الدامغ، وهو المعروف بـ (هابولا)، ولم أدرك سرَّ هذه التسمية حتى الآن.

وطريقة هذا الكتاب تتميَّز عن سابقيه بالحزم، ودقة ملاحظة التلاميذ.

من زملاء الدراسة:

وكان من ضمن الزملاء الذين درسوا معي في هذا الكتاب ونمت بيني وبينهم علاقة ود وصداقة منذ ذلك التاريخ حتى الآن هو الصديق العزيز معالي محمد المرشد الزغيبي، وزير المواصلات السابق أمدَّ الله في حياته.

وكان هذا الكتَّاب لا يبعد عن مزرعة الشعيبي بأكثر من كيلومتر تقريباً، وقد حفظت في هذا الكتَّاب حتى جزء تبارك.

انقطاعي عن الدراسة بسبب وفاة الوالدة:

بعد ذلك انقطعت عن الدراسة في هذا الكتَّاب لوفاة الوالدة تغمَّدها الله برحمته وانتقالها إلى جوار الرفيق الأعلى، لما أصابها من تخلُّف الجنين في بطنها لمدة تزيد عن مُدَّةَ الحمل المعتادة بنحو أربعة أشهر حتى أصبحت لا تستطيع القيام إلا بعد أن تعتمد على يديها مع مساعدةٍ من الآخرين، ثم قدِّر لها أن تضع الجنين، فأصيبت بالنزيف، ولم يكن عندها أحد إذ فضلت المرأة التي كانت بجوارها حين بدأ الطلق قد تركتها ذاهبة إلى منزلها، ممَّا نجم عنه أن أُصيبت بنزيف حادٍ أَوْدَى بحياتها، ثم لحق بها الجنين بعد سُوَيْعات. كان هذا في حوالي عام ١٣٤٠هـ.

وفاة أخي حَمَد:

وكانت قبل وفاتها ـ تغمَّدها الله برحمته ـ بنحو ثلاثة شهور، قد احتسبت عند الله ابنها البكر، وهو المرحوم أخي الشقيق حَمَد الذي توفي في نحو العشرين من عمره، وكان قبل ذلك قد سافر للكويت حيث يوجد

عمي عبدالعزيز الحسون شقيق والدي، ووالد إبراهيم العبدالعزيز الذي ولد في الكويت ومن أبنائه: عبدالعزيز، وعبداللطيف، وبدر، وغيرهم.

عمي عبدالعزيز الحسون:

مكث أخي حمد عند عمِّه عبدالعزيز مُدَّة شهر أو شهرين، وكان عمي حسب ما فهمت يعمل في السفارة البريطانية في الكويت آنذاك، ولست أعلم ما هي الوظيفة التي كان يشغلها، وكان عمي ـ رحمة الله عليه ـ حفيّاً باراً بإخوانه المقيمين في عُنَيزة، وبالأخص شقيقيه محمد (والدي)، وحَمَد أخيه إذ كان يواسيهما باستمرار بما يرسله لهما من نقود أو طعام أو ملابس أو دخان.

ولذا فإنه عندما عزم المرحوم أخي حَمَدَ على العودة اشترى له عمي عبدالعزيز ناقةً سمينة، ووضع عليها كيسين من الأرز وعباءتين وكيسين من الدخان الأصفر، وبداخل كل كيس من أكياس الدخان رزمة من السجائر المفرَّغة، والتي تسمى (زبانة) تُملأ بهذا الدخان الأصفر، ومن ثم تغلق أطرافها، وتشعل للاستخدام، ثم أمره بأن يقسم ما على الناقة عند الوصول إلى عنيزة بين والده محمد وعمِّي حمد كما أمره ـ أعني عمي عبدالعزيز ـ بأن يبيع الناقة في سوق عُنَيزة، ويقسم قيمتها مناصفة بين والدي وعمي.

وكان فرحنا عظيماً جداً بوصول أخي المرحوم حمد وخاصة بالهدايا التي معه، والدخان الذي يهم الوالد.

حمى الملاريا:

بعد أن أمضى أخي حمد في عنيزة بعد وصوله بضعة أشهر سافر إلى المدينة المنورة ضمن قافلةٍ تجاريةٍ لا أعرف مَنْ صاحبَها، ثم عاد بعد نحو شهرين إلى عُنيزة، وكان ذلك في أواخر شهر رمضان من عام **١٣٣٩هـ** تقريباً فما كاد يصل حتى لازم الفراش مريضاً بحمَّى ظلت تعاوده يومياً ترتفع معه درجة الحرارة إلى حدٍ مزعج، وأظنها حمى الملاريا، لأنَّ المدينة كانت معروفة آنذاك بهذا المرض.

ظلت حالته تضعف شيئاً فشيئاً، وبقدر ما يضعف جسمه يفتك به المرض، فكان كالشمعة يتلاشى نورها تدريجاً، وكان العلاج آنذاك هو الكي بالنار الذي شمل الكثير من مواضع جسمه، وهو علاج غير مُجْدٍ لمثل هذا المرض، بل يزيده ويضاعفه.

ظلَّ حال المرحوم يتدرَّج من ضعف إلى ضعف، حتى أصبح هيكلاً عظمياً لا يمسك بجسمه إلا جلده المثقل بمواضع الكي، وكان يئنُّ ويتألم من شدة المرض بشكل يقطع نياط القلب من الألم، وهو مُمَدَّدٌ إلى جانب البِرْكة وأمي وأبي ونحن جميعاً لا نملك لأمره أي عون أو مساعدة إلا البكاء والابتهال إلى الله، حتى فاضت روحُه تحت نخلةِ الشقرا على جانب البركة، قُبَيْل غروب الشمس من اليوم الثاني لعيد الأضحى المبارك.

وأعتقد الآن أن انقطاعي عن كتَّاب عبدالعزيز الدامغ هو نتيجة لما أصبنا به من فجيعة وحزن على أخي الشقيق حَمَد رحمة الله عليه، ثم والدتي تغمَّدها الله برحمته، ولم يفصل بين الفجيعتين أكثر من بضعة شهور، ممَّا نشأ عنه أن ظلَّ الوالد ـ رحمه الله ـ يحرص على توفير كل ما من شأنه أن ينسيني فجيعة المصاب، فكان يحوطني وشقيقتي الصغرى (حُصَّة) بالكثير من العطف والرعاية.

عطف والدي عليَّ ورعايته لي:

ومن ذلك أنه اشترى لي خروفاً صغيراً عمره نحو شهر ودجاجة وديك وزوج أرانب، فَسُررت جداً بذلك، وكنت أذهب بالخروف وأضعه يرعى في البرسيم حيث شاء، وكذلك الأرانب كنت أرعاها تسرح وتمرح بين أحواض البرسيم في مزرعتنا الشعيبي، أما الدجاج فقد تكاثرت إذ بلغت نحو خمسة عشر فرخاً، والأرانب تناسلت حتى بلغ عددها نحو العشرين.

كتَّاب القرْزعي (حبجبا):

ونظراً لإحساسي منذ طفولتي بأني أجد ميلاً عارماً إلى التضلع من القراءة والمعرفة فقد أتاحت لي الفرصة السانحة هذه أن أعفاني والدي

رحمه الله - من القيام بأي عمل من أعمال المزرعة كالسني وغيرها. أذهب حيث أشاء دون أن يسألني أين كنت؟ ولأني كنت أعلم أن هناك كُتَّاباً متميزاً يدعى بكتاب القرزعي وهو المعروف باسم (حَبْحَبا). كان هذا الكتَّاب يقع غرب قبة العواهلة بنحو خمسة أمتار عن يسار المتجه بالشارع نفسه من الشرق إلى الغرب. كان حوشاً يُطِلُّ بابه على الشارع الذي تقع عليه القبة والمجاور لبيت عبدالعزيز اليحيى الذكير الذي يتجه شمالاً إلى سوق مزرعة الشُّفِيع.

كان هذا الرجل، وأعني به القرزعي أو حبحبا، كما يسميه الناس، رجلاً متميزاً عن غيره إذ قدر له أن يحظى بحظ لا بأس به من التعليم، فقد ولد وعاش فترة من حياته في مدينة (الزُّبير) المعروفة بالعراق، ودرس في مدارسها التي كانت معروفة آنذاك، وهي مدارس نظاميَّة تتم الدراسةُ فيها وَفْقاً للمناهج الرسمية المعروفة.

جاء إلى عنيزة وهو في منتصف العقد الثالث من عمره، وأنشأ هذا الكتَّاب الذي اختصَّ به نتيجةً لتميُّزه بالمواد التي كان يدرسها، وبالطريقة التي كان يتم فيها هذا التدريس. ونتيجة لذلك كان هذا الكُتَّاب قاصراً على طبقة معيَّنة من الطلبة هي طبقة الأثرياء الذين كانوا يدفعون له ريالاً عن كل طالب شهرياً، وكانت طريقته أن يقسم أوقاته اليومية على فترتين: صباحية مدة كل منهما نحو ساعة وفترة بعد الظهر مدتها ساعة ونصف تقريباً.

كان يؤمِّن لهم ألواحاً متميِّزة سوداء من الخشب للكتابة عليها بالطباشير الأبيض. ويُكلف كل طالب أن يحضر معه شنطة صغيرة من الحديد، تبقى في الكُتَّاب يحفظ بها الطالب أوراقه وأقلامه، وعليها قفل صغير يحتفظ الطالب بمفتاحه معلَّقاً برقبته بخيط رفيع، وهو سمةٌ يتميَّز بها هذا الطالب.

كان عدد طلابه يتراوح ما بين عشرين إلى خمسة وعشرين طالباً. وكان يقسم المواد التي يقرر تدريسها لهؤلاء الطلبة والتي تتكون من تعليم الكتابة أو حفظ أو كتابة الأناشيد أو المبادىء الأولية من علوم الدين.

الأناشيد الحماسيّة:

وكان يعتني عنايةً خاصة بالأناشيد الحماسيَّة، التي كان يلقيها على الطلاب بلهجةٍ حماسيةٍ مثيرةٍ، ويطلب منهم أن يقلِّدوه فيما يفعل، وعادة تكون جميع الأناشيد التي يختارها أناشيد حماسية طافحة بالإباء والشهامة والرجولة والاعتداد بالكرامة.

كانت هذه الأناشيد تمتلك عليَّ مشاعري عندما أسمعها، ونظراً لأني لا أملك ما يمكِّني من الانضمام لهذا الكتاب، فقد كنت أذهب كل صباح إلى مكان هذا الكتاب الذي يبعد عن مزرعتنا بنحو كيلومتر في اتجاه الغرب، حيث أحرص كل الحرص على أن أكون متواجداً قرب الكُتَّاب بحيث لا يفوتني الدرس الذي يُلقى في الحصَّة الأولى.

كنت أقف في الشارع تحت قبة العواهلة في مكان يبعد نحو خمسة أمتار عن باب الكُتَّاب، أظل واقفاً ملتصقاً بالجدار ومرهفاً سمعي لما يدور داخل الكُتَّاب، كان من ضمن ما حفظته بضعة أبيات من قصيدة عنترة التي يقول في مطلعها:

حكِّم سيوفك في رقاب العُذَّلِ ... وإذا نَزَلتَ بدار ذل فارحلِ

وإذا الجبان نهاك يوم كريهة ... خوفاً عليك من ازدحام الجحفل

فاعصي مقالته ولا تحفل بها ... واقدم إذا حقَّ اللقا في الأول

واختر لنفسك منزلاً تعلو به ... أو مُتْ كريماً تحت ظل القسطل

لا تَسْقني ماء الحياةِ بذلةٍ ... بل فاسقني بالعزِّ كأس الحَنْظل

ماءُ الحياة بذلةٍ كجهنم ... وجهنّمٌ بالعزِّ أطْيَبُ منزل

ومن ذلك أيضاً بعض أبيات من قصيدة ابن سناء المُلك التي يقول في مطلعها:

سواي يهاب الموت أو يرهب الرَّدى ... وغيري يهوى أن يعيش مخلَّدا

ولكنني لا أرهب الدهر إن سطا ... ولا أحذر الموتَ الزؤام إذا عدا

توقُّد عزمي يترك الماءَ جمرةً ... وحلية حلمي تترك السيف مُبْردا

وأظمأ إن أبدى لي الماء مِنةً ولو كان لي نهر المجرة موردا

إلى مثل هذه الأناشيد الحماسيَّة التي كان يلقيها على طلابه، كانت تهزُّني من الأعماق، وكنت أكاد أحترق عند سماعها، متمنياً أن تتاح لي فرصة العلم والمعرفة، وهي بلا شك كانت الشرارة الأولى التي أشعلت في نفسي الإصرار على البحث عن كل ما من شأنه أن يحقِّق لي هذه الأمنية، أعني أمنية التعلم.

ويشاء الله ـ من حيث لا أعلم ـ أن يكون حضوري واستماعي لما ينشد في هذا الكُتَّاب النبراس المضيء، الذي قادني إلى أن يتاح لي تحقيق بعض ما كنت أصبو إليه، وسيأتي بيان ذلك.

عودة إلى الكلام عن عنيزة:

كانت عنيزة وقتذاك هي مركز الثقل في قلب الجزيرة، وخاصة في نجد، وبالأخص في القصيم.

وكلمة القصيم عندما تُطلق إنما يراد بها مدنها الرئيسية الثلاث، والتي كبراها آنذاك مدينة عنيزة، فمدينة بريدة، فمدينة الرس. يضاف إلى ذلك القرى المتفرقة والواقعة في الجهات الأربع بالنسبة لعنيزة، وأعني بها الزلفي من الشرق، والبكيرية من الغرب، والخبَراء من الجنوب الغربي فالنبهانية فالسحابين التي لا أذكر تحديدها بالضبط. وكذلك المذنب من الجنوب.

كانت عنيزة مركز التموين، بالنسبة لهذه المدن، وبالنسبة للقرى حيث كانت جميعها تشتري حاجياتها من مدينة عنيزة، لأنها مركز الثروة وبالتالي مركز الثقل التجاري.

الحكم في مدينة عنيزة:

أما الحكم في مدينة عنيزة فكان يتولاه آنذاك المرحوم عبدالعزيز العبدالله السِّليم. وأسرة السليم هذه من أبرز الأسر في عنيزة.

وقعة المليدا:

وكان لأسرة السليم الحكم في مدينة عنيزة حتى أواخر عهد الإمام المرحوم عبدالرحمن الفيصل عندما وقعت وقعة المليدا في عام ١٣٠٨هـ التي كانت بين زامل السليم أمير عنيزة آنذاك وحسن المهنا أمير بريدة من جهة وبين محمد العبدالله الرشيد حاكم حائل آنذاك من جهة أخرى، وكانت الهزيمة على أهل القصيم، فَقُتل في هذه المعركة أحد فحول الرجال عقلاً وشجاعة وبُعد نَظَرٍ، أمير عنيزة زامل السليم.

أسباب المعركة:

وكانت أسباب المعركة كما سمعتها من أفواه الرجال الذين اشتركوا فيها هو أنَّ الحكم في الجزيرة كانت تتنازعه أسرتان: أسرة في الشمال ومقرُّها مدينة حائل وأعني بها آل الرشيد الذين كان رئيسهم آنذاك محمد العبدالله الرشيد، وأسرة أخرى مقرها العارض في مدينة الرياض، وأعني بها أسرة آل سعود التي كان يتولى الأمر فيها الإمام عبدالرحمن بن فيصل والد الملك عبدالعزيز رحمه الله. وكان أهل المدينتين أعني بهما مدينتي عنيزة وبريدة تقفان في صف آل سعود، وكانت الحروب بين هاتين الأسرتين تتمَّان على طريقة الكرِّ والفرِّ بين وقتٍ وآخر، تارةً ينتصر هذا الجانب، وتارةً ينهزم ذاك.

وفي تلك السنة أعني ١٣٠٨هـ كان جيش ابن رشيد قد جَهَّز نفسه لغزو أهل القصيم انتقاماً منهم لموقفهم مع آل سعود.

أحسَّ قادة عنيزة وبريدة بأن ابن الرشيد بجيوشه الضخمة من قبيلته شَمَّر، ومن كثير من القبائل الأخرى التي انضمَّت إليه طمعاً في السَّلب والغنيمة على وشك مداهمتهم.

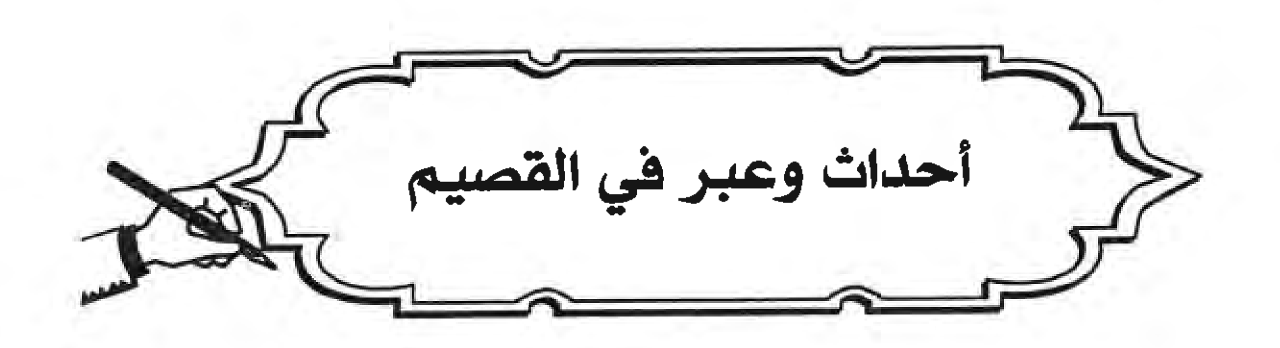
اجتمع قادة عنيزة وبريدة، وكان جيش ابن رشيد على مقربة من المليدا التي تقع في الشمال الغربي بالنسبة لمدينة عُنَيزة على مقربة من النفود.

كان الموقف حرجاً جداً، فإمكانيات هاتين المدينتين من حيث عدد الرجال بالنسبة لجيش ابن الرشيد لا تقارب ربع ذلك الجيش، ومع ذلك فقد صمَّموا على الدفاع عن بلادهم، واجتمعوا لتحديد كيفية إدارة المعركة، وكان رأي أمير عنيزة زامل السليم رحمة الله عليه أن يلتزم محاربو أهل القصيم في مكانٍ يتيح لهم التمكُّن من لقاء عدوِّهم وتأمين ظهرهم من الخلف لأن طبيعة الموقع كانت تتيح الفرصة لكسب المعركة نظراً لطبيعة الأرض. فما كان من حسن المهنَّا أمير بريدة إلا أن تفوَّه بكلمة رعناء حمقاء خالية من كل تعقُّل أو بُعد نظر إذ قال مخاطباً للأمير زامل: إنه يتوجَّب علينا أن نترك هذا الموقع الحصين، ونقابل جيش الرشيد في ساحةٍ أوسع حتى لا يقال إننا جَبُنَّا عنهم، فردَّ عليه زامل قائلاً: إن الحكمة تقضي بالتشبُّث بالمكان الذي نحن فيه لأنه يمكنَّا من دحر أعدائنا، فكان ردُّ حسن المهنا بما معناه: إنَّك جبنت، فاستشاط زامل غضباً وقال: ليس مثلي من يجبن، وسترى وتندم على هذه المشورة، ثم أمر الرجال فاتَّجهوا إلى عدوِّهم لملاقاته تاركين مركزهم الحصين ومفرطين فيه.

وكان جيش ابن رشيد على مقربةٍ منهم، فنشبت المعركة، وجالَت الخيل والرجال يطارد بعضها بعضاً.

مقتل أمير عنيزة:

وكان جيش ابن رشيد ـ فضلاً عن ضخامة عدده ـ يمتاز بوفرة الخيل والفرسان، وحدث ما كان متوقَّعاً، وهو الهزيمة حيث انتصر ابن الرشيد وقتل من خصومه مقتلةً عظيمةً، كان أبرزها وأمرُّها وأدمْاها لقلوب أهالي القصيم ـ وخاصَّةً أهالي عنيزة ـ هو سقوط بطلها المغوار وأميرها زامل السليم صريعاً في المعركة، وعندما شاهده أحد رجاله صريعاً في المعركة يتلوَّى من الجراح وضربات السيوف أراد أن ينقذه، فحمله على فرسه، وفرَّ به إلى عنيزة لمعالجته، إلا أنَّ البطل الجريح رفض ذلك وقال: انج أنت بنفسك، أما أنا فميِّت لا محالة، وقد تحقَّق ما قال رحمه الله تعالى.



نفوذ آل الرشيد على نجد:

تطوَّرت الأحداث في منطقة القصيم بحيث آل الأمر إلى أن يمتدَّ نفوذ آل الرشيد على جميع مناطق نجد بما فيها القصيم، وعلى اضمحلال سلطة الدولة السعودية، حيث اضطرت أسرة آل سعود إلى مغادرة البلاد، واللجوء إلى إمارة الكويت، التي يحكمها آل الصباح، وكان حاكمها آنذاك (مبارك آل صباح) حيث التجأ إليه آخر حكام آل سعود، وهو الإمام عبدالرحمن بن فيصل آل سعود، وأسرته والذي كان من ضمنهم ابنه الملك عبدالعزيز، وقد جلا معهم آل السليم حكام عنيزة آنذاك، حيث كانوا معهم على ولاء.

في عام ١٣١٩ هجرية:

وكان الملك عبدالعزيز آنذاك شاباً في مستهل العقد الثالث من عمره قرَّر العودة إلى مهاجمة الرياض عاصمة العارض، التي هي عاصمة آل سعود.

اقتحم عبدالعزيز الرياض وقتل حاكمها الرشيدي عجلان في قصر المصمك الذي ما زال موجوداً حتى الآن في الرياض، وتوجد في بابه الخشبي قطعة حديدية هي رأس (الشلفا) أي الرمح التي أرسلها عبدالله بن جلوى موجهةً إلى عَجْلان، وأصابته، فشلَّت مقاومته.

كان ابن الرشيد آنذاك يوجد على مقربة من (حفر الباطن)، الذي يبعد عن الرياض بنحو ثمانمائة كيلومتر شمالاً تقريباً.

وصل النبأ إلى ابن الرشيد فلم يعبأ به، وقال ساخراً قولته المشهورة: (أرنب في جُحْرِها) أي أن عبدالعزيز ورفاقه قد وقعوا في المَصْيدة، إذ أصبح قادراً أن يبطش بهم متى أراد نظراً لقلتهم.

لم تطل إقامة عبدالعزيز في الرياض لمعرفته بضآلة قوته، وضخامة قوة خصمه، ولذا آثر مغادرة الرياض متنقلاً في بقية مدن نجد، يجمع فيها الأنصار والمؤيِّدين.

كان الجميع في مدن نجد وقراها يميلون إلى آل سعود، نظراً لما عرف عن أهالي هذه المدن والقرى من تديُّن وتقى، مضافاً إلى ذلك ما عرف عن عبدالعزيز بن متعب بن الرشيد من غلظة وقسوة، بعكس سلفه محمد العبدالله الرشيد الذي صفا له حكم نجد جميعها منذ عام ١٣٠٨هـ إلى ١٣١٥هـ، وكان عهده يُضرب به المثل في الرخاء والأمن.

ظلَّ الوضع سجالاً بين عبدالعزيز الذي تنمو قوته شهراً فشهراً بما ينضمُّ إليه من مقاتلي المدن والقرى، فكانت الحرب بينه وبين آل الرشيد - وأعني عبدالعزيز المتعب - سجالاً على طريقة الكرّ والفرّ.

الاتفاق بين الإمام عبدالعزيز وآل السليم:

وكان الاتفاق قد تمَّ بين الإمام عبدالعزيز ورئيس أسرة آل سليم، وهو عبدالعزيز العبدالله السليم على أن يتحالفا ضدَّ ابن الرشيد، بأن يقتحم السليم مدينة عنيزة فيستردَّها من أعدائهم آل يحيا، المعيَّنين من قبل ابن رشيد، على أن يكون الحكم في عنيزة خاصاً بآل سليم، دون أيّ تدخُّل من الملك عبدالعزيز بحيث يكونون هم وحدهم أصحاب الأمر فيها، وعلى أن يقوموا بتلبية طلبات ما يطلبه الملك عبدالعزيز آل سعود من مدينة عنيزة من عونٍ ومساعدة ودعم، سواء بالمال أو بالعتاد أو بالرجال، وقد ظلَّ هذا الاتفاق نافذاً حتى الآن حيث يلاحظ أن كلَّ أمراء عنيزة منذ ذلك التاريخ وحتى الآن هم من هذه الأسرة وأعني أسرة آل سليم.

❋❋❋

عود للحديث عن الأسرة:

بعد هذا الاستطراد التاريخي الموجز، الذي اعتمد على الذاكرة، كما سبق أن شرحنا، نعود لمواصلة الحديث:

انتقلت الوالدة إلى جوار الرفيق الأعلى وكانت قد احتسبت فقد ابنها الأكبر أخي الشقيق حَمَد ـ رحمة الله عليهما ـ قبل بضعة أشهر، وكان ذلك حوالى عام ١٣٤٠هـ.

أفراد الأسرة:

وكانت الأسرة تتألف من الوالد المرحوم وشقيقتي نورة، فشقيقي حسون، فأنا، فشقيقتي حصة.

كان حسُّون يقوم بجلب الحشائش (العلف) من خارج البلد يومياً حيث يقطع مسافة لا تقل عن عشرة كيلومترات، يذهب في الهزيع الأخير من الليل، ويعود بعد العصر، ومعه نقلة الحشائش مملوء بالعشب الذي جلبه من البر، بينما تقوم نورة بمهام الطبخ وتأمين شؤون البيت، وحصد العلف للبقر من المزرعة وحلبها ورياسة الماء بعد امتلاء البركة بتوزيع هذا الماء على أحواض المزروعات الموجودة في المزرعة من برسيم وخلافه، وكذلك تقوم بالسني تتعاقب عليه هي والوالد، وعادة تبدأ السواني يومياً قبيل الفجر وتتوقف قبل الظهر بنحو ساعة، لكي تأخذ السواني بعض الراحة، ثم تعود السواني قبيل العصر إلى أن يختلط الظلام بعد المغرب، حيث توضع[1] عن الدواب حتى تستريح.

أختي حصة ونورة وأخي حسون:

أما بالنسبة لي وأختي حُصَّة، فقد كانت طفلة في حدود ثلاث سنوات تقريباً.

---

(١) الإيضاع هو إيقاف الدابة عن السني، وإنزال العدة عن ظهرها وقيادتها إلى «مراح» بجوار المنحاة.

أما أختي نورة فأحسبُ أنها في حدود العشرين آنذاك كما أن حسوناً ما بين ثمانية عشر إلى تسعة عشر على ما أعتقد.

والدي:

أما الوالد فحسب ما أتصور أنه ما بين الستين إلى الخمسة والستين، وكان ربع القامة - رحمة الله عليه - خفيف اللحية، طَلْق الوجه، كثير الانفعال، رقيق القلب، ينفعل لأبسط المناظر العاطفية.

زواج أختي نورة:

في مستهلّ ذاك العام أعني **١٣٤٣هـ** تقريباً تزوَّجت أختي نورة على السيِّد هزاع المد الله، وهو والد محمد الهزَّاع وشقيقته مضاوي.

كان هزاع ممن يمتهنون السفر مع حملات البضائع التي تجلب من الكويت أو من العِقِير أو من الجبيل، وهذا يجعله يتغيب عن عنيزة فترات تتراوح ما بين شهرين إلى ثلاثة أشهر، كانت داره في محلة الضُليعة، وهي بالنسبة لمزرعة الشعيبي تقع في الجنوب الشرقي، وتبعد عنه بنحو كيلومترين.

عناية أختي نورة بأسرتها:

كانت نورة توزِّع وقتها بين العناية بزوجها وبين القيام بتأمين خدمات أسرتها. كانت تأتي من بيتها في الضُليعة بعيد طلوع الشمس مباشرة فتصل إلى المزرعة بالشعيبي وتباشر حلب البقر، وخضّ اللبن، وحصاد العلف، وكل ما نحتاج إليه، ثم تعود أدراجها قبيل الظهر إلى بيت زوجها، ثم تعود ثانية إلى المزرعة بعيد العصر حيث تقوم بطبخ العشاء ووضع العلف للسواني وحصاد العلف - إذا كان هناك حصاد - وكلّ ما نحن بحاجة إليه، ثم تعود مرةً أخرى إلى دارها مع غروب الشمس، أي أنها تقطع يومياً ما يقرب من ثمانية كيلومترات جيئة وذهاباً.

الفتى المدلل:

أما أنا فكنت الفتى المدلل لا همّ لي إلا أن أتجوّل (بالطلي)، أي الخروف على أحواض البرسيم حيث يتجوّل ويأكل ما يشاء، كما أتتبع الأرانب وأراقبها حين تدخل وتخرج من جحورها، لكي أعد ما أنجبته من ذرية، كما أعتني بالدجاج، وأوفر لها الحبوب، وعادة بعد المغرب تكون أختي نورة قد هيَّأت لنا العشاء، وذهبت إلى دارها.

حلقة السمر:

كنا نجلس على هيئة حلقة حول الوجار داخل البيت ـ الوالد وحسون وأنا وحصة ـ نستمتع بحديث الوالد ومداعباته، وكان ـ رحمة الله عليه ـ يدخن بغليون من الدخان الأصفر في حالة فقد سجائر الزباني.

افتراس الدجاجات والأرانب:

بَيْد أن سعادتي لم تتم ففي إحدى الليالي وكنا نائمين (بالطاية) أي السطح، وكان الوقت قيظاً إذا بنا نصحو على زعيق الدجاج وصراخها، فأسرعت أنا وأخي حسون إلى قن الدجاج، فوجدنا القط قد افترس الدجاجة وأبناءها الخمسة ولم يبق إلا الديك، وكانت ليلة سوداء بالنسبة لي، أو قل هي مناحة، وظللت عدة أيام متأثراً بها، رغم أن الوالد وعدني بأنه سيعوضني عنها.

وبعدها بنحو أسبوعين، وكانت الأرانب في مبنى صغير من الطين يقفل ليلاً بلوحٍ من الخشب صغير، فنسيت أن أقفل الباب على الأرانب بعد المغرب كما هي عادتي كل يوم.

وفي صباح ذلك اليوم فوجئت بأن الباب مفتوح، وأنه لا يوجد داخل البيت إلا بعض قطع اللحم وآثار الدم لأن القط أكل الأرانب.

تضاعفت مصيبتي وحزني، وكانت علامة الكآبة تلازمني، وكان الوالد ـ رحمه الله ـ يداعبني، ويحاول تسليتي، واعداً بالتعويض ولكن هيهات.

المسجد الجامع بعنيزة:

كان المتبع أن صلاة الجمعة في عنيزة تؤدَّى كل أسبوع في جامعها الكبير الذي يتوسَّط البلد، يتوافد إليه المصلون خلال لا تقل عن ساعتين لمن تكون أماكنهم بعيدة عن المسجد، ليتمكنوا من الوصول إلى الجامع قبل الأذان، فجميع أصحاب المزارع والأحياء المتباعدة، في جميع أنحاء البلد، كلهم يؤدون الصلاة في هذا الجامع الذي يكتظُّ بالمصلين إذ يبلغ عددهم بالآلاف.

ساحة (الحيالة):

كان على مقربة من المسجد ساحة كبيرة تسمى (الحيالة) وهي عبارة عن ساحة من الأرض تحيط بها البيوت، تبلغ مساحتها ٥٠٠×٥٠٠ متر تقريباً أو أكثر، هذه الساحة عادة تكون معرضاً لما يجلبه المزارعون أو غيرهم من حاجيات وسلع بغرض البيع، يملؤون بها هذه الساحة: هذا يبيع دجاجاً، وذاك يبيع غنماً، وذاك يبيع جمالاً، وذاك خضروات، وآخر أقمشة وأدوات منزلية، بحيث تعجُّ هذه الساحة بالحركة والنشاط، يَفِدُ إليها المصلون مباشرة بعد خروجهم من المسجد.

محلة المَلاَح:

كانت مزرعة الشعيبي تبعد عن المسجد الجامع، وعن ساحة المجلس بنحو كيلوين تقريباً شرقاً، وعلى بعد نحو كيلوين تقريباً تقع محلة المَلاَح شمال غرب مزرعة الشعيبي، وهذه المحلة حي من أحياء عنيزة تبلغ مساكنها نحو مائتي بيت أو أقل، مبنية من الطين ومن طابق واحد، ومن ضمن سكانها عمي علي الحسون ـ رحمة الله عليه ـ، وبيت (الدِّلِيْوَا) وبيت حمد البراهيم الحسون والد إبراهيم الحمد الموجود الآن في جدة، وأخوانه عبدالرحمن ومحمد بالدمام، وحمد البراهيم هذا ابن عم والدي، وبيت الطاسان، وبيت الدوَّاي، وبيت البلاَّع، وبيت الشِّحَاتِين، وغيرهم.

تاريخ الأسرة:

في شوال في أحد أيام الجمعة عام ١٣٤٤ جرت مناقشة بين والدي رحمة الله عليه وأحد سكان محلة الشعيبي، ويدعى إبراهيم الدِّبيبي - وأخاله لا يزال حياً -، كانت المناقشة تدور حول أسرة الدبيبي وأصولها وأسرة الحسون، وقد حفظت من مجريات تلك المناقشة مما كان يقوله أبي: أنَّ أسرة الحسون في عنيزة تنتمي إلى جدِّها محمد الحسون الذي أنجب أبناء منهم: حسون المحمد، وإبراهيم المحمد، وعبدالله المحمد، وحماد المحمد.

أما حماد فقد أنجب أبناءاً منهم صالح الحماد المعروف بالجَذْلَه. أما إبراهيم هذا فقد أنجب حمد وأخيه عبدالله، وحمد هذا هو والد إبراهيم الحمد الحسون الموجود حالياً في جدة (أبو سليمان)، أما أخو حمد فهو عبدالله فلم ينجب ذكوراً، أما عبدالله المحمد فقد أنجب صالح العبدالله الذي أنجب بدوره عبدالله الصالح العبدالله الموجود حالياً بعنيزة (أبو نجم).

أما حسون فقد أنجب ستة ذكور هم: محمد وعبدالعزيز وحمد وهؤلاء الثلاثة أشقاء، أمهم من عائلة الخنيني، وعلي وعبدالله وصالح من أمهات أخر.

محمد أنجب أربعة ذكور هم: حمد توفي ولم يتزوَّج، وعبدالله أنجب أربعة ذكور هم: محمد وإبراهيم وسامي وجمال.

أما حسون بن محمد فقد أنجب خمسة ذكور هم: محمد وعبدالعزيز وحمد وعبدالله وإبراهيم. أما إبراهيم المحمد فقد أنجب ابنه الوحيد يوسف.

أما عبدالعزيز الذي هاجر إلى الكويت، وتزوَّج وتوفي هناك، فقد أنجب ابنه الوحيد إبراهيم الموجود حالياً بالكويت، ومن أبنائه عبدالعزيز وعبداللطيف وبدر وغيرهم.

أما حمد، فقد أنجب ثلاثة أبناء هم: صالح الذي أنجب حمد وعبدالعزيز وأخوانهم، وعبدالله الذي أنجب: عبدالرحمن وأحمد وهو مقيم

في جدة وشقيقه علي الذي أنجب عبدالعزيز وعارف وبقية إخوانه والموجودين الآن بالرياض.

أما علي فقد أنجب ابنه الوحيد عبدالله العلي المقيم في الدمام، والذي كان مديراً لميناء جمرك الدمام، والذي أنجب أبناء لا أذكر أسماءهم.

أما عبدالله فقد أنجب ابنه الوحيد عبدالكريم الذي هاجر إلى مكة في حدود العشرينيات من القرن الرابع عشر الهجري، وأنجب الكثير من الأبناء منهم عبدالله وحمد وعبدالرحمن والدكتور يوسف وإبراهيم وفهد وحسون، وهم موجودون حالياً في الرياض.

أما صالح الابن السادس لحسون فقد أنجب ابنه سليمان الموجود حالياً في جدة، وهو والد محمد السليمان الصالح الحسون وأخوته عبدالله وخالد.

بدء المشوار:

في ضحى أحد أيام الجمعة من شهر شوال ١٣٤٤هـ ذهبت إلى دار عمي علي بمحلة الملاح، وهي على مقربة من بيت حسين، ومكانها يدعى (حوطة علي) وهي عبارة عن حوش صغير مسوَّر وثلاث غرف تنفذ أبوابها على الحوش، الأولى منها مما يلي الباب يسمى قهوة، ومساحة الحوش قد لا تزيد عن ٦ أمتار ويسمى (المراح).

دخلت الدار وكان هدفي أن أجد في بيت عمي شاهي أو قليل من التمر، وكان عمي علي رحمه الله قد ذهب إلى الصلاة في الجامع.

الكواجة:

وجدت في الحوش زوجته وهي والدة ابنه عبدالله وأمامها هودج وهو ما يعرف عند أهل عنيزة باسم (الكُواجه) موضوعاً على الأرض، وهي ممسكة بمخيط تخيط عليه كساءً من (شف) من الصوف تحيط بهذا الهودج

من جهاته الثلاث يميناً ويساراً وخلفاً، وهذا الهودج يوضع عادةً على ظهر البعير خاصاً بالنساء.

حوار بيني وبين زوجة عمي:

استرعى انتباهي وجود الكواجة، وكنت أعرف أنها خاصة لحمل النساء اللاتي يردن الحج، فدار بيني وبينها الحوار الآتي:

لمن هذه الكواجة يا خالة؟ هي كواجة سوف أحج بها هذه السنة إن شاء الله إلى مكة.

مع من يا خالة ستذهبين؟ مع عمّك علي لأنه وعدني بهذه الحجة منذ سنين طويلة، وأنت تعلم أنه لم يأت من البصرة إلى عنيزة إلا منذ أسبوعين نظراً لقرب موسم الحج[1].

سألتها: وهل تأخذوني معكم أحج يا خالة؟ فقالت: مرحباً بك أهلاً وسهلاً، ولكنك لا زلت صغيراً.

انتهى الحديث، ثم قامت إلى داخل الحجرة فقدَّمت لي صحناً به بعض التمر وقالت: إنَّ الإبريق الموجود في الوجار به شاهي اشربه كأنها تعرف مَقْصدي.

شريط الذكريات:

عبر الحديث بيني وبينها، وعبر المدةِ التي قضيتها في أكل التمر وشرب الشاي دار في خلدي شريطٌ من الانفعالات والذكريات كان أهمها وأعلقها بذهني وأشدها لجذب انتباهي هي ما كنت أسمعه في فجر طفولتي

---

(١) كان عمي يتغيب عن عنيزة بصفة مستمرة تارة كان يعمل موظفاً في جمرك الجبيل المعروف آنذاك بأبي العينين، وتارةً يعمل موظفاً كاتباً عند الذكران بالبصرة، والذكران كما هو معروف هم عائلة الذكير من كبار تجار عنيزة ومن أشهر ملاك النخيل في البصرة. يتغيب عن عنيزة مدة سنتين أو ثلاث، ثم يعود إليها ليمكث أسبوعين أو ثلاثة ثم يعود إلى حيث كان يعمل وهكذا دواليك.

من حديث يدور بين والدي ووالدتي - رحمهما الله - حينما نتحلق حول الوجار بقبة البيت في أيام الشتاء على ضوء السراج، كان الحديث يدور بما مضمونه أنه يوجد لي أخ غير موجود معنا، وأنه مقيم في الحجاز، وأنه يسمى عبدالله، وأنه ذهب قبل ولادتي بسنين مع خاله عبدالعزيز العضيبي عندما أراد الحج في إحدى السنوات، وبقي في الحجاز، حيث مات خاله بعد الحج مباشرةً في مكة، وكنت أستنتج من حديثهما أنه كان، حينما وصل مكة، في سن لا يتجاوز العشر، ونظراً لوجود بعض الأسر العنيزية مقيمة في الحجاز، وخاصةً مكة ومنهم آل الجفالي منذ عهد الأتراك، فقد عطف عليه الشيخ الذي هو والد إبراهيم وأحمد وعلي الجفالي، فظل عندهم صبياً يعمل في البيت، وكان الاتصال آنذاك بين نجد والحجاز يكاد يكون معدوماً.

وكنت أسمع من حديثهما أنَّ الروايات عن وجود هذا الابن الذي هو عبدالله متضاربة، فقد يذكر قادمون من الحجاز أنه حيٌّ يرزق، وأنه عند الجفالي، وقد يأتي آخرون بعدهم فينكرون وجوده ويقولون: إنه مفقود.

وحصيلة الحوار: هناك بلبلة في شأن وجوده: أحقاً هو موجود في مكة أم توفي أم انتقل إلى مكان آخر في الحجاز خارج مكة.

رغبة جامحة:

هذا الشريط الذي مرَّ بذاكرتي سريعاً على إثر حديثي مع زوجة عمي، كان أشبه بتيار كهربائي وَلَّد في نفسي رغبةً جامحةً حيث الفرصة سانحة، وهي سفر عمي إلى الحجاز، فلماذا لا أذهب معه، ونتحقق عن موضوع أخي أهو حي يرزق أم أنه قد مات. فإنه إذا كان حياً فإن لقائي وعمي معه سيثير حنينه وشوقه إلى وطنه عنيزة، وقد يعود معنا.

قوَّى هذا الأمل في نفسي ما سبق أن شرحته في هذه المذكرات من أن والدي - رحمه الله - بعد أن فقدتُ أمي كان لا يردُّ لي طلباً مهما كان شاذاً أو غير معقول.

ثروة متواضعة:

غادرت بيت عمي عائداً إلى بيتنا في الشعيبي وكما ذكرت سابقاً فإني كنت أملك ثروة لا بأس بها قد تبلغ الريالين أو الثلاثة ممثلة في قيمة الخروف الذي ذكرت، والديك الذي نجا من افتراس القط، وهي بلا شك إذا بعتها ستخفِّف عن والدي العبء بحيث تضمن لي شراء إحرام ونعال من عند (مغيزل) وسِيْسِيَّة (ناي باكورة، وهي عصا من الخيزران محنية الرأس).

كنت في ذلك اليوم أتلهف إلى انقضاء النهار لكي نجتمع في حلقة السمر مع الوالد كالعادة، وما كدنا ننتهي من العشاء، ونتحلَّق حول الوجار والوالد ممسك بالغليون يدخن كأني أراه يوجِّه إليَّ عبارات التدليل كعادته، بيد أن الوضع في هذه الليلة كان متغيِّراً خلاف العادة التي ألفها مني إذ كنت دائماً بشوشاً مرحاً.

أريد الحج:

أما هذه الليلة فقد كنت صامتاً واجماً ساهي البال الأمر الذي لاحظه والدي رحمه الله واستنكره فقال لي معاتباً: ما لك يا إبراهيم اليوم ساكت وزعلان هل ضربك حسون؟ قلت: لا، قال: إذاً ما الذي جعلك صامتاً على هذا النحو؟ وهنا استجمعت كل ما أملكه من قوة وشجاعة وانطلقت الكلمة من فمي كالقنبلة بالنسبة لوالدي، إذ قلت له: أريد الحج مع عمي علي، وشرحت له قصتي ضحى ذلك اليوم مع زوجة عمي، وهنا جذبني - رحمة الله عليه - إلى جانبه وأحاطني بيمناه بحنو وعطف وظل لحظات وأخاله يبحث عن الكلمة أو الكلمات التي تقنعني بالعدول عن طلبي فقد أجابني بقوله: إبشر وأنا أبوك إن شاء الله نحج، ولكن ليس هذا العام لأنك الآن صغير، ولا تقوى على الحج، وفي العام القادم تكون كبرت وآخذك معي أنا للحج.

التحقُّق من وجود أخي عبدالله:

فأعدت عليه القول بأن رغبتي هي الحج هذا العام مع عمي، وسقت

إليه المبرر، وهي أنني أذهب لكي أتحقَّق من وجود أخي عبدالله، أحيٌّ هو أم ميت.

دموع على وجنتي:

وهنا غيَّر والدي أسلوب الإقناع إذ قال لي: إن مكة فيها سحَّارين وفيها سعالوه، وهو حيوان وهمي يأكل الأولاد، وظلَّ يكرر هذه الحجة من منطلق خوفه عليَّ، ولعجزي عن إقناع والدي، فكانت إجابتي صامتةً هي ما تساقطت به دموعي على وَجْنتي.

عمق المشكلة:

وهنا أدرك الوالد ـ رحمه الله ـ عمق المشكلة، واستحالة إقناعي بالعدول عنها، وعدم الجدوى من المجادلة معي لعدولي عن الفكرة، وتأثَّر عاطفياً وهو يشاهد دموعي، فقد تساقطت دموعه رحمه الله على لحيته، وكأني أراها، ثم قام بانفعال من مكانه دون أن ينبس ببنت شفة.

انتهى الموقف على هذا الشكل، ويبدو كما فهمت بعد ذلك، أنه ذهب إلى بيت عمي وعنَّف زوجته على استجابتها لطلبي بالسفر معهم، كما طلب من عمي أن يعلن عدوله عن السفر هذا العام، وفي الوقت نفسه يبعد الكواجة في مكانٍ آخر خارج بيته.

اعتذار عمي عن اصطحابي إلى الحج:

حضر عمي رحمة الله عليه إلينا في المزرعة على غير جاري عادته، وتكلَّم معي بلطف وحنان ذاكراً لي أنه علم من زوجته نبأ حضوري إلى دارهم، وما جرى بيني وبينها من حديث، وما أبدته لي من ترحيب بقبول سفري معهم.

ثم عقَّب على ذلك بقوله: بأن ما ذكرته زوجته كان صحيحاً، ولكنه عَدَلَ عن الحج هذا العام حيث لم يجد الناقة المناسبة التي تؤمِّن سفرهم إلى الحج، وأضاف أنه يعدني أنه إنْ عَزَم على الحج بعد ذلك فسيخبرني وسيأخذني معه.

وحين تناولت الغداء مع الوالد رحمة الله عليه سألني: ألم تذهب إلى دار عمك اليوم؟ فقلت: لا. فقال: لازم تزورهم، ولم أخبره بأنَّ عمي قد حضر للمزرعة وذكر لي ما ذكر، وكأن قصد الوالد من ذهابي لهم أن أعرف عدولهم عن السفر.

تظاهرت بالتصديق، وتظاهرت بتناسي الموضوع، لعلمي اليقين أنَّ حكاية العدول عن السفر كان للحيلولة بيني وبين السفر.

بيع الخروف والديك:

رغم تظاهري بذلك فإنَّ علامات الوجوم والتفكير ظلَّت تلازمني رغم إرادتي، وصمَّمت في قرارة نفسي على أنْ أنفِّذ ما نويت فعله، وذلك ببيع الخروف والديك وشراء الإحرام، وهو قطعتين من القماش الخام والنعلين والباكورة وفعلاً أخذت الخروف، وكان اعتاد أن يتبعني أينما ذهبت، وأخذت الديك، وذهبت بهما إلى (الحيالة) وهي السوق الكبير كما ذكرت سابقاً، ووقفت فيها والطلي بجواري والديك بيدي فمرَّ بي المواطن العنيزي سليمان الصيخان الذي هو والد الأستاذ محمد الصيخان أحد أبرز أعيان عنيزة في الوقت الحاضر، وأحد كبار مقاوليها.

العملة السائدة في تلك الأيام:

وعندما فهم مني أني أريد بيعهما دفع لي بالطلي ريالاً وقطعتين، وبالديك ثلاث قطع، والقطعة عملة متداولة آنذاك من النحاس مكتوب على أحد وجهيها اسم السلطان العثماني القائم آنذاك، وعلى الوجه الآخر ضمن دائرة صغيرة كلمة «ضرب في القسطنطينية»، مع تاريخ الضرب. والريال هو الريال الفرنسي المعروف بريال ماريا تريزا، وهو العملة السائدة في ذلك الوقت، والريال الواحد يساوي ستة عشر قطعة. فوافقت على البيع واستلمت المبلغ منه، ومررت على دكاكين السوق، واشتريت من دكان الخِرْب (يوسف الشبل) وكلمة خِرْب هي معيارة لهذه الأسرة، وهي أسرةٌ كريمةٌ محترمةٌ، ويوسف هذا هو والد عبدالله اليوسف الشبل، ومدير جامعة الإمام محمد بن سعود سابقاً بالرياض.

شراء لباس الإحرام وأغراض الحج:

اشتريت منه قماش خام ستة أذرع، شقها لي قطعتين لتكون إحراماً، ثم اشتريت منه سيسية أي باكورة بقطعة، واشتريت حِذْيان بسبع قطع من مغيزل، ومغيزل هذا معروف بإجادته لصنع الأحذية، ثم عدت إلى البيت ودفنتهما في صُفَّة التبن.

ثم ظللت أذهب خلسة يومياً إلى دار عمي علي صباحاً ومساءً وأتطلع من ثقب باب الحوش لأرى هل عادت الكواجة أم لا. وظللت على ذلك نحو أكثر من أسبوع، وكلما لاحظت أنها لم تكن موجودة أصابتني المرارة والأسى، ومع ذلك فكنت أحسُّ في أعماق نفسي أنه لا بد من أن يحج عمي، كما أفادتني زوجته سابقاً، وخلال هذه الفترة كان والدي ـ رحمه الله ـ يضاعف تودُّده وملاطفته لي، ولكنه لاحظ أنَّ الطلي الذي كان يلازمني أينما قعدت ويربض بجواري عندما نتحلق ليلاً حول الوجار قد فارقني، فسألني: أين (الطَّلِي)؟ فتجاهلت سؤاله، كأني لم أسمعه لأني لم أرغب أن ينكشف موضوع بيعه. لكنه ألحَّ معيداً السؤال مرة أخرى.

وهنا أجبته بعصبية وعنف: بعته. لم يسألني مرة ثالثة لأنه استشفَّ من عبارتي أني لا أرغب بحث هذا الموضوع.

وبعد نحو أسبوع من هذا النقاش، وكان اليأس قد ابتدأ يدبُّ إلى نفسي بأنَّ عمي قد عَزَم فعلاً على ترك الحج ذلك العام.

زرتُ دار عمي كالعادة بعد العصر مباشرة فإذا بي أضبط عمي ومعه اثنان من الرجال الآخرين يحملون الكواجة من الحوش، ويضعونها ويثبّتونها على ظهر البعير الذي كانوا عقلوه في الشارع أمام البيت. فذهبت مسرعاً بكل قوتي عائداً إلى بيتي وأخرجتُ الإحرام والحذيان والعصا التي سَبَق أن أخفيتها في صفة التبن، ووضعتها تحت إبطي، وأسرعت مهرولاً عائداً إلى بيت عمي.

موقف مؤثِّر:

لمحني والدي ـ رحمة الله عليه ـ وأنا مسرعٌ أحمل تحت إبطي شيئاً

ملفوفاً، وكان خارجاً من باب المسجد بعد صلاة العصر فناداني، ولكني تجاهلت نداءه، كأني لم أسمعه خوفاً أن يعيقني فتفوت علي الفرصة، فوقر في نفسه أنني لا بد أن أكون ذاهباً إلى دار عمي علي، فلحقني رحمة الله عليه، إذ ما كدت أصل إلى حيث كان الجمل باركاً والكواجة على ظهره وعمي علي آخذاً بيد زوجته ليركبها على ظهر الجمل داخل الكواجة، وإذا بالوالد يصل ونلتقي جميعاً والدي وأنا وعمي، فكان الموقف مفجراً للعواطف. فأنا لم أستطع أن أتكلم بشيء، وإنما الدموع تتساقط من عيوني، والوالد يرمقني وهو بنفس التأثُّر والانفعال، وهنا تدخل عمي رحمة الله عليه بعد أن سحب مني ما تحت إبطي، فرأى الحذيان والإحرام والعصا. فوجَّه خطابه إلى والدي رحمة الله عليه بقوله: يا محمد لا فائدة، وأنا أتعهَّد لك بمشيئة الله أن أحافظ عليه، وأعود به معي، وقد نجد أخاه عبدالله فنحضره معنا، خاصةً وأن ابن أخينا عبدالله يوجد ابنه عبدالكريم بمكة.

آخر لقاء بوالدي:

وهنا لم يسع الوالد إلا أن احتضنني وقبَّلني، واكتفى بقوله: ليحفظك الله من كل سوء، ثم اغرورقت عيناه بالدموع، وأشاح عني بوجهه حتى لا أرى تأثره.

وخلال ذلك أُطلق عقال الجمل، وصار يقوده عمِّي بخطامه بعد أن أركبوني داخل الكواجة مع زوجة عمي، وكان هذا آخر لقاء بيني وبين المرحوم والدي رحمة الله عليه فلم أره بعد ذلك، إذ بقيت أنا في الحجاز وأدركته المنية في مستهل عام ١٣٥٠هـ وأرجو من ربي أن ألتقي به مع والدتي وبقية أسرتي في دار رضوانه، فهو غفورٌ رحيم.

إلى الحجاز:

انطلقنا من عنيزة مع غروب الشمس تقريباً، من باب (ساير) من جهة الغرب يقود عمي الجمل فالتقينا هناك بمجموعة من الرجال والبعَّارين التي بعضها تحمل كوايج تقدر بنحو العشرين على ما أتصور، وبعضها عليها

خروج[1]، وسفايف، وموارك[2]، ومزاود[3]، صغيرة مما يوضع على ظهور الإبل.

بعد وصولنا انحازت بعض الجمال وهي التي تعلوها الهوادج عن بقية البعارين المعدة للركوب بحيث تتقدم البَعارين التي عليها أشدَّة الكُور في المقدمة وعلى ظهورها أصحابها من الرجال، أما الجمال التي عليها الهوادج فكانت تسير في الخلف، كل جمل يوجد معه رجل ممسك بخطام الجمل يقوده، ثم يأتي من خلف هذه الجمال جمل أو جملين أو أكثر معدة (للثاية)، والثاية هو ما يحمل على الجمل من شُرْع أو خيم، وكل ما تحتاج إليه هذه الحملة من أدوات الطبخ والماء والأرزاق، وهناك شخص معه معاونون يقومون بمساعدته فيتقدّمون الحملة، وينصبون خيامهم، ويشرعون في إنزال ما يحتاجونه لوجبة الغداء أو لوجبة العشاء بحيث ينتهوا من نصب الخيام قبل وصول الحملة إلى الموقع.

أدَّيْنا صلاة المغرب على بعد نحو عشرة كيلو غرب مدينة عنيزة بعد أن تجاوزنا وادي الرّمة، ثم واصلنا السير بما لا يقل عن خمس ساعات، ثم أنخنا وكان المتعهد قد سبقنا إلى المكان الذي اختاره لمبيتنا، وهناك تناولنا طعام العشاء المكوَّن من الأرز واللحم.

نمنا تلك الليلة بعد تناول وجبة العشاء، وكان الوقت قبيل الفجر بساعات، ثم نهضنا لصلاة الفجر عندما سمعنا المؤذِّن، وبعد الصلاة مباشرة تناولنا بسرعة بعض التمور مع القهوة وهو ما يسمى (قُدُوع)، ثم واصلنا السير كالعادة حتى قرب الظهر، فأنخنا، وتناولنا طعام الغداء الذي كان قد

---

(١) الخرج: هو عبارة عن كيس من الصوف مربع مزخرف بألوان متنوعة يوضع على جانبي الشِّداد ويتدلى منهما خصلات من الصوف ذات ألوان متعددة تسمى سفايف الخرج.

(٢) الميركة: قطعة من الجلد مزخرفة بخصلات جلدية توضع على مقدمة الشداد للزينة.

(٣) المزود: كيس صغير من الصوف على الشداد من الجانبين توضع فيه بعض الأمتعة كالملابس والنقود، وتنتهي بأقفال صغيرة.

أعدَّه مسؤول الحملة، وأخذنا قسطاً من الراحة كما ترك الراعي الجمال لترعى في الأرض بحيث لا ينفرد أو يشذ منها شيء.

ماء ضريَّة:

ثم واصلنا السير لمدة لا تقل عن خمس ساعات، وكنا قد وصلنا قرب ماء يسمى (ضَريَّة)، وعندما تطلق كلمة ماء عند البادية إنما يراد بها مجموعة من آبار الماء التي تحمل اسماً معيناً، وتنسب إلى قبيلة معينة منذ العصر الجاهلي. وهذا الماء هو قرية صغيرة محاطة بسور من الطين، يبلغ ارتفاعه نحو المترين وبعضه آيل للسقوط، تجتمع على مجموعه من بيوت الطين في نحو عشرة بيوت أو خمسة عشر على الأكثر، وتنتشر بينها مجموعة من أشجار النخيل التي قد يقارب عددها خمسين نخلة، وفي الجهة الغربية من هذه القرية تقع بئر عذبة غزيرة الماء، يردها المسافرون للشرب منها، وملء قربهم منها، وسقي إبلهم وأغنامهم.

هذه القرية تقع في منبسط من الأرض قد لا تقل مساحته عن مائة كيلومتر، وكلها من أجود الترب خصوبة، وأغزرها إنتاجاً للأعشاب، ومعروف في التاريخ الإسلامي كانت القبائل تفد إلى رسول الله ﷺ، وتطلب منه إقطاعهم قطعاً منها يمتلكونها لرعي مواشيهم، وفعلاً كان يستجيب لطلباتهم، وكتب التاريخ حافلة بذكر أسماء هؤلاء.

التزود بالماء:

نمنا تلك الليلة بجوار هذه القرية على أمل أن نسقي دوابنا في الصباح ونملأ قربنا لمواصلة الرحلة؛ لأن الماء الذي سنرده بعد هذا الماء بعيد المسافة قد يستغرق اليومين أو أكثر قبل الوصول إليه، مما يستوجب التزوُّد بالماء.

كان هذا هو الترتيب الذي تم عليه الاتفاق بين المسؤولين عن القافلة ولكن حصل ما لم يكن في الحسبان. وهنا لا بد من إيضاح بعض النقاط التي تبين صورة الواقع في تلك الأيام.

حركة الإخوان:

في حوالي أوائل العقد الرابع من القرن الرابع عشر الهجري نشأت حركة في الجزيرة سميت بحركة الإخوان، وهي ضمن الأراضي التي كان يسيطر عليها الإمام عبدالعزيز، وهي حركة دينية انتشرت بين قبائل البادية كما تنتشر النار في الهشيم، وتتلخص دعوتها في الزهد المتزمّت والتوحيد والجهاد في سبيل الله طلباً للشهادة، ولم تكن هذه الحركة قاصرة على قبيلة دون أخرى، بل شاملة لأمّهات القبائل وبالأخص بين الرؤساء منها.

جميع معتنقي هذه النِّحلة كلهم بادية، وكلهم بسطاء.

كانت نظرتهم إلى الحياة نظرة العازف عنها، المتَّجه بكل اتجاهاته إلى الآخرة. تجدهم في المساجد شيوخاً وشباناً، وعلى مختلف المستويات الشيخ والرئيس وبقية الأفراد كلهم في حلبة المسجد، كل منهم ممسك بلوح من الخشب أو جزء من القرآن يتعلَّم مبادىء القراءة.

يتمثل عزوفهم عن الدنيا بأنهم كانوا يجلبون ما يمتلكونه من أموال وهي تتمثّل في المواشي من الإبل والغنم يجلبونها إلى الأسواق ويبيعونها ليتخلّصوا منها كي لا تلهيهم عن العبادة، ويتفرغوا للجهاد.

كانوا يتحرَّقون شوقاً إلى جهاد كل من يخالفهم في اتجاههم، ويتهافتون على الموت كما يتهافت الفراش على السراج، وقد ساعدت هذه العاطفة الدينية الملك عبدالعزيز في فتوحاته أول الأمر.

كانوا يتميَّزون غيظاً من وجود الإنكليز بالعراق، وكل من لا يسلك مسلكهم في الزهد والتجرُّد من ملذات الحياة سواء كانوا باديةً أو كانوا من سكان المدن.

كان الفرد الواحد منهم جريئاً لا يتورع أن يجابه من يرى في سيره اعوجاجاً عن الطريق كائناً من كان، ويكفي أن نذكر هنا تدليلاً على ذلك أن أحدهم وقف مخاطباً الإمام عبدالعزيز بقوله: يجب أن تقص من عباءتك

لأنك (مُسْبِلٌ)، فيستجيب له الإمام عبدالعزيز فوراً قائلاً له: جزاك الله خيراً، وأحسن الله إليك، وفي الحال يبدل عباءته بعباءة أخرى.

إحاطة حشود الإخوان بنا:

ولكن حصل ما لم يكن في الحُسْبان، إذ فوجئنا بجموع حاشدة تسدُّ علينا الأفق وتحاصرنا من الجهات الأربع، ماثلة في حشود الإخوان الذين هبُّوا من مختلف أماكن تواجدهم لأداء فريضة الحج بعد أن سنحت الفرصة لهم بتسليم مكة للملك عبدالعزيز.

أحاطوا بنا وأناخوا جمالهم، واستولوا على آبار المياه، وظلوا يمتحون منها لملء قربهم، وسقي جمالهم، ونحن قلَّةٌ مستضعفةٌ، لا يجرؤ أحد منا أن يفتح فمه خاصة، ونحن في نظرهم - وأعني أهل القصيم، وأهل عنيزة بالأخص - نعتبر مخالفين للكتاب والسنة تجب مقاطعتنا، والابتعاد عنا، لا لشيء إلا لأنه يوجد بيننا من يشرب الدخان.

ظللنا عدَّة أيام ننتظر ارتحالهم عنا، وقد كانوا يتحرَّشون بنا، ويسمعوننا لاذع الكلام، ولكننا كنا حذرين، فلم نكن نجيبهم على ما يوجِّهونه إلينا من استفزازات وبذاءات.

الرحيل من ضريَّة:

ارتحلنا من ضَرِيَّة بعد أن مكثنا يوماً كاملاً بعد رحيلهم أملاً في ابتعادهم عنا، واكتفاءً لشرهم، وبعد أن ملأنا القرب وسقَيْنا دوابنا ثمَّ سرنا على نفس النهج الذي اتَّبعناه منذ خروجنا من عُنَيزة، واصلنا السفر بالترتيب نفسه، ومررنا بعدة آبار متباعدة تفصل كل واحد منها عن الآخر مسافة قد لا تقل عن مسيرة أربعة أيام - الكثير من هذه الآبار غير صالح للشرب لملوحته، ومع ذلك فقد كنا مضطرين في بعض الأحيان لشربه.

ماء الدفينة:

مررنا بعدة مياه لا أذكر أسماءها الآن، حتى وصلنا إلى ماء يدعى (الدفينة) وهو عبارة عن عدة آبار منذ عهد الجاهلية يبلغ عمق الواحد منها

عن سطح الأرض نحو ثلاثين متراً وماؤها عذب فرات، ولكنا صدمنا حين وصولنا إليها، إذ وجدنا الإخوان منتشرين عليها كما ينتشر الجرادُ على ورق الشجر، وكنا في شدة بالغة بالنسبة لما لاقَيْناه من ملوحةِ بعض الآبار التي مررنا بها، ولكن من حُسن الحظ أن البعض من هؤلاء الاخوان قد ارتووا وأخذوا في الرحيل، فكنا نعقبهم على الآبار التي تركوها فنجدهم قد نزحوها بحيث اضطررنا إلى إنزال أشخاص إلى قاع البئر حتى يملأ الدلو من قاعها، وكانت المساحة المحيطة بالبئر من كثرة ما نُزح من الماء وما سال على جوانبها قد أوجد مستنقعات صغيرة من الماء ولكنها (إغْرُبَه) أي أن الماء مختلط بالطين الأسود النتن، ومع ذلك كنا نتهافت عليه كما يتهافت الفراش على الضوء، فنغرف منه بإناء على قطعة من القماش، ثم نمص الماء من خلال قطعة القماش رغم الرائحة الكريهة الموجودة فيه، وقد يستغرب القارىء مثل هذا التصرُّف، ولكن متى عَلِمَ أنَّ الماء المالح والعطش الذي عانَيْناه قبل وصولنا الدفينة لزال عنه هذا الاستغراب.

مكثنا على الدفينة نحو أسبوع، حتى يتسنى لنا السُقيا بعد رحيل الإخوان عن هذه الآبار. ثم واصلنا السَّير، وكنا خلال ذلك محاطين بجموع الإخوان أمامنا وخلفَنا وعن يميننا وعن شمالنا، يفْصل بيننا وبينهم حوالي كيلومتر من كل اتجاه.

رُكبة:

واصلنا السفر حتى وصلنا منطقة تدعى (رُكْبة)، وهي متسع من الأرض فسيح المسافة، تعلوه أشجار من نبات السمر، وهي أشجار يابسة هشيم يبلغ ارتفاعها عن الأرض المترين والثلاثة، ذات أغصان وفروع متعددة كلها هشيم لتوالي انقطاع الأمطار عنها.

أما الأرض فهي دمثة، بمعنى أنها هشَّةٌ ترابيةٌ بحيث تستطيع أن تحفر بيدك المجردة أي قدر ترغبه في عمق الأرض، لأنها هشة وليست صلبة.

كان الوقت صباحاً عندما وصلنا إلى هذه المنطقة، وكانت قافلتنا تسير

على النسق السابق: راكب الجيش في المقدمة، وخلفهم حملة الكوايج التي تحمل النساء، وخلفهم بعض الجمال التي تحمل أمتعة القافلة من خيام وأواني وتسمى هذه الأمتعة (الرحلة أو الثاية) وكنت أمتطي واحداً من هذه الجمال في مؤخِّرة الركب.

هياكل عظمية:

شاهدت رجال قافلتنا الذين في المقدمة يشيرون إلى مكان معين تحت شجرة ضخمة رأيتهم يحرفون جمالهم نحو هذه الشجرة، ثم يتركونها مواصلين سيرهم، وقد استرعى انتباهي هذا التصرُّف منهم، وحملني الفضول على أن أعرف ما كانوا ينظرون إليه، وعندما مررت بهذا المكان قفزت من بعيري إلى الأرض وهنا رأيت العجب عشرات من الهياكل البشرية البيضاء الذي لا ينقصها إلا اللحم بعضها كاملة الهيكل، وبعضها قطعاً مبعثرةً هذه جمجمة، وتلك ذراع، وهذه رجل، وهنا لا أعرف كيف خطر لي أن أجمع بعض هذه القطع المتناثرة لكي أدفنها في الأرض.

ضربة صاعقة:

وفعلاً جمعت بعضها، وشرعت أحفر بكلتا يدي تحت جذع شجرة، لكي أدفنها فيه وهنا تأتي المعجزة إذ لم أكد أهمُّ بإهالة التراب على هذه العظام حتى أحسست بضربة صاعقة تصيبني في وركي الأيمن الأمر الذي أدى إلى أن يهوى رأسي في الحفرة.

وتشاء إرادة الله أن تكتب لي الحياة، إذ في تلك اللحظة التي توقف فيها تنفُّسي إذا بيد عمي علي رحمة الله عليه قد جَذَبتني بقوةٍ وأعادت إلي توازني، وإذا برجل واقف خلفي، وعلى رأسه عصابة بيضاء ملفوفة وإذا به يقول لعمي: (كبه كبه المشرك) بمعنى هذا كافر مشرك يريد أن يدفن الكفار أمثاله.

فقال له عمي: إنَّ هذا طفل لا يعرف هذه الأشياء، ثم حملني على كتفه، وأناخ بعيري، وأركبني عليه.

ألم مبرِّح:

وكنت أحسُّ بالألم المبرح الذي ظلَّ يلازمني عدة شهور، وكاد يقعدني عن السير وأثره حتى هذه اللحظة لا زال باقياً؛ لأن الضربة كانت بعقب البندق، أي مؤخِّرة البندق.

مواصلة السير:

مَشَيْنا ذاك النهار بطوله، وكان المسؤولون عن الحملة يحاولون أن يواصلوا السَّيْر في أقْصَى سرعة ممكنة، أملاً في الوصول إلى موضع الماء الذي هو أمامنا وهو إحدى برك المحسنة الكبيرة السيدة زُبَيْدَة، وهذه البركة هي عبارة عن تجويف في الأرض يبلغ كل ضلع من أضلاعه نحو خمسين متراً، وعمقه عن سطح الأرض نحو أربعة إلى خمسة أمتار محاط في جوانبه الأربع ببناء من الجص ومواد صلبة أشبه بالإسمنت، ويوصل إلى قاعها بمدرجات، وهي واقعةٌ في منخفض من الأرض تصبُّ فيه عدة أودية عند نزول الأمطار، ويوجد على جوانبها بعض أشجار الطلح والسِّدر الضخمة الوارفة الظلال والكثيفة الأوراق لقربها من الماء.

ماء عذب وظل ظليل:

ولحُسْن الحظ وجدناها ملأى بالماء الصافي عندما وصلنا إليها وأنخنا جمالنا على مقربةٍ منها، ونصبنا خيامنا قبل أن يصل إليها الإخوان، فقد شاهدناهم عندما أبصرونا سبقناهم تركوها وواصلوا سَيْرهم. كان فرحنا وابتهاجنا بهذا الماء العذب الزلال، وبهذا الظل الظليل الوارف لا يحدُّ ولا يوصف، بعد المشاق والمصاعب التي لاقيناها خلال رحلتنا الطويلة.

آبار مرَّان:

مكثنا أسبوعاً على هذا الماء، ثم واصلنا السَّير، فمررنا بمنطقة تدعى (مُرَّان)، وهي مجموعة من الآبار عمقها نحو مترين فقط عن وجه الأرض،

وفيها مياه عذبة، ولكنها ضحلة قليلة، وفيها الكثير الكثير من شجر الدوم الذي يشبه إلى حد ما شجر النخل.

قبيلة بني هلال:

وهذه المنطقة معروفة في كتب التاريخ أنها كانت مساكن بني هلال، القبيلة العربية المشهورة التي ينسب إليها الفارس المشهور أبو زيد الهلالي، والذي كانت قصصه تروى في العديد من الكتب والروايات، وكانت تقرأ في المقاهي ليلياً نوعاً من التسلية، تجتمع حولها الجماهير في كثيرٍ من مدن العالم الإسلامي ومنها مدينة جدة، وقد شهدتها بنفسي يتلوها قارىء مختص يومياً بعد صلاة العشاء في مقهى يقع في مدخل سوق الجامع من الجهة الشرقية بالقرب من فرن (فروان).

وهذه القبيلة كما تشير كتب التاريخ قد نَزَحت إلى مصر، واستوطنت الصعيد في نهاية القرن الرابع الهجري في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي ثم أُجْلِيَتْ بعد ذلك من مصر إلى تونس والمغرب العربي.

حين وصولنا إلى مران أنخنا رواحلنا، وأنزلنا عنها أحمالها، وتركناها ترعى إذ كانت الأرض وافرة العشب والأشجار، وقضينا نصف نهار في هذا المكان تناولنا فيها الغذاء، واستغل الكثير منا الآبار ليسبحوا فيها لعدم عمقها، وضحالة مائها.

وفي المساء واصلنا السير من هذا المكان نحو خمس ساعات تقريباً، ونحن نسير في أرض منبسطة يعلوها الكثير من الشجر والشجيرات والعشب.

وعندئذ قرر المسؤولون عن الرحلة وجوب المبيت في هذا المكان على أساس أن مكاننا هذا هو نهاية المنبسط من الأرض، وأن ما سنقطعه غداً هو منحدر يسير تدريجاً في انخفاض مستمر، وفي طريق أشبه ما يكون بالشارع إذ يحده من الجهتين جبال جيرية يسير على هذا النحو، ولذا فمن الأفضل أن يكون عبورنا عليه في وضح النهار.

أقمنا تلك الليلة، وبُعَيْد صلاة الصبح واصلنا السفر إذ انحدرنا في انخفاض مستمر، وكأنه ممر حُفر خصيصاً للسير خلاله.

عين الليمون:

وكانت سعة هذا الممر في أوسع أماكنها لا تتجاوز الكيلومتر، وقد تضيق إلى ما يقرب من مائة متر تقريباً، واصلنا السَّير حتى بعيد الظهر بنحو ساعة إذ وصلنا إلى (عين الليمون)، وهي أرض منبسطة تبلغ مساحتها نحو كيلومترين أو ثلاثة، يحدها من الغرب جبل قد يبلغ ارتفاعه العشرة أمتار أو أكثر، تندفع من أعلاه مياه جارفة من رأس الجبل من الجنوب إلى الشمال حيث يقابلها من الشمال جبل آخر تتجه إليه مياه هذه العين. ويفصل بين الجبلين من جهة الغرب ممر يجتاز مسار العين من الشرق للغرب متجهاً إلى مكة. هذه العين عذبة الماء، وتندفع بقوة وعنف، ولا يوجد عليها إلا بعض شجيرات ولكني لا أعرف إذا كانت تنتهي من جهة الشمال بأراضٍ أو مزارع لأني لم أتعقب ذلك.

أقمنا على العين ذلك المساء، وبتنا فيه فرحين بهذا الماء العذب الزلال الذي لم نذق ألذ من طعمه وبرودته خاصة ونحن في أيام القيظ.

السَّيْل الكبير:

صباح اليوم الثاني واصلنا سيرنا باتجاهنا إلى مكة المكرمة، ولا أعرف بالتحديد الآن المسافة التقريبية التي قطعناها حتى وصولنا إلى مكان، ويدعى بـ (السيل الكبير)، وهو عبارة عن مجرى واسع لوادٍ ضخم يعرف بهذا الاسم، وهو موضع إحرام الحجاج القادمين من الشرق، وفيه بعض المقاهي الشعبية وبعض الغرف الصغيرة المبنيَّة من الطين والحجر.

وهذا المكان ينتشر فيه الحجاج ليغتسلوا، ثم يرتدوا لباس الإحرام تمهيداً لدخول أرض الحرم. قضَيْنا نهارنا في هذا المكان وبتنا ليلتنا أيضاً.





الوصول إلى مكة المكرمة

واصلنا السَّيْر حتى دخلنا مكة المكرمة بُعَيْد صلاة الظهر بنحو ساعة أو ساعتين، وكان ذاك في يوم ٥ ذي الحجة عام ١٣٤٤هـ.

أنخنا مطايانا في مكان يدعى الأبطح شرقي مكة شرَّفها الله، ونصبنا خيامنا، وأنزلنا أمتعتنا، ثم انحدرنا إلى الحرم الشريف مشياً على الأقدام في جموعٍ زاخرةٍ كأمواج البحر، شعثاً غبراً.

السؤال عن عبدالكريم الحسون:

أتممنا الطواف والسعي، ثم قفلنا راجعين إلى مخيمنا في الأبطح، وهنا بعد وصولنا إلى مكان يدعى الجودرية عائدين من الحرم أخذ عمي علي - رحمة الله عليه - يسأل أصحاب الدكاكين عما إذا كانوا يعرفون مكان إقامة شخص يدعى عبدالكريم الحسون، ولم يسبق لي أن سمعت بهذا الاسم، أو عرفته، ولذا بادرت بسؤال عمي: من هو هذا عبدالكريم الحسون؟ فقال لي: هو ابن عمك. قلت: لم أكن أعرفه، ولم أكن أسمع عنه، أجابني بقوله: إنه موجودٌ في مكة قبل أن تولد، وهو مقيم في مكة منذ نحو عشرين سنة، ثم أردف عمي قائلاً: أبوه عبدالله أخو أبوك محمد.

تلطَّف أحد أصحاب الدكاكين من النجديين، وأظنه يدعى الفريح، فترك دكانه ليدلنا على مكان عبدالكريم، وإذا به في دكان في الشارع نفسه من الجانب الآخر المقابل لدكان هذا الرجل.

دكان عبدالكريم الحسون:

وقفنا على الدكان، فوجدنا الدكان، وهو مخزن يحتوي بضعة (ثياب دوت) الخاصة بالبدو، وبعض طيق قماش أسود خاص بالنساء، ومساحة الدكان حوالي مترين في متر ونصف. وفي تقديري أن مجموع ما يوجد في الدكان من بضائع لا يساوي أكثر من عشرة إلى عشرين ريال، ومعلق على باب الدكان بضعة ثياب بدو مخيطة.

عندما أوقفنا الرجل على الدكان انصرف، فوقفنا أمام الباب، وظنّ من كان داخل الدكان أن عمي يريد أن يشتري ثوباً باعتباره من البدو، وعلى ما أذكر أنه قال لعمي بداهة: أن الثوب بريالين، ولكن عمي فاجأه بقوله: أنت ابن حسون أنت عبدالكريم العبدالله الحسون، وهنا قفز الرجل الذي بالداخل واقفاً قائلاً: نعم أنا هو، ماذا تريد منه؟ ويبدو من هذا الحوار أنّ عبدالكريم لم يعرف عمي، لأن الزمن من آخر لقاء لهم كان طويلاً جداً.

عناق حار:

أجابه عمي بقوله أنا عمُّك علي الحسون، وهنا تعانقا بحرارة وشوق، ثم التفت عبدالكريم إليّ وقال مخاطباً عمي: هذا ابنك ما شاء الله فقال له: لا هذا ابن عمك محمد، وهو أخو عبدالله.

وهنا طلب منا الجلوس في الدكان، وأخذ يتبادل مع عمي الأحاديث المعتادَة في هذه المناسبات، من السؤال عن الأهل والوطن والأقارب من جانب عبدالكريم.

أبو أربعة:

ثم نادى على جاره وقال له: اطلب لنا أبو أربعة، ولم أكن أعرف مدلول هذه الكلمة، لأنها لم تطرق سمعي قبل ذلك، ولكني عرفتها بعد قليل، عندما دخل علينا أحد الأولاد حاملاً في يده براد شاهي ومعه ثلاثة فناجيل.

أخي في جدة:

مكثنا في الدكان نحو ساعة، كان عمي خلالها يستوضح من عبدالكريم عن أخي عبدالله أهو حيٌّ موجود أم ميِّت، وإذا كان حياً فأين يوجد الآن؟ وأفهمه أنَّ حضوري معه كان بقَصْد مقابلة أخي عبدالله، علَّه حينما يراني يلين قلبه ويستذكر أسرته ووالديه، فيعود معي إلى عنيزة.

وقد أوضح عبدالكريم أن عبدالله حيٌّ موجود مقيم في جدة يعمل حالياً موظفاً عند الحكومة في دائرةٍ تسمى الكنداسة.

فطلب منه عمي أن يكتب له، أي لأخي عبدالله، في جدة كتاباً يطلب منه الحضور إلى مكة بعد انتهاء الحج مباشرةً، لكي يراني ويرى عمَّه، ثم أردف عمي قائلاً مخاطباً عبدالكريم: إننا الآن في طريقنا إلى الصعود إلى منى وعرفة، وأنه من الأفضل أن يكون حضور عبدالله إلى مكة ثالث يوم العيد، ثم ودعنا عبدالكريم متَّجهين إلى خيامنا في الأبطح.

كان المرحوم ابن العم عبدالكريم رجلاً مربوع القامة حنطي اللون، تعلو إحدى عينيه نقطة بيضاء صغيرة، وكان عمره على ما يبدو في حدود ثلاثين إلى خمس وثلاثين سنة. كان نحيل الجسم، لطيف العبارة ودوداً في حديثه مما يجذب إليه محدثه.

حاول معنا أن يستضيفنا على الغداء في بيته فاعتذر منه العم علي بحجة أن غداءنا ضمن (عزبة)، وهم الآن في انتظارنا، ولكنه وعده بتحقيق طلبه حين عودتنا إلى مكة بعد الحج.

العودة إلى خيامنا:

غادرنا الدكان بعد أن ودعنا ابن العم، واتَّجهنا إلى الأبطح سيراً على الأقدام، حيث توجد خيامنا، ورحلتنا ورفاق الرحلة، وكان الجو حاراً، والطريق مكتظاً بجموع حاشدة ما بين رجال حفاةٍ وجمال وحمير وعربات كارو، إذ لم تكن توجد سيارات في ذلك الوقت.

كان الرجال يهرولون أشبه ما يكونون بالإعصار الكاسح، الذي يقتلع

كل شيء أمامه، ترى شعور رؤوسهم تعلو فوق هاماتهم نتيجة لشدة الركض وهو وضع طبعي متى عرفنا طبيعة أفراد البادية، وخاصَّة ممن اعتنقوا (وكلهم كذلك) نحلة الإخوان.

وصلنا بعد جهد ومشقة نتيجة الزحام، وظللنا في مكاننا هذا حتى فجر اليوم الثامن من ذي الحجة ١٣٤٤هـ، وكنا نقضي الأوقات الخمسة في الحرم مشياً على الأقدام في هذا القيظ اللافح، نؤدِّي الفرض ثم نعود، ولك أن تتصوَّر مقدار الجهد والعناء والضنك الذي كنا نعانيه.

صرير السَّواني:

كانت خيمتنا بالأبطح على بعد نحو عشرة أمتار من بستان صغير، يقع في سفح الجبل من جهة الشمال. هذا البستان محاط بجدار من الطين يبلغ ارتفاعه نحو متر ونصف تقريباً، ومساحة البستان قد لا تزيد عن أربعمائة متر تتوسطه بئر يبلغ عمقها، على ما أذكر نحو عشرة أمتار، وعليها ساقية تجرُّها بقرتين تمتحان الماء بالغرب، ثم تصبَّانه في حوض يفرغه بدوره إلى بركة قريبة منه، وقد هزني الشوق وجاشت بي الذكرى عندما سمعت صرير السواني وهي تئن وتتوجع، فتذكرت بلدي وتذكرت مهنتي، وتذكرت قول الشاعر واصفاً هذا الصوت:

الشاكياتُ وما عرفن صبابةً   الباكياتُ بمدمعٍ سحاحِ

التوجه إلى منى:

بعيد صلاة الفجر من اليوم الثامن انتقلنا من مكاننا هذا، وتوجهنا إلى منى فوصلناها بعد ساعتين تقريباً من ارتحالنا.

نصبنا خيامنا قرب مكان في شمال مِنى يسمَّى سوق العرب. سُمِّي بهذه التسمية لأن أصحاب الدكاكين في مكة، وبالأخص ممن يتعاملون مع البادية، يحتلون هذا السوق ببضائعهم أيام الحج في كل عام.

كان شغلنا الشاغل الحصول على أكبر كمية من الماء، نظراً لشدة حرارة الجو، ولأنَّ أمامنا عرفة، ولأنَّ موسم الحج في هذا العام ربما لم

يسبق له مثيل، من حيث عدد القادمين سواء من داخل الجزيرة أو من خارجها؛ لأنه أول عام يتاح فيه الحج بعد أن انتهت الحرب التي دارت أكثر من ثلاث سنوات بين حكومة الشريف حسين وحكومة آل سعود.

مَجْرى عين زبيدة:

كان الماء ينحصر وجوده في مجرى عين زبيدة، وهذا المجرى عبارة عن مسار للماء تحت الأرض، يسير بمحاذاة الجبل، في انحناءات وتعرجات متعددة حتى يصل إلى عرفات. توجد فيه فتحات مكشوفة، يبعد أحدها عن الآخر بنحو أربعين متراً، والماء الذي ينساب كان شحيحاً.

بعد جهد ولأي استطعنا أن نملأ ثلاثة قرب من قربنا الثمان على أمل أن نجد في عرفات ما يمكننا من ملء القرب الباقية، ولكي تدرك مدى الجهد الذي بذله عمي ورجل آخر معه وأنا معهم كنت أمسك القرب الفارغة، يكفي أن تعلم أننا مكثنا أكثر من ست ساعات حتى تمكنا من ذلك نتيجة للتدافع والزحام والعراك مع الآخرين.

المحمل المصري:

امتلأت ساحة منى بالحجاج، واكتظت بالشقادف والجمال ومختلف الدواب بحيث يكاد بعضهم يطأ بعضاً، وكلهم يحاول الحصول على الماء مثلنا؛ لأن هذا اليوم هو يوم التروية كما تعرّفه كتب الفقه (الثامن من ذي الحجة) ضمن من تواجد على الساحة في منى هذا اليوم المحمل المصري، والعساكر التابعون له، لأنه لأول مرة يصل المحمل إلى الحجاز منذ مدة طويلة. والمحمل المصري عبارة عن هودج مربع الشكل جوانبه الأربعة يبلغ ارتفاع كل منها نحو المتر والنصف، مكسو بقماش حرير أخضر تعلوه ماصورة من النحاس الأصفر، تنتهي برمانة ضخمة من النحاس.

هذا الهودج يوضع على ظهر الجمل الذي يقوده جندي متميز بلباس خاص، وخلف الجمل تسير فرقة من الجيش المصري قد يبلغ تعدادها أكثر من مائتي جندي كلهم بلباس الإحرام، وكلهم مدجَّجون بالأسلحة، ومعهم

مجموعة من الجنود قد يبلغون العشرة، يحملون طبولاً وأبواقاً، ينفخون فيها ويرددون أنغاماً موسيقية خلف الجمل.

صدام رجال البادية مع المحمل المصري:

كان موقع المحمل المصري في ذلك اليوم في الجانب الجنوبي من الساحة مما يلي مسجد الخيف في منى، كانت نسبة البادية التي احتوتها منى في ذلك اليوم، وكلهم من الإخوان الذين يمثلون كل قبائل الجزيرة. كانت نسبتهم لبقية الحجاج قد تصل إلى ٨٠٪.

بعد صلاة المغرب من ذلك اليوم عندما خفَّت وطأة الحرارة، وابتدأ الجو بالبرودة، أخذ الحجيج في طيِّ خيامهم متَّجهين إلى عرفات، وبينما كنا نطوي خيامنا، ونضع أمتعتنا على رواحلنا، إذا بنا نسمع لعلعة الرصاص، وكأنه صواعق تنهال على الأرض، وكانت أصداؤها بين جبال منى تزيدها شدة وعنفاً. وفجأة انقلب الوضع إلى صراخ وصياح وركض على غير هدى، دواب وأشخاص بعضها يطأ بعضاً، كلٌّ منها يحاول النجاة، وكلها أخذت في اتجاهٍ من الشرق إلى الغرب، بالاتجاه إلى مكة.

ظل هذا الوضع نحو ربع ساعة تقريباً، وإذا بالرصاص فجأةً يصمت، ونسمع عشراتٍ من الخيل تجري بكل سرعة على مختلف الجهات بين الحجيج، وعليها رجال ينادون بأعلى أصواتهم (الأمان يا حُجَّاج. . الأمان يا حُجَّاج. . الأمان يا حُجَّاج). انتهى كل شيء، لا خوف ولا رصاص. . . عودوا إلى وضعكم الطبعي.

مكث الناس مشدوهين يتساءلون: ما الذي حدث؟ وشيئاً فشيئاً عُرِفت الحقيقة، وهي أنَّ ما حدث كان نتيجةً لما وقع بين الإخوان وبين حرس المحمل المصري. إذ أن الإخوان ما كادوا يسمعون صوت الموسيقى، تعزفها فِرقة المحمل، حتى أسرعوا إلى الجنود المصريين يضربونهم لإسكاتهم، ثم تطوَّر الأمر إلى إطلاق الرصاص من كلا الجانبين.

ومن لطف الله بالحجيج أنه كان مخيم الملك عبدالعزيز ـ يرحمه الله ـ

على مقربةٍ من موقع الحادث، وكان موكبه بطبيعة الحال يتألف من مجموعات كثيرة من الخيل التي ترافقه، فما كاد يسمع الرصاص حتى أسرع بكل جهده بإرسال القوّة التي كانت معه للفَصْل بين الإخوان وجنود المَحْمَل بعد أن أخذ أدوات الموسيقى التي كانت مع الجنود، وقد ذُكر فيما بعد أنَّ القتلى من جنود المحمل قد لا يقلّون عن عشرة، وأنَّ من قُتِل من الإخوان قد يكون ضعف هذا العدد، كما أن جرحى الإخوان قد يبلغون الأربعين نفراً.

وقد شاهدتُ بنفسي في صباح اليوم التالي، ونحن نصل إلى أرض عرفة، أن مَرّ بجواري أحد الأخوان على ناقته والشقُّ الأيمن من وجهه بما فيه عينه مدلاة يسيلُ منها الدم.

هَدَأَتْ الحال، وظلَّ الناس مبهوتين في أماكنهم غير مطمئنين حتى مضى الهزيع الأول من الليل، ثم ابتدؤوا في الرحيل من منى إلى عرفة، وكانت الخيل لا زالت تتردَّد على جنبات منى مخترقةً صفوف الحجيج وهي تطمئنهم، وتخبرهم أن لا خوف عليهم.

إلى عرفة:

في منتصف الليل غادرنا مكاننا في مِنى متَّجهين إلى عرفات، فوصلناها بُعَيْد شروق الشمس، فأقمنا خيامنا على مَقْرُبة من جبل الصخرات الكبار، ذلك الجبل الذي وقف عليه رسول الله ﷺ في حَجَّة الوداع.

جبل الرحمة:

كنا على مقربة منه من جهة الشمال، تفصلنا عنه بضعة أمتار فقط، وهذا الجبل يقع في شرق عرفة أو يميل إلى الجنوب الشرقي، وارتفاعه على ما أذكر قد لا يزيد على عشرة أمتار، يعلو قمته بناء أبيض عبارة عن جدار أشبه بمحراب، مُطْليّ بالنُورة البيضاء، ويبلغ ارتفاعه نحو مترين.

كان الزحام شديداً، وكان الجو ملتهباً، والجموع الحاشدة التي لا ينتظمها توجيه أو ترتيب بعضها يدوس بعضاً، لا أحد يعترض أو يوجِّه؛

فوضى في فوضى، يضاف إلى ذلك حرارة الجو، وشحُّ الماء، وعدمُ القدرة على الانتقال من مكان إلى آخر.

قضيْنَا ذلك اليوم داخل خيمتنا في الوقوف بين يَدَي الله مُلبّين خاشعين، رافعين أكفَّنا بالضراعة والابتهال إلى خالق الكون أن يرحمَنا ويغفر لنا.

كان الجوُّ خاشعاً، وكنا نسمع النشيج والبكاء عن يميننا ويسارنا، وأينما اتَّجهنا، وكلها نفوس ضارعة إلى الله تفعل كما نفعل بل إنها أكثر منا خشوعاً.

ومما يجب ذكره أننا مكثنا نحو أربع ساعات - بعد أن صلينا الظهر والعصر جَمْعاً في مخيمنا في هذا الجو اللاهب، الذي يصفع بالسُمُوم وجوهَنا، وكأنه فيحٌ من جهنم. مضت كل هذه المدة دون أن نحسَّ بأيِّ إزعاج أو إثارة، بل كان الواحد منا يشعر بهدوءٍ نفسي، وبانفعال عاطفي وبشفافية روحانية لا يحسُّ معها بأيِّ ألم، حتى إننا كُنا نفضِّل أن يتأخَّر مغيب الشمس حتى نظلَّ على وضعنا.

إلى مزدلفة:

غربت الشَّمس فابتدأ هذا البحر الزاخر من البشر يتَّجه بقوة وعنف مغادراً أرض عرفات، أمّا نحن فقد رأى عمي - وكان الصواب فيما فعل - أن نتريَّث ثلاث ساعات في مكاننا حتى يخفَّ الزحام.

أقمنا نحو أربع ساعات، ثم انطلقنا إلى مُزْدلفة فأقمنا فيها نحو ساعتين، تناولنا العشاء ولقطنا الجَمَرات.

إلى منى:

صلَّينا الفجر في مزدلفة، وواصلنا السَّيْر إلى منى، بعد أن وقفنا نحو ربع ساعة بمحاذاة المَشْعر الحرام.

كنا نمشي خطوةً خطوة، وقد نقف أكثر من ربع ساعة لكي نجد فُرْجَةً

ننفذ منها إلى الأمام من شِدَّة الزحام، وبكل الجهد والعناء والتعب وَصلنا إلى مِنى حوالي صلاة الظهر، فنصبنا خيمتنا في الموضع نفسه الذي كنا نصبناها فيه أولاً، أي: بقرب سوق العرب.

تركنا المرافقين ينصبون الخيام، واتجهْنا مسرعين إلى الجَمْرة الكبرى، حيث قمنا برمي الجمرات.

إلى مكة المكرمة:

ثم واصلنا سَيْرنا إلى مكة ممتطينِ الحمير (ويسمونها رويكب)؛ وصلنا الحرم حوالي الساعة الثانية بعد الظهر، طفنا وسَعَيْنا، ثمَّ صَلَّيْنا العصرَ بعد أن مكثنا نحو ساعة في انتظار وجوب الوقت.

العودة إلى منى:

وبُعيد الصَّلاة عُدنا مباشرةً وبالواسطة نفسها إلى أماكن خيامنا في منى، فوَصَلناها قُبَيْل غروب الشمس بنحو ساعة، وهناك تحللنا من الإحرام وارتدينا ملابسنا، وبتنا تلك الليلة في راحةٍ قد لا أبالغ إذا قلت: إنها ألذُّ نَومَةٍ نمتها في حياتي، وبالطبع كان الآخرون مثلي، ولا غرو في ذلك، فهي تأتي بعد كل ما مرَّ علينا وقاسيناه من متاعب ومشاق خلال ذلك اليوم.

نحر الهدي:

في اليوم الثاني ذهب عمي إلى حيث توجد أماكن بيع الغنم لشراء الهَدْي عنه وعنا، وكما فهمتُ فإنه اشترى خروفين: أحدهما عنه والآخر عن زوجته، أمّا أنا فلم يفدِ عني؛ حيث أخبرني أنه لم يجب عليَّ الهدي بعد؛ لأنني لا زلت دون سنِّ الرُّشْد.

وقد قبلتُ منه هذا التعليل على مَضَض، وقد فهمت منه أن قيمة الخروف المتوسط تتراوح ما بين خمسة ريالات إلى ستة ريالات، وقد يكون أقل كما في أنواع الماعز.

ذبح عمي الضحايا في موضع شرائها وأحضر بواسطة أحد الحمالين (التكارنة الإفريقيين) قسماً منها إلى المخيم.

رمي الجمار آخر أيام التشريق:

في اليوم الثالث بعد أن رَمَيْنا الجمراتْ الثلاث شدَّدنا رحالَنا قُبَيْل الظهر، ثم أوقفناها وعليها أمتعتنا، وعندها أحد رفاق الرحلة مُمْسِكاً بخطام الجمل، ثم توجَّهتُ أنا وعمي وزوجته حيث قمنا برمي الجمار بعد صلاة الظهر، وقد كُتبت لنا الحياة بأعجوبة حيث لم نكد نخرج من معمعة هذا الزِّحام إلا بمعجزة قرب صلاة العصر، إذ تمكنَّا بكل جهد ومشقَّة من الانفلات من تلك الحشود الزاخرة، فما كدنا نصل إلى رحالنا حتى أصبح كلٌّ منا على الأرض يلهث من شدَّة التَّعب والعطش.

العودة إلى مكة المكرمة:

بعد استراحة قصيرةٍ واصلنا سَيْرَنا مُتَّجهين إلى مكة، فوصلناها بعد صلاة العشاء، وكان السَّيْر يتمُّ خطوةً خطوةً، متعرِّضين للدفع والضرب في بعض الأحيان.

أنخنا في الأبْطَح مرةً أخرى قريباً من مكاننا السابق. بتنا تلك الليلة وشعرنا براحةٍ ما بعدها راحة، وفي الصباح الباكر قمنا نشيطين، حيث تناولنا الفطور، وكان عبارة عن كمية محدودة من التمر، مع بضع أقراص من الكليجة (وهي أقراص من البر، يعرفها أهل القصيم).

صحن الفول:

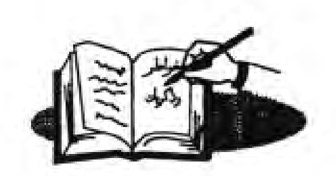
اتجهنا منحدرين إلى الجَوْدرية بعد طلوع الشَّمس بنحو نصف ساعة، قاصدين دكّان عبدالكريم الحسون ابن العم الذي سَبَق ذكره، وقد تقابلنا وإيَّاه على باب دكانه، إذ كان تلك اللحظة يفتح الدكان ويُخْرِج الثياب، ويعلِّقها أمام بابه من الخارج.

رحَّب بنا، وأجْلَسنا في الدكان، ثم غاب عنا نحو عشرة دقائق، عاد

بعدها ومعه إناءٌ فيه فول، ومجموعة أقراص من الخبز، وكان هذا الفول بالنسبة لي أول فولٍ آكلُهُ وأتذوَّقُ طعمه.

كان الجو مريحاً إذْ قَضَيْنا على ما في الصحن من الفول مع ما معه من الخبز، رغم أننا ـ كما ذكرتُ ـ سبقَ وأن فَطَرْنا.

بعذ ذلك نادى على صبيِّ جارهِ الملاصق لدكانه صائحاً عليه: أحضر لنا براد أبو ستة. أي: براد شاهي يكفي لستة فناجيل، وبعد دقائق حضر البراد ومعه أربعة فناجيل.





بماذا أجابنا أخي عبدالله:

استفسر عمي من عبدالكريم عن إجابة ابن أخيه عبدالله: هل حضر أو وعد بالحضور؟ أجاب عبدالكريم بقوله: إنه تلقَّى يوم أمس مهاتفة تليفونية من جدة مفادها أنه لا يستطيع الحضور إلى مكة، حيث لا يستطيع ترك عمله، ويطلب منا ـ أي: من عمي ومني ـ أن نذهب إليه في جُدَّة.

استاء عمي أشدَّ الاستياء من هذه الإجابة، وهو معذورٌ في ذلك؛ لأنه ليس وحده، بل معه زوجته ومعه الجمال التي استأجرها، وهذا يجعل الذهاب إلى جدة مستحيلاً بالنسبة له.

أما أنا فكنتُ على العكس كان يغمرني فَيْضٌ من السرور والفرحة إذ سأتمكن من رؤية أخي لأول مرة، ولأن أخي ـ فوق ذلك ـ حيٌّ موجود.

حاول عمي إقناع عبدالكريم بأن يعيد الاتصال مع عبدالله لإقناعه بضرورة الحضور ولو ليومٍ واحد، موضِّحاً له الأسباب التي تحول دون حضورِ عمي إلى جدة.

بعد نقاشٍ طويل بلغ الغضب بعمي أشدَّه، لأنه سبق أن وعد أبي بإعادتي معه إلى عُنَيْزة، ولأنه رأى على ملامح وجهي أنني مرتاحٌ للذهاب إلى جُدَّة، إذ أنني لم أمانع بأن أذهب وحدي، وبعد مناقشة مطوَّلة استقرَّ الرأي بين عبدالكريم وعمي على أن يبقى عمي في مكة لمدة ثلاثة أيام،

يقوم عبدالكريم خلالها بإرسالي إلى جدة لكي أقابل أخي عبدالله ليوم واحد فقط، ثم أعود إلى مكة لأعود بالتالي مع عمي إلى عُنَيزة.

وافق عمي على هذا الرأي على مَضَض وضيق وانفعال ظاهر، إذ لم يَجِدْ أمامه سوىٰ هذا الحل.

ساحة جَرْوَل:

بعد صلاة المغرب من ذلك اليوم وكنا قد تناولنا طعام الغداء، في دكان عبدالكريم، وبعد أن أحضر لنا لحماً مشوياً وبعض أقراص الخبز إذ كان عزباً، اصطحبني ابن العم عبدالكريم مُمْسِكاً بيدي مُتَّجهاً بي إلى مكانٍ عرفتُ فيما بعد أنه يُسمَّى جَرْوَل، وهو موضع فسيح تزْدحم فيه عشرات الجمال، تعلوها الشقادف التي يحتوي كل شُقْدُف منها نفراً أو نَفَرين من حجاج الجاوة.

سَيْر القوافل من مكة إلى جدة:

كانت هذه الساحة مجتمعَ قوافل البدو الذين ينقلون الحجَّاج من مكة إلى جُدَّة، وكان يوجد فيها مركز شرطة يقوم بترتيب سَيْر القوافل، وينظِّم سَيْرها بإعطاء كل قافلة رقماً مُتَسَلْسِلاً، وبدون هذه الورقة لا نستطيع السَّيْر.

وفي الوقت نفسِهِ يقوم الكثير من رجال الشرطة بضرب البَدْو والجمال لإبعاد بعضهم عن بعض، إذ هم متشابكون على موقع المركز، كلٌّ يريد أن يسبق الآخر بأخذ إذن السير.

وكانت الإضاءة خافتة، إذ لا يوجد سوى إتريك علاقي واحد، معلَّق بعمود على باب المخفر؛ ولك أن تتصوّر مقدار العناء والمشقة لمن يقدر له أن يكون موجوداً في هذا المكان، حيث يجد نفسه كالكرة؛ إن سَلم من عصا الشرطي لا يسلم من دفع البدوي له بمرفقه أو قبضة يده أو دفعه بعنف.

وصف أحد رجال القوافل:

على بُعد بضعة أمتار من هذا المركز، وقف ابن العم عبدالكريم مُمْسكاً بيدي، وتحدَّث مع أحدِ رجال القوافل وكان يلبس عقالاً مقصَّباً، ويلبس ثوباً ذا أردان طويلة، ويلف على خاصرته قطعة من القماش حمراء طويلة، يشدها من خلفه فتتدلى أطرافها من خلف ظهره وهي المعروفة بـ (الدسمال).

كان الرجل فارعَ الطول، أسود البشرة، مفتول العضلات، كأنه عملاق. كنت مشدوهاً بالصورة التي أمامي، بينما كان ابن العم عبدالكريم يتحدث مع الرجل، وأنهى حديثه معه.

لم أشعر إلا وعبدالكريم يقول لي بعد أن وضع في كفي قطعة فضية صغيرة عرفت فيما بعد أنها عِملة أندنوسية تسمى (كِتُبْ)، وضعها في كفي وقال: احتفظ بها لتشتري ما تحتاجه، ثم ودَّعني مشيراً إلى الرجل بيده قائلاً: هذا الرجل، اذهب معه يوصلك إلى جدة، وفجأةً اختفى عبدالكريم وسط هذا الطُّوفان من البشر.

في الطريق إلى جدة:

التفتُّ يميناً وشمالاً لأرى عبدالكريم، وإذا به كما يقول المثل العامي: (فص ملح وذاب)، إذاً لم يبقَ ثمَّةَ مجال للتفكير، وعليَّ أن أتمسَّك بتلابيب هذا الرجل البدوي العملاق حتى لا أضيِّعه، وكان الأنسب لذلك هو أن أمسك بكلتا يدي بأطراف دسماله الأحمر، الملتف على خصره والمتدلي من خلفه، فكان لضخامته وقوته لا يكاد يشعر بمن يمسك به.

قوافل الجمال:

بعد جهد جهيد أخذ ورقة الإذن بالسير، ثم ساقَ قافلةَ جماله التي تبلغ نحو العشرة، كلٌّ منها يحمل شُقدفين على ظهره به نفرين من الحجاج. سارت القافلة على بركة الله، وكانت القافلة جزءاً من كل. إذ إن

أمامها عشرات القوافل، وخلفها كذلك، ممتدةً في طابور طويل إلى مسافات طويلة.

بعد الابتعاد عن مكة أخذ رؤساء القوافل يتجمّعون بعضهم مع بعض، بحيث تكون القافلة أمامهم، ويسيرون هم خلف آخر جمل منها على هيئةِ صفٌ أحدهما بجوار الآخر، يتبادلون أطراف الحديث؛.

كنت أنا أسير خلف هذا الصف ممسكاً بدسمال البدوي. كان الوقت آنذاك حوالي منتصف الليل.

طول المسير وشدة التعب:

ظللت أسير حتى أخذتُ أشعر بالتعب، خاصة وأن خَطْوَ هؤلاء العمالقة واسعة بينما خطوتي قصيرة لصغر سِنِّي، مما يحملني على السرعة في السير.

كنت أنتظر من هذا البدوي العملاق أن يُركِبني أو يلتفت إليَّ أو يسألني، ولكنه لم يُعِرني أيَّ اهتمام. ثم بدأت ما بين فترة وأخرى أشدّ طرف الدسمال إليَّ بعنف آملاً في أن يهتمَّ بشأني، ولكنه كان حينما يلتفت إليَّ يصرخ في وجهي: «إمشِ يا ولد».

شيئاً فشيئاً خارت عزيمتي من التعب، فلم أعد قادراً على مواصلة السَّيْر، فاغتنمت فرصة مرورنا على أول كثيب رَمْل حيث غرزت فيه أقدامي، وجلستُ في الأرض، فالتفت إليَّ صارخاً وقال: «إمشِ يا ولد». فقلت: «ما أقدر أمشي، أرجعني لأهلي».

ركوبي على الحِدَاجة:

وهنا اتجه إليَّ، وأمسك بعضدي الأيْسَر، ورفعني إلى أعلى، واتجه إلى آخر جمل أمامه ووضعني على الحِداجة، وهي عبارة عن كيسين من الخيش محشوَّة بالتبْن والصوف، توضع على ظهر البعير مشدودة بقوائم خشب صغار، لكي تقي ظهر البعير من ما يسببه الحِمْل الذي يوضع عليه من جروح.

جلست القرفصاء على الحداجة: على طرفها الخلفي، متحفزاً أنظر عن يميني وعن شمالي، ولكني لم أبصر شيئاً لأنَّ داخل الشُقْدُف ظلامٌ دامس؛ إذ هو مكسو من الخارج بأردية وبسط تمنع عنه منافذ النور، ويبدو أن من بداخله نائمين.

وهنا وقبل أن أصفَ ما سألاقيه داخل هذا الشقدُف، لا بد لي من وقفة أستعرض فيها بعض الذكريات.

أجناس بشرية جديدة!

فأولاً: في موضع طفولتي، أي: في بلدي عُنيزة، لا أعرف أنَّ هنالك أجناساً أخرى من الآدميين، بل كل ما أعرفه أن الرجال صنفان إما أبيض وإما أسود، الأبيض هو الحر، والأسود هو العبد المملوك أو الذي أُعتق من الرق.

والبيض سحنتهم وملامحهم متشابهة من حيث تقاسيم الوجه، ومن حيث شموخ الأنف، ومن حيث الملامح الأخرى. والعبد به الشيء نفسه إلا أنه في الغالب يكون أنفه أفطساً. مضافاً إلى ذلك فإنه ـ بحسب مداركي ـ لا يوجد لغة غير اللغة العربية. فلم أكن أعلم أنَّ هناك أجناساً متمايزة السمات، مختلفة السحن، متعددة اللغات، متباينة في القامات والقصر والطول والملامح.

مجتمع النسوة العجائز:

وثانياً: كنتُ أختزن في ذاكرتي كل الأحاديث التي كانت تتبادلها مجموعة من العجائز اللاتي يجتمعن يومياً بعد صلاة المغرب حتى بعد صلاة العشاء بنحو ساعة، في بيت (أم الدقْسي)، التي كانت دارها بجوار دارنا، والتي كانت أُمِّي رحمةُ الله عليها تذهبُ في أغلب الأوقات إلى مجتمع هذه العجائز هذا، وتصطحبني معها، وكنتُ آنذاك في حدود الثانية أو الثالثة من العمر، بحيث أعي ما أسمع.

حكايات أم الدقسي:

كانت أم الدقسي هذه عجوزاً حيزبوناً كفيفة البصر، قد شارفت على المائة عام من العمر، وكانت تختزن في جعبتها قصصاً وأحاديث لا تنتهي من الخرافات، تدور كلها حول السَحَرَة وحول الجن وحول العفاريت وحول (السَّعَالْوَا)، (وكلمة السعالوا في مصطلحها تعني حيواناً غريباً غير مرئي يقتنص الأطفال ويبتلعهم)، كما أنها عندما تتحدث عن السحر تروي قصصاً عن فلان الفلاني المقيم في عُمان مثلاً، كيف أنه سحر عِلاَّن المقيم في الهند مثلاً، فأحضَرَهُ من الهند إلى عمان على نبع (والنبع هو هيكل النخلة بعد سقوطها على الأرض).

أما العفاريت والجن فحدِّث ولا حرج، تبتدع لها قَصَصاً مشوِّقةً لا تنتهي ومجموعة العجائز يُصدِّقن كلَّ كلمة تقولها، ويستخلص كل من يسمع هذه الأقاصيص أن الطفل أثناء طفولته معرَّض للعفاريت، ومعرَّض للسعالوا، وللسحرة وإلى غير ذلك، حيث يصطادونه أينما وجد.

موقف مرعب:

واصلت القافلة سيرها وكنت آنذاك كما شرحتُ سابقاً جالساً على مؤخرة الحداجة: مما يلي خلف البعير، كنتُ أجلس القرفصاء جامعاً ركبتيَّ إلى صدري، وجالساً على أقدامي ومؤخرة عجزي.

مكثتُ دقائقَ متحفِّزاً مذعوراً، أجيلُ طرفي عن يميني ويساري داخل الشُقدف، ولكني لا أرى سوى الظلام الدامس؛ فالشقدف محاط بسياج من البسط، لا يوجد فيه أي منفذ للنور، كنت مذعوراً وكانت شدة الظلام تزيدني رعباً، وفيما كنتُ أحاول جاهداً التفكير فيما يجب أن أفعل إذا بي أحس عن يميني بحركة خفيفة توحي بأنَّ في هذا الظلام شيئاً ما يتحرك!!

وهنا أحسستُ بالخوف فجأة يملأ نفسي، وإذا بشعر رأسي يقفُ، ولساني ييبس، ومفاصلي تتعقد، وفجأة أحسُ من الجانب الآخر الحركة نفسها.

وهنا مَثُلَتْ في أعماقِ نفسي جميع الصور والقصص والخرافات التي كانت تلقيها أم الدقسي ـ لا بارك الله فيها ـ وتحدث بها العجائز كما ذكرت سابقاً.

في هذه اللحظات أحسستُ بصوتِ خرير ماءٍ يصب من إناء لآخر، وأحسست أيضاً بحركة أشد من الجانبين، وهنا تأكد لي أنني في قبضة جنٍّ وعفاريت أم الدقسي، فحاولتُ أن أزحزح نفسي إلى الوراء لكي أقذف بنفسي إلى الأرض هروباً من هذا الهول الذي أتصوَّره، ولكني لم أستطع التحرك قِيدَ أُنملة؛ لأنَّ أعصابي مشدودة، ولأني عبارة عن قطعة من الخشب لا حراك فيها.

وهنا طرق سمعي صوت من إحدى جوانب الشقدف، أَعقبَ صوت خرير الماء، وهو يقترب مني رويداً رويداً حسب ما يتضح من نَبْرة الصوت، ويردد كلمة (بَقُّوس، بَقُّوس)، فكنت أهتز لكي أتفلَّت من الوضع، ولكن بدون جدوى، ويبدو أنَّ صاحب الصوت الذي سمعته ابتدأ يبتعد عني قليلاً ثم سكت فجأةً ولعلَّهُ رأى الحالة التي كنتُ أرتعش خلالها، ومحاولتي الانكفاء إلى الوراء فأشفق عليَّ.

لم أعرف ماهيَّة هذا الصوت: أهو صوت إنسان أم حيوان، أم صوت عفريت، أم صوت سَعَالْوَا الذي رسختهم في ذهني حكايات أم الدُّقْسي، فالصوت وإن كان بذاته يدلُّ على أنه صوت إنسان إلا أنني لم أكن أعرف آنذاك أنَّ هنالك أصواتاً غير الصوت العربي.

وقد اتضح فيما بعد أنَّ جاريَّ في الشُقْدُف إنسانين: رجلٌ وأنثى، ولكنهما خارجان عن نطاق معرفتي وتصوري، أما كلمة (بَقُّوس) فهي ـ على ما أعتقد وكما عرفتُ فيما بعد ـ تعني بلسان إخواننا الأندونوسيين كلمة (طيِّب، طيِّب).

فكأنهما لاحظا ما كنتُ عليه ساعتئذٍ من وَجَلٍ وخوف، فأحبّا أن يطمئناني بهذه الكلمة التي لم أدرك معناها آنذاك، ثم أشفقا عليَّ فكفَّا عن الحديث وعن الحركة.

مضى الليل طويلاً، وكنت أرتعشُ في مكاني من الخوف والرعب كعصفورٍ بلله القطر. لعل القارىء العزيز لهذه الأسطر لن يجد مشقةً في مدى تصوُّر مدى الهول الذي عشته تلك الساعات من الليل، والتي كان ابنلاجُ نور الفجر فيها أشبه بالحياة تعود لجسمٍ ميت.

الوصول إلى بحرة:

توقفتِ القافلة، ولا أستطيع تحديد مدى الوقت الذي مرَّ عليَّ وأنا في تلك الحالة، توقفت القافلة وإذا بالبسط ترفع عن مقدمة الشُّقدف فيدخل الضوء، فأبصرُ من كان معي فإذا هما آدميان: ذكر وأنثى، فُطْسِ الأنوف، غريبا الشكل بالنسبة لي، غريبا الملبس؛ وإذا بجرة ماء من الفخَّار معلقة بمقدمة الشقدف، وهي التي سمعت خرير الماء منها.

أحضر البدوي سُلَّماً قصيراً أنزل بواسطته هذين الشخصين، ثم خاطبني بقوله: «انزل يا ولد»، ولكنني رغم فرحتي وابتهاجي بنور الصبح لم أستطع الحراك من مكاني؛ لأنَّ أعصابي ما زالت مشدودة، وعندما رآني لم أستجب دار من خلف البعير والتقطني بإحدى يديه، وقذف بي إلى الأرض.

بقيت كسيحاً في مكاني فترةً قد لا تقل عن الساعة، كنت أحاول تمديد رجلي وتحريكهما، وكان أخشى ما أخشاه أن يذهب بالجمال ويتركني في موضعي، ولكنَّ لطف الله كان أوسع، إذ أخذ ينيخ جماله بعد أن أنزل ما عليهم من شقادف على الأرض، أخذ ينيخها على مقربة مني على شكل دائرة رؤوسها متقابلة، ثم غاب عني يتبعه جارايَ في الشقدف حتى اختفوا عن ناظريَّ، وخلال ذلك كنتُ قد استعدت قواي، ووضعي الطبيعي، وأصبحتُ قادراً على الوقوف والمشي، وزالت عني يبوسة حلقي ولساني.

عمود من الدخان:

وهنا وقفتُ أدير بصري في أنحاء الساحة، فإذا بها مكان فسيح من الأرض، تملؤه العشرات والعشرات من قوافل الحجاج، وكلها قد أناخت جمالها ووضعتها على هيئة حلقات كما هي حال قافلتي التي وَصَفْتُ، وإذا

بي أشاهد عن بُعد عموداً من الدخان، يرتفع إلى أعلى على بُعد مسافة، ونظراً لما مرَّ بي من خوف ورعب وهَوْل، ولأنني لم أذق أي طعام أو شراب منذ خروجي من مكة، فقد أحسستُ بالجوع يلوي بطني ليّاً، وأحسستُ بصُداعٍ في الرأس، وهو ينتابني عادةً عندما أفتقد الشاهي.

أحسستُ بشيءٍ من النشاط، وبرغبة ملحَّة جامحة للوصول إلى حيثُ ينبعث ذلك الدخان، ولكن كيف السبيل إليه دون أن أضيِّع جِمال قافلتي؟ فبيني وبينه مئات من الإبل، وكلها باركة على النمط نفسه الذي أشرتُ إليه سابقاً والجمال متشابهة.

جلستُ أفكِّر ثم أفكِّر، وبعد أن كدتُ أيأس من الاهتداء إلى وسيلة تُمكنني من تحقيق أمنيتي: إذا بالذاكرة تسعفني بحيلة ساذجة ومضحكة، ولكنها في الوقت نفسه كانت فعَّالة ومُجدية، وحققت لي الأمل فعلاً.

محاولة للوصول إلى مصدر الدخان:

كانت أرض الساحة شديدة التراب بمعنى أنك ما تكاد تضع رجلك فيها حتى تغوص في الرمل، نتيجة تعاقب أخفاف قوافل الإبل عليها، بحيث تُمكِّنك أن تخطَّ بإحدى رجليك خطّاً واضحَ المعالم إلى أي مكانٍ تريد. جربتُ أن أخطَّ بقدمي لأتأكد من صحة ظني، وعندما تحققتِ التجربة عدتُ إلى جملي، الذي كنتُ راكباً عليه، والذي لا يبعد عن الشقدف إلا حوالي مترين، وكنتُ أضع على رأسي قطعةً من القماش الدوت على هيئة غترة، وفي أحد طرفيها (الكِتّب) الذي سبق أن أعطاني إيَّاه ابن العم عبدالكريم في مكة ساعة الوداع.

أخرجتُ (الكِتّب) ووضعتُهُ في جَيْبي، وعمدتُ إلى الغترة فطويتها على ذيل جملي وأحكمتُ عقدها عليهِ، ثمَّ ابتدأتُ أغادر موقع الجمل إلى حيثُ مصدر الدخان، مُتَعَرِّجاً ما بين الجمال، وكنتُ كلَّما سرتُ عدةَ أمتار أرجع من حيث ابتدأتُ لأتأكد من صحة طريق العودة.

الوصول إلى المقهى:

وهكذا ظَلِلْتُ أسير حتى وصلتُ إلى مصدر الدخان، وإذا بي أجد مقهى واسعاً مفروشاً بالحصير، وعليه العشرات من الحجاج ما بين ذكور وإناث، وبعض رجال البدو، وبعض أجزاءٍ من المقهى مظلل بقماش الخيام، وفي أحد جوانبه جرة كبيرة من النحاس فيها بزبوز، وتحتها نار مشتعلة، وعلى مقربة منها عشرات البراريد الصغار بتباسيها وفناجيلها، وبجوارها رَجُلٌ فاره الطول، ومعه مجموعة من الأولاد، ويبدو أنهم أبناؤه أو صبيان عنده، يلبُّون طلبات هؤلاء الجالسين، وكانت الأصوات تنهال عليه: أبو أربعة.. أبو ستة.. أبو ثمانية.. وهكذا دواليك؛ فيأخذ البراد ويملؤه من الجرَّة بالماء الحار، بعد أن يضع فيه الشاهي والسكر، ثم يعطيه لأحد الأولاد لكي يوصله لصاحب الطلب.

كما ذكرتُ قد عاد إليَّ صفاء ذهني، وأصبحتُ أفهم الكثير من الكلمات التي تقال، وكنتُ أتلهَّف على أن أتحصَّل على شيء أطفىء به سَوْرة الجوع، أو أن أخطف أحد براريد الشاهي لأزيل به الصُّداع الذي أُحسُّه، وبعد تفكير ارتأيتُ أنَّ أفضل مكان يجب أن أجلس فيه هو بجوار حَلَّة المقهى.

جلستُ متحفِّزاً أدير بصري يمنةً ويسرةً، وبدون شك أن أيَّ إنسان ينظر إلى وضعي يُدرك أني غريب. وكان ممن لاحظ ذلك صاحب المقهى نفسه، إذْ لم تمضِ عدَّة دقائق وإذ بهِ يمرُّ أمامي جيئة وذهاباً أكثر من مرة، ينظر إليَّ خلال ذلك، ويلاحظ تحفُّزي، وكثرة التفاتي، حتى وقف أمامي وقال: «ويش تبي يا ولد؟» أي: ماذا تريد؟ وهنا كانت إجابتي بأن أسرعتُ بمناولته الكِتِّب الذي كنتُ أحمله قائلاً له: (أبي أكل وشاهي).

فأخذ الكِتِّب وأحضر لي براد شاهي، ثم نادى على أحد الأولاد بصوت عالٍ قائلاً: (يا واد أحضر ثلاث أقراص عيش) وفجأةً حضرت إليَّ. كم هي صورة رائعة ومثيرة تلك اللحظة التي وجدتُ أمامي فيها الأكل والشاهي، وبعد تخلصي من كابوس الرُّعب!!

امتلأتِ نفسي بالفرحة والطمأنينة وشعرتُ بصفاءِ الذهن، وبلذَّة الأمان. التهمتُ الأقراص الثلاثة، وقد أشبعتني فعلاً وشربت الشاهي، وعندما لاحظ صاحب المقهى ذلك حيث التهمتها في زمنٍ قياسي لا يتجاوز العشر دقائق، قال: «هل ترغب نزيدك خبزاً؟» أجبته: «لا. ولكني أريد شاهي»، فأحضر لي براداً آخر؛ كل ذلك بفضل (الكِتّبْ) الذي عرفتُ فيما بعد أنه يساوي نصف ريال وهو عملة أندنوسية، وكانت هولندا تحكم أندونيسيا آنذاك.

مشاهد جديدة:

امتلأ البطن، وزال الجوع، وبرادان من الشاهي أزالا جميع أنواع الصُّداع، وبقيتُ فَرِحاً مسروراً في المشاهد التي أراها أمامي. وعن يميني وعن شمالي رجالٌ مختلفو السمات والصور والملبس، ونساءٌ على الشكل نفسه إلا أن البعض منهن ضخمات الأجسام، بعضهن مستلقيات أو متكئات إلى وضع أقرب ما يكون إلى الظهر، تعلو صدورهن أثداء بارزة أشبه بالقُرب، وكان منظر إحداهن، وكأنها بقرة رابضة؛ لأنَّ البقر حينما تربض على الأرض يربض بعضها بجوار بعض.

وقد عرفتُ فيما بعد أن هذا الصنف من النساء هو يمثل بعض الحاجّات المصريات أو السودانيات.

وقد استرعى انتباهي منظر شَدَّني شداً عنيفاً نحو واحدة من هؤلاء النِسوة، التي هي أشبه بالبقرة في ضخامة الجسم. إذ كانت تمسك ما بين آوانه وأخرى لَيّاً طويلاً تُدخِلُ طرفهُ في فمها، ثم تخرجهُ نافثةً مجموعةً من الدخان، وكأن جوفها تنُّور مملوء بالحطب يتصاعد منه الدخان.

في اللحظة التي تُدخِل طرفَ اللي في فمها كنتُ أسمع قرقرة، تنبعث من ماسورةٍ تعلو إناءً مثبتاً على الأرض في قوائم، وفي أعلى هذه الماسورة شيء مدوَّر أشبه بكف يعلوه بعض الجمر.

لم يسبق لي أن شاهدتُ مثل هذا المنظر، وكنتُ أشاهد أنه كلما

وَضَعَتْ اللي في فمها تخرج أصوات قرقرة من الماسورة التي بجواري، ولكي أشبع فضولي بمعرفةِ كيف يخرج الدخان من فم هذه المرأة الضخمة، كنتُ أزحف رُوَيْداً رُوَيْداً من مكاني لكي أصل إليها، ويبدو أنها لاحظت ذلك مني؛ إذ شاهدتني أحبو إليها بين آونة وأخرى، فقالت لي: تعالَ (يا وله) ثم مَدَتْ إليَّ اللَي فإذا به مجوَّف من الداخل، وأشارت بأصبعها بأنَّ الدخان يأتي منها، وأنَّ مصدره من الشيشة التي كانت بجواري.

عُدت إلى مكاني عند حَلَّة الشاهي مسروراً ومُندهشاً لا أقلد قيصر أو كسرى في ملكه. مكثتُ على هذه الحال حتى حان وقت العصر فرأيتهم يُصلُّون جماعات جماعات، واستنتجتُ من ذلك أنه حان وقت الرَّحيل، وكنتُ عرفتُ من صاحب المقهى أن هذا المكان يُسمَّى (بَحْرَة).

العودة إلى القافلة:

عدتُ إلى مكانِ قافلتي سالكاً نفس الخط الذي خططته برجلي حين قدومي إلى المقهى، ومن حُسْن الحظ أنَّ الجو كان ساكناً، كما أنَّ جِمال القوافل لا زالت في موضعها، إذ لو كان هناك ريح أو أنَّ الجمال قد وَقَفت لضاع عليَّ الأثر، وتعذَّر الوصول إلى مكاني.

البحث عن الجمل:

وصلت إلى حيث كنتُ، ولكني دُهشتُ وانزعجتُ أشدَّ الانزعاج إذ وجدتُ جملي لا توجد عليه غُترتي التي كنتُ قد أحكمتُ وضعها على ذيله للتعرف عليه.

كان المنظرُ مزعجاً إذ دبَّ الشك إلى نفسي أنَّ هذا ليس جملي لأن الجمال متشابهة، وكلُّ جملٍ أمامه الشقدف الذي يحملُه.

جلستُ أفكر وتبدل سروري غماً وجزعاً، ما الحيلة للاهتداء إلى جملي الذي أحكمتُ الغترة على ذيله بأكثر من عُقدة؟ وفجأةً لمع في ذهني أن أنظر بين فخذي الجمل، وإذا بي أجد الغترة في أقصى مكان تحت

بطنه، ففرحت كثيراً، وزال عني الخوف والرعب، واستعدت نشاطي وقوتي.

ما كدتُ أصل إلى مكاني، وأتيقن من جملي، حتى ضَجَّت الساحة بُرغاء الإبل التي أطلق أربابها عُقُلَها، وأوقفوها بعد أن وضعوا على ظهورها الشَقَادِف، وإذا بعملاقي البدوي الأسود يحضر إليَّ، وخلفه جاريَّ في الشقدف الأندنوسيِّين، أثار جِماله ثم وضَعَ سُلَّماً صغيراً على مؤخَّرة رقبة الجمل مما يلي جسمه، ثم أصْعَدَهما واحداً إثْرَ الآخر، فاحتل كل منهما مكانه وأنا واقفٌ أشاهد المنظر، وكان يعاونه رجلان على بقية جماله، ينتقل بالسلَّم من جمل إلى جمل، والجمال واقفة في مكانها، حتى أكمل إصعاد جميع الحجاج الذين كانوا معه، وهنا تقدَّم أحد الرجال، وأخذ بزمام واحداً من الجمال يقوده متَّجهاً إلى الأمام مما يلي الغرب، حتى استقام سَيْرُها واحد إثر الآخر، وهنا حضر إليَّ صاحبي وأمسك بذراعي، ووضعني على ظهر الحداجة كما فعل في الليلة السابقة.

بطبيعة الحال اختلف الوضع بالنسبة لي ولجاريّ ساكني الشقدف عن الوضع الذي كنا، أول ركوبي معهم، لقد أصبح الوضع لدي مألوفاً وأصبحت صورة كل منهما ماثلة في ذهني، وتبخرت من ذهني كل حكايات أم الدُّفسي، فلا جن ولا عفاريت ولا سَعَالْوَا، وإنما أشخاص من البشر يدبُّون بصمتٍ وهدوء.

سير القافلة:

سارت القافلة تخبُّ في سيرها، وعن خلفها ويمينها ويسارها عشراتُ القوافل المماثلة. كنتُ مرتاحاً نفسياً، فلا أشكو من جوع، ولا من صداع، ولا من خوف، بيد أني كنتُ متضايقاً من شيءٍ واحد فقط: هو وضعي على الحداجة، فأنا جالس عليها القرفصاء لا وجود لمساحة أمدُّ رجليَّ عليها أو أريح عليها جسمي، مع أنني أرى في الشقدف عن يميني وعن يساري مساحة فاضية، تسعني وتسع آخرين معي؛ لأن أجسام ساكنيها، وهم أندنوسيون، ضئيلة جداً، ولكن هيهات أن أصل إلى هذه المساحة، لانعدام

التفاهم بيني وبين أصحابها؛ فلا أعرف لغتهم حتى أخاطبهم. وسارت القافلة على بركة الله وكان الوقت آنذاك بُعيد صلاة العصر.

كنتُ حاضرَ الذهن، ألتفتُ عن يميني وعن شمالي فجاريَّ في الشقدف قد رفعا الستار المحيط بالشقدف، مما يلي عنق البعير رغبةً في دخول النور والهواء، فأتاح لي ذلك فرصة ثمينة أُجيل فيها بصري على امتداد الفضاء أمامي، فَضْلاً عن دخول الهواء إليَّ.

نوم عميق:

بعد أن قطعنا مسافةً ليست بالقليلة، وأنا أسمع ضجيج القوافل وصراخ البدو: إذا بي فجأةً أغطُّ في نوم عميق، لا أدري متى بدأ، وهو نتيجةً طبيعيةً لحالة الرُّعب والتعب التي مرَّت عليَّ في الليلة السابقة، وما قاسيته من توتر الأعصاب، والجوع والخوف والفزع. غبتُ في سبات عميق.

الوصول إلى جدة:

كانت القافلة خلال ذلك قد أنهت رحلتها ودَخَلَتْ مدينة جدة، قُبيل الفجر، عن طريق باب مكة. لم أشعر إلا وعصا غليظة تنخسني من الخلف «قم يا ولد»، فقمتُ مذعوراً، ألتفتُ يميناً وشمالاً، لأقيِّم وضعي، وفجأة امتدت يدُ إلى عجزي، فسحبتني من ظهر الجمل، وقَذَفَت بي على الأرض، والتفتَ إليَّ العملاق قائلاً، وهو يسحب جماله: «هذه جدة وصلتها؛ جِنَّا انتهينا منك».

برحة نصيف:

المتجهُ من شارع قابل باتجاه الشرق يصل إلى برحة هناك، معروفة ببرحة نصيف، وعندما يصل إلى هذا المكان، واتجاهه إلى الشرق كما قلت يلاحظ عن يساره شارعاً يؤدي به إلى فرن الحنبولي، وعن يمينه بيت نصيف، الذي يقع بين شارعين، أحدهما يمتد إلى الجنوب جاعلاً بيت نصيف عن يساره، والآخر يتجه إلى الجنوب الشرقي جاعلاً بيت نصيف عن

يمينه، في هذا المكان، وبحذاء جدار العمارة التي تفصل الشارع الممتد إلى العَلَوِي عن الشارع الممتد إلى فرن الحنبولي، في هذا المكان بالذات قذف بي البدوي وسحب جماله.

كان الوقت آنذاك في الهزيع الآخير من الليل، وجهي متجه إلى الغرب، وأمامي برحة كبيرة هي الموجودة حالياً والمعروفة ببرحة نصيف. هذه الساحة من الأرض تنتشر مجموعة من الكلاب الضخمة رابضة فيها، وخلفها باتجاه الغرب للمتَّجه إلى شارع قابل مقهى يوجد فيه كراسي مصنوعة من الشريط، وفيه إتريك علاقي.

كان هذا الإتريك يُمَكِّني من رؤية المقهى ومن فيه، ويمكنني أيضاً من رؤية تحرك الكلاب. شاهدتُ عن بُعد شخصاً جالساً على أحد الكراسي تحت الإتريك يحمل عصا غليظة وعلى رأسه عِمَامة مكوَّرة ضخمة.

أين أتجه، وماذا أفعل؟

مرت عليَّ لحظات أفكِّر فيها أين أتجه؟ وماذا أفعل؟ هل أذهب للمقهى، ولكن ذاك مستحيل لأن (كِتِّبي) - العملة التي كانت معي - استأثر به صاحب المقهى في بحرة، ولا يوجد معي سواه وبعد تفكير وحَيْرة قررت أن أذهب إلى هذه القهوة، وأجلس على الأرض بجوار الإتريك حتى الصباح لأنَّ في هذا المكان أماناً لي كما تصوَّرت.

طفل غريب:

ليتصوَّر القارىء الكريم هذه الصورة: طفل غريب يحل في بلد لم تطأها قدماه من قبل، ولا يعرف فيها أي إنسان، كما لا يعرف طرقها ومسالكها، قُذِفَ به في مكان موحش، وتُرِك وحده.

محاولات الوصول إلى المقهى:

بعد برهة شرعت في تنفيذ فكرتي بالوصول إلى المقهى، وكنتُ ملصِقاً ظهري بالجدار الذي كنت أقف بحذائه، ما كدت أمشيء خطوتين حتى هبت

تلك الكلاب منزعجة تنبح بصوت واحد متَّجهة إليَّ، فأسرعتُ عائداً إلى مكاني مُلْصِقاً ظهري بالجدار، وكانت تلك الكلاب أشبه بالعجول من حيث الضخامة.

نباح الكلاب:

ظلت الكلاب لحظاتٍ تنبح بصوت واحد، وهي واقفة في مكانها، ثم ابتدأ نباحها يتلاشى شيئاً فشيئاً، وعادت إلى وضعها السابق رابضة على الأرض، ومادةً أعناقها على التراب طلباً لبرودته.

ظللتُ واقفاً نحو رُبْع ساعة أو أكثر، ثم قدَّرت أنها لن تعاود المحاولة معي مرة أخرى إذا سرت باتجاهها، ولكن ما كدت أتحرك حتى عادت وكررت ما فعلته في السابق، فعدت إلى مكاني مرةً أخرى. كان عدد تلك الكلاب لا يقل عن عشرة.

كررت العملية أربع مرات، وكان ما بين فترة وأخرى زمن لا يقل عن عشرة دقائق، وفي المحاولة الرابعة ظلت الكلاب تنبح بصوت عالٍ مزعج مجتمعة مع بعضها.

يد حانية:

وفي تلك اللحظة كنتُ أشاهد الرجل على كرسي المقهى قد نزل من الكرسي واقفاً، وأقبل متَّجهاً إلى حيث كنت ماراً بالكلاب، ويبدو أنَّ تلك الكلاب كانت على جانب من الذكاء بحيث لم تنبحه احتراماً للعصا الغليظة التي كان يحملها.

عندما مرَّ من أمامي التفت إلى هذا الطفل اللاصق بالجدار في هذا الليل المظلم، واستعاد إلى ذهنه تكرار نباح الكلاب الذي كان يهب فجأة بعنف، ثم يصمت أربع مراتٍ على فترات متقاربة.

وقف الرجل أمامي وقال لي: ليش واقف هنا يا ولد؟ قلت له: أبحث عن والدي. أجابني: أين هو والدك؟ قلت: في المسجد. لأنني تصوَّرتُ

أنه لا بد أن يكون هناك مسجد، وإذا وصلت إلى المسجد ضمنت الأمان. ولهذا قلتُ: والدي في المسجد.

وسألني: لماذا لا تصل لوالدك، فقلت: الكلاب منعتني، فسخَّره الله، وألانَ قلبه، وعطف عليَّ وأخذ بيدي، وقال: امش أُوصلك للمسجد.

مسجد المعمار:

ذهب بي مُمْسِكاً بيدي إلى مسجد المعمار، الذي لم يكن يبعد عن المقهى بأكثر من مائة متر تقريباً. لسوء الحظ وَجَد أنَّ باب المسجد مغلق، فقال لي: هذا المسجد مغلق لا يوجد به أحد، فقلت له: لا أبي في المسجد الثاني الذي بابه مفتوح.

مسجد عَكَّاش:

فمشى معي ممسكاً بيدي، واتَّجهنا معاً منحدرين غرباً عبر شارع قابل، حيث وصلنا إلى مسجد عكَّاش، وإذا بابه من حسن الحظ مفتوح، فقال لي: هذا المسجد الذي يوجد أبوك فيه، ثم ودَّعني وانصرف، وقد دعوت له من أعماق نفسي بكل حرارة على ما قدَّمه لي من عطف ومساعدة.

كان باب المسجد يرتفع عن مستوى الأرض بعدة درجات، وهو واسع في اتّجاه الجنوب على الشارع العام، صعدتُ الدرج ودخلتُ المسجد الذي كان الظلام الدامس يغلفه من كل جوانبه، وقفتُ داخل المسجد بجوار الباب أتدبر أمري؛ أأبقى في مكاني هذا، أم أبحث عن مكان آخر أجد فيه أماناً أكثر؟

وما كادت قدماي تطأ أرض المسجد، وأبصر رهبة الظلام فيه حتى ابتدَأَتْ ذاكرتي تستعيد بصورة مخلفات أم الدقسي، حيث بدأتُ أشعر بالخوف والرعب وسط هذا الظلام.

صراع مع النعاس:

وفيما أنا أعاني دوامة التفكير والوجل أخذتُ أحس بدبيب النعاس يتسلل إلى جفني فخفتُ أن يغلبني النوم، فوقفتُ بسرعة أجيل طرفي فيما حولي، وفجأة لاحظتُ أنَّ على بعد أمتار من مكاني توجد بركة ملأىٰ بالماء، استدللت على ذلك بلمعان عدد من النجوم تظهر على سطح الماء؛ لأنَّ البركة لم تكن مسقوفة كباقي أنحاء المسجد.

انتهزت الفرصة، فاتَّجهت إلى حيث الماء بخطى هادئة خافتة بحيث لا يسمعها ولا يحسُّ بها أحد، حتى وصلت إليها، وبدلاً من أن أغترف بيدي الماء وأرش على وجهي، استعضت عن ذلك بأن أدخل كفي بالماء ثم أسحبها بهدوء ماسحاً بها وجهي، وذلك اجتناباً لما يحدثه صوت الماء فيما لو اغترفتُ بكفي؛ ومسحتُ وجهي، ثم بقيتُ في مكاني على حافة البركة كلما أحسستُ بدبيب النعاس أسرعتُ بدس يدي في الماء ومسح وجهي من جديد.

نور مضيء:

مرَّ علي فترة من الزمن لا أذكر مداها ولكن الذي أذكر أنني بينما كنت في صراع مع النعاس إذا بي أحس بحركة خافتة تدبُّ على بعد أمتار من مكاني، فازددتُ خوفاً وهلعاً ولكن سرعان ما شعَّ النور من فانوس عُلِّق على خشبة المنبر الذي كان يبعد عني بضعة أمتار من جهة الشرق، وإذا بي أرى هناك رجلاً يعلِّق الفانوس، فابتدأ الهدوء يعود إلى نفسي، وينجلي شبح الخوف عنها، ثم اختفى الرجل، فنهضتُ من مكاني متجهاً إلى قرب الفانوس بجوار المنبر.

أذان الفجر:

وبينما كنتُ أفعل ذلك سمعتُ كلمة «الله أكبر» تمزِّق الظلام وتملأ أجواء الكون، أعقبتها بقية كلمات الأذان، كانت شجيَّة النغمات، صوتٌ رخيم يملأ النفس غِبْطةً وحبوراً، وما هي إلا دقائق حتى بدأ المصلُّون

يتوافدون إلى المسجد من بابيه الجنوبي والشمالي. أعقب ذلك بعد نحو نصف ساعة إقامة صلاة الفجر.

صلاة الفجر:

انتهت الصلاة وكنتُ أشاهد أن المصلين لا يَقلُّون عن ثلاثة صفوف وهو وضع محبَّب إلى النفس، إذ يشي بحرص الناس على أداء شعائرهم في أوقاتها وداخل المسجد، وخاصةً صلاة الصبح.

خلا المسجد بعد ذلك من المصلين، اللهم عدا بعض الأشخاص الذين تمددوا نائمين هنا وهناك في جوانب المسجد.

أمَّا أنا فقد بقيتُ في مكاني حتى أشرقت الشمس، وابتدأ الناس يتواجدون في الشوارع، ويتوافدون لفتح دكاكينهم.

وقفتُ على باب المسجد الشمالي أسائل نفسي: أين أنا الآن من موضع الكنداسة يا ترى؟ في أي اتجاهٍ هي حتى أذهب إليها؟

البحث عن «الكنداسة»:

ولأني لم أهتد إلى رأيٍ معيَّن خرجتُ إلى الشارع، وكان أول ما صادفني رجل جالس على مقربة من باب المسجد مباشرةً، أمامه جام يحتوي على مجموعة من الإبر والأزارير وما إليها، وهذا الجام لا يبلغ حجمه أكثر من متر في متر على أكثر تقدير، وكان مُعْتَمّاً بعمامة بيضاء أحكم لفها على رأسه بطريقة معيَّنة، وقفتُ أمامه فخالني أريد شراء بعض الأزارير، ورفع قزاز الجام وفاجأته بقولي: يا عم أين الكنداسة؟ فأطبق الجام مُتَزمِّراً وقال لي دون أن ينظر إليّ: «الكنداسة دُوغري».

كلمات غريبة:

ابتعدت عنه أفكر في هذا (الدوغري) ما هو، لأنني لم أعرف معنى الكلمة، ولم أسمع بها قَط، وهنا رأيتُ شخصاً يفتح دكانه يرتدي فوطةً

وقميصاً وأظنه حضرمياً، أعدت عليه السؤال نفسه: يا عم أين الكنداسة؟ فقال لي: «امشِ دوغري» مشيراً بيده جهة الشمال وهنا مشيتُ على حسب إشارته اليدوية مُسقِطاً من حسابي مدلول كلمة دوغري.

سِرْتُ أمشي ضمن الأشخاص الذين كانوا يعبرون الشارع، ثم بعد فترةٍ وجيزةٍ توقفتُ، لأني لاحظت بأنني أمشي على غير هدى، وهنا التقيتُ بشخصٍ يسير بجواري توسَّمتُ فيه الخير فسألته: يا عمي أين الكنداسة؟ فقال لي: «شوف ـ وأشار بيده إلى الشمال بامتداد سوق الندىٰ ـ عند نهاية الزقاق: «خُش دوغري على الكنداسة» وهنا وقعتُ في (حيص بيص) إذ أضيف إلى كلمة دوغري (زقاق)، وأضيف إليها كلمة (خِش)، وكلها ألفاظ لا أفهمها.

وكنتُ إذ ذاك قد وصلتُ إلى فرن يقع على يميني في نهاية الشارع، وهنا مرَّ بي شاب واضعاً على كتفه عصا ممدودة مسطحة، معلَّقاً في كلٍّ من طرفيها تنكة فارغة، فسألتُه: أين الكنداسة؟ فقال لي: «امش معي أنا رايح الكنداسة».

تَرَكَتْ عبارته في نفسي سعادةً لا يعادلُها سعادة، حيث سيتكفل بإيصالي إلى الكنداسة، وأستريح من طلاسم (دوغري) و (زقاق) و (خش)!!

سِرْتُ خلفه أباريه، حتى وصلنا نهاية الشارع، وهناك كان مقهى عرفتُ فيما بعد أنه يدعى قهوة (خِلّي)، وبجوار هذا المقهى على الشارع دكان وُضِعَت في مدخله جرَّة فول، وينتشر بداخله بعض الكراسي وبعض الطاولات الصغار. وهنا وضع رفيقي تنكتيه على الأرض واضعاً عليها الخشبة الذي عرفتُ فيما بعد أنها تعرف بالبمبة.

شدة الجوع:

دخل رفيقي دكان الفوَّال، وظللتُ أنا في موقفي شاخصاً ببصري إلى جرَّة الفول أتلمَّظ من شدةِ الجوع، وأكاد أقفز إلى داخل الدكان لكي أشاركه الأكل من شدَّة الجوع، ولكن شدة الحياء منعتني، انتهى أخونا وسمعت

الفوال يقول له حينما سأله عن الحساب، أجابه قائلاً: (ست هلل)، ويعلم الله أنني كنت ساعتئذٍ أتلوّى من الجوع.

الوصول إلى الكنداسة:

وضع الرجل تنكاته على كتفه، وقد عرفت، فيما بعد، أنها تُسمَّى (الزَّفَّة)، سرتُ خلفه باتِّجاه الغرب. سرنا حوالي ثلاثمائة متر من مكان الفوال، ومررنا عن يميننا بمسجد عرفتُ فيما بعد أنه مسجد (الباشا)، ثم وصلنا إلى ساحة فسيحة جداً يملؤها من الجنوب مجموعة من البغال والحمير، تجرُّ خلفها براميل محمولة على عجل، مرصوصة بعضُها خلف بعض، وعلى مقربة منها من جهة الشمال عشراتٍ من التنك موضوعة على الأرض، ومصفوفة بعضها بجوار بعض، تبدأ من الغرب من تحت جدار الكنداسة حيث يوجد الهُوز (الصنبور) الخاص بالتنك وبجوارها - أي بجوار التنك - هذه حشد مختلط ما بين رجال ونساء واقفين ينتظرون، وقد لاحظتُ أنَّ النساء كلهن إفريقيات ويسمون (بالتكارنة).

ساحة الكنداسة:

وقفت وسط هذا الحشد وكانت الساحة وصفها كالآتي: يحدها من الجنوب بيت ضخم البناء يعرف ببيت البغدادي، يمرُّ أمامه من جهة الشرق شارع يتَّجه من الجنوب إلى الشمال، ويحدُّها من الشرق بناء من طابق واحد هو (رباط الولايا) - أي الحريم - الذي يطلُّ على الشارع من الغرب، ومن الشمال فندق التيسير، ثم يأتي ملاصقاً له من جهة الغرب بيت الفضل أما من جهة الغرب، فجدار الكنداسة وبابُها الضخم المطل على الشرق، وخلف الجدار من الغرب مكائن الكنداسة وتوانك خزانات الماء.

وقفتُ وسط هذا الجمع الذي يشبه برج بابل، وكان منظري غريباً بالنسبة لهم من حيث الشكل، ومن حيث المنظر، ومن حيث السمات، بدليل أنه لم تمض لحظات حتى تكاثروا حولي وكأنني قرد أو أعجوبة يتفرَّجون عليه.

البحث عن أخي:

كنتُ آنذاك أفكر كيف أهتدي إلى مكان أخي. كان الوقت بعيد شروق الشمس بنحو ربع ساعة تقريباً، سألني أحدهم: «من تريد يا ولد؟» قلتُ: أريد أخي عبدالله المحمد الحسون، أجابني لا يوجد شخص بهذا الاسم، فانزعجتُ وقلتُ بِحِدَّة: هو موجود بالكنداسة، أليست هذه الكنداسة؟ قال: «بلى ولكننا لا نعرف هذا الاسم».

عبدالله الشَّرْقي:

وهنا ابتدأت أشعر بشيءٍ من الرعب يدبُ في نفسي بحيث أوشكتُ أن أجهش بالبكاء، فقال لي شخص آخر بجواره: «الكنداسة ما فيها أحد باسم عبدالله غير عبدالله الشَّرْقي». فقلت بعنف وجزع: لا، أريد أخي عبدالله المحمد الحسون، ولم أكن أعلم بأنه لا يُعرف باسم الحسون، بل يعرف باسم الشرقي، وكانت هذه المجادلة قد كثَّفت الحضور حولي فأخذتُ أبكي بمرارة وشدة، وأكرر عبدالله المحمد الحسون.

كف أخي عبدالله:

وفجأةً وقد غلب عليَّ البكاء بحيث أصبح مسموعاً ومُلفِتاً للنظر، اقترب مني رجل قصير القامة، أشيب الرأس قد جاوز الستين من العمر تقريباً، وقال لي: يا بني لا يوجد في الكنداسة غير عبدالله الشرقي، وفجأة أحسستُ بأنني أرفع يدي اليمنى طاوياً أصابع الكف إلى داخله على هيئة قبضة أهزها وأقول: «أخوي عبدالله يده هكذا يده هكذا».

ولكي يدرك القارىء ما تعني هذه العبارة أوضِّح له ما كنتُ سمعته أكثر من مرة من والديَّ إبان وجودي في عنيزة عندما يتطرقان إلى ذكر عبدالله، ومفاده: أنَّ أخي عبدالله عندما كان في شهور ولادته الأولى رضيعاً ملفوفاً في المهد، كانت والدتي عندما كانت تذهب لتَرُوس الماء، أي توزِّعه على أحواض الزرع في المزرعة، كانت تصْطحبه معها، وإذ كان الجوُّ بارداً في فصل الشتاء عَمِدَتْ إلى وضع حفرة على مقاسه، وعلى مقربة من

وجودها، ووضعته في الحفرة في مهاده، وأشعلت على مقربة منه النار في بعض أعواد الحطب، أملاً في تدفئته، ويبدو أنَّ شرارة من هذا الحطب وصلت إلى مهاده، فعَلِقَتْ النار بالمهد في جهة يده اليمنى، فما كادت الوالدة تشم رائحة العطبة حتى أسرعت بالتقاطه، محاولة تمزيق المهد عنه، ولكن النار قد لَحِقَتْ بكفِّهِ اليمنى فأحرقتها، ولما لم يكن هناك طبيب أو أطباء أو علاج فقد التحمت جروح الكف بعد أن ضمرت أصابع الكف والتصقت ببطن الراحة، فشبَّ وكفه اليمنى على هيئة قبضة.

عند ذاك رفع الرجل صوته قائلاً: نعم نعم، يوجد أخوك في الكنداسة، وكأن قبضتي هذه التي رفعتُها في الهواء كانت مفتاحاً للطلسم الذي فتح لي الحجاب لكي أجد أخي.

سألتُهُ قائلاً: وأنا أكاد أطير من الفرح: «أخوي عبدالله المحمد الحسون موجود في الكنداسة؟» أجابَ: نعم! وعندئذٍ ضجَّ الحضور ساخرين مرِّددين عبدالله الشرقي، وهنا أمسكتُ بالرجل فقال: «إمشِ معي أدلُّك عليه».

حسين أفندي بواب الكنداسة:

وقد عرفت فيما بعد أنَّ هذا الرجل يُدعى حسين أفندي، وكان هو بواب الكنداسة، كان يرتدي ثوباً قصيراً وفوق رأسه كوفية بيضاء وعلى كتفه إحراماً.

سرنا معاً مُتجهين نحو الشرق جاعلينَ رباط الولايا عن يميننا حتى وصلنا قهوة خلِّي التي هي نهاية سوق الندى، ثم اتجهنا إلى الشمال، وبعد نحو مائة متر اعترضنا شارع يتَّجه من الغرب إلى الشرق، اجتزنا هذا الشارع متجهينَ إلى الأمام أي: باتجاه الشمال، وبعد أن مررنا ببيتين متلاصقين عن يميننا اتجهنا إلى اليمين باتجاه الشرق، حيث كان هناك برحة صغيرة، وهنا وقف الرجل، وكان عن يسارنا بيت أحمد بك لاري، وملاصقاً له من جهة الشرق بيت محمد سعيد نعمة الله، كبيرُ معلمي البناء في جدة آنذاك.

وقف الرجل عند انحرافنا إلى هذا الشارع، وأشار لي بيده باتجاه الشرق قائلاً: أترى ذلك الكرسي الشريط والموضوع في الشارع، وأمامه طاولة من الخشب؟ قلت: نعم. قال: الشخص الذي ينام فوقه هو أخوك، ثم انصرف؛ وكانت المسافة بيني وبينه نحو خمسين متر تقريباً.





لقائي الأول بأخي:

وصلت إلى حيث أشار لي، وإذا بي أجد رجلاً نائماً على ذاك الكرسي مُلتحفاً بغطاء من القطن، وبجوار الكرسي من جهة الغرب طاولة خشب عليها براد شاهي فارغ، وبجوارها علبة دخان وعلبة كبريت.

كان الكرسيُّ معترضاً في وسط الشارع رأسه من جهة الجنوب، ورجليه من جهة الشمال. وقفتُ عند الكرسي مما يلي رجليه، وكنتُ تقريباً من حيث الطول لا أزيدُ إلا قليلاً عن ارتفاع الكرسي.

وقفتُ محتاراً أفكر في هذا الشخص الذي أمامي أهو أشيب؟ أهو مُلتحي؟ ما هي صفاته وسماته؟ ثم كيف أُعرِّفه بنفسي؟

وقفتُ حائراً نحو عشر دقائق، وأخيراً استجمعتُ شجاعتي فمددت يدي إلى اللحاف الذي يغطيه، وسحبته إليَّ برفق أملاً في أن أوقظه، وفعلاً تحرَّك ورفع رأسه قليلاً مُلتفتاً يميناً وشمالاً، ثم أعاد رأسه على المخدَّة مواصلاً نومه.

بعد دقائق أعدتُ الكرَّةَ مرةً أخرى، وكأن لساني أغلق، حيث لم أستطع أن أتفوَّه بكلمة.

تململ في فراشه، ثم رفع رأسه مرة أخرى وأجال طرفه، ولكنه لم يتلفت إلى خلفه مما يلي رجليه، ثم عاد إلى النوم.

بعد دقائق أخرى كنت أكثر جرأةً، فسحبتُ الغطاء بشيءٍ من العنف، وهنا استوى جالساً بسرعة، وحانت منه التفاتة نحو مؤخرة الكرسي حيث رآني واقفاً، وعلم أنني السبب في تنغيص نومه عليه. فما كان منه إلا أن أمسك بعلبةِ الدخان وقذفها نحوي بعنف قائلاً: «يا ابن الكلب.. الذي يشحذ لا يوقظ الناس من نومهم».

وقد أصابتني العلبة على حاجب عيني الأيمن حيث انبجس الدم نتيجة للضربة، وانتثر الدخان وورق السجاير على الأرض.

كنت واقفاً مُرْتبكاً معقودَ اللسان لم أستطع النطق، وكأنَّ منظري استفزَّه وحمله على التفكير من أنا. لأنه لو كنت شحاذاً لهربت.

أنا أخوك إبراهيم:

وهنا نزل من الكرسي وأمسك بيدي محاولاً مسح الدم عن حاجبي قائلاً بصوت فيه الكثير من الانكسار والعطف: من أنت؟ وهنا انطلق لساني: أنا أخوك إبراهيم.

هنا أجلسني معه على الكرسي، وأخذ يعاتبني بعد أن احتضنني كثيراً، وقبَّلني بلطف وحنو، أخذ يعاتبني بقوله: لماذا فعلت هذا؟ لماذا لم تقف على رأسي وتوقظني، وتخبرني أنك إبراهيم؟

كان الجو عاطفياً مشحوناً بالانفعال، وأنا أتملَّى صورة أخي وشقيقي أمامي لأوَّل مرة في حياتي، أحسُّه كائناً موجوداً لا كما كان يشاع بأنه قد طواه التراب.

كان موضع الكرسي كما ذكرت في وسط الشارع، وأمامه من جهة الجنوب باب يُطل على الشارع ويفضي إلى الداخل على بناءٍ مسقف ينتهي من جهة الجنوب بساحة مكشوفة قد تبلغ مساحتها ثلاثة أمتار في مترين تنتهي من جهة الجنوب أيضاً بإيوان مسقوف على هيئة إيوان ذو زخارف ونقوش، تبلغ مساحته مساحة الساحة المكشوفة تقريباً، وفي هذا الديوان كراسي خيزران وطاولة خشب، أما الساحة المسقوفة التي تلي الباب فيوجد

فيها كرسي شريط، أمامَهُ طاولة خشب، وهو مماثل للكرسي الذي كان نائماً عليه أخي.

مَسَحَ الدم عن حاجبي وأسرع داخلاً إلى المحل المسقوف في المنزل ثم نادى بأعلى صوته: **يا سيد يا سيد**، وهنا سمعتُ صوتاً يقول: ماذا تريد؟ فقال: أرسلي كلونيا سريعاً. وفجأة حضرت فتاة قد تبلغ الخمس سنوات ومعها زجاجة كلونيا، فسلمتها له، وكانت آتية من باب يطل على الشارع، وبجوار الباب الذي نحن أمامه، وهذا الباب الذي أتت منه الفتاة هو منزل السيد العطّاس.

الداشر:

في هذه الأثناء حضر إلينا شخص يحمل بيده صحناً من الفول، وبعض التميز، وهو الخبز البخاري، وكان فم هذا الشخص منتفخاً من اليمين بشكل ملفت للنظر، وأسنانه سوداء، ويلبس ثوباً لا يكاد يصل ركبه، وواضعاً في وسطه حزاماً.

قال له أخي: أسرع أحضر لنا براد شاهي أبو ثمانية من قهوة خِلّي. وانصرف مُسرِعاً كأنني أنظر إليه محدودب الظهر، وقد عرفت فيما بعد أن هذا الشخص يُدعى (الداشر) وأنه خادمٌ عند أخي، يُحضِر له فطورَه وغذاءَه وعشاءه إلى محلّه، ويشتغل في الوقت نفسه على بغلة تجرُّ برميلاً على عجل لنقل الماء يملك ـ البغلة والبرميل ـ أخي.

لم يمض وقت طويل حتى حضر الشخص ومعه الشاهي، وهنا أقبل علينا شخصٌ مسرعٌ، وقال بأعلى صوته: «يا عم عبدالله تأخرت عن الحضور، ألحق فإنَّ السقّائين قد اشتبكوا مع بعضهم في صراع، كل واحد يريد أن يُقَدِّم برميله إلى الهوز».

عندئذ نهض أخي ـ وكان الوقت نحو الواحدة صباحاً بالتوقيت العربي الذي كان سائداً آنذاك، وهو ما يعادل الساعة السابعة صباحاً بالتوقيت الحالي ـ نهض أخي، آمراً الشخص الذي أحضر الشاهي بأن يدخل الكرسي

والطرابيزة في داخل المحل الذي أمامنا، ثم أمرني بأن أنتظر داخل المنزل ولا أخرج حتى يأتي إليَّ. ثم أقفل عليَّ الباب من الخارج وذهب.

ظَللْتُ محبوساً في مكاني، ولكنني كنت في منتهى الغِبْطة والسرور أستعيد لذة احتضان أخي لي وتقبيله إياي، وهي حالة نفسية لا يستطيع القلم تصويرها، ولا تستطيع ريشة الفنان إبراز معالمها.

صورة أخي:

كانت صورة أخي شاخصةً أمامي، مربوع القامة، نحيف الجسم، غير ملتح، يرتدي قميصاً أبيض شفافاً، وتحته فوطة زرقاء، ينتظمها حِزام عريض أخضر من الجلد، وهو ما يعرف (بالكمر)، وينتعل خُفًّا لمَّاعاً مقفلاً من الأمام مفتوحاً من الخلف يعرف بـ (التَلِّيك).

شريط الذكريات:

مضت الساعات التي سبقت عودته إليَّ وهي لا تقل عن أربع أو خمس ساعات كنت خلالها أستعيد شريط الذكريات التي مرت بي بعد تركي لمرتع صباي، ولأعزِّ الناس لديَّ، وهم أهلي، وعلى رأسهم أبي. أستعيد ذكريات الإخوان وماء (الدفينة)، وحادثه (رُكْبَة)، وقصة (المحمل)، ولحظات الرعب التي عانيتها في الشقدف، ومع جيراني أصحاب كلمة (بَقُّوس)، ثم صراعي مع نزلاء برحة نصيف من الكلاب، وغير ذلك من الذكريات.

عاد أخي، وكم فرحتُ حين شاهدتُهُ يفتح القفل ويدخل إليَّ وخلفه (الداشر) يحمل بين يديه صينية واسعة فيها أكلة دسمة عبارة عن لحم مشوي ورز وأشياء لا أذكرها الآن.

تَرَكَنا الداشر وانصرف، بعد أن وضع كرسيين متقابلين وبينهما الطاولة التي وُضِعَ عليها الأكل. شَرَعْنَا في تناول الغداء متقابلين على الكراسي تفصل بيننا الطاولة. بعد نحو ربع ساعة تقريباً عاد الداشر إلينا مرةً أخرى، وكنا قد فرغنا آنذاك من الأكل، عاد يحمل معه بقشة من الثياب هي عبارة

عن منديل حرير ضخم بباطنه بعض الملابس وأشياء أخرى. وَضَعَها على الكرسي بجوار أخي، وأخذ التبسي وانصرف.

كان بين المكان الذي كنا نجلس فيه وبين الساحة المكشوفة المجاورة له هناك (بيت ماء) فيه زير ماء من الفخار، مملوءٍ بالماء، وطست من النحاس موضوعاً بجواره ومغرافه من التنك.

اخلع ثيابك؟

تركني أخي داخلاً بيت الماء، وكنتُ أسمعه وأنا جالس في محلِّي يصب ماء في الطَّست، وفُجاَةً سمعتُهُ يقول: تعال يا إبراهيم. ذهبتُ إليه فإذا أمامه الطست مملوءاً بالماء، وبيده ليفة، وعلى الأرض قالب صابون مُرَبَّع، وهو الذي كان يُعرَف بالصابون النابلسي، وقفتُ أمامه فقال لي: اخلع ثيابَك. فأصابني شيءٌ من الخَجَل والتردُّد، فنهرني بعنف، وكان ذلك أول مرة أسمع منه في حياتي عبارة جافة.

لم يكن لي مناص من الإذعان للأمر، وأنا في أشد الخجل وهو يُرَدِّدُ كلمة: «أنت عند أخيك. وأخوك مثل أبيك وأمك».

أجلسني في الطست وسط الماء واضعاً ظهري أمامه، وهنا أخذ الليفة وقالب الصابون، وأخذ يدلك جسمي، وبالأخص شعر رأسي بكل شدَّة حتى ليكاد يبرز الدم من شدة الدعك، ثم أنهضني واقفاً، وأخذ يصب على رأسي الماء من الزير حتى اطمأن إلى نظافة جِسمي، وخُلوّه من بقايا الصابون، ثم تناول بُقْشَة الملابس التي كانت على الكرسي قريباً منه، وفك رباطها وأخرج منها قميصاً أبيض شبيهاً بالشاش، له أزارير على الصدر، ثم ألبسني فوطة حرير مخططة، ثم وضع على وسطي كمر جلد، ثم وضع أمامي حذائين لامعين، وضعتهما في رجلي.

ثم اتجهت جالساً على الكرسي، وأخال الطاووس لو رآني في تلك اللحظة وأنا أدير طرفي عن يميني وشمالي زهواً وخيلاءً وفرحاً، لتوارى خَجَلاً من أن يرى نفسه مثالاً للزهو والخيلاء.

مسكن أخي:

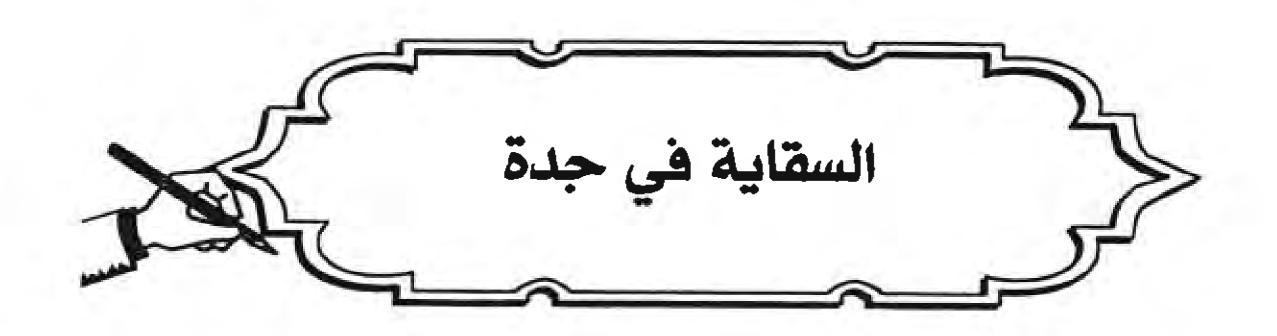
كان مسكن أخي الذي أشرتُ إليه آنفاً يقع في وسط حارة الشام، يقابله من جهة الشمال بيت محمد سعيد نعمت الله، الملاصق له من جهة الغرب بيت أحمد بك لاري، يفصل بينهما شارع صغير مسدود.

برنامج أخي اليومي:

كانت عادة أخي، أو على الأصح برنامجه اليومي، أن يذهب في الصباح أي بُعَيد شروق الشمس بنحو نصف ساعة، يذهب إلى عمله في الكنداسة ويظلُّ يعمل حتى آذان الظهر، ثم ينهي عمله ويعود إلى سَكَنِهِ يتناولُ غداءه الذي يُحضره يومياً خادِمُهُ الداشر، ثم ينام بعد ذلك نحو ساعتين، ثم يعود إلى عمله مرةً أخرى حيث يظل يزاوله حتى قبيل غروب الشمس بنحو نصف ساعة، ثم ينهي عمله، ويعود إلى سكنه.

يظل جالساً في الشارع على الكرسي الشريط، ويَحْضُرْ لديهِ، السقاؤون الذين يعملون لديه يحاسبهم على عملهم اليومي، ثم ينصرفون.





عمل أخي في الكنداسة:

كان عمل أخي في الكنداسة يتم كالآتي: يوجد خلف مكان عمله من الجهة الغربية مما يلي البحر أربعةُ توانك ضخمة، اثنان من الأسفل يعلوهما اثنان آخران مساويان لهما في المساحة والكبر، وكل واحد من هذه التوانك الأربعة مصمم على أن يستوعب ستة وخمسين طناً من الماء، والطنُّ عبارة عن ست وخمسين تنكة أي صفيحة، ومثبت عليهما سلمٌ من الحديد يصعد عليه لقياس الماء الموجود في كل منها.

يتم القياس بواسطة ميزان هو عبارة عن عمود خفيف من الخشب وضعت على امتداد طوله أرقام لقياس الماء، هذه التوانك الأربعة وبجوارها مثلها أيضاً، أي أربعة توانك بالحجم نفسه وبالمواصفات نفسها، هذه التوانك الثمانية تستقبل ما تُنْتِجُهُ مكائن الكنداسة من الماء العَذْب المُحلَّى، الذي تأخذه من البحر ثم تعيده إليه بعد أن تبخر منه هذه الكميات العذبة.

كانت مكائن الكنداسة تبعد عن التوانك التي أشرتُ إليها بنحو عشرين متراً من جهة الشمال الغربي، تتصل التوانك بواسطة مواسير، وكانت تعتمد في عملية التقطير على الفحم الحجري وقوداً، وكان يُستورد من الخارج، وكثيراً ما تتوقف هذه المكائن عن العمل نتيجةً لنفاذ الفحم، وتأخُّر وصول كمية جديدة منه.

إبراهيم الملا:

هناك شخص معيَّن مسؤول من قبل الدولة يعرف بإبراهيم الملا ـ وهو والد عبدالرحمن ملا المعروف «بدَخْمِي الملا» وعم عبدالرزاق ملا، الشاب المعروف آنذاك بالسمت الحسن والاستقامة وحُسن الخلق ـ هذا الرجل ـ أعني إبراهيم الملا ـ مهمته مراقبة وإحصاء كمية ما تنتجه المكائن من الماء وكمية ما ينصرف من هذا الماء بواسطة الموظفين، المعينين لغرض صرف الماء، وهو عبدالله الحسون الشرقي بالنسبة لما يصرف بواسطة البراميل، ومحمد الجطيلي بالنسبة لما يصرف بواسطة التنك.

جهاز الإدارة:

أمّا جهاز الإدارة فيتكوَّن كالآتي: محمد السليمان التركي مديراً، محمد صالح محمود محاسباً، إبراهيم السليمان التركي أميناً للصندوق، إبراهيم الملا المراقَب، وعبدالله الحسون الشرقي، ومحمد الجطيلي وقد ذكرنا وظائفهم.

كذلك حسين أفندي بوَّاباً، وناصر زَبِيْدي فرَّاشاً، وإسماعيل أفندي الهندي مُهندساً، ومعه إلياس هندي معاوناً للمهندس إسماعيل، وأربعة أشخاص لا أعرف أسماءهم يشتغلون بورشة الكنداسة.

كان هناك ماطوراً موضوعاً إلى يمين الداخل إلى الكنداسة، مهمته إنتاج الطاقة لإضاءة مكائن الكنداسة والورشة أثناء العمل، وكان مجموع اللمبات التي كان يُغذِّيها هذا الماطور في حدود ستين لمبة تقريباً، موزَّعة ما بين المكائن وورش الإصلاح ومكاتب الموظفين التي تضاء في وقت رمضان، إذ كان العمل يتمُّ آنذاك ليلاً في رمضان، وذلك بالنسبة للموظفين الإداريين.

يأتي إبراهيم الملا مبكراً في الصباح، ويصعد على السلم، ويتم قياس ما بداخل كل تانكي من الماء من التوانك الثمانية بواسطة ميزان الخشب الذي مرَّ ذكره، وكانت التوانك تحمل أرقاماً تبدأ من الواحد، يسجل لديه

كمية الماء الموجودة، وفي أثناء ذلك يكون مأمورا التصريف اللذان يقومان بتصريف الماء على السقايين قد حَضَرا إليه فيسلم كلاً منهما التوانك التي تخصُّه موضِّحاً له مقدار الكمية الموجودة في كل تانكي من التوانك الأربعة المخصصة له. فيستلمان منه بعد أن يقيسا كمية الماء، ويتأكدا من صحة الكمية. ثمَّ يُباشرا عملية توزيع الماء، كل منهما في اختصاصه، عبدالله الحسون الشرقي يتربَّع على قمَّة جدار يبلغ ارتفاعه عن الأرض نحو متر ونصف، تعلوه ماسورة ممتدة من التانكي في الغرب ومتجهة إلى الشرق مروراً من فوق الجدار بامتداد نحو مترين عن موقع الجدار، وفي طرف الماسورة هذه قطعة من قماش القِلع مشابهة لما يُستعمل في خراطيم سيارات الإطفاء تتدلى من طرف الماسورة بنحو متر، وعلى متن الجدار الذي تربَّع عليه المأمور عبدالله الحسون الشرقي يوجد محبس مستدير مُثبت في الماسورة يتحكم في إطلاق الماء وفي حبسه.

يأتي السقا ببرميله، ويضع فتحة البرميل العليا تحت الهوز، ثم يولج الهوز داخل الفتحة، ثم يأتي ويدفع قيمة ما يستوعبه البرميل من الماء، حيث يتم التسعير بسعر ما يستوعبه البرميل من التنك.

سعر التنكة:

وكانت التنكة بسعر قرش ونصف، أي: ست هلل. فإذا كان البرميل يستوعب اثنتين وعشرين تنكة يدفع عنه ثلاثة وثلاثين قرشاً، على أساس سعر التنكة قرش ونصف.

وإذا كان يستوعب أقل، أي: ستة عشر تنكة، أو أقل، أي: اثنتي عشرة تنكة، وهذه هي الأحجام المستعملة، فيدفع عنها على أساس سعر التنكة الواحدة كل بحجمه.

بعد أن يتم الدفع لمأمور الصرف يدير المأمور محبس الماء، فينطلق يصب في البرميل حتى يمتلىء، ثم يذهب ويأتي غيره وهكذا دواليك.

مخصصات السفارات الأجنبية (الميري):

كانت هناك براميل تخصص للبيع على المواطنين، وهناك براميل أخرى مخصصة لنقل مخصصات السفارات الأجنبية من الماء وتسمى (المِيْري)، وإذا كان جلالة الملك عبدالعزيز موجوداً، فتخصَّص براميل لتوفير الماء في أماكن تواجده.

كان لكل سفارة برميل من فئة اثنتين وعشرين تنكة، تدفع السفارة قيمتها الشهرية حسب السعر لصندوق مالية جدة، أو لصندوق الكنداسة.

وفي حالة دفعها لصندوق المالية تسلِّم سندات الاستلام المأخوذة من المالية وتسلمها لصندوق الكنداسة إشعاراً بقيامها بتسديد ما عليها، وعلى هذا الأساس تتفق السفارة الأجنبية أو القنصلية مع أحد أصحاب البراميل بأن يقوم بإيصال مُقَرَرها إليها يومياً، بعد أن تزودهُ بإشعارٍ يسلِّمه لمأمور صرف الماء، إثباتاً بأن هذا الماء عائدٌ لها.

ويمتاز صاحب البرميل هذا عن غيره من أصحاب البراميل الأخرى بأنه لا يتقيد بترتيب (السِّرا) أي: الوقوف في الصف انتظاراً لمجيء دوره، بل إنه عندما يصل يتخطى من قبله، ويملأ برميله بالطريقة التي ذكرناها.

أما أصحاب البراميل الأخرى وهي التي يتصرف فيها أصحابها ببيعها على المواطنين فما يكاد البرميل يخرج من تحت (الشِيْبْ) أي: الهوز مملوءاً بالماء حتى يتكاثر عليه العديد من الأشخاص ممسكين بالحمار أو البغل الذي يسحب البرميل. هذا يطلب تنكة، وغيره يطلب ثلاث، وهكذا، والسقَّا في الغالب الأكثر يستجيب لطلبهم إلا أنه من حقه أن يتحكم في السعر كيف يشاء، وإذا رفض طالب الماء السعر فإنَّ السقا يعتذر بأنَّ هذا الماء مباع لفلان. مع الأخذ في الاعتبار قرب أو بُعد المنزل المراد توصيل الماء له، وعما إذا كان البيت يتكون من عدَّة طبقات تحتاج من السقَّا الصعود بالزفة إليه.

شيخ السقائين:

وهناك بجوار بيت البغدادي الواقع جنوب ساحة الكنداسة مباشرةً يوجد كرسي شريط يجلس عليه شيخ السقائين، وكان آنذاك الشيخ سالم بامفلح رحمة الله عليه، ومهمته تنظيم سير السقايين، وفصل خصوماتهم، وإلزامهم بالمشي مع الزبائن الذين يطلبون شراء الماء.

السقاؤون:

هؤلاء السقاؤون: منهم اليمني، ومنهم الحضرمي، ومنهم الحجازي، وكان من أبرز هؤلاء السقايين شخصٌ يدعى الفتيني، وهو يمني الأصل ويوجد تحت مسجد الباشا مقهى ينسب إليه ـ والأخوان عبدالله جبره، وموسى جبره من أهل جدة، وصالح بازهير حضرمي، وابن شيخ السقايين علي سالم بامفلح، وعبدالحميد دمياطي وأبناؤه: حسن وحسين، وغيرهم كثيرٌ مما لا تحضرني أسماؤهم.

مشهد لا يُنسى:

وإن أنسى لا أنسى مشهداً حَدَثَ أمامي تحت بصري، وأبطاله واقفون أمامي، وكان ملخصه أنَّ السقا المدعو الفِتيني قد خرج لتوِّه من تحت الهوز بعد ملء برميله إذ اعترضه كل من المرحوم محمد صالح أبو زنادة والد (نوري أبو زنادة) والمرحوم إبراهيم بتَرجي والد علي بترجي، وأخوانه حسن وعبدالرؤوف. ووقفا يترجيانه بتنكتين لكلِ منهما، وهو يصرُّ على أنَّ الماء مباع من السابق للغير، وهو الآن في طريقِ إيصاله إلى مشتريه، ولكنهما لم يصدقاه إذ تأكد لديهما أنها محاولة تملُّص منه، وعندما هدداه بأنهما لن يتركاه أذعن لطلبهما بشرط أن يدفع كل منهما جنيهاً ذهبياً قيمة للتنكة الواحدة، وقد أذعنا لذلك، وكأنهما أمامي بملابسهما الزاهية: جبة من الحرير الأسود وعِمامة على الرأس ذات لفَّة أنيقة، وحذاء أسودَ لمَّاع، وكل منهما في غاية الأناقة، ولا غرو في ذلك فهما يعتبران في مقدمة أعيان جدة.

وكانت هذه الحادثة في أوائل شهر ذي الحجة عام ١٣٤٧ هجرية بجوار بيت البغدادي، وكان الماء المكرر ـ أي: ماء الكنداسة ـ في ذلك الشهر بمنتهى الشح، نظراً لتكرار توقف الكنداسة عن العمل نتيجةً لنفاد موجودها من الفحم.

مقدار الماء الموجود:

يستلم عبدالله الحسون من إبراهيم الملا التوانك المخصصة له، ويسجل لديه مقدار الماء الموجود في كلِ واحد منها بالطن، ثم يشرع بالتوزيع إلى أن ينتهي الدوام، ويتوقف العمل، وعندئذ يقفل المحبس، ويصعد إلى التوانك، ويكون إبراهيم الملا ساعتئذ موجوداً معه، فيقيسان معاً ما تبقى من الماء في التوانك ويسجلانه ولتكن كمية الماء الموجودة في الصباح عند بدء العمل خمسون طناً، وبعد انتهاء العمل أصبح الموجود عشرين طناً، معنى ذلك أنَّ الكمية التي انصرفت هي ثلاثون طناً، وهي الكمية المطلوب من عبدالله الحسون تسديد قيمتها للصندوق.

وكان إبراهيم الملا بعد قياسه للماء صباحاً، وتسليمه لمأموري التوزيع يذهب إلى الإدارة، ليسجّل لدى المحاسبة كمية المسَّلم من الماء لكل من المأمورَين، وكذلك يفعل في الظهر عند الإغلاق، ليسجل الكمية الباقية مما سلم في الصباح. وهكذا يفعل بعد الظهر عندما يسلم المأمورين كميات أخرى، وعند المغرب عندما يستلم منهم المتبقي من الماء تقوم المحاسبة بتحقيق قيمة ما صرفه كل واحد من المأمورَين، وتشعر به أمين الصندوق الذي يستلم ما يُحضِرهُ إليه من النقود كلُّ واحدٍ من المأمورَين الاثنين صباحاً ومساءً.

«بِدَاية» السقائين:

أوضحت سابقاً أنَّ هناك شخصاً يُعرف بشيخ السقايين وهو رجل ربعِ القامة عمره في حدود الستين، وهو مرجع لمشاكل السقائين، سواء في حل مشاكلهم بعضهم مع بعض، أو مع المواطنين، ومن التقاليد المتَّبعة لديهم

أنهم إذا أخطأ أحد السقائين مع أحد زملائه يأتي صاحب الحق إلى الشيخ يشكو إليه اعتداء زميله، وهنا يطلب الشيخ من معاونه أن يخبر جميع السقائين بأنَّ الليلة ستقام (بِداية)، وعليهم جميعاً الحضور، وعدم التخلُّف، وكانت هذه البداية تقام في أحد المقاهي داخل البلد، وغالباً ما تكون في قهوة «خِلِّي» الواقعة في نهاية سوق الندى من جهة الشمال.

تبدأ (البداية) بعد صلاة العشاء مباشرة، ويكون صاحب المقهى قد أُشعر مسبقاً بأنَّه ستقام لديه (بداية) هذه الليلة، الأمر الذي يحمله على جلب أكثر عدد من الكراسي، وفعلاً يمتلىء المقهى، وتمتلىء جميع الكراسي بالسقَّائين الذين توافدوا من كل جهة، وبعضُهم وقوفاً بحيث يصبح الجمع حاشداً ملفتاً للنظر، وفي وسط هذا الحشد تُخصص مساحة من الأرض تبلغ نحو مترين في متر ونصف، هذه تُجعل فضاءً لا أحد يقف عليها بعد أن يتأكد الشيخ الذي قد هُيِّىء، له كرسيٌ مميزٌ تربَّع عليه، وبجواره معاونه النقيب.

يقف المشتكي أمام الحضور موجهاً كلامه للشيخ قائلاً: إن أخي هذا ويسميه باسمه، ويشير إليه بيده، أخي هذا قد فعل معي كيت وكيت وكيت.. عندئذٍ يتململ الشيخ ويدير بَصَرَهُ يمنة ويَسْرة، ثم يقول مخاطباً الحضور: ما رأيكم فيما فعله أخوكم؟ فيقولون بصوت واحد: «مخطىء.. مخطىء.. مخطىء.. يستحق العقاب» وعندئذ يلتفت إلى الشخص المدعى عليه، ويطلب منه الانبطاح على وجهه في تلك الساحة، وهنا يأمر الشيخ اثنين من الواقفين بجواره من السقائين أن يؤدِّبانه، فيقف أحدهما عن يمين المنبطح والآخر عن شماله، وكل منهما معه عصا غليظة ثم في وقت واحد يرفعان هذين الشونين ليهويا بها على ظهر الشخص، ولكنهما ما يكادان يصلان إلى ظهره حتى ينزلا عليه بهدوء وسكينة، وعندئذ يهب الآخرون يتصايحون موجهين كلامهم إلى الشيخ: «أخونا سمع وأطاع، ويكفي ما ناله من جزاء».

فيلتفت إليهما الشيخ قائلاً موجِّهاً كلامه للواقفين: هل سامحتموه وعفوتم عنه؟ فيقولون: نعم.

ثم يلتفت إلى الشاكي ويقول: هل رضيت بالعقوبة التي أنزلناها على أخيك؟ فيقول: ما دام إخواني قد عفوا عنه فقد عفوت عنه. عندئذ يصرخ الشيخ في وجه المنبطح ويقول: «قم ولا تعود لها مرة أخرى».

وقد كنتُ أحرص أشد الحرص على حضور هذه الاجتماعات كلما علمتُ بوجود بداية تقام تلك الليلة.

ومن الواضح أن الشيخ يستفيد من مثل هذه الاجتماعات التي تدرُّ على صاحب المقهى إيراداً في ليلة واحدة قد لا تدره القهوة في كامل الشهر.

عودة إلى الكنداسة:

ذكرنا سابقاً بأن الذي يقوم بتصريف الماء على أصحاب التنك هو المدعو محمد الجطيلي، وواضح أنَّ استلامه لكمية المياه وتسديد أقيام هذه الكميات التي يستلمها تتم بالطريقة نفسها التي أوضحناها عن عبدالله الحسون الشرقي.

أما مكائن الكنداسة، ومتى أُنشئت، فقد أخبرني أكثر من واحد أنها أنشئت في أواخر العهد العثماني وبالتحديد في عام ١٣٢٥هـ.

كان كثير من الأشخاص يملكون براميل ماء، ويقتنون بهائم لجرِّها ولتشغيلها في توزيع الماء، وكلمة بهائم إذا أطلقت يراد بها البغل أو الحمار. يقوم هؤلاء باقتناء هذه البهائم بعضهم يقتصر على واحد وبعضهم يقتني أكثر. وقد يعمل الواحد منهم على بهيم، ويأتي بشخص آخر لكي يعمل على البهيم الآخر.

وكيفية محاسبة هذا الشخص الذي يعمل على البهيم الآخر تتم على أساس أن تكون حصيلة ما جمعه هذا الشخص من الماء الذي باعه خلال هذا اليوم موزعة كالآتي: نصفها يخصص للبهيم، والبرميل يكون من نصيب مالكهما، والنصف الآخر يُقتسم مناصفةً بين هذا العامل وبين مالك البرميل والبهيم، بمعنى أن المالك يأخذ ثلاثة أرباع المحصول، ويأخذ العامل الربع الباقي.

مثال ذلك: أن تكون الحصيلة عشرون ريالاً مثلاً، ينال العامل منها ربعها، أي: خمس ريالات.

بالنسبة للسقّائين حَمَلَة التنك، فبعضهم يحمل تنكتين وتسمى (زفة) وبعضهم يحمل تنكة واحدة، وهذا البعض مقتصرٌ على مجموعات من النساء الإفريقيات، يُعرفن (بالتَكْرُونِيّات)، تحمل الواحدة منهنَّ تنكة على رأسها بعد أن تكون قد دفعت قيمتها ست هلللات، أي: قرش ونصف، وتتجول بها في السوق وبين البيوت رافعةً صوتها بقولها: (مويا كنداسة)، وقد تزيد بعض منهن على هذه الكلمة بقولها: (مويا كنداسة قرشين وقراصة)، ومعنى العبارة أنها ستبيع ما في هذه التنكة بقرشين، وبعض من أقراص الخبز.

وكسبها في هذه التنكة هو نصف قرش بصرف النظر عما قد تتحصل عليه من أقراص الخبز، فإذا استطاعت ـ على أكبر تقدير ـ أن تبيعَ عشر تنكات في الصباح فإن مكسبها هو خمسة قروش فقط، وهذا يدل على قيمة النقود مع رخص الأسعار في تلك الأيام.

مشكلة المياه في جدة:

ذكرت سابقاً أن السفارات والقنصليات خُصِصَ لها كميات معيَّنة من الماء العذْب تستلمها يومياً، وأنَّ هذه السفارات تتفق مع أحد السقائين أصحاب البراميل، ليستلم مخصصها يومياً من مأمور توزيع المياه بالكنداسة، وهذا السقاء الذي يستلم هذه الكميات لا يتقيد (بالسرا)، أي: الطابور أو الصف.

وما دمنا بصدد الماء فمن المناسب أن نذكر لمحة عن مشكلة المياه التي كان يعاني منها كل مواطن في جدة. إذ هي المشكلة الأولى في حياته اليومية.

مصادر المياه التي تؤمِّن للمواطنين حاجتهم اليومية من المياه تنحصر في ثلاثة مصادر:

المصدر الأول: وقد أوْضَحناه مفصَّلاً فيما سبق وهو الماء الناتج عن

الكنداسة، وهذا النوع من الماء يُستعمل فقط للشرب أو للشاهي.

المصدر الثاني: مصدره ما يتواجد في الصهاريج نتيجةً لهطول الأمطار في مواسمها السنويّة من كل عام، إذ إن مدينة جدة يحيط بها على شكل قوس مجموعة وافرة من الصهاريج، يمتد هذا القوس من الجنوب الغربي ماراً بالشرق والشمال الغربي.

ومجموع هذه الصهاريج قد لا تقل عن مائة وخمسين صهريجاً، وهي متفاوتة من حيث الحجم عُمْقاً وعرضاً.

وكلمة صهريج تعني وجود حفرة من الأرض قد يبلغ عمقها عن سطح الأرض ما بين عشرة إلى خمسة عشر متراً مشيدة على أسوار أربعة مبنية بمادة حجرية وهي المعروفة بالحجر المنقبي، وبمادة معينة من شأنها أن تمنع تسرب الماء عند تجمُّعه، وأسطح هذه الحفر تعلوها فتحات متباعدة على امتداد السطح، ما بين فتحة وأخرى ثلاثة أمتار تقريباً، وقد تبلغ هذه الفتحات أكثر من عشر للصهريج الواحد، وكل فتحة مثبت عليها غطاء من الخشب ينتهي بقفل من الحديد، يتم إغلاقه، ولا يفتح إلا حين يراد الكشف لقياس كمية الماء الموجود، أو للشروع في تصريف هذا الماء.

وتوجد هذه الصهاريج على أساس وضع هندسي، بحيث تكون في منخفض من الأرض، ولها فتحات على هيئة نوافذ باتجاه الشرق، وواضح أن طبيعة أرض جدة تبدأ بالانحدار بطريقة انسيابية، بدءاً من الجبال الشرقية باتجاه الغرب، ومعنى هذا أن الأمطار عندما تهطل تتَّجه منسابةً من الشرق إلى الغرب، بحيث تعترضها هذه الصهاريج وتستوعبها وتحتفظ بها، علماً بأنّ لكل صهريج نوافذ أخرى مقابل النوافذ التي تستقبل الماء عند انسيابه، ومهمة هذه النوافذ الأخيرة هي السماح للماء بالخروج من الصهريج عند امتلائه، ولها ميزة أخرى أيضاً هي خروج الفضلات التي يحملها السيل عند دخوله إلى الصهريج، هذا في حالة غزارة الأمطار، وامتلاء الصهاريج، أمّا في حالة ضحالة الأمطار فإن هذه الفضلات للأسف تظل في الماء في باطن الصهريج.

صهاريج جدة:

وهذه الصهاريج[1] عريقة القدم، لا يوجد هناك مصدر تاريخي يحدِّد تاريخ إنشائها. وهي مملوكة لأسر توارثتها عن طريق الآباء والجدود، وهي أيضاً سلعة تنتقل من مالك إلى مالك آخر بالبيع والشراء، ولكل واحد من هذه الصهاريج اسم معيَّن يُعرف به، فهناك صهريج المشَّاط، وهو أكبر هذه الصهاريج على الإطلاق، إذ أنه في حالة امتلائهِ يكفي تزويد جدة لمدَّة لا تقل عن أربعة أشهر، وهذا الصهريج ومعه عدَّة صهاريج أخرى كانت ملكاً لآل نَصِيْف، ويتولى أمرها آنذاك الأفندي محمد حسين نصيف، عين أعيان جدة رحمة الله عليه.

وهناك صهريج النُّوري، وهو يلي المشاط من حيث المساحة، ويملكه الشيخ محمد صالح أبو زنادة، وهناك صهريج نجد، وصهريج القُصِيرْ، وعدة صهاريج أخرى تعود لملكية آل نصيف أيضاً، وهناك صهاريج يملكها أفراد وهي أقل حجماً مما ذكرنا كصهريج فَرْي القَيْلَة.

المصدر الثالث: أمّا المصدر الثالث من مصادر تموين جدة بالمياه فهي الحُفَر، ومنها حفرة الشَرَفِية، وهي عبارة عن منخفض من الأرض يحيط به

---

(١) مواقع الصهاريج:

١ ـ صهريج المشاط يقع شرق مدينة جدة شرق قصر خُزَام مباشرةً غرب النزلة اليمانية للمتجه إلى مكة المكرمة.

٢ ـ صهريج النُّوري: شرق القشلة بحوالي ٥٠٠ متر.

٣ ـ صهريج نجد: نهاية شارع غزة شرقاً.

٤ ـ صهريج القُصير: قريب من ميدان المطار القديم.

٥ ـ صهريج أبو درج: طريق مكة على اليسار، حوالي كيلو اثنين.

٦ ـ صهريج النمر: جنوب جدة في الهنداوية، جنوب باب شريف، وشمال شارع الميناء ومؤسسات عبد الله هاشم، وغرب أملاك أبو نصيب الحَبَشِي.

٧ ـ صهريج أحمد ناس وأبو الطيور: بداية الصحيفة جنوب شارع أبو عبيدة، شرق باب مكة.

٨ ـ صهريج باذيب: شرق جدة.

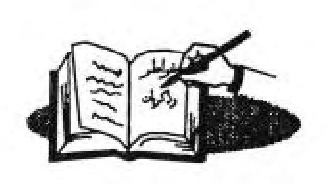
من الشمال والغرب والجنوب ردم عال من الطين، وهذا الموضع يمتلىء وقت هطول الأمطار، ويمتاز بأنه بعد تصريف ما به من ماء يظل يحتفظ بكميات من الماء باستمرار، ولكن بكمية كبيرة من الملوحة، وهذه الحفرة مملوكة لحميد الشيخ، وتعرف بالشرفية شمال شرق جدة.

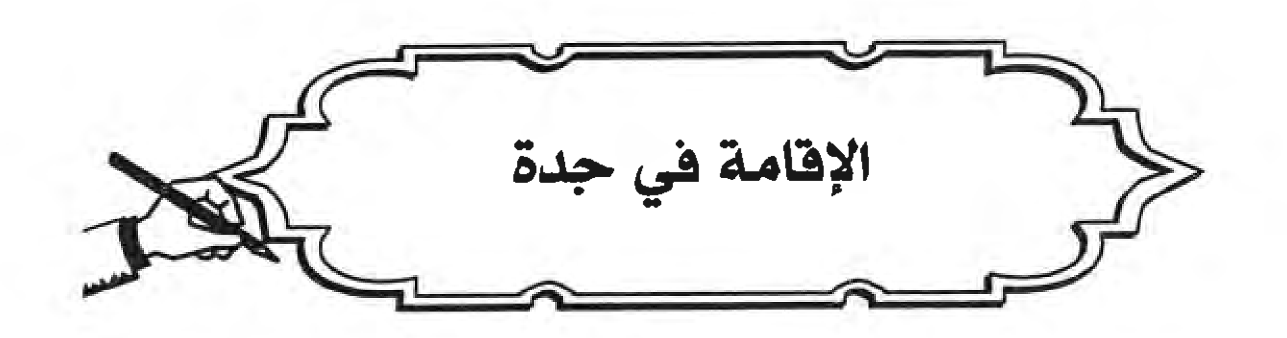
علماً بأن نسبة ٨٠٪ ثمانين في المائة من بيوت جدة لا يخلو كل بيت منها من وجود صهريج تحت البيت، ويكون سطح البيت مصمَّم على أن يجتمع ما ينزل عليه من مطر ينساب إلى زاوية من السطح متصلة بماسورة من السطح إلى الصهريج تحت البيت، فتحتفظ هذه الصهاريج بكل ما ينزل من ماء على سطوح المنازل، وقد يعمد الكثير من الموسرين عند غزارة الأمطار، وامتلاء الصهاريج الخارجية التي تقع حول مدينة جدة إلى جلب كميات ضخمة من مياه الصهاريج بواسطة البراميل التي تجرُّها البهائم، وتفريغها في صهريج البيت، إضافةً إلى ما يكون هناك من ماء الأمطار.

مقدار المياه في الصهاريج:

أما بالنسبة لمقدار ما يستوعبه كل صهريج من كميّات الماء الناتجة عن نزول الأمطار، فهو يختلف كثرةً وقلةً، بحسب حجم الصهريج نفسه، إذ قد تبلغ الكمية ألوف الأطنان، بل مئات الألوف كماَ هو الشأن في صهريج المَشَّاط، الذي كما قلنا يستطيعُ تمويلَ مدينة جدة بحاجتها من الماء لمدة لا تقل عن أربعة أشهر، ومن هذا يفهم ضخامة ما يستوعبه من الماء.

ومساحة صهريج المشَّاط قد لا تقل عن سبعين متراً طولاً، وعشرين متراً عرضاً، وخمسةَ عشرَ متراً عُمقاً، وتتفاوت بقية الصهاريج الأخرى على حسب أحجامها، وأقلها لا يمكن أن يقل عن عشرين متراً طولاً، في خمسةِ أمتار عرضاً، في ثمانية أمتار عمقاً.





عود على بدء:

تحدثت فيما سبق عن اللقاء الأول الذي تمَّ بيني وبين أخي، كيف تم، وما هي الصورة التي تمَّ بها، والجوُّ النفسي الذي تخللها والحديث الذي تبودل خلالها، بيني وبين أخي، ونعود الآن إلى استكمال الحديث حول ما أعقب هذا اللقاء.

فقد ظلَّ أخي أكثرَ من ساعتين وهو يسألني عن الوطن، وعن الأهل، وعن الوالدين، وعن الأخوة، وعن الجيران، والمعارف من بقي منهم ومن ارتحل، وعن الأحوال المعيشية، وبالجملة كان مُسْتَقْصياً للسؤال عن كل شاردة وواردة، وكنتُ أجيبُه بإسهاب.

كان يسألني عن أسماء أشخاص لا أعرفهم، ويبدو أنهم رحلوا قبل مجيئي إلى هذه الحياة، وكان يسألني عن السَّواني، وعن الفِلاحة، وعن الديَّان (العُبْدي)، وهل لا يزال مُمْسِكاً برقبة أبي، على أساس أنَّه الشخص الوحيد الذي يستدين منه، كنت أجيبه عن كلِّ ما سأل.

وعندما انتهى الحديث عُدنا لمناقشة موضوع عمِّي علي، ومتى سأعود له في مكة، لأنه في انتظاري تنفيذاً للوعد الذي قطعه على نفسه لأبي بإحضاري معه حين عودته. إذ أنَّ والدي لم يُعْطِ موافقته على سفري إلا على أساس هذا الشرط.

هنا فاجأني بقوله: أنت لن تعود إلى مكة، والعم علي سنكتب له

ونقنعه بأن من المصلحة بقاؤك عندي، كما سنكتب للوالد كتاباً مطولاً آخر نشرح له أنني أنا الذي منعتُ عودتك، ونوضِّح له الأسباب التي بنيتُ عليها هذا القرار، وهي أسباب جميعها تصبُّ في مصلحتك، ووالدنا لن يعارض في موضوع يتعلَّق بمصلحتك، خاصةً وهو يعلم أنك عند شقيقك، وأنَّ شقيقك لن يقلَّ حِرْصُهُ على مصلحتك عن حرص والدك، وفوق ذلك: فسوف أرضي والدي وعمِّي بما يُطيِّب خواطرهم.

رسالة وهدايا إلى والدي وعمي:

وفعلاً حضر في تلك الليلة إبراهيم السليمان التركي، وأملى عليه كتاباً إلى والدي شرح له الموضوع، وهو أنه يريد تعليمي بإدخالي المدرسة ومرفقاً بالكتاب عشرون جنيهاً ذهبياً، كما كتب لعمي علي كتاباً آخر، يحتوي على المضمون نفسه، ومرفقٌ به خمسة جنيهات ذهبية كما أذكر.

لقد غمرني فيضٌ من الفرحة والسرور لهذا التصرُّف من أخي، حيث علمتُ منه لأول مرة أنني سأبقى هنا، وأني سأدخل مدرسةً للتعليم، ولأن أبي سوف يبتهج أيَّما ابتهاج بهذه المنحة السخيَّة التي هي بلا شك ستفي بتسديد ديون (العُبْدي المعيبد)، التي كانت دائماً تأخذ بخناق والدي رحمة الله عليه، وكذلك بالنسبة لعمِّي علي فإنَّ هذه المنحة له سترضيه كل الرضا، لأنها ستعوِّضه عن نفقات رحلة حَجِّه هذا مضاعفة.

أرسلتُ الكتب عن طريق مكتب الصَنِيع بمكة، وكان موجوداً في شارع المُدَّعى، وحُوِّل المبلغ عن طريقه، وهو خمسة وعشرون جنيهاً ذهبياً، سُلِّمت مع الكتابين لابن العم عبدالكريم الحسون في مكة لكي يسلِّمها لعمي علي، لكي يعود إلى عُنَيْزَة بدوني.

لمحة عن أخي عبدالله:

كنتُ سعيداً بوجودي مع أخي، وقد فهمتُ من حديثي معه أنه قدم إلى الحجاز مع خالي عبدالعزيز العضيبي، في العهد العثماني، أي: في حوالي أوائل العقد الثالث من القرن الرابع عشر الهجري، إبَّان حكم الدولة

العثمانية، وكان عمره آنذاك ـ حسب ما يذكر ـ حوالى التسع سنوات، وحَدَثَ أن انتقل خالي إلى رحمة الله في مِنى أثناء الحج نتيجةً لوباء الكوليرا، فعاد أخي إلى مكة، وهناك عطف عليه عبدالله الجفالي (والد إبراهيم الجفالي وإخوانه أحمد وعلي)، إذ كان يوجد آنذاك مجموعة من أهل عُنيزة في كلٍ من جدة ومكة، يزاول أكثرهم مهنة التجارة: كالجفالي والعقل في مكة، وكالفضل والصنيع وعبدالله التركي وناصر التركي وعبدالله العلي البسَّام والميمان في جُدَّة.

عبدالله الجفالي:

علم المرحوم عبدالله الجفالي عن وضع أخي، ويبدو أن خالي كان على صلة بالجفَّالي، وكان متَّصلاً به حين قدومه إلى مكة ومعه أخي، بدليل أن أخي بعد عودته من منىً قَصَدَ بيت الجفالي رأساً، ممَّا يُوحي بأنَّ هناك صلة.

العمل في بيت الجفالي:

احتفظ به الجفالي صبياً في البيت، يقوم بخدمة طلبات المنزل وبتربية الأولاد، فقد ذُكر لي أنه كان يحمل علي الجفالي هذا، ومن بعده أخيه أحمد على كتفه ـ حينما كانوا صغاراً ـ، ثم بعد أن شبَّ واشتد عوده كُلِّفَ بأن يكون سقَّاءً للبيت يُمَوِّن البيت يومياً من بازان المَعْلاَه بالزفة من ماء العين، وكان ـ كما فهمت منه ـ يقوم بنقل ما لا يقل عن خمس زفات يومياً يصعد بها درجَ ثلاثة طوابقَ من بيت الجفَّالي الواقع على سفح الجبل آنذاك.

تقلُّب أخي في عدة مهن:

ظلَّ مُدةً قد لا تقل عن خمسة عشر عاماً يعمل في بيت الجفالي كما ذكرتُ، ثم انتقل إلى جدة، وتقلَّب في شتى الأعمال، فتارةً يعمل في مقهى، وحيناً يعمل في صيدلية، وحيناً آخر تجدهِ صبياً مُرافقاً، يخدم أحد التجار العنيزيين، وهو المدعو عمر بن عقيل المُلقب بـ(المُجَيْرشة)، يخدمه، ويعاونه على تصريف تجارته، التي كان يتنقل بها بين مواقع جيش الشريف

علي وأخيه فيصل، ما بين المدينة وينبع وسكة حديد الحجاز.

وكانت تجارتهم عبارة عن مُستلزمات البدو من قهوة وهيل وملابس جاهزة ومشالح وأحذية وما إلى ذلك، مما يحتاجه رجال البادية، يتنقلون من مكان إلى آخر، حيث يتواجد هؤلاء البدو الذين يُكوِّنون رجال الجيش الهاشمي.

زواج لم يدم:

ثم بعد ذلك أصبح يعمل في عدة مهن، فأصبح صاحب مقهى مستقل، ثم تزوَّج بعد ذلك، وكان يقيم في حوش يُعرَف بحوش النخلة على مقربة من بيت زينل في حارة اليمن، شرق الخاسكيّة.

بيد أن هذا الزواج لم يقدر له الاستمرار؛ إذ لم يدم أكثر من سنة وفشل، وتمَّ الافتراق دون أن ينتج منه أي خلف، ولا أعرف أسرة الزوجة، ولا اسمها ولا أسباب فشل الزواج، وقد أفهمني ذلك بصورةٍ مُجْملة، ولم أر هناك مبرِّراً يجعلني أستقصي منه عن بعض التفاصيل.

دخول الدولة السعودية إلى الحجاز:

ظلَّ بعد ذلك مدة لا أعرف مقدارها حتى دَخَلَتْ الدولة السعودية إلى الحجاز، واستَلَمَتْ جُدَّة في جمادى الأولى عام ألف وثلاثمائة وأربعة وأربعين (١٣٤٤هـ)، بعد أن تنازل الشريف علي، وغادر الحجاز بعد اتفاق أُبرم بينه وبين الملك عبدالعزيز، وكان من ضمن شروط الاتفاق أن تقوم هيئة من قِبَل الملك عبدالعزيز لتستلم دوائر الحكومة وأملاكها من الموظفين الذين كانوا يعملون عليها من قِبَل الشريف، وكان يرأسُ تلك الهيئة السعودية المرحوم ناصر التركي، وعبدالله المحمَّد الفضل، وعلي العمَّاري، وإبراهيم الصَنَيْع، وقد ترتَّب على ذلك أن عُيِّن بعضُ النجديين في بعض الوظائف ومن ضمنهم أخي عبدالله إذ عُيِّنَ مأموراً للكنداسة براتب مائتي قرش شهرياً، ومثله محمد الجطيلي.



مصاحبة أخي إلى مقرِّ عمله:

مضت عدة أيام وأنا حبيس بيت أخي صباحاً ومساءً، ثم ابتدأ يصطحبني معه صباحاً إلى مقرِّ عمله في الكنداسة، حيث أجلس على مقربةٍ منه حتى ينتهي الدوام، ويذهبُ بالنقود المتجمّعة لديه إلى أمين الصندوق، ثم نعود سوياً إلى موقع مسكننا في بيت السيد العطّاس، الذي سَبَق أن وصفته.

أول تأديب لي من أخي:

وفي اليوم الثاني من بَدْءِ اصْطحابه لي معه تأخَّرتُ بعد الظهر عن الذهاب معه إذ أخذني النوم، ويبدو أنه لم يشأ أن يوقظني، فتركني نائماً وذهب إلى عمله، وعندما استيقظتُ، وكان الوقت آنذاك قريباً من موعد انتهاء الدوام لديه، ومع علمي بأنه لم يبق على عودته إلا القليل من الوقت قد لا يزيد عن ساعة، إلا أنني رغم ذلك أحببتُ أن أذهب إليه لكي نعود معاً، وعندما وصلتُ إلى محاذاة مسجد الباشا من جهة الجنوب المقابل لرباط الولايا، إذا بالداشر جالس على كرسي شريط في الشارع وأمامه طاولة خشب وعليها برّاد شاهي، ولأنه يعرفني سألني: أين أنت ذاهب؟ قلت: إلى أخي. قال لي: إن دوامه قد انتهى، وهو الآن عند أمين الصندوق، فأنت اجلس معي على الكرسي حيث سيمرُّ بنا قريباً.

جلوسي مع الداشر:

ولأنني لم تكن عندي أي خلفية عن ما هو مرغوب فيه، وعن ما ليس بمُسْتساغ من حيث آداب السلوك، وخاصّة وأنَّ الداشر هذا يتصل بي يومياً مرتين بل ثلاث مرات لإحضاره لنا وجبات الأكل، فلم أرَ بأساً من إجابة دعوته، والجلوس معه على الكرسي الموضوع في وسط الشارع، ثم سكب فنجاناً من الشاهي وناولني إيَّاه.

وما كدت أمسك به حتى شاهدتُ أخي مُقبلاً إليَّ، قادماً من الكنداسة، وبمجرَّد أن شاهدته وضعتُ الفنجان، ونزلت من الكرسي واقفاً،

فمرَّ بي أخي، وسار دون أن يكلِّمني أو يكلِّم الداشر، فسرتُ خلفه وعند دخولنا من باب المنزل اتَّجه أخي إلى الداخل، أي إلى الساحة المكشوفة. سار مُتَّجهاً إلى الساحة قائلاً لي دون أن يلتفتَ إليَّ: اقفل الباب الخارجي، وتعال إليَّ؛ فأقفلتُ الباب، وتبعتُه دون أن أعلم ماذا كان يبيِّت لي.

ضربٌ مبرِّح:

ما كدتُ أصل إليه حتى حملني وقذف بي على الأرض، وكان معه عصا غليظة، وأخذ يضربني ضرباً مبرحاً، ويقلِّبني كما تقلَّب اللحمة على السفُّود، وكنتُ أصرخ بأعلى صوتي وأستغيثُ وأستنجد، ثم اختنق صوتي بحيث أصبح لا يُسمع، ولحُسْن الحظ أن عائلة السيد العطاس ـ وكان لها نوافذ تطلُّ على الساحة هذه ـ سمعت صُراخي، وأطلَّت من الطاقة، وشَاهدَتِ المنظر فصارتْ تصرخ: أنقذوا الولد، أنقذوا الولد، قتله قتله، وذلك بأعلى صوتها، وفجأةً أُقتُحِم البابُ الخارجي بعنف بحيث انفتح الباب، ودخل منه أحدُ الأشخاص، هو السيد العطاس أو محمد سعيد نعمة الله لأنَّ محمد سعيد نعمة الله كان يجلس على كرسي شريط إلى جانب الشارع المقابل لباب سكنانا، لم أعرف من الذي دخل، ولكن الشيء العالق بذهني أنني سمعتُ شخصاً مُمْسِكاً بأخي، ويقول له: اتق الله، قتلت الولد، وفعلاً كفَّ عن الضرب ثم خرج.

آثار الضرب المبرِّح:

مكثت في مكاني أكثر من ساعتين لا أستطيع القيام نظراً لآثار الضرب المبرِّح الذي تلقيتُهُ ثم تحاملتُ على نفسي فنهضتُ إلى حيثُ يوجد الكرسي الذي كنت أجلس عليه داخل البيت، وهنا حضر الداشر فأخرج الكرسي العائد لأخي، ثم طلب مني النزول لكي يأخذ الكرسي الذي كنتُ جالساً عليه، ولكنه لاحظ وضعي النفسي وآثار الضرب البادية على جسمي فأنزلني من فوق الكرسي، ثم أخرج الكرسي إلى الشارع، ووضعه بمحاذاة كرسي أخي كالعادة، ثم عاد إليَّ وأمسك بعضدي، وأنهضني من الأرض، وسار بي حتى أوصلني إلى الكرسي وحملني عليه.

كانت آثار الضرب وآلامه لا زالت تشتدُّ أكثر فأكثر، وهنا غلبني النوم فنمت، ولم أفق إلا في صباح اليوم الثاني، ولم أذق تلك الليلة العشاء، وأعلَمَ الداشر أخي بالحالة التي كنتُ عليها، وأنه هو الذي ساعدني وأجلسني على الكرسي، حيث لم يكن أخي موجوداً آنذاك.

في صباح اليوم التالي استيقظتُ نَشِطَاً إلى حدٍ ما، وكانَ الداشر قد أحضر الفطور، ففطرتُ أنا وأخي، أفطرت معه لأنني كنتُ جائعاً، وقد ساعدني ذلك على استرجاع بعض نشاطي.

فَطَرْنَا وحان موعد انصرافه إلى عمله، فقال لي: هيا معي، فقلت: لا أستطيع لأنني متعب، وهنا وجَّه كلامه للداشر، فقال له: أدخل الكراسي وأغلِق عليه الباب؛ ثم ذهب.

دوَّامة تفكير:

كنتُ في دوَّامة؛ لم أعرف سبباً ولا تعليلاً لما حدث، ما هو الجرم الذي جنيتُه؟ ما هو الأمر الذي خالفته؟ أستعرض في ذاكرتي كل احتمالٍ فلم أجد أي شيء يكون مبرِّراً لما حدث. أهو انتقام من أخي لأنه يكرهني؟ طبعاً لا، لأنه من الواضح أنَّ ما فعله معي ثاني يوم وصولي: من تدليك جسمي بالصابون، متولياً ذلك بنفسهِ، وما أحضره لي من ملابس حريرية ثمينة، وما كنتُ أسمعه من أحاديث ملؤها العطف والحنان كلُّ ذلك ينفي أي خاطرة توحي بأنَّ ما حدث كان انتقاماً أو كرهاً.

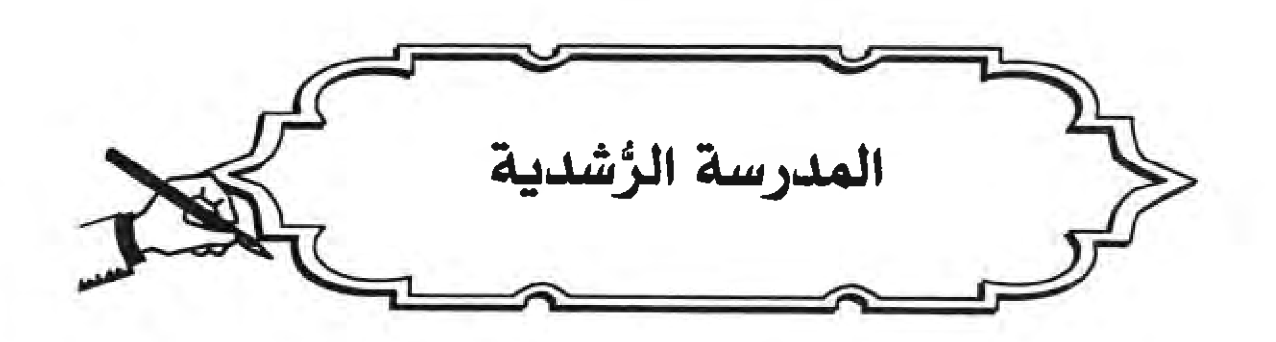
ظلَّ هذا الطلسم يشغلُ فكري طيلةَ الوقت وأخي لم ينبس ببنت شفة عن الأسباب التي حَمَلَتْهُ على فعله، ولكن بعد مُضي أسبوع على هذه الحادثة وكنتُ أسيرُ بجواره في الصباح مُتَّجهين إلى مقرِّ عمله، وعندما مررنا بموقع كرسي الداشر الذي كان في الشارع، والذي كنتُ جلستُ عليه كما أوضحتُ سابقاً، التفت إليَّ أخي بإيماءة معبرة ومختصرة قائلاً: إذا أردتَ أن تنالَ مثل ما نلتَ مرةً أخرى فاجلس كما جلستَ على هذا الكرسي.

سبب العقاب الصارم:

عندئذ أدركتُ أنَّ جريمتي النكراء التي استحققتُ عليها هذا العقاب الصارم إنما كان جلوسي على الكرسي في الشارع وبجواري الداشر.

واستمر الوضع فكنا نذهبَ معاً صباحاً ثم نعود ظُهراً، ثم نعَاود الذهاب قُبيل العصر ونعود معاً قَبْلَ الغروب.





المدرسة الرُّشدية

التسجيل في المدرسة الرُّشْدية:

استمر هذا الوضع حتى اليوم الأخير من شهر ذي الحجة عام ١٣٤٤هـ، إذ حضر إلينا (وكنا جالسين على الكراسي أمام باب سكننا كالعادة) حضر إلينا إبراهيم السليمان التركي، وجلسَ معنا على الكرسي الذي كنتُ أجلس عليه، وقد طلب منه أخي على مسمع مني بأن يحضر إليَّ غداً في الصباح، ويَصْطحبني معه إلى المدرسة **الرُّشدية**، وهي مدرسة حكومية أنشئت زمن السلطان العثماني محمد رشاد، وموقعها قبالة مسجد الباشا من الغرب، المعروف بحارة الشام، يفصل بينهما شارعٍ قد لا يزيد عرضه عن ثلاثة أمتار، وباب المدرسة من جهة الشرق مقابلٌ للمسجد، وهي بناء ذو طابقين، في الأسفل أربع غرف، وفوقها مثلها، يحيطُ بها حوش يمتدُّ من الشمال للجنوب، ثم ينحرفُ إلى الغرب من جهة الشمال، قد لا يتجاوز عرض هذا الحوش ستة أمتار، وسور المدرسة من الطين قد يبلغ ارتفاعه مترين تقريباً، محيطاً بها على هيئة قوس من الجنوب فالشرق فالشمال.

طلب أخي من إبراهيم السليمان التركي أن يصطحبني إلى المدرسة، ليسجلني طالباً منتظِماً ضمن طلابها، وكان ذلك في اليوم الأول من محرم عام ١٣٤٥هـ، وهو أول يوم تفتح فيه المدرسة في عهد الحكومة السعودية، وكانت أُغلقت كما فهمتُ قبل أربع سنوات

نتيجةً للحرب بين آل سعود والشريف، ولذلك فإن طلابها هم طلابها الذين كانوا منتظمين بها قبل إغلاقها، بمعنى أنَّ كل طالب قد عاد إلى صفِّه قبل الإغلاق.

أساتذة المدرسة الرُّشدية:

فكان في الطابق الأسفل الأستاذ عبدالعزيز نعمة الله، ومجموعة من الطلاب قد لا يزيدون عن العشرين، هم طلابه، وهم أشبه بالصف الأول الابتدائي، ثم يليهِ الأستاذ علي هلال، ولديه مجموعة من الطلاب، ثم يليه الأستاذ علي مفتي، ولديه مجموعة تقارب ذلك العدد، وكنتُ أنا من ضمن طلاب هذا الفصل.

زملائي في المدرسة:

وكان من زملائي في هذا الفصل على حسب ما أذكر الآن ـ: محمد سالم خميس، وكان عريف الفصل (البرنجي) أي: الأوَّل، ثم حسين إشبيلي، وسلمان الفارسي، وأحمد عبدالفتاح الحلواني، وسليمان الشهراني، أمَّا بقية الطلاب فلا أذكرُ أسماءهم الآن.

أمَّا الطابق الأعلى بالمدرسة فكان من طلابه: علي تركي وآخرون قد لا يتجاوزون الخمسة عشر شخصاً، ثم يليهِ فصلٌ آخر أعلى منه، وكان من ضمن طلابه ـ على ما أذكر ـ: علي دَفَّع، وأنيس السادات، ثم يليهِ فصلٌ ثالث أعلى منه وفيه أبناء السُرَّتي أحمد وسراج وآخرون لا أذكر أسماءهم.

أول يوم في المدرسة:

في أول يوم لي للذهاب إلى المدرسة حضر إلى مسكننا العم إبراهيم السليمان التركي، في ذلك الصباح حضر مبكراً، أي: بُعَيد شروق الشمس مباشرةً، وكان أخي لا زال موجوداً على كرسيِّه في الشارع، فارتديتُ

ملابسي الجديدة، كما أمرني أخي، وهي عبارة عن فوطة حرير، وقميص شاش وكمر من الجلد وتَلِّيْك لماع ـ أي حذاء ـ.

وصلنا إلى المدرسة في حوالي الساعة الواحدة عربي بعدَ شروقِ الشمس، سألنا البواب ـ وكان رجلاً قصيرَ القامة أسود البشرة ـ عما نُريد؟ أجابه العم إبراهيم السليمان التركي: نريد المدير. فأشار إليه بأن نتجه إلى الطابق الثاني من مبنى المدرسة حيث يوجد المدير هناك.

مدير المدرسة الرُّشدية:

صعدنا إلى الطابق الثاني وكانت غرفة المدير مشرعة الأبواب تقع في مواجهة الصاعد على الدرج من جهة الشمال.

رحَّب بنا المدير، وكان رجلاً ممتلىء الجسم، أبيض البشرة، مربوع القامة ذو لحية خفيفة قد وخطها الشيب، يعلوها وجهٌ مستديرٌ، جميل الصورة، ويُدعى الأستاذ مصطفى بدر الدين، وهو كما يبدو سوري الأصل.

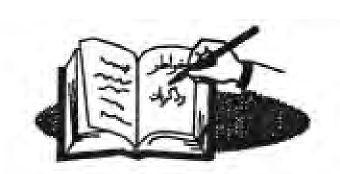
بعد أن فهم القَصْد من حضورنا أحالنا إلى غرفةٍ مجاورة فيها شابٌ لا أعرف اسمه، قام بتسجيل اسمي بعد أن تحصَّل على المعلومات المطلوبة ـ في مثل هذا المجال ـ من العم إبراهيم التركي، ثم نزلنا إلى حوش المدرسة، وكان يوجد فيها ساعتئذ مجموعة من الشباب على هيئة تجمُّعات محدودة العدد، اثنين وأربعة وهكذا، ومجموع هؤلاء حسب ما تراءى لي لا يقل عن مائة وخمسين طالباً منتشرين على امتداد ساحة حوش المدرسة.

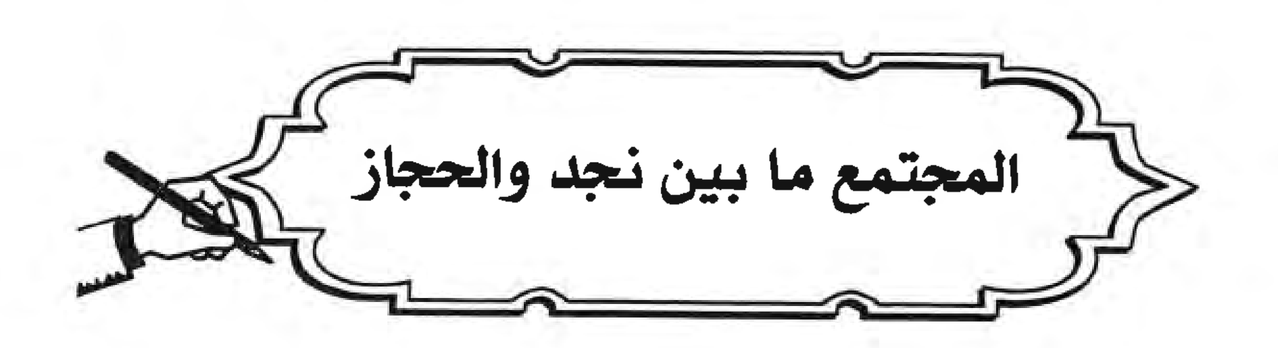
مراقب المدرسة محمد علي الدباغ:

أثناء ذلك التقينا برجلٍ واقف بين هؤلاء الطلاب، لابساً ثوباً أبيض وصدرية بيضاء، ويحيط بخصرهِ لفة من القماش على هيئة حزام تدعى (بقشة)، وعلى رأسه عِمَّة بيضاء لها ذؤابة من الخلف، وبيده عصا صغيرة

عرفنا منه أنه مراقب المدرسة، يقوم بمهمته بين الطلاب، ويُدعَى محمد علي الدباغ، وهو والد وزير الزراعة لاحقاً عبدالله الدباغ المعروف.

انصرف العم إبراهيم السليمان التركي، وتركني في المدرسة بعد أن أوصىٰ المراقب بي خيراً.





المجتمع ما بين نجد والحجاز

وهنا لا بدَّ لي ـ إجابةً لأمانة التاريخ، وإيضاحاً للواقع ـ أن أعطي للقارىء صورةً موجزةً عن الأوضاع السائدة آنذاك بين المجتمع في الحجاز وبين المجتمع في نجد، والحالة النفسيَّة التي تحكُم علاقة كلٍ منهما بالآخر، وهي علاقة يشوبها الكثير الكثير من الجفاء، وذلك نتيجة للعوامل الآتية:

(أ) كان الانفصال تاماً بين المجتَمَعين، أعني المجتمع في الحجاز، والمجتمع في نجد، إذ لم يكن ثمة ارتباط أو تواصل أو علاقات أسريَّة إلا فيما نَدر.

(ب) إن المجتَمَعين كان كلٌّ منهما يخضع لحكومة لا تخضع للحكومة الأخرى بل تخاصمها وتحاربها.

المذهب الوهابي:

(ج) كانت هناك دعاوى سَبَق أن عمَّت الشعوب الإسلامية منذ أكثر من مائتي عام، وملخصها أنَّ المجتمع النَّجدي يعتنق نِحلة معيَّنة تبنَّاها أحدُ أبناء نجد، ويعرف بمحمد بن عبدالوهاب. هذه الفكرة تقوم على معاداة الكثير من العادات الشائعة في المجتمع الإسلامي، كتقديس القبور والأولياء، والعداء الساخر لشرب الدخان (التدخين)، وما يماثلُه من العادات.

وقد وُصِفَت هذه الدعوة بالمذهب الوهَّابي، بل بولغ في محاربتها،

وَوُصفت بأنها مذهبٌ خامس في الإسلام، مع أنَّ الواقع غير ذلك. وقد ضُخِمَتْ هذه الفكرة وبُولغ في إشاعتها في مختلف أنحاء العالم الإسلامي خلال العهد التركي، وما تلاهُ من عهود.

حركة الإخوان:

(د) ما كان ينشر يومياً، وعلى نطاقٍ واسع في مختلف وسائل الإعلام المتاحة آنذاك، عن حركة الإخوان في الجزيرة العربية، وهي الحركة التي نبتت في وسط الجزيرة العربية بدءاً من العقد الثالث من القرن الرابع عشر، وكان قادتها رؤساء قبائل البادية المتنقلة في الجزيرة العربية كفيصل الدويش رئيس قبائل مُطير، وكمحسن الفِرم رئيس قبائل حرب، وكإبن ربيعان رئيس قبائل عتيبة، وهكذا بقية القبائل.

وقد سبق أن تكلمتُ عن هذه الجماعات فيما سبق من هذه الخواطر، وقد عُرِفَتْ هذه الجماعات بالغلظة والخشونة والغلوّ والتشدُّد غير المحدود في العقيدة، مع جفاء الطبع.

حادثة الطائف:

وكان لحادثة الطائف المعروفة، والتي تمثَّلت في اقتحام فئةٍ من رجال البادية مدينة الطائف، حيث أمعنت قتلاً وترويعاً بين السُّكان الآمنين، ورَوَّعت العالم الإسلامي، وهزَّت مشاعره في مختلف بقاعه.

كانت تلك الحادثة المروِّعة التي لم يمض على وقوعها حين وصولي جُدَّة أكثر من ثلاث سنوات، فقد وقعت في مستهل عام ألف وثلاثمائة واثنين وأربعين هجرية. وهي الحادثة التي جعلت المجتمع الحجازي يهتزُّ رُعباً كلما ذُكِرَ له المجتمع النجدي، ظناً منه أنَّ هذه الفئة الغليظة الأكباد، الجافية الطباع هي المجتمع النَّجْدي، بينما المجتمعُ النجدي في نظر هؤلاء الفئة ـ أعني الإخوان ـ لا يقلُّ سوءاً عن المجتمع الحجازي في نظرتهم إليه، والمجتمع النَّجدي لاقى من الوَيْلات والمصائب ما لا يقل عما حدث لأهل الطائف.

وللتاريخ فإنَّ المجتمع النجدي الذي كان يسكن مدن نجد مجتمع متمدن، ذو حضارة واضحة المعالم، ويكفي تدليلاً على ذلك أنه منذ عقود من التاريخ متقدِّمة كان الكثير ـ ولا زال ـ من أبنائه على صلة مستمرة بشعوب أخرى خارج الجزيرة، لها حضاراتها وعراقتها التاريخية كالهند وأندنوسيا والعراق والشام ومصر والبحرين والكويت.

ويكفي شهادة على ذلك أنَّ أحد مشهوري التاريخ الحديث المسيحي العقيدة اللبناني فيلسوف الفَريكة: أمين الريحاني قد وصف كبرى مدن القصيم وهي (عُنَيزة) بـ (باريس نجد) حيث أَطْنَبَ في وصفه لمعالم الحضارة والتمدُّن وسلوكيات المجتمع وأخلاقه، وما هي عليهِ من ترفٍ ورُقي، وذلك في كتابِهِ المعروف تاريخ نجد.

الغُطْغُط:

(هـ) نتيجةً لذلك ولا أقولها مُبَالغةً، بل هي الواقع الفعلي الذي عشتُهُ بنفسي، وسمعتُه بأذني من أحد ممَّن عرفتهم من أبناء جُدَّة، وهو المدعو «مُوسى العرجا»، الذي صارحني بأنه يُفَضِّل الجلوس مع الشيطان ولا يجلس مع (غُطْغُطِي) ويعني بكلمة غطغطي: الواحد من أفراد تلك الفئة التي دخلت الطائف من الإخوان. افتراضاً منه أن كلَّ، أو جميع من قَدِمَ من نجد هو غطغطي، أي: من أفراد جماعة الإخوان.

وعلى أساس هذا الظن والافتراض أكون أنا واحداً منهم. ولا شكَّ أنَّ المجتمع الحجازي نتيجةً لِمَا رَسَب في وعيهِ من دعاياتٍ مُغرضةٍ عن الدعوة الوهابية ومعتنقيها، وعمَّا أحدثته نكبة الطائف في النفوس.. كلُّ ذلك أنتج هذه المرارة والكراهية التي لاقيتُ منها الأمرَّين باعتباري قادماً من نجد حديثاً، والأذهانُ ما زالت مشحونةً بالحقد والبغضاء.

معاناة المجتمع النجدي من حركة الإخوان:

إنَّ المجتمع النجدي ـ كما ذكرتُ آنفاً ـ قد لاقى الويلات والمحن من تلك الفئات التي كانت تسمِّي نفسها بالإخوان، والتي كانت تنظر إلى

عقيدتها بطريقة هي أقرب ما تكون إلى الهَوَس والجنون، ولعلَّ قيام الكثير منهم ببيع مواشيهم وما يملكونه من إبل وغنم تخلُّصاً من حُطام الدنيا، وتفرُّغاً لعبادة الله كما يزعمون؛ لهو خيرُ دليلٍ على مغالاة هذه الفئة.

كانوا يجتمعون في المساجد على مختلف أعمارهم شيوخاً وشُبَّاناً، كلٌّ منهم يحاول أن يتعلَّم القرآن زاهداً بالدنيا وما فيها، وواضعاً نُصْب عينيهِ أن يُرغم الجميع من غير نحلته على اتِّباع النَّهج نفسه الذي تعتنقه هذه الفئة، وهو الانقطاع كلياً إلى الجهاد والتفرُّغ للعبادة.

والمعنى بالجهاد هنا محاربةُ كل من خالفهم، وإرغامُهُ على أن يتَّبع مسلكهم في هذا الغلو والتنطُّع.

ولمَّا كان سكان المدن في نجد يخالفون هؤلاء كل الاختلاف، ويَمْقتون طريقتهم أشدَّ المَقْت، ويحاولون دَرْء شَرِّهم بمختلف الوسائل؛ إذ كان هؤلاء - وأعني بهم جماعة الإخوان - لا يتركون فرصة حين تواجدهم في المدن إلا ويتحرَّشون بأهل هذه المدن، ويستفزُّونهم بلاذع القول، بل ويصفونهم بأشنع الصفات وهي الكفر.

بين الشيخ صالح القاضي وأحد الغلاة:

ولعلَّ ما حدث بين أحد علماء المسلمين، وهو المرحوم الشيخ صالح العثمان القاضي، الذي كان يتولَّى آنذاك القضاء في مدينة عُنيزة، مضافاً إلى قيامه بإمامة مسجدها الجامع الكبير، والخطابة فيه، وهذا الرجل عُرِفَ عنه الفضل وغزارة العلم ورَجَاحة العقل ورحابة الصَّدر، وتحمُّل الأذى، ومقابلة الإساءة بالعفو.

كان مشهوراً بهذه الصفات في طول الجزيرة وعرضها، ومع ذلك فقد حَدَث مرةً أثناء خروجه من الجامع بعد صلاة الجمعة أن اعترضَهُ جماعة من عصابة الإخوان هذه، ولما كان الرجل - وأعني به فضيلة القاضي - بَدِيْناً بعض الشيء وكان في حدود السبعين من العمر تقدَّم إليه واحدٌ من هؤلاء الجَهَلة، وبيده عصا طويلة مدَّها إلى بطن الشيخ ونَخَسَه فيها قائلاً له:

«أُشهد الله على بغضك يا صُوَيْلح؛ لأنَّ بطنك هذا مملوءٌ كفراً ونفاقاً».

فكان جوابُ الشيخ على ذلك أن تبسَّم ضاحكاً، ولم يزد على أن قال «زادك الله بغضاً»، وذكر كلمة «صويلح» وهي تصغير صالح إنما أراد به هذا الجاهل التحقير والازدراء.

فإذا كانت مثل هذه الفعلة قد حدثت مع أرفع شخص في المدينة ديناً وخُلقاً ومكانةً وعلماً، فليتصوَّر القارىء كم يلاقي بقية طبقات المجتمع، وكم عانوا من هذه الفئة المتطرفة من عَنَت وإذلال.

ومن هذا يتضح أنَّ المجتمع النجدي ـ وأعني به مجتمع المدن ـ برىءٌ من هذه النِّحلة المتزمِّتة أشدَّ البراءة، وهو يُكنُّ لها من العداء والبغض ضعف ما يكنُّه لها الآخرون. وقد عانى من ويلاتها الشيء الكثير قبل أن تصل هذه الفئة إلى الطائف وتُحدِثْ فيه ما أحدثت.

❋❋❋

موقف الطلاب مني في المدرسة الرشدية:

نعودُ بعد هذا الإيضاح إلى التحاقي بالمدرسة الرُّشدية بجدة في يومي الأول من أول محرم عام ١٣٤٥هـ ألف وأربعمائة وخمسة وأربعين، كان الطلاب ـ كما شرحتُ سابقاً ـ يتوافدون مع أولياء أمورهم إلى المدرسة للتسجيل؛ لأن هذا اليوم هو أول يوم تُفْتَتَحُ فيه بعد إغلاقها لعدَّة سنوات لظروف الحرب بين الشريف وآل سعود، وكنتُ أقفُ ضمن هؤلاء الطلاب في ساحة الحوش، إذ لم تكن هناك أماكن للجلوس مثل الكراسي وغيرها، وإنما كان الطلاب يتجوَّلون جيئةً وذهاباً.

وكنتُ أنا وحدي أقفُ منفرداً كلما أردتُ الاقتراب من مجموعة تفرَّقوا عني، وكنتُ ألاحظُ أنهم يتعمَّدون الابتعاد عني مع أنني لم أتبادل مع أيٍ منهم أية كلمة إذ كانت لهجتي ولغتي، بل وشكلي تختلف عن لهجاتهم وهذا شيءٌ طبيعي.

مضى ذاك اليوم، وقبيل الظهر، وكنتُ أحسستُ بالجوع، وكان يوجدُ في ساحة الحوش رجلٌ يماني أمامه طبلية عليها مقلية، أي: طعمية وجزر وبطاطا مسلوقة وبليله وبعض حبات من الخيار.

كان بعض الطلاب يتعاقبون عليه للشراء منه، وكنتُ أحمل (كِتَّباً) ـ وهو عملة جاويَّة، سبق أن أشرتُ إليها ـ، كان أخي قد أعطاني إيَّاه قبل ذلك. تقدَّمتُ لهذا البائع ودفعتُ إليه الكِتِّب طالباً حباتٍ من المقلية فأعطاني كميةً منها مضافاً إليها كمية أيضاً من الجزر المسلوق، وأخذتُها وأكلتها واقفاً أسوةً بزملائي. تضاعف عدد الطلاب في الحوش من الصباح حتى الظهر حتى كاد الحوش يمتلىء، وهنا رفع المؤذِّن صوته بمسجد الباشا المجاور للمدرسة من جهة الشرق، فأَعلنَ مراقبُ المدرسة محمد علي الدباغ رحمة الله عليه للطلاب أن بإمكانهم مغادرة المدرسة على أساس انتهاء دوام ذلك اليوم.

عدت في اليوم الثاني لوحدي، وكان وضع الطلاب كوضعهم في اليوم السابق يتجوَّلون في ساحة الحوش، وقوفاً متنقلين من مكان إلى آخر.

وكان هناك طلاباً آخرين يتوافدون إلى المدرسة مع أولياء أمورهم، ولكن بنسبة أقل عن يوم أمس.

طرد البائع لي:

في ضحى ذلك اليوم اقتربتُ إلى البائع اليماني صاحب الطبلية لأشتري منه مثلما فعلتُ بالأمس بيدَ أنه ما كاد يراني مقبلاً إليه حتى هبَّ واقفاً صارخاً بوجهي بعبارات جافَّة، وأخالها شتيمة، فهو يشيرُ بيده إليَّ أن ابتعد عني، وقد فهمتُ فيما بعد أنه فعل ذلك لأنَّ الطلاب يوم أمس توقَّفوا عن الشراء منه لأنني قمتُ بالشراء منه، ومعنى ذلك أني بمفهومهم (غُطْغطي) نجدي قد نجَّست أو لوَّثتُ بضاعته.

ابتعدتُ عنه وكنتُ أنظر إلى زملائي في الساحة يتبادلون النظرات

ويتهامسون فيما بينهم، ملتفتين إليَّ، وأخالهم يفعلون ذلك شماتةً بي، واستحساناً لما فعله البائع معي حيث طردني عن طبليته شرَّ طردة.

وقد لاحظتُ أن حوش المدرسة يوجد في جانبه الجنوبي أربعة أزيار للماء، وكلٌ منها معلَّق فيه مغرافٌ للشرب، مربوطٌ بحبل، وكلُّها مملوءة بالماء وعليها أغطية من الخشب.

أحسست بالظمأ، وإذ كنتُ أرى الطلاب يشربون من هذه الأزيار فقد قمت بدوري إلى واحدٍ منها، وغرفتُ بالمغراف المُثْبتَ على الزيز، وشربتُ ثم انصرفنا بعد آذان الظهر كالعادة.

امتناع الطلاب من الشرب من الزير الذي شربت منه:

في اليوم الثالث، وكان الفصل في تلك السنة في عزِّ الصيف، وكانت الحرارة شديدة، وكنتُ واقفاً في أحد جوانب الساحة وحيداً منبوذاً كالبعير الأجْرَب، لا أُكلِّم ولا أتكلم: شاهدت الطلاب يتوافدون حول الأزيار ثم ينصرفون عنها، ويجدوها فارغة ما عدا واحداً من هذه الأزيار، فإنه لا زال عليه غطاؤه الخشبي، ومملوء بالماء، وإذا بهم يتكتَّلون حول بعضهم، وخلال ذلك كان المراقب محمد علي الدباغ قد حَضَر إلى الساحة قادماً من الإدارة في أعلى المدرسة. فالتفُّوا حوله، وأخذوا يصيحون في وجهه: (عطشانين يا شيخ ما في مويه). وفعلاً كانت الأزيار الثلاثة فارغة وكانت مكشوفة، فحضر إلى الأزيار، ووقف عليها، وإذا بها فارغة فعلاً، ولكن ما كاد يرفع غطاء الزير الرابع حتى وجده مملوءاً بالماء، فوجَّه إليهم الكلام مُوبِّخاً: كيف تقولون عطشانين والماء موجود؟! فأجابوه بصوتٍ واحد: هذا الزير شَرِبَ منه (الغطغطي) يعنونني بذلك، وكنتُ ساعتئذٍ واقفاً على مقربةٍ من الزير.

وهنا وقف المراقب دقائق يفكر كيف يتصرَّف، وفجأةً اتَّجه إلى داخل المبنى، وصعد إلى المدير، وما هي إلا لحظات حتى عاد ومعه المدير، وما كاد الطلاب يرونهما حتى اجتمعوا واقفين أمامهما فوقف المدير على

الأزيار الفارغة، وكشف عن الزير الرابع المملوء بالماء، ثم قال موجهاً كلامه للطلاب: يا أبنائي: هذا الماء موجود. أجابوه بصوت واحد: هذا الماء لن نشربَ منه لأن (الغطغطي) وأشاروا إليَّ قد شرب منه.

وقد أحسَّ المدير ـ كما يبدو لي ـ من لهجتهم الجماعيَّة الصاخبة أنه من العبث محاولة إقناعهم، ولذلك اكتفى بأن وجَّه كلامه إلى المراقب قائلاً: أرسل شخصاً لِشراء ماء واملأ الأزيار الأربعة بعد تفريغ هذا الزير وأشار إليه، وكان الزير الذي شربت منه.

وقد أريقَ ماء الزير، ثم مُلئت من جديد الأزيارُ الأربعة، والتَفَتَ إليَّ المدير آنذاك وقال لي: يا ابني دبِّر نفسك. وقد فهمتُ طبعاً المَغْزَى من هذه العبارة.

طلبتُ من الداشر ـ خادم أخي ـ الذي كان يسكنُ تحت درج المسجد المجاور للمدرسة أن يُحضِر لي كلَّ صباح شَربة من الفخار مملوءة بالماء يضعها بجوارِ الأزيار الأربعة ومعها كأس، وفعلاً أخذ يحضرها صباحاً ويأخذُها عندما يسمع صفارة الانصراف، وظل الحال على هذا المنوال لأكثر من أربعة شهور.

لجنة الاختبار:

مضت عشرة أيام منذ فَتحت المدرسة أبوابها لأول مرة، قبل أن يتمَّ ترتيب الطلاب، وتنتظم الفصول، وتبدأ الدراسة فعلاً، وذلك ناشىء ـ كما أعتقد ـ عن قيام إدارة المدرسة بفرز معلومات الطلبة الجدد الوافدين لأول مرة، لتقييم معلوماتهم ومن ثَمَّ وضعهم ضمن الفصول التي تتلاءم مع معلوماتهم، وكنتُ أنا ضمن هؤلاء الطلبة الجدد، إذ تَمَّ اختباري من قِبَل لجنة قوامها الشيخ علي مفتي، والشيخ علي هلال، والشيخ عبدالعزيز نعمة الله، وكنتُ آنذاك أحفظ «جزأي عَمَّ وتبارك»، وأكتب كتابة «مقروءة» لا بأس بها، وكان ذلك تمَّ في مدرسة المرحوم الشيخ عبدالعزيز الدامغ التي كان مقرها بالسويطي، شرقي مدينة عُنيزة، وهو عبارة عن كُتَّاب، إذ لا

توجد آنذاك أي مدرسة حكومية، وكان يزاملني آنذاك في تلك المدرسة الصديق العزيز معالي الشيخ محمد المرشد الزغيبي وزير المواصلات السابق (أمد الله في حياته)، وقد مكثنا ندرس معاً أكثر من عامين. وقد قامت اللجنة بتصنيفي ضمن طلبة الفصل الثالث الذي كان يشرف عليه المرحوم الأستاذ علي مفتي.

حالة نفسية قاسية:

كنتُ خلال هذه الأيام العشرة: أعيش في دوَّامة فكرية ملؤها البلبله والارتباك نتيجةً للحالة النفسية القاسية التي أعيشُها بين الطلاب داخل المدرسة.

كنتُ أسأل نفسي: أيمكنني الاستمرار في الانتظام في هذه المدرسة مع هؤلاء الطلاب الذين ألاحظ من نظراتهم الساخرة أنَّ الكُرْهَ والحقد تجاهي يكاد ينطق من وجوههم، كنتُ أقولُ في قرارةِ نفسي: إنَّ ذلك يكاد يكون مستحيلاً! كيف يكون لديَّ استعداد لتلقِّي العلم، واستيعاب الدرس ضمن وسطٍ مكتظ بهؤلاء؟ إذاً من الأفضل أنْ أُصارح أخي بالموضوع، وأن أشرح له الوضع النفسي الذي أعانيه يومياً، والأسى والحزن الذي لا يُفارقني لحظة.

كنتُ أقول لنفسي لأخبر أخي بهذا الوضع، إذ من الواضح أنه لن يقبل به بأيةِ حال، ولكنني أعود لنفسي وأقول: هَبني أعلمتُهُ، فماذا في وسعه أن يفعل؟ في مقدورهِ أن يأتي لإدارة المدرسة ويحتجَّ ويطلب تغيير الوضع، ولكن ما العمل إذا رفضت إدارة المدرسة بأن تُضحِّي برغبات كامل طلابها في سبيل إرضاء طالب واحد؟ قد تكون هي نفسها - أي إدارة المدرسة - تشاطر نظرة الطلاب إليَّ. إذاً رفض المدرسة مؤكَّد، وعندئذ قد يأخذ الغضب أخي فيُخرجني منها. ولكن ماذا بعد ذلك؟ الأمرُ الأقرب احتمالاً هو: إما أن أُحْرَمَ من الدراسة أو يُعيدني إلى أهلي من حيث أتيت. وحرماني من الدراسة أجدني مستعداً لدفع حياتي ثمناً لعدم وقوعه.

كنتُ طيلةَ الأيام العشر مشغول الفكر في هذه الدوَّامة حتى وأنا مضطجع على فراشي، وأخيراً وفي سبيل العلم قررتُ أن أصبر، وأحتمل كل ما ألاقيه من عَنَتٍ وبلاء، وأن أكتمُ الأمر عن أخي، مُظهِراً له أنني منشرح الصدر، أتطلع إلى المستقبل بكل ثقةٍ وأمل.

ترتيب الطلاب في الفصول:

في اليوم العاشر من ابتداء الدراسة، وفي ساعات الصباح المبكرة عندما تكامل توافد الطلبة نَزَلَتْ إلى ساحة حوش المدرسة مجموعةٌ من الأساتذة هم: بكر ناظر، وحسن أبو الحمايل، وعلي هلال، ومعهم المراقب محمد علي الدباغ، وبيده دفتر مدرسي صغير.

وقفوا في الساحة بين الطلاب، ثم ذهب علي مفتي مُتَّجهاً إلى غرف الفصول الثلاثة الموجودة في الطابق الأرضي، ثم وقف المراقب مُوجِّهاً كلامه للطلاب قائلاً: كلُّ من يُذكر اسمه عليه أن يتَّجه إلى حيث يوجد الأستاذ علي مفتي، ثم بدأ المراقب يتلو من الدفتر أسماء طلبة الفصل الأول منادياً عليهم باسم كل فرد منهم، فكانوا يتَّجهون الواحدَ تلو الآخر إلى حيث يوجد الأستاذ علي مفتي، الذي يحمل طباشيره بيده، يكتبُ اسم كل طالب على الدُرْج الذي يخصُّهُ بَدْءاً بالدرج الأول فالذي يليه، وهلمَّ جراً، حتى يتكامل طلاب الفصل داخله، وكان يتراوح عددهم ما بين عشرين وخمسة وعشرين طالباً. ثم يستمر بالطريقة نفسها بالنسبة للفصل الثاني، ثم بالشيء نفسه بالنسبة للفصل الثالث، وكان اسمي آخر قائمة طلاب هذا الفصل.

انقضى ذلك اليوم بعد أن اكتمل ترتيب جميع الطلاب في كل الفصول حسب ترتيبهم في الدفتر الذي كان يمسك به المراقب، والذي أصبح بعد ذلك دفتراً لتسجيل الحضور والغياب في صباح كل يوم.

توزيع الكتب والأقلام والدفاتر:

في اليوم الثاني وُزِعَتْ علينا الكتب والأقلام والدفاتر. وكانت الأقلام أحدهما قلم رصاص يُدعىٰ (بالمفرد العَلَم)، والآخر قلم ذو ريشة يُغمس في دواة الحبر عند الكتابة.

التصميم على متابعة الدراسة:

بَدَأَتْ الدراسة بشكل جِدِّي منتظَم، وكنتُ اتخذتُ في أعماق نفسي قراراً منذ اليوم الأول للدراسة بأن أسلك منهجاً يُمَكِنُنِي من الاستمرار في الدراسة، والتزوُّد من العلم، رغم هذا الجوّ الخانق الذي يحيط بي، ونظرة الازدراء والتحقير من زملائي الطلبة.

وملخص هذا القرار أن ألغي حاسة النُّطق عندي بحيث لا أنطق بأيِّ كلمة، مع أي كان من هؤلاء الطلبة، فاتحاً في الوقت نفسه أُذني، وجميع منافذ حسي لاستقبال واستيعاب كل ما أسمعه، ومقلِّداً في الوقت نفسه لكل ما يصدر من زملائي في الفصل من حركات.

تقليد زملاء الدراسة في حركاتهم:

فكنتُ ألاحظ الطالب منهم يقف ويخاطب الأستاذ بقوله: «يا شيخ»، وعندما يلتفت إليه الشيخ يرفع هذا الطالب ذراعه ضامّاً أصابع كفه، مُفرِداً لإبهامه، أي: رافعاً أصبع إبهامه فقط. فيشير إليه الشيخ بإيماءةٍ من يده بالموافقة على طلبه. عندئذ يَخرج الطالب من الفصل مُتجهاً إلى حوش المدرسة، وفي اللحظة نفسها أقف أنا بدوري وبسرعة، وأقوم بالحركة نفسها التي قام بها الطالب، وإذ يرفع الشيخ يده بالموافقة: أُبادر فوراً باللحاق بزميلي الذي سبقني لأنظر ماذا فعل، فأجدُهُ وقف بجوار زير الماء، وأخذ المِغْراف يشرب منه. عندئذ أكون قد حفظت هذه الإشارة ماذا تعني.

يأتي طالب آخر فيقوم بحركة بيده مماثلة لحركة زميله الأول، إلا أنه بدلاً أن يرفع كفه مُفرِداً لإبهامه إذا به يخفض كفه إلى أسفل فتأتيه إشارة الشيخ بالموافقة، فيغادر الفصل، وفي الحال أقوم أنا بالحركة نفسها وألحق به، وإذا به يدخل الحمام، وهكذا دواليك. كنتُ أسمع وأسجل في ذاكرتي وأُطبِّق ذلك عملياً.

أستاذنا الشيخ علي مفتي:

كان الشيخ علي مفتي ـ رحمة الله عليه ـ أستاذُ فصلنا، وكان رجلاً

طيباً، دمث الخلق، ليِّن العريكة، بشوش الوجه، جَمَّ التواضع، وهو من أهل جدة. وكان من عادته أن يذهب صباح كل يوم قبل مجيئه إلى المدرسة يذهب إلى النورية، مصحوباً بالزنبيل ليؤمِّن لبيتهِ ما يحتاجه من لحم وخضروات، وبقية ما يحتاجه البيت، ثم يأتي إلى المدرسة بعد أن يكون قد مرَّ على بيته، وأودع الزنبيل هناك. وذلك يعني أن تذهب نصف الحصة الأولى هَدْراً.

عداء الطلاب لي في الفصل:

كان الوضع المتَّبع أنَّ عريف الصف وهو الأول من طلابه ويعرف بالبرنجي يتولَّى سلطة الشيخ عند غيابه بالنسبة لمراقبة الفصل والطلاب.

وكانت سلطته مُطْلقة لا تُحدُّ لأنه ممثل للشيخ (ومن ذا الذي يعصي الشيخ؟). كانت سلطة هذا العريف ديكتاتوريةً بالغةَ القسوة، ولسوء حظي كنتُ دائماً أنا الضحيَّة لهذه القسوة.

كنا ندخل الفصل في بداية الحصَّة الأولى، فيتولَّى هذا العريف، واسمه محمد سالم خميس بسط صولتِهِ على الفصل، وإذا كان وضعي، أي وضع الدرج الذي خُصِّص لي هو آخر درج في أقْصى الفصل: فإنني ما أكاد أجلس أمام درجي هذا، ويتكامل جلوس الطلاب على مقاعدهم حتى يخاطبني بقوله: يا غُطغطي! تعال. وعندما أقف أمامه يأمرني بأن أضع جبهتي على الحائط ويداي ممدودتان إلى أعلى، واقفاً على رجلٍ واحدة. لم يكن في وسعي سوى التنفيذ، وليتصور القارىء وضعي على هذا الشكل مدةً قد لا تقل عن ربع ساعة أو أكثر؟ حتى يصل الشيخ داخلاً علينا الفصل سائلاً العريف: ماذا فعل الغطغطي؟ فيجيبهُ بأنه كان يلعب، ويعلم الله أنني لم أكن ألعب، بل أطلب السلامة. فكان ردُّ الشيخ صفعة خفيفة أو عنيفة على وجهي قائلاً: إذهب إلى مكانك، ولا تَعُدْ إليها مرةً ثانيةً. وفي بعض المرات يُعفيني من الصفعة مُكتفياً بقوله: لا تعودها مرةً أخرى، وهكذا دواليك.

ظَلِلْتُ أتلقى هذا العقاب الظالم الصَّارم كل صباح مدةً لا تقل عن خمسة شهور، حتى آذن الله بالفرج.

والغريب أنَّ هذا الشيخ ـ سامحه الله ـ طيلة هذه المدة التي يجدني فيها كل صباح مشدوداً إلى الجدار واقفاً على رجلٍ واحدة لم يكلّف نفسه ـ غفر الله له ـ بأن يسألني: أصدقاً ما يقولُ العريفُ؟! ويخيَّل إليَّ أنه لم يفعل ذلك تملُّقاً لعواطف الطلاب، هذا إذا لم أقل أنه يشاطرهم شعور العداء نحوي.

الشعور بالغربة:

كنت خلال تلك المدة أُحس بالغربة بأعمق وأقصى معانيها، كنا ننتظم صفوفاً في الصباح في حوش المدرسة: كلُّ فصلٍ على حِدة، ثم نبدأ بالتوجُّه إلى فصولنا، كلُّ فصل يسير خلف الفصل السابقِ له، وكان الإجراء المتَّبع أن تكون صفوف الطلاب حين السير اثنين اثنين، فكنت كلما حاولتُ أن أمسِك بيد رفيقي شأن زملائي الآخرين كان يسحب يده بعنف هارباً مني.

كان الأستاذ يلقي درسه في الفصل، والطلاب يدوِّنون ملاحظاتهم على ما قد يَشْكُل عليهم فهمه مما يسمعون، كنتُ عندما يسقط القلم من يدي إلى الأرض يمد جاري إليه يده فيلتقطُهُ دون أن أملكَ الجرأة على محاولة استرداده.

كان الجوُّ خانقاً، ومُمَزِّقاً للأعصاب، ومع ذلك فكنتُ والألم يعصرني أصبر، وأتجلَّد واضعاً في يقيني أنَّ هذا الظلام الدامس لا بد أن يعقبه الفجر، وفعلاً تحقَّق الأمل، وانبلج الصبح، وشاءت إرادة الله أن تُطوى هذه الصفحة.

كيف انتهى عذابي في المدرسة:

ذات صباح قدم إلى المدرسة زائر سوري، ويبدو من مظهره أنه من رجال العلم، وأنه على معرفةٍ بمدير المدرسة، جاء زائراً له في محل عمله، فأحبَّ المدير أن يأخذَهُ، ويتجَّولا معاً على فصول الدراسة، في المدرسة ليشاهدا طريقة الشرح والتدريس من قبل الأساتذة، ولِيأخذا فكرةً عن مستوى الطلبة.

طافا بالفصول، حتى وصلا إلى فصلنا، وما كادا يدخلان حتى وقف العريف صارخاً: استعد. رافعاً كفه على جبينهِ كتحيةٍ للقادم.

كان الدرس ساعتئذ خاصاً بالفقه، وبمادة الوضوء، ومن كتاب مطبوع يتألف من نحو مائة وثمانين صفحة، وعنوانه «متن أبي شجاع» في الفقه الشافعي، فيه مسائل الفقه مبوَّبةً وذات فصول.

سأل الضيفُ البرنجيَّ عن بعض المسائل التي تضمَّنها الدرس الذي كان يختصُّ بالوضوء، وكان ذلك بمسمع من المدير وأستاذ الدرس، وكان الفصل كله واقفاً، لم تكن إجابة العريف مستوفيةً كما كان يؤمِّل الضيف، وهنا تدخَّل المدير اقتناعاً منه بأنَّ الضيف لم تقنعه إجابة الطالب فوجَّه السؤال إلى الذي يلي العريف بعد أن طلب من العريف الجلوس.

وكان ذلك الطالب الآخر هو حسين إشبيلي، أجاب الطالب على السؤال، ولكن يبدو أنَّ إجابته لا تتجاوز صحتها خمسين في المائة، وهنا ظهرت علامة التبرُّم على وجه المدير وأستاذ الفصل، إذ أنَّ هذين الطالبين هما نُجباء الفصل، ومقدمة النُّخبة.

وهنا مرةً أخرى وجَّه المدير السؤال للطلاب عموماً قائلاً: من يعرف السؤال يرفع إصبعه، وبطبيعة الحال كنتُ من ضمن هؤلاء الذين رفعوا أصابعهم، تكلَّم الطالب الثاني والثالث والرابع على ما أذكر بإجابات لم تكن مقنعة، وإذ كنت أتمنى في قرارة نفسي أن يوجه إليَّ السؤال، إذ إنني واقفٌ رافعٌ يدي، بيدَ أنَّ المدير والأستاذ لم يعيرا موقفي أي اهتمام، وأعتقد أنَّ المدير أخذ في حسبانه: إذا كان هؤلاء الذين هم في مقدمة الفصل لم يُحسنوا الإجابة، فليس من المعقول أن يكون آخر طالب في الفصل أفضل منهم حالاً.

وما كادوا يَهُمُّون بالانصراف حتى التَفَتَ إليَّ الضيف مُشيراً بيده: هل تعرف أنت الجواب؟ قلت: نعم. فأشار إليَّ بالحضور إلى مقدمة الفصل حيث يقف، وهنا انطلقتُ بالإجابة بكلِّ إفاضة وحماس، بل أوضحتُ أكثر مما طُلب، إذ كنتُ فضلاً عن استيعابي لشرح الأستاذ، كنتُ حافظاً للكتاب كله.

دهش الجميع، فسألني الضيف: أنت حافظ المقرر؟ وكان الكتاب يحفظ على فترتين، قلت له: إنني أحفظ الكتاب، جميعُه قد غيبتُه، والذي هو مقرر علينا حتى نهاية السنة.

ابتسَمَ الرجل وربَتَ على كتفي قائلاً: أحسنت! بارك الله فيك. عُدْ إلى مكانك. أمّا الشيخ فقد أُصيب بوجومٍ واعترته دهشة، وأمّا المدير فقد وجّه نظرةً حادة إلى الشيخ ذات مغزى واضح. انصرف المدير وضيفُه وانتهى ذلك اليوم بسلام.

التحوُّل السريع من زملائي:

في صباح اليوم الثاني عندما شَرَعنا في الدخول إلى الفصول كالمعتاد شعرتُ بالوضع ينقلب رأساً على عقب، لقد أخذ كل من زملائي يحاول أن يكون زميلي في السير، ويُمسك بيدي، واستطعتُ لأول مرة أن أجلس أمام درجي مستريحاً مطمئناً حتى نهاية الحصّة دون أن يُطلَب مني القيام بالمهمة المعروفة التي كنت أُكلَّف بها من قبل عريف الفصل سامحه الله.

ابتدأ الوضع يتحسَّن بيني وبين زملائي وأحسست أنَّ كلاً منهم يحرص على التقرُّب مني والتودُّد إليَّ. وكنت خلال هذه الشهور التي مضت قد حفظتُ لهجاتهم وطريقة كل منهم، وعرفتُ مصطلحاتهم مثل: دوغري.. وبزوره.. وخُشْ.. وأندر... وما إلى ذلك. فانطلقتُ أتبادل الأحاديث معهم بطريقة قد لا تزيد نسبة الخطأ فيها عن عشرة في المائة، وخيَّم علينا جميعاً جو الود والصفاء.

الاختبارات النصف سنوية:

وما هي إلا أيام عشرة حتى بَدَأَتْ الاختبارات النصف سنوية إذ كانت آنذاك تجري الاختبارات على فترتين خلال السنة؛ الفترة الأولى تتم في نهاية شهر جمادى الأولى، وتستمر حوالى عشرين يوماً، ثم يَتِمُّ ترتيب جلوس الطلاب في الفصول ترتيباً جديداً على حسب ما ناله كل منهم من درجات.

أما الفترة الثانية من الاختبارات فهي تبدأ من ١٥ ذي القعدة، وتنتهي في ٥ ذي الحجة، ويترتب عليها انتقال الطالب من فصل لآخر أعلى منه.

بدأت الاختبارات، وكنت كما ذكرتُ آنفاً قد حفظت كل الكتب المقررة حتى نهاية العام، فضلاً عن أنني أكاد أزعم أنني أستوعب ما لا يقل عن ثمانين في المائة من الكلمات التي كان يُلقيها الأستاذ شرحاً لكل درس، وبطبيعة الحال فقد كنتُ في كل المواد أحصل على علامة عشرة ونجمة.

لذة النصر بعد الصبر:

انتهت الاختبارات، ورُتّب الطلاب في دفترٍ للدوام جديد رُتّبَ جلوسهم في كل فصل على حسب ما ناله كل طالب من درجات الاختبار.

بعد ذلك جُمعنا في ذلك الصباح في ساحة المدرسة، كل فصل على حدة، وقد أمسك المراقب معه الدفتر، وأمسك الشيخ علي هلال بالطباشير، وذهب إلى الفصل، ثم ينادي المراقب على طلاب الفصل بادئاً بالعريف حسب الترتيب الجديد جاهراً بصوته ليسمع المسجل علي هلال الاسم، فيكتبه على الدرج، ثم يذهب الطالب إلى الفصل ليجلس إلى درجه.

وعندما وصل الدور إلى فصلنا، وكانت هيئة الأساتذة واقفة في الساحة يسمعون أسماء الطلاب والمناداة عليهم: نادى المراقب محمد علي الدباغ بصوت مرتفع على طلاب فصلنا قائلاً على مسمع من الجميع مُوجِّهاً خطابه إلى الطلاب: (برنجيكم مين؟) أي: من هو عريفكم الجديد؟ أجابوا بصوتٍ واحد: محمد سالم خميس، قال: لا. وأعاد سؤاله مرة أخرى، قالوا: بصوتٍ واحد أيضاً: حسين إشبيلي. قال: لا. ثم أعاد السؤال مرتين أو ثلاثة، فكانوا يجيبونه بذكر أسماء الطلاب الذين كانوا يلون هؤلاء في ترتيب الفصل قبل الاختبار. وعندما عجزوا قالوا بصوت واحد: لا نعرف. فقال لهم بصوت واضح: برنجيكم - وأشار إليّ، وكنتُ أقف في آخر الصف - هو الغطغطي الشرقي إبراهيم الحسون.

وهنا خرجتُ من الصف مُتَّجهاً إلى الفصل، رافعاً رأسي، مزهواً

بنفسي لا أقلّد الطاووس في خيلائه. أذهب إلى الفصل فأجد اسمي على الدرج الأول بدل الأخير، أي أنني أصبحت ممسكاً بدفة السفينة التي كان يمسك بها زميلي السابق محمد سالم خميس.

ولك أيها القارىء أن تتصوَّر مدى الأثر النفسي الذي نتج عن هذا الوضع بالنسبة لزملائي طلاب الفصل، إذ ما كادوا يدخلون الفصل حتى أخذوا يتسابقون إليَّ مصافحين ومهنئين وبعضهم يحتضنني ويقبلني قائلاً: مبروك.

شكر وعرفان:

أمّا أنا فلا أخفي القارىء أنني شعرت بنشوةٍ تملأ جوانب نفسي كلها شكراً وتضرعاً وابتهالاً إلى من مَنَّ عليَّ وتفضل، فأمكنني وأعانني على الصبر والصمود، وتحمُّل الأذى، وصنوف العَنَت والإذلال، حتى وصلتُ إلى هذه النتيجة.

ذلك كله فضل من ربي الذي أدين له بكل مشاعري في عرفان الجميل والذل والخضوع. إذ من أنا؟ بالأمس كنتُ منبوذاً محتقراً، تكتنفني النظرات الساخرة أينما ذهبت، وإذا بي الآن أجدني محاطاً بالود والاحترام، بالود ظاهراً على الأقل، وإن كان ليس من السهل أن تتغيَّر النفوس ما بين ليلةٍ وأخرى.

ضراعة وإخبات:

أكرر في قرارة نفسي ضراعتي وإخباتي إلى خالقي الذي يَسَّر لي ذلك كله، إذ ما عساني أن أكون لو قُدِرَ أنني ضِقتُ ذرعاً، بما لقيتُ منذ دخولي في اليوم الأول، وتركتُ المدرسة؟ ما هو مصيري آنذاك: أأعود إلى نجد، وأنا أعلم شدة لأوائها وبُؤسها، وبالأخص شحّ مناهل العلم فيها؟ أو أبقى في الحجاز جاهلاً مُجرَّداً من البنية الجسمانية التي قد تعينني على احتمال المشقة في العمل، إذ كان جسدي نحيلاً لا يقوى على المشقة، وبعد هذا وذاك فإنني أحفظ في قرارة نفسي من الحب الصادق لمن مكنني، وسهَّل لي

الالتحاق بهذا المنهل العلمي الذي هو بلا شك، وبمشيئة الله سيكون اللبنة الأولى التي أبني عليها صرح حياتي المستقبلية بعون الله وتوفيقه، وهو أخي الشقيق عبدالله.

عندما أمسكت بزمام الفصل:

سارت الأمور بيني وبين زملائي على النحو الذي شرحتُ: ودٌّ صادق وألفة محبَّبة وآسرة، تلفَّنا جميعاً كأخوةٍ أشقاء. حرصتُ كل الحرص على أن أبذل ما استطعتُ من الجهد، لكي أثبت لهم أنه لن تشوب علاقتي معهم أية علاقة ولو مقدار ذرة مستمدة مما كنتُ ألقاه منهم. وشيئاً فشيئاً أخذ يتبَّدد من قلوبهم ذلك التوجُّس ـ بل والخوف ـ الذي ملأ نفوسهم، وفاجأهم في اليوم الأول لترتيب الفصل الجديد.

وإذ أحسُّوا بهذه النظرة مني، أو قُل بهذا التسامح، ونسيان الماضي أخذوا يلتفُّون حولي، ويحيطوني بالرعاية والود بشكل ظاهر محسوس. كانوا يتوجهون إليَّ بأسئلتهم واستفساراتهم عمَّا قد يشكل عليهم فهمُه من شروحات الدرس التي كان يُلقِيها الشيخ.

كانوا يفعلون ذلك حتى بحضور الشيخ وبمرأى منه.

كنتُ أحاول توجيههم إلى الشيخ لتلقي الإجابة منه، ولكنهم كانوا يتجاهلون ذلك، ويُلحُّون عليَّ أن يتلقوا الإجابة مني. سارت الدراسة بشكل منسجم وبجوٍ يسودُه الود.

نهاية العام الدراسي:

وانتهى العام، وانتقلنا في مستهل محرم عام ١٣٤٦هـ إلى الفصل الأول من الطابق الثاني، وكان الأساتذة الذين يتولون الدرس في هذا الفصل هم: المرحوم مصطفى سنَّاري، وحسن أبو الحمايل، وبكر ناظر.





في مدرسة الفلاح

قضيت شهرَي محرم وصفر في هذا الفصل من ذلك العام، ثم عنَّ لأخي أن يلحقني بمدرسة الفلاح، إذ تأكد لديه حسب ما نقل له إبراهيم السليمان التركي، ومصطفى سناري من أنَّ تلك المدرسة هي أوفر إمكانات وأوسع مجالاً، وأكثر طلاباً وأساتذةً، وأرقى كثيراً في مناهج التعليم.

وفي الواقع كان ذلك كله صحيحاً فليس ثمة أي وجهٍ للمقارنة بين المدرسة الرشدية ومدرسة الفلاح.

الالتحاق بركب مدرسة الفلاح:

في صباح اليوم الأول من شهر ربيع الأول من ذلك العام أعني عام ١٣٤٦هـ حضر إليَّ مبكراً العم إبراهيم السليمان التركي، واصطحبني معه إلى مدرسة الفلاح، وكنت أعلم بذلك، إذ كان حضر إلينا في الليلة السابقة، وناقش هذا الموضوع مع أخي على مَسْمَع مني.

بوَّاب المدرسة:

كان أول من قابلناهُ في مدرسة الفلاح هو المرحوم عبدالخير، وهو أسود البشرة، بدين الجسم مربوع القامة، قد تجاوز الستين من عمره على ما يبدو، وكان إذ ذاك جالساً على دكة بجوار باب المدرسة إذ أنه هو البوَّاب.

مكتب المدير:

أرشدنا إلى مكان وجود المدير، فصعدنا الدرج، ثم اتجهنا إلى مكتب المدير، وهو يقع في الجهة الشمالية من صالون فسيح يبلغ طوله نحو سبعة أمتار وعرضه لا يقل عن خمسة أمتار؛ وجدناه جالساً يضع على رأسه عِمةً أزهريةً، وتغطي عينيه نظارتان سوداوان، كث اللحية، معتدل القامة، طلق المحيا، بشوش الوجه، تُحِسُّ من عباراته سمة التواضع الجم الذي هو ميزة العلماء، وبجواره رجل آخر، أبيض البشرة، بدين الجسم، خفيف الشعر، فاره القامة، وقد عَرَفْنَا فيما بعد أنَّ الأول هو فضيلة الشيخ الوقور حسين عبدالقادر مطر، أحد علماء الأزهر الشريف، والآخر هو معاونه الشيخ عمر حفني وهو من أهالي جدة، بينما الشيخ حسين مطر من أبناء مصر.

إجراءات التسجيل:

رحبوا بنا كثيراً، ثم أحالونا إلى أحد الأشخاص في المدرسة، ويُدعى محمد باجسير، وهو أحد خريجي مدرسة الفلاح سابقاً، ويعمل بها موظفاً إدارياً يقوم بالتسجيل، ويقوم أيضاً بالتدريس.

أتممنا الإجراءات، ثم طُلِبَ منا العودة في اليوم الثاني، لكي يتم اختبار معلوماتي بواسطة هيئة من أساتذة المدرسة تُشكَّل لهذا الغرض، وتقوم بتقويم معلوماتي، وتحديد مستواي، وبالتالي توجيهي إلى الفصل الذي أنتظم فيه.

اختبار المستوى من قِبل لجنة التسجيل:

عدت في اليوم الثاني وحدي، إذ لم تكن ثمة حاجة لحضور العم إبراهيم السليمان معي مرةً أخرى، خاصّةً وهو موظف لديه عمله.

اتَّجهت مباشرة إلى المرحوم محمد باجسير فأشار إلى جماعة في الصالون الكبير، الذي يوجد فيه مكتب المدير، وهؤلاء الثلاثة على هيئة حلقة وأمامهم طاولة خشبية.

اتجَّهتُ إليهم، وواضح أنهم كانوا قد طُلب منهم اختباري. ألقيت عليهم السلام، فردوا عليَّ بمثله، وأشاروا إلى كرسي خَيزران على مقربة مني طلبوا مني إحضاره معي، فأحضرته، وجلستُ معهم، وكان هؤلاء الأفاضل هم: فضيلة الشيخ الوقور السيد محمد المرزوقي، والشيخ يوسف العوضي، والشيخ أحمد سرحان، وكلهم من أهالي جدة ما عدا الشيخ أحمد سرحان فهو مصري.

تولى الشيخ أحمد سرحان اختباري فيما يتعلق بالقرآن والتجويد، وتولى الشيخ المرزوقي اختباري فيما يتعلق بالفقه والحديث وما يتصل بهما. وتولى الأستاذ العوضي - أمدَّ الله في حياته حيث يوجد الآن في الخبر بالمنطقة الشرقية - اختباري في الحساب والجغرافيا والتاريخ.

محمد المرزوقي:

كان الشيخ المرزوقي رجلاً قصيرَ القامة، ممتلىء الجسم، تكاد تُعَد شعرات لحيته، ويبلغ من العمر - فيما أعتقد - ما لا يقل آنذاك عن خمسين سنة. كان بشوش الوجه باسم الثغر، مُغرماً بالنكت والطرائف، وكان جسمه يهتزُّ عندما يضحك، وكثيراً ما كان يضحك.

يوسف العوضي:

أمّا الشيخ العوضي فقد كان نحيف الجسم، مربوع القامة، يميل لونه إلى السُّمرة، وواسع العينين، هادىء النظرات، متَّئد الحديث. وهو كما أظن في حدود الثلاثين من العمر.

أحمد سرحان:

أمّا الشيخ أحمد سرحان فهو عالم أزهري، مصري الأصل، سمح الوجه بشوش، خفيف اللحية، قد وَخَطَ شعيراتها الشيب، وهو في حدود الخمسين من العمر تقريباً.

انتهى الاختبار، وطُلب مني العودة في الساعة الواحدة من صباح الغد، وأنَّ عليَّ أن أراجع الأستاذ عباس حَلَواني الذي كان يقوم بمهمة الإشراف على دفتر الدوام، وترتيب الطلبة في فصولهم.

موقع مدرسة الفلاح:

وهنا لا بد لي من إعطاء القارىء فكرة موجزة عن مدرسة الفلاح، سواء من حيث الموقع والمبنى، أو بالنسبة للأساتذة والموظفين الإداريين والفرَّاشين، وغيرهم من الذين كانوا يعملون فيها آنذاك.

أمَّا الموقع فإنها تقع في أقصى حارة المظلوم من الناحية الشمالية الشرقية، محاذيةً لسور جدة من الشرق، وتقع على بعد نحو ستمائة متر شمالَ باب مكة.

يحيط بها من الشرق سُور جدَّة، ومن الشمال أرض فضاء ذات حفر، وذات أشجار، تفصلها عن سور جدة الشمالي بنحو ثلاثمائة متر تقريباً. أما من الغرب فتحيط بها برحة تتجه من الشمال للجنوب، ثم تتجه إلى الشرق، الذي هو عبارة عن شارع يقع باب المدرسة عليه من الجنوب، وهو الباب الوحيد لها آنذاك، ثم يتجه هذا الشارع بعد اجتيازه باب المدرسة بنحو عشرة أمتار يتجه إلى جهة الجنوب، وهنا يلتقي ببداية سوق البدو من الجهة الشرقية، وكذلك باب مكة.

مبنى المدرسة:

كان المبنى يتألف من طابقين، بمجرَّد وُلُوجك باب المدرسة تلاقي طريقين: أحدهما من جهة اليمين، والآخر يتَّجه إلى الشمال، وعند سلوكك المتَّجه إلى الشمال بنحو متر تقريباً يصادفُك ممرٌّ يتَّجه إلى الغرب، ينتهي بفصلٍ دراسي طوله تقريباً ٩ × ٣ أمتار، وله باب يُطِلُّ على جهة الشمال، إلا أنَّ هذا الباب لا يستعمل للدخول.

مكتبة المدرسة:

تترك هذا المدخل، وتستمر مُتَّجهاً إلى الشمال، وبعد نحو مترين تجد على يسارك باباً يُفضي إلى غرفة كبيرة مملوءة بالكتب، وهي مكتبة المدرسة، التي تزوِّد الطلاب بجميع احتياجاتهم.

مطبخ المدرسة:

ومقابلها من جهة اليمين ساحة مسقوفة تبلغ مساحتها نحو ٤×٣ أمتار، تفضي من جهة الشرق إلى غرفة تبلغ مساحتها نحو ٥×٤ أمتار، وهذه الغرفة كانت آنذاك تُستعمل مطبخاً يقوم بطهي الطعام لبعض مَن يبقى في المدرسة من الطلاب الذين لا تمكنُّهم ظروفهم من الذهاب أثناء فسحة الظهر إلى بيوتهم، نظراً لبعد تلك البيوت عن المدرسة.

مسجد المدرسة:

ثم تفضي، وأنت متَّجهٌ إلى الشمال كما ذكرنا، إلى درجتين عن اليمين، ودرجتين عن الشمال. فالتي عن اليمين تقودك إلى مسجد المدرسة الواقع من الشمال إلى الجنوب، ثم يفضي إلى حوش المدرسة الشرقي حيث توجد هناك أماكن الوضوء.

أمّا الدرجتان اللتان على اليسار فَيُفضيان إلى ساحة مسقوفة يوجد فيها بابٌ مُطِلٌّ إلى الجنوب، يفضي إلى فصل دراسي، وخلف هذا الفصل من جهة الشمال فصل دراسي آخر؛ يفصل بين الفصلين جدار حاجز يبلغ ارتفاعه نحو متر ونصف، وباب الفصل الشمالي يقع إلى الشرق، يفضي إلى ساحة مكشوفة تقع ما بين المسجد من جهة الشرق وبين هذين الفصلين، اللذين يقعان في جهة الغرب بالنسبة للمسجد.

حوش المدرسة:

هذه الساحة تبلغ مساحتها نحو خمسة عشر متراً في خمسة أمتار تقريباً، وهي تفضي من جهة الشمال إلى حوش المدرسة الذي يحيط بمبنى المدرسة على شكل هلال، يبدأ بجدار المدرسة الجنوبي الملاصق لسور جدة من الشرق، ثم يتَّجه إلى الشمال بنحو خمسة وعشرين متراً تقريباً في عرض المساحة نفسها، ثم يتجه إلى الغرب بنحو خمسين متراً في عرض خمسة عشر متراً تقريباً، حتى محاذاة مبنى الفصل الثاني الشمالي، ثم يتجه من الشمال إلى الجنوب، ثم من الجنوب إلى الشرق، مكوِّناً مساحة مربعة

قد لا تقل مساحتها عن أربعين في ثلاثين متراً، وتنتهي هذه المساحة من الشرق بباب يُفضي إلى الفصل الأول الذي ذكرناه آنفاً، والذي يحدُّه الفصل الثاني من الشمال.

قلنا: عندما تجتاز عتبة الباب داخلاً تجد عن يمينك باباً يُفضي إلى الشرق هو عبارة عن فصلٍ دراسي ينتهي من جهة الشرق أيضاً بمرحاض عن يدك اليمين، وبباب مفتوح يتَّجه إلى الجنوب يُفضي إلى فصل يمتد من الجنوب إلى الشمال في حدود خمسة أمتار في أربعة.

وعند دخولك الفصل الأول تجد باباً يفضي إلى فصل آخر بالمساحة نفسها، وهذا الفصل الأخير يوجد فيه باب يفتح على الجهة الغربية، ويفضي إلى ساحة صغيرة مسقوفة في حدود متر ونصف في مثلها عرضاً تقريباً.

درج المدرسة:

عند دخولك باب المدرسة ـ كما ذكرنا ـ تجد على يسارك درجاً يقودك إلى الطابق الثاني من مبنى المدرسة. ينتهي هذا الدرج بساحة صغيرة مسقوفة، إذا اتجهتَ منها إلى الجنوب بنحو متر تقابلك درجات في اتجاه الشمال تنتهي بساحة صغيرة أيضاً مسقوفة، ويوجد بها باب يفتح إلى الجنوب.

القبة:

هذا الباب يفضي إلى غرفة مسقوفة تبلغ مساحتها نحو ٣ أمتار في أربعة أمتار تقريباً، وهذه الغرفة تسمى (القبة) وهي الفصل التاسع والأخير من فصول المدرسة، وهي آخر ما درسنا فيه حيث يتخرَّج الطالب من المدرسة بعد ذلك.

وتعدُّ هذه الغرفة والساحة الملحقة بها دوراً ثالثاً بالنسبة لمبنى المدرسة.

قبل أن تصعد على درج القبة وأنت في الساحة التي تلي الدَّرَج مباشرة

يقابلك بابان: أحدهما عن يمينك، والآخر أمامك باتجاه الغرب، وهذا الذي باتجاه الغرب يُفضِي إلى فصلٍ دراسي بطول ٤×٤ تقريباً، وينتهي من جهة الغرب بممر ينتهي بفصل دراسي بابه من جهة الجنوب.

أمّا الباب الثاني الذي يقع يمينك عندما تنتهي من الدرج الأول، فستجد عن يسارك مباشرة باباً يُفضي إلى فصل دراسي، وأمامك باتجاه الشمال ممر يتجه اتجاهين: الاتجاه الأول يُفضِي إلى ساحة مسقوفة هي فصل دراسي، ولكن لا يوجد لها حاجز من جهة الغرب، أي: أنها تُحاط بثلاثة جدران فقط. وهذا الفصل يُفضي إلى فصلٍ دراسي من الجنوب إلى الشمال بمساحة ٤×٣ أمتار تقريباً، وبابه يفتح على الجنوب. ثم تتَّجه مُحاذياً للبرندة الخشبية متَّجهاً من الجنوب إلى الشمال حيث تجد على يدك اليمنى على بعد ستة أمتار تقريباً باباً باتِّجاه الغرب، يُفْضي إلى فصل دراسي تبلغ مساحته تقريباً ٥×٤، وهذا الفصل هو نهاية البناء من الطابق الثاني الواقع في الجهة الشرقية والممتد من الشمال إلى الجنوب.

أمّا الاتجاه الثاني الذي هو على اليسار فيُفضي إلى ساحة مسقوفة مربَّعة، فيها كرسيٌّ خشب طويل يبلغ نحو ثلاثة أمتار، ويسمى (كرويته) يجلس عليها بعض الأساتذة أثناء فترات الاستراحة، عُلِّق في جدار هذه الساحة من الغرب ساعة كبيرة مثبتة على الجدار، ذات منبهٍ قويّ.

مكتب مدير المدرسة:

وفي هذه الساحة باب يفضي إلى صالون واسع تبلغ مساحته تقريباً ١٠×٦ متر، وفيه يوجد مكتب مدير المدرسة، الذي يقع في أقصى هذا الصالون من جهة الشمال، ويُستعمل هذا الصالون لتجمُّعات هيئات الاختبار أثناء الامتحانات. كما يوجد في هذا الصالون في أقصى جهته الجنوبية دولاب كبير من الخشب يبلغ ارتفاعه نحو مترين في عرض ثلاثة أمتار تقريباً يحتوي على مكتبة تعلوها لوحة تحمل عبارة «هدية جلالة الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود لمدرسة الفلاح».

شرفة المدرسة (البلكونة):

ويوجد في هذا الصالون على مقربة من مكتب المدير باب آخر يتَّجه إلى الشرق يفضي إلى البرندة (البلكونة). يحيط بالطابق الثاني من مبنى المدرسة بلكونة بسعة متر وارتفاع متر تقريباً، هذه البلكونة على هيئة قوس، تبدأ من الجنوب باتجاه الشمال، واضعة مكان جلوس المعلمين والصالون الكبير عن يمينها ومطلة من اليسار على حوش المدرسة، ثم تتجه من الغرب إلى الشرق بنحو خمسة أمتار، ثم تتجه من الشمال إلى الجنوب بنحو عشرة أمتار، ثم تتجه من الغرب إلى الشرق بنحو ستة أمتار، ثم تتجه من الجنوب إلى الشمال بنحو عشرة أمتار أيضاً، ثم تتجه من الغرب إلى الشرق بنحو أربعة أمتار، ثم تتجه من الشمال إلى الجنوب حتى تلتقي بجدار المدرسة الجنوبي بنحو عشرين متراً تقريباً، مطلةً على حوش المدرسة الشرقي والشمالي والساحة الموجودة الفاصلة بين المسجد والفصول الأرضية وحوش المدرسة الشمالي فالغربي.

مع الملاحظة بأن هناك باباً واسعاً مغلقاً في الجدار الشمالي للمدرسة يُفضي إلى أرض ذات حفر وأشجار شائكةٍ، والمنطقة تسمى (الكدوه).

المبنى الملحق بالمدرسة:

هذا الإيضاح قاصر على المبنى الرئيس للمدرسة، وهناك مبنى آخر أُلحق بها بعد مرور عدة سنوات نتيجة عجز مبنى المدرسة الأساس عن استيعاب كل الطلاب الذين يتوافدون للالتحاق بها، الأمر الذي اضطر المدرسة أن تستغل مبنى آخر يعرف بالمُجَمع، ويقع في الجهة الغربية بالنسبة لمبنى المدرسة الرئيس، ويفصل بينهما فضاء قد يبلغ عرضه حوالي ٣٠ متراً تقريباً، وهذا المبنى مكوَّن من ثلاث طبقات، ويحتوي على عدة فصول تستقبل الطلاب المستجدين من صغار السن، وقد كان يعمل به من الأساتذة على ما أذكر كل من المرحوم سالم أشرم، وصالح قنديل، والد الأديب المرحوم أحمد قنديل، وأحمد يوسف، وأحمد المصري، وحمزة السعداوي، ومحمد هنداوي، وآخرون لا أذكر أسماءهم.

انتظامي في الفصل الثالث:

بعد هذا الشرح الضافي عن المدرسة وفصولها، الذي يكاد أن يكون خارطة مكتوبة، أعود لإكمال ما حدث لي في اليوم الثاني من التحاقي بالمدرسة، فقد توجهت لمقابلة الأستاذ عباس حلواني، في الصباح الباكر، قابلت الرجل، فقادني إلى الفصل الذي قررت لجنة اختباري إلحاقي به، وهو الفصل الثالث، مسجِّلاً اسمي في دفتر الدوام لديه ضمن طلاب هذا الفصل وأرشدني إلى الدُّرج المخصَّص لي، ثم أعطاني ورقة تحتوي على ما هو مطلوب لي من الكتب والدفاتر والأقلام، مشيراً إليَّ بأن أراجع المسؤول عن المكتبة، وهو المرحوم حسن منصوري، وفعلاً ذهبتُ إليه، فأعطاني جميع ما هو مسجَّل في تلك الورقة: من كتب وأقلام ودفاتر وورق وأقلام رصاص ومساحات وكلها مجاناً بدون قيمة؛ لأنها على نفقة الموفَّق مؤسس المدرسة الحاج محمد علي زينل رحمه الله وجزاه خير الجزاء.

انتهى ذلك اليوم في استلام الكتب، وكان الوقت ظهراً، فذهبتُ إلى البيت وعدتُ في صباح اليوم التالي.

زملائي في الفصل:

انتظمتُ في الفصل ضمن الطلاب الموجودين فيه آنذاك، وكان عريف الفصل يُدعى علي دخاخني، ويليه حسن يوسف (وهو ابن أحمد يوسف أحد أساتذة المدرسة، وأخ لعبدالمجيد يوسف). ومن الطلاب عبدالله بازرعة، وأبناء المرحوم حامد رويحي كاتب عدل جدة، وهما جميل وأخيه حسن، وبقية من الزملاء لا أذكر أسماءهم الآن.

أحسست بالمرارة والأسى إذ صُنِّفت في الفصل الثالث، وكنتُ أطمح إلى الفصل الرابع على الأقل، ولكن هكذا أرادت الهيئة، وهي بدون شك أعرف مني بما يجب.

مضت الدراسة، وكان فصلُنا هذا ـ أعني الفصل الثالث ـ هو فصلان يفصل بينهما حاجز خشبي، بطول نحو متر ونصف، أحدهما فصلي هذا،

ومدخله من الجنوب، والفصل الآخر مدخله من جهة الشرق وعريفه حسين بكري رحمة الله عليه، الذي عمل مدة طويلة محاسباً لدى الشربتلي قبل وفاته، ومن ضمن طلاب ذاك الفصل المرحوم عبدالوهاب عبدالقادر باناجة، وهو شقيق كل من عثمان باناجة وسالم باناجة، وعبدالعزيز باناجة، وسليمان باناجة، وآخرون منهم محمد نور صلاح جمجوم أمدَّ الله في حياته.

الانتقال إلى الفصل الرابع:

انقضى عام ١٣٤٦هـ، ثم انتقلنا في العام التالي إلى الفصل الرابع بعد أن أُدمج الفصلان في فصلٍ واحد، فأصبح الفصل الرابع يجمع طلاب الفصل الثالث بشقيه، وكان عدد الجميع يتراوح ما بين أربعين إلى خمسة وثلاثين طالباً تقريباً.

أساتذتنا في مدرسة الفلاح:

وكان الأساتذة الذين يتولون تدريسنا آنذاك بدءاً من الفصل الثالث حتى الفصل السادس كلاً من الأستاذ محمود عارف، ويوسف عوضي ـ أمد الله في حياتهما ـ والأستاذ أحمد سرحان، والسيد محمد المرزوقي، والأستاذ محمد باجسير، والأستاذ حسن عبدالولي، والأستاذ عبدالوهاب نشار، والأستاذ عمر حفني.

وفي المراحل الأخيرة من الدراسة أعني في الفصل السابع والثامن والتاسع، وهو الأخير، كان المدرسون هم: يوسف العوضي، وعمر حفني، وكان يعمل مساعداً للمدير، بالإضافة إلى مهمة التدريس، وعبدالوهاب نشار. مضافاً إليهم الشيخ عبدالعزيز فتح الله، والشيخ أحمد أبو رية، وهما مصريان من علماء الأزهر، والشيخ أحمد القارىء، وهو من علماء مكة البارزين.

يُضاف إلى هؤلاء كلٌّ من الشيخ تاج غزاوي، مدرس الخط، ظل أربع سنوات، ثم أعقبه في تدريس هذه المادة المرحوم طاهر الكردي الذي استمر حتى غادرتُ المدرسة منهياً دراستي، كما كان يوجد ضمن جهاز التعليم

العالم الوقور الشيخ أحمد الزهرة، وهو رجلٌ كفيف البصر كان في حدود السبعين من عمره، فاضل الخلق محباً للخير.

وقف أحمد الزَّهرة:

وقد أوقف جميع ما يملكه من عقار على مدرسة الفلاح، ومن أبرز هذا العقار العمارة الموجودة ما بين سوق البدو وزاوية المغربي في العَلَوِي في حارة المظلوم.

وهي ذات طوابق عدة، وتُحيط بها من الجهات الأربع دكاكين تابعة لها، وكانت مهمته تدريس القرآن الكريم وتجويده وترتيل تلاوته.

فئات جهاز التعليم:

وفي وسع المرء أن يُقسِّم اختصاصات جهاز التعليم إلى ثلاث فئات:

الفئة الأولى، وهي تقوم بتدريس المواد الأولية خلال الفصول الثلاثة الأولى من فصول الدراسة التسعة، والتي تتكون موادها من تدريس القرآن الكريم والتجويد والخط ومبادىء الحساب الأربعة: الجمع والطرح والضرب والقسمة، ومبادىء النحو، ويسير من السيرة النبوية والإملاء والإنشاء. وهؤلاء هم حسن عبدالولي، وأحمد يوسف، وصالح قنديل، وأحمد مصري، ومحمود عارف، ومحمد باجسير، وطلاب هذه الفصول الثلاثة عندما يُنهون التخرُّج منها يكونون مُلِمِّين بالكتابة والقراءة والخط والإنشاء وما إليه.

أمَّا الفئة الثانية، وتتألف من الأساتذة يوسف عوضي، ومحمود عارف، والسيد محمد المرزوقي، وعبدالوهاب نشَّار، وعمر حفني، وهؤلاء يتولونَ تدريسَ المواد المقررة على الفصول الثلاثة، أي: الفصل الرابع والخامس والسادس.

وتتألف المواد التي تُدَرَّس لهذه الفصول من: النحو بطريقة موسَّعة، والجغرافيا والهندسة والتاريخ المفصَّل لحياة الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين، والخطابة والإنشاء والخط، وطلاب هذه الفصول الثلاثة عندما يتمُّون الدراسة

فيها يكونون مؤهَّلين لتولي التدريس في هذه الفصول.

أمّا الفئة الثالثة، وهي التي تشمل طلاب الفصول الثلاثة الأخيرة، أعني الفصل السابع ثم الثامن ثم التاسع، وهي أشبه بالتخصُّصات العليا إذ هي تشمل: علم الفرائض، وألفية ابن مالك في النحو، وعلم البلاغة والبيان والبديع، وعلم مصطلح الحديث، وعلوم القرآن والتفسير والفقه، والتوسع في الخطابة والإنشاء، والتعمُّق في علم الفرائض حفظاً وشرحاً، وكذلك التعمق في ألفية ابن مالك حفظاً وشرحاً، ويتولى تدريس هذه المواد كل من الشيخ عبدالوهاب النشار، والسيد محمد المرزوقي، وعبدالعزيز فتح الله، وأحمد القاري، وأحمد أبو رية، وفضيلة مدير المدرسة محمد حسين عبدالقادر مطر[1].

وقد كانت الظروف السائدة آنذاك في مدينة جدة أنَّ الكثير من

---

(١) وبمناسبة الحديث عن هذا الشيخ الوقور فإني وأنا أدوِّن هذه الخواطر والذكريات في أواخر عام ١٤٢١هـ، أذكر حادثةً متميزةً وكرامة بلغتني عن هذا الشيخ حدثت له بعد وفاته؛ وخلاصة هذا الخبر الذي بلغني مشافهة من شخصٍ يدعى علي برغوتة أحد سكان (محلة اليمن) في جدة، وهو مختصٌّ بحفر القبور لمن يدفنون في (مقبرة الأسد) في جدة، يتولى تهيئة القبر لمن يراد دفنه في تلك المقبرة.
وخلاصة ما نقله إليّ أنه تولّى تهيئة القبر الذي دفن فيه المرحوم محمد حسين عبد القادر مطر هذا الذي توفي ودفن في مقبرة الأسد هذه في تاريخ لم يحدده، ولكنه بدون شك في حدود الستينيات من القرن الرابع عشر الهجري، موضحاً لي بأنَّ عادته في حفر القبور هذه تتم على النحو الآتي:
يدفن شخصٌ ما في تاريخ معيَّن، ثم بعد مُضي ٤ سنوات على الدفن يصبح هذا القبر صالحاً لاستقبال ميت آخر، بحيث ينبش القبر من جديد ويزاح ما بقي من رمَّة المتوفى السابق في حد جوانب القبر، وهي عادةً تكون قد أرمَّت بحيث أصبحت تراباً، ثم يدفن الميت الجديد في هذا القبر.
وعلي برغوتة هذا قد توفي في نهاية القرن الرابع عشر الهجري، وكان حديثه معي هذا في منتصف العقد الثامن من القرن الماضي، مضيفاً أنه عندما فتح قبر المرحوم محمد حسين مطر بعد مضي ٤ سنوات، تمهيداً لاستقبال ميِّت جديد، إذا به يفاجأ بأنَّ ساكِن القبر محمد حسين مطر كان سليماً لم ينل جسده أي فناء أو تحلل، بل كأنه وضع اللحظة في قبره!! ممّا استدعى علي برغوتة أن يعيد وضع القبر كما كان ويعيد التراب من جديد!!

أولياء أمور الطلبة يكتفون بإتمام أبنائهم الدراسة في الفصول الثلاثة الأولى، فيُسحبون بعد الفصل الثالث، للعمل كتَّاباً في تجاراتهم، والقليلون منهم أيضاً الذين يسمحون لأبنائهم بإكمال الدراسة حتى الفصل السادس، وذلك كما قلنا تحت وطأة ظروف الحاجة لهؤلاء الطلبة، لتولي أعمال أولياء أمورهم التجارية.

أمّا الفصول الثلاثة الأخيرة فقليلٌ جداً من يترك ابنه لكي يُواصِلَ الدراسة فيها.

المنح الشهرية لطلاب الفصول الثلاثة الأخيرة:

كان المؤسِّس الموفق محمد علي زينل، الذي أنشأ هذا الصرح ـ أي مدارس الفلاح ـ انطلاقاً من حرصه الشديد على أن تخرّج هذه المدارس طلاباً متفوّقين يأخذون بقسطٍ وافر من الثقافة الإسلامية، ومن الإحاطة بكل ما يتعلق بعلوم القرآن الكريم، والتشريع الإسلامي، والأحاديث النبوية، ومصطلح علم الحديث، وكلِ ما من شأنه أن يزوِّد الطالب خلال هذه الفصول الثلاثة بحصيلة من العلم، تمكِّنه من أن يقتعد كرسيَّ القضاء إذا شاء ذلك.

ومن أجل ذلك كان الموَّفق الحاج محمد علي زينل قد خصَّص مِنَحاً شهريةً تُصرَف لكلِّ طالب بدءاً من الفصل السابع وحتى التاسع.

نفقات المدرسة:

أمَّا بالنسبة لنفقات المدرسة من رواتب الأساتذة والمستخدمين، وقيمة الكتب والدفاتر، وما تحتاجه المدرسة من تأمين الماء، وبالجملة فجميع مصاريف المدرسة تدفع من المؤسس محمد علي زينل رحمة الله عليه بواسطة وكلائه في جدة آل الجمجوم، وكان عميدهم آنذاك الشيخ محمد صالح جمجوم ـ رحمة الله عليه ـ، وكان رجلاً فاضلاً كريماً، سمحَ الأخلاق، بشوشَ الوجه، ذا عاطفةٍ أبويةٍ متميِّزة نحو الطلاب، وكان كثيرَ الترَدُّد على المدرسة والإشراف عليها، ومراقبة سَيْر التعليم فيها، وتفقد احتياجاتها.

جهاز المستخدمين في المدرسة:

كان هناك بالإضافة إلى جهاز الأساتذة الذين ذكرناهم آنفاً، جهاز آخر يتمثَّل في المستخدمين وأعني البواب عبدالخير، والفراش معتوق شحبر، والمراسل حسين هندي، وكانت مهمته تنحصر في اصطحاب دفتر الدوام في نهاية اليوم الدراسي متجوِّلاً به على بيوت الطلبة الذين تغيَّبوا في ذلك اليوم، ليتعرَّف على أسباب الغياب، ويُطْلعُ وليَّ أمر الطالب على هذا الغياب، ويأخذ توقيعه على الدفتر إشعاراً بعلمه بهذا الغياب.

برنامج الدراسة اليومي في مدرسة الفلاح:

كانت الدراسة اليومية تتم على النحو التالي:

يتمُّ انتظام الطلاب في الفصول بعد شروق الشمس بنحو ساعة، يطوف عليهم خلال ذلك عباس حلواني حاملاً معه دفتر الدوام فيقرأ أسماء كلٍّ منهم فرداً فرداً، مؤشِّراً على اسم كل طالب غير موجود، ثم تبدأ الدراسة لمدة ٤٥ دقيقة وهي الحصة الأولى، تعقبها صفارة كان يطلقها أولاً المرحوم حامد أبو تومان، ثم تولَّى هذه المهمة بعد وفاته عباس حلواني.

تلي الصفارة راحة لمدة خمس دقائق، ثم تعقبها الحصة الثانية ومدتها كالأولى، ثم تعقبها الصفارة تليها فسحة لمدة نصف ساعة، ثم يعود الطلاب إلى الفصول، ليقضوا الحصة الثالثة، ثم تليها الرابعة مع وجود فسحة خمس دقائق بين الحصة الثالثة والرابعة، ثم تضرب الصفارة بعد ذلك بعد أن يكونوا قد أتمُّوا الحصة الرابعة، متَّجهين إلى أماكن الوضوء التي تقع في الجانب الشرقي من المدرسة، ويكون آذان الظهر آنذاك قد رفعه أحد الطلاب في المسجد.

مسجد المدرسة:

والمسجد كما قلنا سابقاً يوجد في الجهة الشرقية من المدرسة، ممتداً من الشمال إلى الجنوب له بابان: أحدهما من جهة الغرب والآخر باتجاه الجنوب.

تناول طعام الغداء:

تلي الصلاة فسحة مدتها ساعة ونصف، تتيح للطلاب أن يتناولوا طعام الغداء، بعضٌ منهم يذهبون إلى منازلهم، وبعض آخر يشترونه من المطعم الموجود في المدرسة، وهو مطعم شعبي يرتاده أبناء الطبقة الفقيرة، والفئة الثالثة، وهم الطلاب الذين ينتمون إلى أسر ثرية، هؤلاء تُحضر إليهم وجبات الغداء بواسطة خدم يأتون بها من بيوت أوليائهم كأبناء باناجة، وأبناء الزاهد، أو أبناء باغفار، أو باعشن، أو الجمجوم، أو غيرهم من الأسر.

صلاة العصر:

بعد ذلك تطلق الصفارة، فيهرع الطلاب إلى مقاعد الدرس في الفصول، فتبدأ الحصة الخامسة، ومدتها كسابقاتها ٤٥ دقيقة، تليها صفارة فاستراحة لمدة خمس دقائق ثم الحصة السادسة ومدتها كسابقاتها، ثم تطلق الصفارة الأخيرة، وهنا يتجه الطلاب مرة أخرى إلى أماكن الوضوء، ومن ثم يؤدون صلاة العصر، وكان يؤمُّ الطلاب دائماً في الصلاة فضيلة الشيخ أحمد سرحان رحمة الله عليه.

انصراف الطلاب إلى بيوتهم:

وآنذاك يكون الوقت في حدود الساعة الحادية عشرة عربي، أي الخامسة بالتوقيت الغربي أي قبيل غروب الشمس بحوالي الساعة فينصرف الطلاب إلى بيوتهم.

تناغم وانسجام وود واحترام:

كان هناك تناغم وانسجام ملؤه الود والاحترام المتبادَل بين الأساتذة وطلابهم. وكان هناك رغبة من الطالب في العلم والمعرفة، وحرصٌ من الأستاذ على أن يفرغ جميع معلوماته في ذهن تلميذه، ويتَّضح ذلك أن الأستاذ عندما يشرع في شرح درس معيَّن، ولنقل أنه درس في إيضاح اسم الفاعل في النحو مثلاً، يحرص هذا الأستاذ أشدَّ الحرص، بعد الشرح،

على أن يختبر الطلاب فرداً فرداً ليتأكد من استيعابهم لمضمون الدرس بنسبة لا تقل عن ٩٠٪، وإذا اتضح له أن هناك من لم يستوعب الدرس بصورة كافية لا يمكن أن يتجاوز شرح هذا الدرس إلى درس آخر يليه، ومعنى ذلك أنه سوف لا يكتفي بهذه الحصة التي شرحها اليوم، بل لا بد أن يكون موضوع الدرس القادم هو موضوع درس هذه الحصة نفسه، وهذا يعطي فكرةً واضحةً عن مقدار جهد هذا المدرس ورغبته الصادقة في تثقيف طلابه وإفادتهم.

كيف كان العقاب في مدرسة الفلاح؟

أمّا العقاب الذي يناله الطالب فيما لو أخطأ، أو أهمل، فيلخص في طريقتين: الأولى أن يُحرم من فسحة الظهر، ويكلف بكتابة موضوع معيَّن عشرات المرات في مكان محدَّد، إما أن يكون في الفصل نفسه أو يكون في البلكونة تحت إشراف المراقب، ومعنى ذلك حرمانه من تناول الغداء.

أمّا الطريقة الثانية، وهي قليلاً جداً ما تقع، وقليلاً ما ينفذ العقاب فيها، وهي المخالفة التي تحدث عن سوء السلوك أو الشجار مع الزملاء، أو العبث أثناء الدرس، وهذه يتولاها مساعد المدير المرحوم الشيخ عمر حفني وأعمدتها عبدالخير البواب، ومعتوق شحبر اللذان يمسكان بالطالب فيضعان الفلكة في رجليه، ثم يرفعانها فيقوم الشيخ عمر حفني بإيقاع بضع ضربات عليها بالعصا، وعادةً يكون ذلك على مشهد من الطلاب. وكنا نسمي مساعد المدير العام الشيخ عمر حفني (بالعشماوي)، تشبيهاً له بجلاد مصر الذي يقوم بوضع المشنقة، وتنفيذ حكم الإعدام في المتهم.

المتابعة للطالب مع أولياء الأمور:

كانت إدارة المدرسة تهتم غاية الاهتمام في تنشئة الطالب، وتقويم سلوكه، وإحاطته بالمراقبة الشديدة الذي تجعل منه طالباً مستقيماً، سويَّ الخُلق، مستقيمَ السلوك، مُتصِفاً بحسن الأدب، وكمال الصفات، بحيثُ لا تَتْرُكُ له مجالاً للعبث، أو إضاعة الوقت باللهو، بل تحرص على تكريس

جميع أوقاته للعلم والمعرفة واستذكار الدروس، وحفظها، والبعد عن قرناء السوء، ومن أجل كل ذلك فهي تزوِّد الطالب في نهاية كل شهر بظرف مختوم معنون باسم ولي أمره، يأخذه في المساء، لتسليمه لولي أمره على أن يحضر وليه في اليوم الثاني للمدرسة، ليعطي الإجابة المطلوبة عمَّا تضمَّنه ذلك الكتاب، أو يرسل مع الطالب خطاباً مختوماً، معنوناً باسم المدرسة ومتضمِّناً للإجابات المطلوبة. أما الخطاب التي تبعثه المدرسة لولي أمر الطالب فهو يتضمَّن أسئلة محددة، مفادها ما يلي:

(أ) ابنك يغادر المدرسة مساء كل يوم الساعة كذا.

(ب) أجِبنا: ابنكم متى يصل إليكم؟ محدداً ذلك بالساعة والدقيقة.

(ج) منذ وصوله إلى البيت، ما هو النشاط الذي يقوم به خلال هذه الفترة؟

(د) كيف يبدو سلوكه ومعاملته لأخوتهِ وأفراد أسرته.

نأمل الإجابة خطياً، أو حضوركم شخصياً للمدرسة لإعطاء الإجابة.

من هذا يتضح أنَّ الطالب، بحكم هذا الحصار الشديد، يجد نفسه ملتزماً بمراجعة جميع ما يُطلب منه من واجبات مدرسية واستذكارها وحفظها، علماً بأنه لم يكن يوجد آنذاك مُلهيات في البيت، تصدُّ الطالب عن الانصراف عن المراجعة والاستذكار: كالتلفاز والراديو والمسجل والڤيديو، كما هو متوفر في وقتنا الحاضر، وكذلك لم تكن هناك مُلهيات عابثة خارج البيت، كالكورة وما يتعلق بها؛ إذ قد أصبح الاهتمام بها في وقتنا الحاضر يستأثر بـ ٩٠٪ من اهتمام الطالب، بل إنك لتجد طالب اليوم يعرف الفرق وأسماءها وأسماء أفرادها بشكل يفوق أضعاف أضعاف ما يحتفظ به من معارف ودروس.





أما علاقة المؤسِّس الحاج محمد علي زينل بهذه المدرسة، فكانت علاقة الأب العطوف، الذي ينظر إلى كل فرد من طلبة هذه المدرسة كأنه ابن وحيد له يتمثل ذلك في حرصه حينما يقدَّر له الحضور إلى الحجاز أن يكون أول عمل يقوم به هو زيارة المدرسة، وقد حظينا مدة دراستنا بزيارته لنا ثلاث مرات.

كنا نستعدُ لحضورهِ بأناشيد ترحيب، كلماتها تليقُ بمقامه، تُلقى أمامه حين زيارته، وكنا طلاب المدرسة جميعاً نجتمع في ساحة حوش المدرسة في الجانب الغربي منه، وكان ـ رحمه الله ـ يقف في الطرف الشمالي من الساحة، التي تفصل بين المسجد وبين الفصل الثالث.

كان يقف وبجواره فضيلة مدير المدرسة محمد حسين عبدالقادر مطر، ومعاونه عمر حفني، ثم يشرع الطلاب بالمرور أمامه واحداً واحداً. يقف كل واحد أمامه فيربت على كتفه، ويسأله عن اسمه واسم أسرته، والفصل الدراسي الذي هو فيه، ثم يضع يده على رأس الطالب، وفي أكثر من مرة، يُقَبِّل الرئيس الموفق محمد علي زينل رأسَ الطالب، خاصةً إذا لاحظ من مظهره أنه من الأسر الفقيرة.

كنا ونحن طلاب نُحِسُّ بسعادةٍ غامرةٍ، تملأ نفوسَنا، حينما نلحظُ من إدارة المدرسة البدء بإعداد حفلة استقباله، ولا غروَ في ذلك، فقد كنا طلاباً وأساتذةً ومستخدمين نُكِنُّ لذلك الرجل أصدقَ الود وأصفاه، وهو جديرٌ بذلك بدون شك.

اعتمدت المدرسة عليهِ (بعد الله) في تأمين جميع مستلزماتها، كما سبق أن شرحنا سابقاً، وكان آنذاك مقيماً في (بومباي) في الهند، يتعاطى تجارة اللؤلؤ، ولهذا المكتب فروع في كل من باريس ولندن.

تجارة اللؤلؤ:

وكانت تجارة رائجةً جداً، ويكاد يكون هو أكبر تجار اللؤلؤ في ذلك الوقت، وأكثرهم خبرة ودراية بهذا الجوهر الثمين، وكانت داره في بومباي محجاً لذوي الفضل والعلم، ولذوي الحاجة أيضاً.

وكان رحمة الله عليه يقسِّم أوقاتَه متجوِّلاً بين مكتبهِ الرئيس، حيث يقيم في بومباي وبين فروع هذا المكتب في كلٍ من باريس ولندن وبعض أنحاء أوروبا.

استقدام الطلاب المتخرجين إلى (بومباي):

كان بيته، كما ذكرتُ، يعجُّ بالوافدين سواء من طلاب الحاجات، أو من ذوي المكانة العلمية والفضل، وكان فوق ذلك كله يستقدمُ الكثير من خريجي مدارس الفلاح، الذين يكملون مراحل دراساتهم النهائية يستقدمهم إلى (بومباي) ويهيىء لهم السكن، وجميع احتياجاتهم، لكي يواصلوا دراساتهم في مواد دراسية عليا متخصِّصة، على يد علماء متخصِّصين، ذوي مكانة علمية عالية، وأذكر على سبيل المثال أن من ضمن هؤلاء الطلبة الذين أكملوا مَراحل دراستهم النهائية في مدرسة الفلاح بجدة وتخرجوا من الفصل التاسع كُلاً من أحمد بَلينا، وبامفلح. وعمر غراب، وعبدالحميد مطر، وآخرون لا أذكر أسماءهم الآن. وكان سفر هؤلاء الجماعة على ما أذكر في أواخر عام ١٣٤٧هـ.

ظلَّ هذا الرجل يواصلُ جهوده الخيِّرة في تغذية هذا الصرح العلمي الضخم، باذلاً الكثيرَ والكثيرَ جداً من الأموال والنفقات، كل ذلك ابتغاءَ مرضاة الله سبحانه وتعالى، وإرضاءً أيضاً لإحساسه النبيل وشعوره المخلص نحو أمته ووطنه، وإنه ليصدق عليه بيت من الشعر سبق أن قيل في حفل

تكريم طَلْعَت حرب باشا في مصر حينما أنشأ بنك مصر لأول مرة. هذا البيت هو:

رجل قصارى القول فيه أنه ... شيخ أعاد إلى البلاد شبابها

وبدون شك فإن محمد علي زينل رحمة الله عليه سيحتضن التاريخ اسمه ما تعاقب الجديدان، باعتباره رجلاً أحيا أمة، أي: أخرجها من ظلمة الجهل إلى نور العلم والمعرفة، بجهده الخاص وبتفانيه وإخلاصه لأمته ووطنه، وهكذا يكون الرجال.

كارثة تجارة اللؤلؤ:

في أواخر العقد الخامس من القرن الرابع عَشَر، أي في حدود ١٣٥٠ أو ١٣٥١ هجرية، فجأةً تناقلت أسلاك البرق آنذاك نبأً صادراً من اليابان فحواه أنَّ العلماء اليابانيين قد اكتشفوا لؤلؤاً صناعياً يضاهي شكله ولمعانه اللؤلؤ الطبعي، وما هي إلا أيام حتى هبطت أسعارُ اللؤلؤ الطبيعي الذي كان المرحوم محمد علي زينل أكبر تُجَّاره، والمتعاملين فيه، هبطت هبوطاً مفاجئاً، وتدنَّت إلى أقل من ربع قيمته الأصلية، ولما كانت تجارة المرحوم محمد علي زينل محصورة في هذا الجوهر الثمين فقط، فقد كان هذا الاكتشاف بالنسبة له كارثة هوت بتجارته إلى الحضيض.

رسائل إلى أولياء الأمور:

وأحسَّ أنه أصبح عاجزاً عن الاستمرار في تمويل المدرسة، نتيجةً لهذه الكارثة التي حلَّت بتجارته، فأسرَّ بتوجيهِ رسالة إلى إدارات مدارس الفلاح التي كان يموِّلها، وهي فلاح جُدَّة، وفلاح مكة، وفلاح البحرين، وفلاح عَدَن، وفلاح دُبَي، كان مضمون تلك الرسالة يتلخَّص في ضرورة اتِّخاذ كل الإجراءات الممكنة لضمان استمرار هذه المدارس في تأدية رسالتها والاستمرار في عملها، وذلك بأن يُجمع أعيانُ كل بلد توجد فيه مدرسة من هذه المدارس، ويُشرح لهم الوضع بواسطة إدارة هذه المدرسة، وتلقى على الحضور رسالة المؤسِّس وإيضاح رغبته في استمرار هذه المدارس، ويُطلب

منهم أن يقوموا متكاتفين كل في حدود مقدرته فيضمنوا تمكين مدرستهم من الاستمرار في عملها.

وفعلاً قامت إدارة مدرسة الفلاح في جُدة بتزويد طلابها برسائل إلى أولياء أمورهم، تطلب منهم الحضور إلى المدرسة في موعدٍ حددته لهم في تلك الرسالة.

اجتماع أولياء الأمور في مدرسة الفلاح:

في ذلك اليوم المحدَّد حضر أولياء أمور الطلبة إلى ساحة المدرسة، وكان الاجتماع في فناء المدرسة الغربي، بعد أن جمعت المدرسة عشرات الكراسي الخَيْزران بطريق الإعارة.

بدأ الاجتماع بأن قُرِىء على الحضور كتاب المؤسِّس رحمة الله عليه الذي يشرح فيه ما آل إليه وضعه الحالي آنذاك، نتيجةً للكارثة التي ألمَّت به على حين غرة. وقد تضمَّنَت رسالته الطلب من هؤلاء الحضور أن يسجِّل كل منهم على نفسه مبلغاً محدَّداً من المال في حدود إمكاناته ومقدرته، على أن يكون ملتزماً بدفعهِ شهرياً لإدارة صندوق المدرسة، وهذا بالنسبة لذوي اليسار والطبقات المتوسطة، أما الفقراء فيُعفون من ذلك، ويستمروا هو بدفع ما يتوجب عليهم مهما كلفه ذلك.

مساهمة أولياء الأمور في دعم مدرسة الفلاح:

سُجِّلت أسماء الحاضرين فرداً فرداً، في الاجتماع نفسه، ثم طيف بها عليهم بحيث يضع كل فردٍ منهم مقْدارَ ما يرى أنه قادرٌ على دفعه، ثم يوقِّع أمام اسمه، التزاماً منه بدفع هذا المبلغ في نهاية كلِّ شهر.

وعلى ذلك انفضَّ الاجتماع، وكانت تعلو وجوه الجميع معالم الجَزَع والحزن والأسى لما حلَّ بهذا المُحسن النبيل، الذي يُكِنُّ له كل فردٍ منهم أصدق وأسمى آيات الحب والاحترام.

وفي اليوم الثاني لانفضاض هذا الاجتماع كانت إدارة المدرسة قد

طبعت إيصالات استلام صغيرة، ذات أصل وصورة تتضمن اسم المدرسة، ثم اسم الطالب، ثم اسم وليّ أمره، ثم مقدار المبلغ الذي التزم به ولي أمر الطالب.

وأُنيطت هذه المهمة بالأخ الصديق عمر عبد ربه، وأصبح يقوم بهذه المهمة أميناً للصندوق، وهيّأ دفاتر مخصّصة، سُجّلت فيها أسماء هؤلاء المتبرعين، ومقادير تبرعاتهم، تعبأ هذه الإيصالات في نهاية كلّ شهر مما هو مدوّن في هذه السجلات.

وكان ولي أمري أخي عبدالله، قد سجّل على نفسه خمسة عشر ريالاً شهرياً. كنت أُحضرها في نهاية كل شهر، وأسلّمها للأخ عمر عبد ربه بعد أن يكون قد زوّدني بسند الاستلام موقّعاً، مقدّماً أسوةً بالآخرين.

وكانت المبالغ التي التزم بها أولياء الأمور تتراوح ما بين أربعين ريال إلى ريال واحد، كلٌّ بحسب مقْدرته واستطاعته. وكان في هذا الإجراء مغزى نبيلاً يمثّل التكافل الاجتماعي بأصدق وأزهى صُوَرِه.

قِرْشُ مدرسة الفلاح:

سارت السفينة على بركة الله، واستمرت المدرسة في حيويتها ونشاطها كأن لم يعتريها أي عائق، ثم أعقب ذلك بعد مُدة أن اجتمع نخبة من أعيان جدة ممّن يقدّرون العلم، ويقدرون استمرار هذا الصَّرْح في عطائه، وتداولوا الرأي بينهم على وسيلة تضمن استمرار الوضع بطريقة أكثر أماناً للمستقبل.

اجتمعوا فيما بينهم وقدّموا التماساً لوزير المالية آنذاك عبدالله السليمان الحمدان، يطلبون فيه من الحكومة مدّ يد العَوْن لهذه المدرسة بما يضمن استمرارَها في تأدية رسالتها. فعُرِضَ الأمر على جلالة الملك عبدالعزيز رحمه الله، ونظراً لشح وضآلة موارد الدولة آنذاك، إذ كانت تعتمد على رسوم الحجاج، وعلى إيرادات الجمارك، وعلى رسوم الخدمات الضئيلة كالبريد والطوابع ورسوم التزام دلاّلي حلقات بيع الخضار التي تجبيها المالية

وإلى غير ذلك، وهي بمجموعها موارد ضئيلة، ومع ذلك كانت تؤمِّن نفقات دولة بكل ما تعنيه كلمة دولة من شيوع وامتداد.

نتيجةً لهذه العوامل تقرَّر أن تكون أنجع وسيلة لتحقيق التماس هؤلاء الأعيان أن يُفْرَض رسم إضافي قدره قرش واحد، يُستوفى على كل طرد من طرود البضائع التي ترد إلى التجار عن طريق الجمرك، وأصبح يعرف هذا الرسم باسم (قرش مدرسة الفلاح).

وفعلاً صدر به أمر ملكي على ما أظن، وأَخَذَت إدارة الجمارك تستوفيه ضمنَ رسوم البضائع الأخرى، وفي نهاية كل شهر تُجمع حصيلة ما توفَّر لديها من هذا القرش، وتُرسل بخطاب رسمي إلى إدارة المدرسة.

ظلَّ هذا الوضع قائماً، أي اعتماد المدرسة في نفقاتها على هذين المصدرين أعني ما التزم به أولياء أمور الطلبة، وهذا القرش الذي قررته الدولة كما شرحتُ آنفاً، ظلَّ هذا الوضع قائماً حتى مغادرتي جدة عام ١٣٥٧هـ، حيث علمتُ بعد ذلك أنَّ الدولة ضمَّت هذه المدرسة إلى بقية مدارس الدولة الحكومية، وتكفَّلت بالإنفاق عليها.

زملاء الدراسة في السنوات الثلاث النهائية:

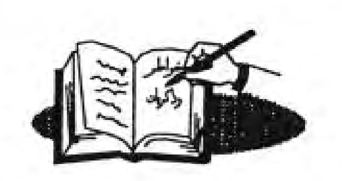
واصلتُ دراستي أنا ومجموعة قليلة من زملائي مجتازين مراحل الدراسة النهائية الثلاث، حتى أكملنا الدراسة في الدرجة التاسعة في نهاية عام ١٣٥٢هـ. كان يرافقنا في هذه الرحلة الدراسية، أعني السنوات الثلاث النهائية من الدراسة بعضُ الزملاء، ولكنهم لم يكملوا إلى نهاية الشوط إذ أخذوا يتخلفون الواحد إثر الآخر، فكان منهم مصطفى درويش لبَّان، الذي ترك الدراسة في نهاية السنة السابعة، محمد عراقي، ومحمد مغربي وهو غير محمد علي مغربي الأديب والمؤرخ المعروف، ووالد هذا الطالب كان مغربياً فعلاً في لهجته، وكان يعمل حمَّالاً في سوق الحراج، وابنه محمد هذا هو ومحمد عراقي تركا الدراسة وهما في الفصل الثامن.

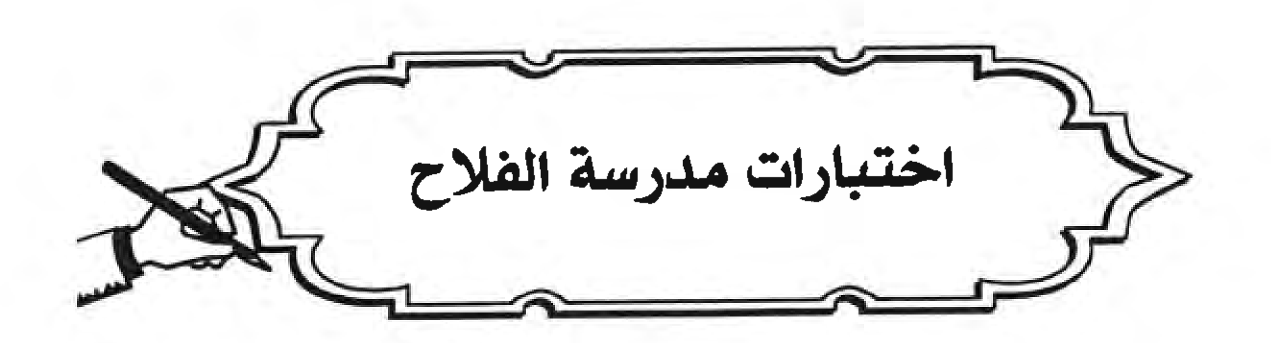
أمّا الذين أتمُّوا المشوار معي فهم كلٌّ من حسين بكري، وقد عمل

بعد تخرجه محاسباً عند الشربتلي، ومحمد نور صلاح جمجوم، وصدقة أبو زيد، وعمل بعد ذلك لدى المعلم ابن لادن أمدَّ الله في حياتهما، وكل من المرحوم شحاتة قنديل، وحمزة خُميِّس، وقد عمل في البنك الهولندي بعد تخرُّجه، ومكي كردي وهو أخو طاهر كردي، أستاذ الخط بالمدرسة، والذي لا أدري الآن إذا كان لا يزال حياً أم انتقل إلى رحمة الله، وكذلك المرحوم عبدالوهاب عبدالقادر باناجة.

الطلاب الثمانية الذين اجتازوا مراحل الدراسة حتى نهايتها:

من هذا يتَّضح أنَّ عدد الطلاب الذين استطاعوا أن يجتازوا كامل مراحل الدراسة حتى نهايتها هم ثمانية أشخاص فقط، وهم: إبراهيم الحسون، فحسين بكري، فعبدالوهاب باناجة، فمحمد نور صلاح جمجوم، فشحاته قنديل، فحمزة خُمَيِّس، فمكي كردي، فصدقة أبو زيد، وقد ذكرت الأسماء حسب ترتيب جلوسهم في الفصل، وَفق ما تحصَّلوا عليه من درجات.





كانت اختبارات المدرسة آنذاك تتم على فترتين: الأولى في منتصف العام، ويترتب عليها تبادل الطلبة لمقاعدهم داخل الفصل على أساس ما تحصَّلوا عليه من درجات أثناء الاختبار.

أما الثانية فتبدأ في ١٥ ذي القعدة، وتنتهي في خمسة من ذي الحجة في كل عام، ويترتب عليها انتقال الطالب من فصله إلى الفصل الذي يليه، أو تخرجه نهائياً من المدرسة إذا كان من طلاب الدرجة التاسعة.

الاحتفال بالتخرج من مدرسة الفلاح:

كنا نحن طلاب الدرجة التاسعة في ذلك العام ابتدأنا الاختبار في الموعد المحدد الذي ذكرت، وكنا نمثل خلاصة المدرسة. فكانت المدرسة تحتفل بطلاب هذه الدرجة إشادةً بصمودهم ومواصلتهم الدراسة حتى إكمال الشوط، وكان احتفالها بذلك يتمثل في اختيارها لنخبة من ذوي الثقافة والفكر، من بعض أعيان جدة المرموقين، تُوجِّه إليهم الدعوة بموجب خطابات رسمية، ليحضروا صباح اليوم المحدد، ليتولوا بأنفسهم اختبار طلاب الدرجة التاسعة.

وبالنسبة لنا فقد كان من نصيبنا أن اختارت إدارة المدرسة كلاً من حافظ بك عامر، وكان سفير مصر في المملكة، وموفق الآلوسي وكان وزيراً مفوَّضاً للعراق لدى المملكة أيضاً، وأربعة أشخاص على ما أذكر من أعيان

جدة هم أحمد باغفار، ومحمد صالح جمجوم، ومحمد صالح باعشن، ولا أذكر الرابع وأظنه السيد هاشم سلطان.

حضر هؤلاء في اليوم المحدَّد، وكان يوم عشرين ذي القعدة، وكان الدرس الأول الذي سنختبر فيه هو كتاب تفسير القرآن الكريم المعروف بتفسير الجلالين، وكان الذي يتولى تدريسه لنا هو فضيلة الشيخ محمد حسين عبدالقادر مطر، مدير المدرسة رحمة الله عليه.

الاختبار على طريقة السفير المصري:

في ذلك الصباح حضرنا نحن طلاب الدرجة التاسعة ـ أي الخريجين ـ إلى الصالون الكبير الذي يحتل جزءاً منه مكتب المدير كما مرَّ ذكره، قدِمنا وكلٌ منا يحمل كتابَ تفسير الجلالين تحت إبطه، جلسنا على مقعد أُعدَّ لنا محيطين بمكتب المدير البيضاوي، على هيئة نصف دائرة أمامنا مكتب المدير، وعن يسارنا هيئة الاختبار.

وفي الوقت نفسه كان الصالون يحتوي على عدة مجموعات من الأساتذة، يتولون اختبار الطلاب من مختلف الفصول، وكان الصالون غاصّاً بالطلاب والأساتذة.

وضع كلٌ منا كتابه أمامه على مكتب المدير، وكان المدير آنذاك واقفاً بجوارنا أمام اللجنة، وهذا يدلُّ على اهتمامه وحرصه على أن يكون هؤلاء الطلاب عند حُسْن ظنه في إجاباتهم، خاصةً وأنهم يمثلون صفوة الطلاب؛ ولأنهم فوق ذلك كله، وأهم من ذلك كله، تلقوا دراسة هذه المادة، وأعني بها التفسير، على يديه هو شخصياً، مما يجعله يهتم بنجاحهم أشدَّ الاهتمام.

العادة المتَّبعة في الاختبار:

كانت العادة المتَّبعة عند الاختبار في مثل هذه المواد، وخاصّة التفسير، الذي يتألف كتابه من مئات الصفحات أن يقوم الطالب قبل أيام من

موعد الاختبار باختيار آيات معيَّنة من القرآن الكريم في أماكن مختلفة من الكتاب، يقوم بمراجعة هذه المواضيع مراجعة استقصاء وتدقيق مستوضحاً من مدرس المادة شرح كل ما أشكل عليه فهمه، حتى إذا ما جاء موعد الاختبار يكون قد استوعب هذه المواضيع، وفهمها فهماً جيداً تمكّنه من الإجابة عن أي سؤال يوجَّه إليه واضعاً في الوقت نفسه فواصل داخل الكتاب في هذه المواضيع المعينة، حتى إذا ما طلب منه وقت الاختبار أن يقرأ موضوعاً معيَّناً، يقرأ أحد المواضيع التي سبق أن درسها، فإن طُلب منه تغيير الموضوع، يعمد إلى قراءة الموضوع الثاني، وهكذا لو طُلِبَ منه مرةً ثالثة يفعل كما فعل سابقاً.

وهذا الإجراء قد يبدو للقارىء لأول وهلة أنَّ فيه تحايلاً وغشاً وتدليساً، ولكن الواقع هو غير ذلك، إذ أنَّ كتاب التفسير الذي يحتوي بين دفتيه جميع آيات الذكر الحكيم لا يستطيع أي إنسان ـ مهما بلغ من غزارة المادة وسعة العلم ـ أن يزعم أن في وسعه أن يعطي الإجابة عن أيِّ موضوع في هذا الكتاب.

ما كدنا نضع كتبنا على مكتب المدير، كما شرحتُ، حتى امتدت يد السفير حافظ بك عامر، وكنت أول شخص يليه، امتدت يده إلى كتابي، فسحبه ووضعه أمامه، ثم طلب من زملائي الآخرين أن يقدِّموا له كتبهم.

استلمها منهم جميعاً، ووضعها أمامه بعضها فوق بعض، وحتى اللحظة لم نكن مدركين الهدف من هذه الحركة التي بدرت منه، ولكن المدير بلماحية فكره، وشفافية ذكائه، وجَّه الخطاب إلى السفير قائلاً له: لماذا جمعتم الكتب من الطلبة؟ وكأنَّ السفير أَنِفَ من توجيه مثل هذا السؤال إليه، فأجابه بعبارةٍ جافاها الذوق واللياقة، وبطريقة توحي بخشونة ـ بما معناه ـ: نحن أدرىً بما نفعل.

ثم أردف، قائلاً على مسمع منا: جئنا لنختبر. فردَّ عليه المدير قائلاً: أعطوهم الكتب، واختبروهم.

فردَّ بعنف: نحنُ نريد أن نختبر على الطريقة التي نختارها، لأننا

سنضع علامات نوقِّع عليها. فأجابه المدير ـ بما معناه ـ: لا اعتراض على ذلك اختبروا على أي طريقة شئتم، ولكن عن طريق تمكين الطلبة من كتبهم، وهنا استاء السفير حافظ بك عامر، واحتدَّت لهجتهُ وقال مخاطباً المدير: يا مولانا أنتم دعوتمونا، ولم نأتِ من تلقاء أنفسنا، فإمّا أن تتركونا نختبر كما نحب، وإما أن تسمحوا لنا بأن نعود من حيث أتينا.

كانت هذه العبارات من حيث تأثيرها النفسي قد خلقت في نفس المدير جواً من التأثر والانفعال لم يرَ معه مُوجباً أن يردَّ، ولذا تركَ موقفه وخرج إلى الشرفة بحالة انفعالٍ عصبيٍّ واضح.

مخاصمة بيني وبين السفير المصري:

كان الحوار الذي تمَّ بين الرجلين قد أثار انتباه الأشخاص الموجودين في الصالون مُخْتَبِرِينَ ومُخْتَبَرِين، أي الطلاب وهيئة الاختبار، بحيث شخصت أبصارهم إلى مكتب المدير، وما يجري فيه، متوقفين عن الاستمرار في عملهم. أمّا نحن الطلاب فحدِّث ولا حرج، وكان لسان حالنا أشبه بشاةٍ تنظر إلى سكين الجزَّار، وقد كان لسوء حظي أن أكون الفريسة الأولى التي تغتالها هذه السكين. فما كاد المدير يخرج مُنْهياً الحوار، وكان السفير خلال ذلك يصعِّد إلينا نظراته واحداً واحداً، وكنا مطأطئي الرؤوس، ثم مرَّت فترة قد لا تقل عن دقائق، فوجه إليَّ الكلام بقوله: قف. وكان يركز نظره بدرجة أكثر عليَّ، وعلى زميلي عبدالوهاب باناجة، وكان زميلي ـ رحمة الله عليه ـ ينفرد بمميزات لا أملك أنا منها ولا ٥٪، فكان وسيم الخَلْق، جميل الصورة، مُترف الملبس، بينما كنتُ عكس ذلك، وإذا تواضعت فإن ما أعطيه لنفسي لا يزيد عن ٣٠٪ مما يمتاز به زميلي، وكأني أتصوَّر أنَّ سعادة السفير عندما كان يوجِّه نظراته إليَّ، ثم إلى زميلي عبدالوهاب، يتساءل في نفسه بشيء من الاستغراب: لماذا يقدِّم هذا ويؤخِّر ذلك؟ بمعنى لماذا أكون أنا متقدماً في أفضلية الجلوس على زميلي عبدالوهاب باناجة.

وقفتُ إجابةً لطلبهِ، وهنا مرةً ثالثة أخذ يوجِّه نظراتِهِ الحادة إليَّ، ثم

أردف قائلاً: أتصلي أنت؟ فلم أجبه وإنما ابتسمت ابتسامةً ذات مغزى؛ لأنني شعرتُ من نظراته إليَّ أنَّ فيها الكثير من الازدراء.

عندئذ قال: لماذا تضحك؟ أأنت تُألّسْ عليَّ؟ (بمعنى: هل تسخر مني).

أجبته معاذَ الله يا سعادة السفير، أنا لم أضحك وإنما ابتسمت تبسُّم العجب والاستغراب.

أجاب: (إزاي؟) أي: كيف؟

قلتُ: أعجب وأستغرب من توجيه سعادة السفير لمثل هذا السؤال إليَّ. مرة ثالثة: إزاي؟ أي: كيف؟ قلت: مثل هذا السؤال لا يوجَّه لمن وُلد ونشأ وترعرع في مهبط الوحي، ومشرق النور، ومولد الرسالة؛ لأنَّ من يولد في مثل هذا الجو واضح أنَّ الصلاة جزء من كيانه وغذاء لفكره كالماء والهواء، ولكن مثل هذا السؤال يكون مقبولاً ومُسْتساغاً لو وُجِّه إلى أحد طلاب الكنانة أعني مصر.

وهنا تحفَّز الرجل وسألني: من أي بلدٍ أنت؟ قلت: نجدي المولد حجازي النشأة، وهنا أدار رأسه إلى الوراء بشيءٍ من السخرية قائلاً بصوت فيه نَبْرة التحدي: آه؛ إذاً أنت من بلد مسيلمة الكذاب... كانت الأنظار كلُّها متَّجهة تسمع الحوار، وكان المدير آنذاك قد دخل، ووقف بجوارنا، وكان الأساتذة الآخرون قد ملؤوا ساحة الصالون.

هنا استجمعتُ قواي، فقلتُ جواباً على سخريته: نعم. إذا كنتُ أنا من بلد مسيلمة فمسيلمة لم يزد على ادِّعاء النبوة، بينما سعادة السفير ينتمي إلى أرض الكنانة مصر التي قال فرعونها: أنا ربكم الأعلى.

وهنا انفجرت عاصفة من التصفيق، اهتزَّ له المبنى، كلما أوشك أن يتوقف اشتدت، حدته من جديد، وكان أكثر المنفعلين حماساً فضيلة مدير المدرسة، الذي من فرط حماسِهِ، وكان يحمل بيده عصا سقطت منه على الأرض نتيجةً لمشاركته في التصفيق.

هدأت الزَّوْبَعة، وخيَّم وجومٌ رهيبٌ على الموقف، وكنتُ أحسُّ في قرارة نفسي أنني مُفْتَرسٌ لا مَحالة، فماذا عَسَاه أن يفعل الحَمَلُ للتخلُّص من براثن الأسد؟

فجأةً قال لي: (صَلِّي) فاتَّجهتُ إليه مُسْتَفْسِراً: حدِّد الصلاة التي تريدني أن أصليها. وكان هدفي من هذا السؤال، إذا كانت هذه الصلاة سريَّة أم جهرية. أجاب صلاة العشاء، فأدرتُ ظهري نحوه واتَّجهت إلى القبلة ورفعت صوتي بتكبيرة الإحرام، ثم أخذتُ أتلو بصوت مرتفع فاتحة الكتاب، وهنا أمرني بالتوقُّف، وقال لي: توجَّه إلى السبورة، وكانت توجد سبورة ضخمة ملصقة بجدار الصالون، وأمرني بأن أكتب ما يُملي عليَّ، وهنا قال لي: اكتب ما يلي:

أسئلة سفير مصر التعجيزية:

واحد: بَيِّن معاني مفردات كلمة بسم الله الرحمن الرحيم.

اثنين: بيِّن تفسير آيات سورة الفاتحة.

ثلاثة: بيِّن الأحكام الشرعية التي تضمَّنتها السورة، أي: سورة الفاتحة.

أربعة: بيِّن الشواهد النحوية التي اشتملت عليها السورة.

خمسة: بيِّن أنواع البلاغة الموجودة في السورة.

وظلَّ يملي عليَّ على هذا المنوال وكلها تتعلق بسورة الفاتحة حتى بلغت الأسئلة ستة عشر سؤالاً.

كنت أكتبُ وأنا أُحسُّ بأني أفقد مدارك تفكيري ومنافذ حسِّي شيئاً فشيئاً، بحيث لم أكد أنتهي من تدوين الأسئلة حتى وجدتُ نفسي أشبه بلوحٍ جامدٍ من الخشب لا حراك فيه. لساني قد جفَّ، وعقلي توقَّف، وشعوري لا أحسُّ منه شيئاً. أيُّ هول وأيُّ عبء يطلَبُ من طالبٍ تحصيلُهُ محدود ومعلوماتُه ضحلة بالنسبة للسياحة في هذا الكون الخضم الواسع من تفسير آيات الذكر الحكيم.

توقفي عن الإجابة:

وقفتُ بجوار السبورة لا أستطيع حراكاً، ولا أقدر على تحريك لساني، وكان العرق ينسابُ من قمةِ رأسي حتى أخمص قدمي. ظَلِلْتُ على هذا الوضع مدَّة قد لا تقلُّ عن عشر دقائق، وهو يلحُّ عليَّ بعنف أشبه ما يكون بالزجْر والصُّراخ (إنطأ إنطأ) أي: انطق انطق.

كان موقفاً رهيباً لا أعتقد أنَّ في وسع حروف اللغة، ولا ريشة أعظم فنان عبقري تستطيع أن ترسمه أو تعبر عنه، وكان الوجوم ورهبة الموقف يخيِّم على الجميع.

شعاع نوراني:

وفجأةً ونبي حالةِ إلهام نفسي ينسابُ إلى أعماق النفس، وكأنه شعاع نوراني يخترق منافذ حسِّي، فيخلق في نفسي تساؤلاً مؤداه: إنني أعرف جانباً لا بأس به من النحو، وأعرف كذلك بنفس القدر البلاغة والبيان، وأعرف من جرْ السورة ما تمكنني منه سليقتي وأنا عربي يعرف ما تعنيه مفردات اللغة. لماذا لا أحاول الإجابة مستخدماً ما لدي من حصيلة العلم فإن وُفِّقتُ فبها، وإلا فعلى الأقل أنني حاولتُ.

كنتُ أحسُّ بهذا التساؤل يملأ كياني، وأكاد أزعم أن جميع منافذ حسِّي كلها تحاول أن تنطلق لتتكلم، وهنا قلتُ: بأعلى صوتي بعد أن شعرتُ نتيجةَ لذلك أنَّ جميع ما كنت أحسُّه من تبلُّد في الشعور وجفاف في الحلق قد زال عني، وكأنه لم يكن، وإنها لحالة نفسية لا أعتقد أنه في الإمكان تصويرها.

انطلاق لساني بالإجابة عن أسئلة السفير:

فجأةً انطلق لساني مُجَلجلاً: بسم الله: الباء حرف يراد به هنا الاستعانة، ولفظ الجلالة هو اسم من أسماء خالق الكون ومَن فيه، والمعنى أبتدىء قراءة هذه السورة مُستعيناً باسم الله: باسم الله القادر على كل شيء،

باسم الله المانح لكل شيء، باسم الله الذي جميع ما في الكون في قبضة يمينه. الرحمن اسم من أسماء الله العليا، وهو صيغة مبالغة من الرحمة، ومعناه الكثير الرحمة على عباده ومن رحمته أن خلقهم من العدم، وأن صورهم على أكمل صورة، وأن يسَّر لهم ما في السموات والأرض، وكل ما يضمن لهم السعادة والهناء في هذه الحياة.

الرحيم أيضاً صيغة مبالغة من الرحمة، وهي أكثر دقة من كلمة الرحمن، فإذا كانت كلمة الرحمن تعني الخلق والتكوين ومبهجات الحياة: فإن كلمة الرحيم تعني خلق وتيسير الأشياء الدقيقة كنعمة السمع ونعمة البصر، ونعمة الولد، ونعمة الفهم والذكاء، ونعمة العقل. إذاً يصبح المعنى الإجمالي للبسملة كلها إنني أبتدئُ بقراءة سورة الفاتحة مستعيناً ومتكلاً ومعتمداً على عون وقوة هذا الإله المعبود الذي هو الله وهو الرحمن وهو الرحيم والذي تبلغ أسماؤه تسعة وتسعين اسماً، أيّاً ما تدعو به تجده قريباً منك، لقولهِ تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: الحمدُ في اللغة العربية: يُطلق على لفظ يحتوي على أربعة شروط، وهو عبارة عن الثناء باللسان، على جميلٍ اختياريٍّ.

مثالُ ذلك: أن يُسدي إليك شخصٌ ما هديةً أو خدمةً أو معروفاً، فتقول له: أشكرُك أو أحمدك. على أن تكون هذه الخدمة التي أسداها إليك: أولاً: نافعةً لك ومحببةً إليك، وثانياً: أنه أسداها إليك بطوعه واختياره دون إكراه له على فعلها، أو تشوُّف منه لمنفعةٍ يحصل عليها منك. أمّا إذا أسدى إليكَ هذه الخدمة فرفعتَ يدك إلى أعلى جبينك كناية عن الشكر، كما هو متعارف عليه لدى بعض الناس، فهذا لا يسمى حمداً لأن الحمد يجب أن يكون بالنطق باللسان: أشكرك أو أحمدك.

ولكي أوضح لسعادة السفير بدرجة أوفى ـ وكنتُ كما ذكرت آنفاً أشعرُ بأن جميع منافذ حسي تكاد تسبق لساني بالنطق ـ تقدمتُ إليهِ،

فأمسكتُ بيدي اليمنى طربوش سعادة السفير الذي كان قد وضعه أمامه على المكتب.

رفعتُ الطربوش بيدي إلى أعلى معلناً بصوتٍ مُجَلْجل بقولي: إذا أعطاني سعادة السفير هذا الطربوش طَوْعاً واختياراً منه، ودون أن يتطلع من وراء ذلك إلى منفعة يقصدها، فقلت له بلساني: أشكرك أو أحمدك يا سعادة السفير فهذا من باب الحمد أما إذا كان عطاؤه إياي هذا الطربوش خوفاً من عصا فضيلة مدير المدرسة الذي أشرتُ إليه، وكان واقفاً أمامي، لأنه ـ أي المدير ـ قد قال له: إذا لم تعطِ هذا الطربوش لإبراهيم الحسون فإنني سأضربك. فأعطاني الطربوش خوفاً من الضرب فإن هذا الحمد لا يُسمى حمداً وإن كان على جميلٍ وهو الطربوش؛ لأنه لم يكن اختيارياً، وإنما كان نتيجةً للخوف، وعلى ذلك فإن فاطر السموات والأرض، وخالق الكون كله وواهب الحياة، ومنزل الغيث، والمنعم بجميع النعم على الإنسان، وكلها نعم لا تحصى فضلاً منه واختياراً فإنه يصبح مستحقاً لأن يُحمد ويُشكر.

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كلمة رب بمعنى المالك والمربي، فالعبيد كلهم مملوكون لله سبحانه وتعالى، والعالمون هم ما سوى الله سبحانه وتعالى، فكل الكون بما فيه من أفلاك وكواكب وجبال وبحار وحيوان وجماد وبشر كلهم يُعبَّر عنهم بكلمة العالمين.

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وهنا قاطعني محاولاً إسكاتي، ولكنني واصلتُ شرح معنى الاسمين الكريمين الرحمن الرحيم بدون أن أعبأ بمقاطعتهِ، ولكنه فجأةً وقف وأشار بيده قائلاً: كفى.. كفى.

ثم وجَّه إليَّ السؤال التالي: ما معنى الآية الكريمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾؟ ولماذا قُدِّمت كاف المخاطب على الفعل في الآية الكريمة؟ أجبته: تقديم كاف المخاطب على الفعل يفيد الحَصْر، أي: إننا لا نعبد إلا أنت ولا نستعين إلا بك، وهناك فرق واضح بين أن تقول نعبدك ونستعينك، وبين ما ورد في نص الآية الكريمة؛ إذ معنى نعبدك ونستعينك

أنه من الجائز أن نعبدك ونعبد غيرك، ونستعين بك ونستعين بغيرك، أمّا حين تقول: إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين فإنك تحصر عبادتك واستعانتك بعظمة جبار السموات والأرض الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد والذي لا رادَّ لمشيئته ولا معقِّب لحكمه، إذا أراد أمراً إنما يقول له: كن. فيكون.

هدية السفير المصري لي:

وفي هذه اللحظة وكان جميع من في القاعة صامتين متَّجهين بأبصارهم إلى سعادة السفير، إذ وقف وأمسك بيدي التي كنت أكتب بها قائلاً: كفى. ثم سار مُمسكاً بيدي متَّجهاً إلى دولاب ضخم داخل الصالون في الجهة الجنوبية مليءٍ بالكتب تعلوه لوحة كُتب عليها بخط بارز إنَّ ما بداخل هذا الدولاب هو هدية من جلالة الملك عبدالعزيز.

اتَّجه بي إلى الدولاب، وفتحه بيده، وطلب مني أن أختار أي كتاب أرغبه، ولما كنت آنذاك قرأت الكثير عن الداعية الإسلامي الكبير أمير البيان الأمير شكيب أرسلان الذي كان كتابه (الارتسامات اللطاف) موجوداً ضمن هذه الكتب فقد اخترته، وعندئذ أَخَذَهُ مني، وكتب عليه بخط يده: هدية مني إلى الطالب النجيب النَّجدي: إبراهيم الحسُّون الشرقي، ثم وقَّع عليه بعد أن أضاف كلمة (بوركت بلادٌ أنجبتك) ثم وقَّع مرة أخرى على الكلمة الإضافية، وهذا الكتاب ما زال موجوداً ضمن مكتبتي منذ ذلك التاريخ أي ٢٠/١١/ ١٣٥٢هـ.

انصراف السفير:

ولا تسأل عن عاصفة التصفيق التي كاد يهتزُّ منها المكان منذ تركنا دولاب الكتب حتى عدنا إلى مكاننا. وما كدنا نجلس حتى دخل علينا رجل سوداني هَمَس في أذن السفير، ويبدو أنه من منسوبي السفارة، وعلى إثر ذلك وقف السفير واضعاً طربوشه على رأسه، واستأذن من المدير على عجل، وكان ذلك بالنسبة لبقية زملائي رحمة ساقها الله إليهم من حيث لا يشعرون، فتنفَّسوا الصعداء.

إبراهيم الحسون أستاذاً في مدرسة الفلاح:

رغم أن علاقتي بالدراسة قد انتهت في نهاية هذا العام، فإني ظللت متَّصلاً بالمدرسة حتى نهاية ١٣٥٥هـ، إذ كنتُ خلال هذه الفترة أقوم بين فينةٍ وأخرى بتدريس مادة الإنشاء والخطابة أسبوعياً لبعض الفصول في المدرسة، بَدْءاً من الفصل الخامس، وذلك تطوُّعاً بدون أيِّ مقابل، وبمناسبة درس الإنشاء فإنه من المُفيد هنا أن أذكر لمحة عن هذا الموضوع.

درس الإنشاء في مدرسة الفلاح:

كان درس الإنشاء في المدرسة قد خُصِّص له حصة في الأسبوع في كل الفصول، بدءاً من الفصل الخامس حتى الفصل التاسع والأخير. كان أستاذ الدرس في البدء الأديب المعروف المرحوم محمد حسن عوَّاد، ثم بعد أن ترك المدرسة توَّلى بعده الأستاذ عبدالوهاب نشَّار.

كان اختيار موضوع الإنشاء الذي يتمُّ بواسطة الأستاذ إما أن يكون بيتاً من الشعر، أو اسماً لموضوع معيَّن، يتعلق بالسلوك، أو الأوضاع العامة، أو الأخبار أو اسم شخصية من شخصيات التاريخ الإسلامي البارزة، كالأئمة الأربعة: مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد، على أن يقوم هؤلاء الطلاب بشرح مضمون العنوان شرحاً مفصَّلاً يقدمونه في حصة الأسبوع القادم لمعلم الدرس، يأخذون عليه درجات حسب ما أجادوا في موضوعه.

الصحف والمجلات التي كنت أتابعها:

كنت في تلك الأيام أقرأ، وبدون مبالغة، أو ادعاء، جميع الصحف التي كانت تَرِدُنا من مصر، في يوم الأحد من كل أسبوع، على الباخرة (تالودي)، وكانت مصر آنذاك تنعم بترفٍ ثقافي وعلمي، يتجلَّى ذلك في ما تدفع به مطابعها كل يوم من كتب ومجلات وصحف، ولعلَّ ذلك يتَّضح في ذكر بعضٍ هذه الصحف التي منها: الأهرام، المقطَّم، المقتطف، منبر الشرق لعلي الغاياتي، والبلاغ اليومي، والبلاغ الأسبوعي لعبدالقادر حمزة، والسياسة اليومية، والسياسة الأسبوعية للدكتور حسين هيكل رئيس حزب

الأحرار الدستوريين آنذاك، ومؤلف كتابَي «حياة محمد»، و «في منزل الوحي»، وكذلك جريدة المصري التي أنشأها محمود أبو الفتح وأخوه أحمد، ومجلة الشباب الأسبوعية، التي كان يصدرها محمود عزمي، وجريدة مصر الفتاة، التي كان يصدرها أحمد حسين، ومجلة روز اليوسف لفاطمة اليوسف، ومجلة المصوِّر، ومجلة آخر ساعة، ومجلة الإثنين، ومجلة الفكاهة، ومجلة الهلال الشهرية، التي كانت جميعها تصدر عن مؤسسة دار الهلال لمؤسِّسها جرجي زيدان.

وكذلك مجلة أبولو الشهرية التي كان يُصدرها أدباء المهجر في أمريكا الجنوبية والشمالية، وجريدة اللطائف المصوَّرة التي كان يصدرها إسكندر مكاريوس، وكانت تُعنى بالصور الأنيقة التي لا توجد في غيرها من الصحف، وكذلك مجلة الفتح الأسبوعية، ومجلة الزهراء اللتان كان يصدرهما المرحوم محب الدين الخطيب (خال العلامة الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله).

مجلة الرسالة:

وكذلك، مجلة الرسالة التي كان يُصدرها أحمد حسن الزيات، التي كانت منبراً متميِّزاً لفحول الأدباء والشعراء في مصر، وفي غيرها، وكانت حلبةً للصراع الفكري بين هؤلاء العباقرة، وعلى رأس هؤلاء الدكتور طه حسين، وعباس محمود العقاد، وإبراهيم عبدالقادر المازني، وزكي مبارك، ومعروف الرصافي، ومهدي الجواهري من العراق، وبدوي الجبل، ومحمد كرد علي، وعلي الطنطاوي من سوريا.

جريدة الشورى للمجاهد محمد علي الطاهر:

وكذلك جريدة الشورى التي كان يحرِّرها المرحوم الثائر العربي الأديب الكبير محمد علي الطاهر ابن فلسطين البار، ومؤلف كتاب «في ظلام السجن» و «معتقل (هاكستيب)»، والذي أقلق مضاجع الإنكليز وأطار صوابهم، وكان شعلةً من الوطنية والحماس، وله وللمرحوم محب الدين

الخطيب في مجلة الفتح، أعظم الأثر وأوفر النصيب، في تعريف الأمة العربية والإسلامية بقضية فلسطين، وما كان يبيِّته لها الإنكليز الذين كانوا يتولَّوْن الانتداب، عليها بتفويضٍ من عُصْبةِ الأمم التي أُنشئت بعد الحرب العالمية الأولى. وما كانَ يدبِّره هؤلاء الحاقدون الإنكليز من مُؤامرة لتمزيقها وتقديمها لقمةً سائغةً لليهود، تنفيذاً لوعد وزير خارجيتهم (بلفور) الذي كان قد قطعه على نفسه أثناء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٧م، للثري الصهيوني المشهور روتشيلد.

لقد كان هذا العربي الأبي الذي كان مَضرَباً للوطنية والإخلاص لأمته، أعني به: محمد علي الطاهر، يقضي أوقات حياته بين قُضْبانِ السجونِ، أو مُطَارَداً مُلاحَقَاً أينما وُجِد، فتجده يتنقلُ بين المدن من مدينة لأخرى، أو ما بين قرية وأخرى، متفنِّناً في تغيير شكله وزِيِّه، كلما انتقل من مكان لآخر خوفاً من عيون الإنكليز وجواسيسهم الذين كانوا يرصدون المبالغ الطائلة لكلِّ من يقبض عليه أو يرشد إليه، كلما قُدِّر له أن يفر من سجونهم، سواءاً في مصر، أو في فلسطين.

كنتُ ألتهم كل ما تصل إليه يدي من هذه الكتب والمجلات بحالةٍ أشبه بالإدمان.

كيف كانت تصلني هذه المجلات؟

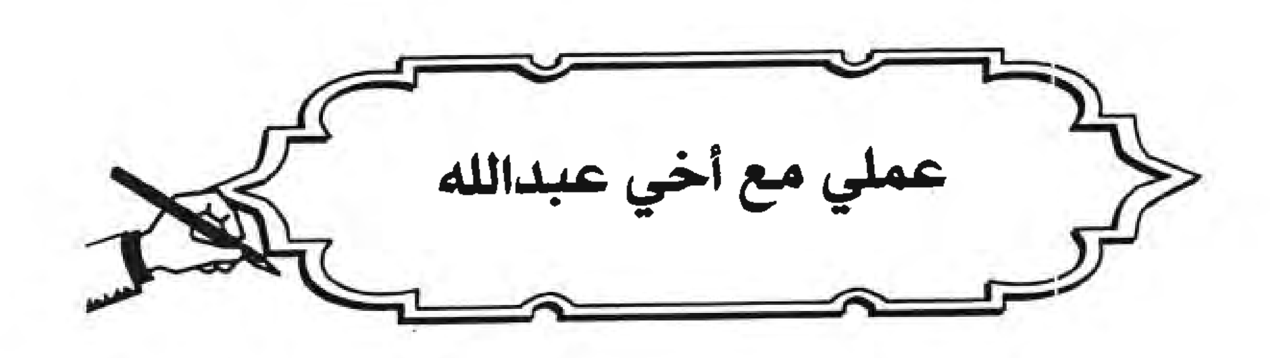
وكان وصول هذه الصحف والمجلات يأتي يوم الأحد، بواسطة من كان مختصَّاً في توريدها، وهو المرحوم محمود يغمور، فإنه كان يأتي بها إليَّ في مساءِ ذلك اليوم، أعني يوم الأحد، وهي عبارة عن رُزْمةٍ ضخمة من هذه الصحف، فكنتُ أضعها على صندوق خشب ذي أدراج متعددة، كان يستعمله أخي، لحفظ أوراقه ونقوده.

وكان أستاذي وصديقي محمود عارف ـ أمدَّ الله في حياته ـ يأتي إليّ في ذلك اليومِ بعد صلاة العشاء مباشرةً، إذ يكونُ أخي وقتذاك قد تركَ المقعدَ، وصعدَ إلى السطح مع أسرتِهِ. كان محمود عارف يأتي، فنشرع معاً

في القراءة كلٌّ منا ممسكٌ بجريدة أو بمجلة، ونظل كذلك حتى الهزيع الأخير من الليل.

وكان بوَّاب البيت، وهو حسين اليَنْبعاوي يشاركنا السهر، فيجلب لنا براد شاهي من سوق الجامع، الذي يقع جنوب منزلنا ما بين فترة وأخرى، وكنا نؤجل قراءة ما يتبقى إلى اليوم الثاني والثالث، وكان بعض عَسَس الليل في حارة المظلوم يشاهدوننا، نظراً لأن نوافذ المقعد مفتوحة على الشارع وكثيراً ما يدخلون عندنا في المقعد ليشاركونا في شرب الشاهي، فكنا نرحِّب بهم.





عملي مع أخي عبدالله

تولِّي تصريف الصهاريج وتأجير براميل الماء:

بعد أن أنهيت دراستي في المدرسة، وتخرَّجتُ منها في شهر ذي القعدة عام ١٣٥٣هـ، تفرَّغتُ للعمل الخاص بأخي، الذي كنت أزاوله منذ عام سبعة وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة، أي: أثناء دراستي، وهذا العمل ذو شقين: الأول تولِّي تصريف مياه الصَّهاريج، التي كان يشتريها أخي كل عام من أصحابها بعد نزول الأمطار وامتلائها. أمَّا الثانية: فهي تأجير البراميل، أي: عربات نقل المياه التي كان أخي يقوم بصنعها بعد استيراد عجلاتها من مصر، ثم يركِّب عليها توانك، أي: براميل، ويؤجِّرها على السقَّائين من يمانيين وغيرهم، بأجورٍ يومية تتفاوت ما بين أربعة قروش يومياً للبرميل سعة ١٢ تنكة، وستة قروش للبرميل سعة ١٦ تنكة، وسبعة قروش للبرميل سعة ٢٢ تنكة، وكان عدد هذه العربات في حدود خمسة وأربعين برميل تقريباً، مختلفة الأحجام.

يأتي السقَّاء إليَّ مستأجِراً النوع الذي يريد، فأسجِّل اسمه في دفتر خاص، ويستلم البرميل على دابته، بعد أن يعيِّن لي مكان تواجده، على أن يقوم بإحضار الأجرة يومياً أو أسبوعياً، وهذا إجراء نظري، لأنَّ السقَّاء عندما يأخذ البرميل يندر أن يقوم هو بإحضار الإيجار من تلقاء نفسه إليَّ، لذلك كنتُ أتعقَّب هؤلاء السقائين في أماكن وجودهم كل مساء. وكان يوجد لديّ بغلة مخصَّصة لهذا الغرض.

مقهى الحاج مراد:

كنتُ أتَّخذ من مقهى يسمى مقهى الحاج مراد مقراً لي، وهو يقع خارج باب شريف مباشرة، ويبعد عن الباب بنحو عشرين متراً، على يمين المتجه إلى الجنوب، يملكه رجل بخاري طاعن في السن، يعملُ فيه هو وولده.

كنت أخرج يومياً من البيت، بعد صلاة العصر مباشرة ـ كل يوم فأذهب إلى هذا المقهى، وأبقى فيه حتى بعد صلاة العشاء بنحو ساعة.

مساكن السقَّائين:

كان البعض من السقَّائين يأتي إليَّ في هذا المكان، ويسمونه (مركاز) لوجودي فيه يأتون ليدفعوا ما عليهم من أجور، لكن قلة منهم من يفعل ذلك، أما الأكثرية فلا بد من ملاحقتهم في أماكن سكنهم في حي الهنداوية الواقع في جنوب جدة خارج سورها، وحي (نَكَتُو)، وهو عبارة عن مجموعة من العشش منتشرة على مساحة على هيئة قوس تبدأ من الناحية الشمالية الشرقية متَّجهة للجنوب فالغرب شاملة مساحة لا تقل عن أربعة كيلوات تقريباً تنتشر عليها العشش التي يسكنها هؤلاء السقَّاؤون. كما أن بعضاً من هؤلاء السقائين ينتشرون خارج جدة أيضاً من الجهة الشرقية، ومن الجهة الشمالية، وكذلك يوجدون في داخل سور البلد في أحياء حارة اليمن وحارة المظلوم وحارة الشام.

المرور على السقَّائين المماطلين:

كنت أقوم كل يوم بعد صلاة العشاء بساعة تقريباً بالمرور على هؤلاء السقَّائين المتخلِّفين عن الدفع في بيوتهم واحداً واحداً أينما وُجدوا، وكان الكثير منهم يتخلَّف عن الدفع عِدَّة أيام، أو عدة أسابيع، فأضطر إلى سحب برميله أين وُجد، وأحضره إلى الساحة الموجودة أمام بيتنا في حارة المظلوم، وعند ذلك يضطر السقَّاء في تلك الليلة أو في صباح اليوم الثاني للحضور، ودفع المبلغ المطلوب منه، وهكذا دواليك.

البيوت الكبيرة التي نتعامل معها بتاجير البراميل:

على أنه بالإضافة إلى ذلك يوجد بعض البيوت الكبيرة في داخل البلد ممن يستأجرون منا هذه البراميل، ويكون الدفع شهرياً، وذلك كالسيد صائم الدهر في الخاسكية، وكبيت الجوخدار، وكبيت زينل، وكبيت السيد هاشم سلطان في حارة الشام.

بعد عودتي من هذه الجولة أقوم بتسجيل وَعدّ ما تحصَّلتُ عليه من نقود وأسجِّل ذلك في الدفتر الخاص لديَّ، المتضمِّن لأسماء هؤلاء السقَّائين، لكي أعرف من سَدَّد منهم ومن تخلَّف.

كشف التحصيل:

في نهاية كل شهر أقدم كشفاً بحصيلة هذا الشهر من إيرادات أقدِّمه لأخي، فيأمرني بأن أصرفها ذهباً وأضعها في الخزنة الحديدية.

عابد الطائفي:

كنتُ كثيراً من الأيام أضطر إلى سحب أكثر من برميل واحد من السقَّائين المتخلِّفين عن السَّداد، وكان يوجد لدينا مستخدم يسمى عابد طائفي، وهو شاب من أهل الطائف لم يبلغ العشرين من عمره، وكان شاباً مهذَّباً نشيطاً ذكياً.

كنتُ عندما أعود إلى المقْعَد في البيت حوالي الساعة الرابعة ليلاً بالتوقيت العربي آنذاك، أي العاشرة مساءً بالتوقيت الحالي أكلفه بأن يذهب بالبغلة المخصَّصة لتنقلاتي إلى أماكن السقَّائين الذين تخلَّفوا عن التسديد، بعد أن أحدِّد له أماكن وجودهم، فيركبُ هذه البغلة، ويتَّجه إليهم حيث وجدوا فيسحب براميلهم واحداً إثر الآخر.

جلجلة مزعجة:

وكنتُ أسمع صوت عجل البراميل حينما يأتي بها عن طريق سوق

الجامع مُسرعة ومُحدثة جلجلة مزعجة في هدأة الليل، وقد يضطر إلى سحب مجموعة من البراميل في ليلة واحدة. علماً بأنه لم يكن هناك جهة أو جهات أخرى تقوم بتأجير البراميل في مدينة جدة، اللهم إلا حميد الشيخ، وشاهر الشيخ، وكان لكلِّ واحدٍ من هؤلاء ثلاثة أو أربعة براميل فقط، ولم يستمروا طويلاً، إذ كان ذلك يكلفهم، نظراً لأنَّ العرف المتَّبع بين صاحب البرميل والسقَّاء المستأجر يقضي بأن يقوم صاحب البرميل بصيانته وإصلاح ما يحدث فيه من خلل، وكثيراً ما يستأجر السقَّاء برميلاً يعمل عليه، فما تمضي إلا أيام حتى تتكسر أحد زنود البرميل، وهي الخشب الذي يثبت البرميل على ظهرها فوق العجل أو ما يسمى بالشاسية الآن في السيارات. وإصلاحُ مثل هذا العطل لا يقل عن مائة ريال تقريباً.

ورشة إصلاح البراميل التي أقامها أخي:

أمّا بالنسبة لنا فإنه لدينا ورشة متكاملة لإصلاح البراميل، يُشرف عليها أخي بنفسه، فكان يقوم يومياً بعد تناوله الغداء بالذهاب لهذه الورشة التي كانت ملاصقة للبيت من جهة الجنوب، والتي يحدُّها من الشرق بيت جوهر في حارة المظلوم. كان يذهب إلى الورشة ومعه المستخدَم عابد الطايفي فيتم إصلاح ما قد يحدث من عطل لكل برميل. يظلُّ أخي في هذه الورشة حتى صلاة العصر، ثم يتَّجه بعد ذلك إلى عمله في الكنداسة يفعل ذلك يومياً وبدون انقطاع.

دخول أخي في مزادات مياه الصهاريج:

ذكرت في هذه الخواطر أن مدينة جدة يحيط بها العشرات من الصهاريج التي يمتلكها الكثيرون من سُرَاة جدة وأغنيائها.

كان العرف المتَّبع بالنسبة للمياه التي تتجمَّع في هذه الصهاريج بعد نزول الأمطار أن يقوم كل مالك من مُلاَّكها بوضع قائمة يضع فيها اسم الصهريج، ومقدار كمية الماء المخزون فيه، ثم تُعرَض هذه القائمة على أشخاص معينين ممن يتعاطون العمل في هذه التجارة الموسمية.

تُعرض هذه القائمة على عدة أشخاص معروفين آنذاك، منهم: يوسف نَصِيف، وعبدالرزاق سقا، وصالح نصيف، وسليمان أبو داوود، وغيرهم كثيرون.

قوائم بيع مياه الصهاريج:

تُعرض القائمة على كلٍّ واحد منهم فيضع في القائمة نفسها مقدار السعر الذي يستطيع أن يشتري به هذه الكمية من الماء. والسعر هو بالجنيه الذهب، ثم يضع اسمه أمام السعر وتوقيعه، ثم تعرض هذه القائمة على شخص آخر فيضع السعر الذي يناسبه، ويفعل كما فعل الأول، ثم تعرض هذه القائمة على جميع الأشخاص المهتمين في هذا الموضوع، وكلٌّ منهم يفعل كما فعل الآخرون، حتى يتوقف السعر النهائي، فتُعرض مرة أخرى على كل من وقَّع عليها، فإن كان له الرغبة في الزيادة وضع السعر الجديد ووقَّع وإلا وضع كلمة (يستاهل)، ووقع أمامها، إشعاراً منه بعدم رغبته في الزيادة.

وعندما يتكامل توقيع كل من حوتهم القائمة بكلمة يستاهل تصبح المزايدة رست على صاحب السعر الأعلى، وعند ذلك يقوم من رسى عليه المزاد بدفع القيمة لمالك الصهريج، سواء دفعةً واحدةً أو مقسَّطة حسب الاتفاق. ثم يشرع المشتري بتصريف المياه بواسطة السقَّائين أصحاب البراميل الذين يتولَّون سحبها من تلك الصهاريج، ثم ينقلونها على براميلهم إلى داخل جدة ويبيعونها على أصحاب البيوت بعد أن يكون مشتري الماء قد حدَّد سعراً لتنكة الماء، وقد تبلغ قيمة التنكة هللة وقد تبلغ هللتين، وقد تبلغ قرشاً ـ والقرش أربع هللات ـ بناءً على العرض والطلب، وبالتالي يقوم السقَّاء ببيعها بالسعر الذي يناسبه، وقد تبلغ قرشين أو أكثر. علماً بأن الريال عشرون قرشاً، وجنيه الذهب يتراوح سعره ما بين ٦ إلى ٧ ريالات. كان هذا هو الإجراء المتَّبع، وهو إجراء معمول به منذ سنين طويلة ويزاول العمل به أناس متخصِّصون، أصحاب خبرة، يتوارثونها أباً عن جد.

وكان الرجل، الذي يقوم بعرض القوائم التي يضعها المالكون على المشترين هو شخصٌ معروف، ومتخصِّص في هذه المهنة.

وفي عام ١٣٤٧هـ طلب أخي من ذلك الشخص أن يعرض عليه قوائم بيع مياه هذه الصَّهاريج، أسوة ببقية التجار الآخرين. وفعلاً تمَّ له ذلك، فدخل أخي في المزاد في تلك القوائم لأول مرة، فكان كلما رَسَت القائمة على شخصٍ ما زاد أخي عليه في السعر، ولجهله بموضوع هذه التجارة وكيفية ملابساتها وطريقة مقاسها، وتصريفها، لأنه يدخلها لأول مرة، ولأنَّ أولئك التجار أصحاب الخبرة قد فوجئوا بهذا الغريب الدخيل يقتحم عليهم سوق تجارتهم، الذي كان مقصوراً عليهم في السابق، فقد رغبوا أن يوقعوه في الفخ، وذلك بأن يزيدوا عليه في السعر في القائمة، كلما رسى المزاد عليه يزيدون في السعر، وهم يعلمون أن ما بلغه المزاد يفوق تقريباً ثلاثة أضعاف القيمة الحقيقية الواجب دفعها في مخزون ذلك الصهريج من ماء. حتى إذا ما تأكدوا بأنَّ المزاد قد بلغ قيمة خيالية توقفوا عن المزايدة، وكتبوا أمام تواقيعهم كلمة يستاهل.

أكبر صهاريج جدة:

وكانت الصهاريج التي دخل المزايدة فيها في تلك السنة، ورسى مزادها عليه هي صهريج المشاط، وصهريج نجد، وصهريج القُصَير، وهي تعود لملك الأفندي محمد نصيف، وكذا صهريج نوري الذي كانت تعود ملكيته للشيخ محمد صالح أبو زنادة، وهذه الصهاريج الأربعة هي أكبر الصهاريج الموجودة في جدة. وكانت الصهاريج الثلاثة: المشاط، ونجد، والقصير، كل واحد منها يوجد فيه من الماء ما يبلغ ثلثي استيعابه.

قيمة ماء الصهاريج:

كانت القيمة التي دفعها أخي للمالك قيمةً لماء تلك الصهاريج هي في حدود ألف جنيه إفرنجي، جورج ذهب ـ على ما أذكر ـ. دفعت للمُلاَّك دفعتين، وكنتُ أنا الذي أقوم بنقلها وتسليمها إلى الأفندي في مقعد بيته الكبير المعروف في سوق العلوي. فكنتُ أحضر إليه ليلاً حسب طلبهِ في حوالي الساعة الرابعة ليلاً عربي آنذاك أي: العاشرة مساءً بالتوقيت الحالي.

وكنتُ أصطحب معي كلاً من عابد طايفي، وحسين يَنْبعاوي اللذين يعملان لدينا.

كانا يحملانها في أكياس مقفلة فأدخل معهما إلى الأفندي نصيف في مكتبه في المقعد، ومن ثمَّ يَنْصرفان وأبقى أنا معه لعدِّها، ومن ثمَّ استلام إيصال باستلامه هذا المبلغ.

أمّا في السنوات التي تلت ذلك فكانت تتراوح قلَّةً وكثرةً حسب ما يوجد فيها من ماء. وأذكر أنه في حوالي عام ١٣٤٩هـ قد بلغ ما دفعناه للأفندي نحو ألفي جنيه. وفي أحد الأعوام كانت قيمة الجميع في حدود ٣ آلاف جنيه.

أمّا صهريج نوري العائد للشيخ محمد صالح أبو زنادة، فكانت تتراوح قيمته ما بين خمسمائة إلى ألف، وكانت قيمته في ذلك العام أعني عام ١٣٤٧هـ بحدود ثمانمائة جنيه ذهب. إذ كان الماء الموجود فيه أكثر من نصف مساحة الصهريج تقريباً.

بيع مياه الصهاريج:

رسى المزاد على أخي، وهنا شَرَع في ترتيب الكيفية التي يتبعها في بيع كميات هذه المياه الموجودة في الصهاريج، على أن تكون الطريقة التي يتبعها كفيلة بأن تمكنه بأن يعرف مقدار كمية التنك التي يتضمنها الذراع الواحد من مياه الصهريج علماً بأن القوائم التي تعرض عند البيع التي يحدَّد فيها اسم الصهريج واسم مالكه، تحدد فيها كمية الماء الموجود في الصهريج بالذراع، وتاريخ العرض للبيع.

كان العُرف المتَّبع والجاري العمل به بين الملاك وتجار المياه، هو أن لمشتري المياه الحق في إبقاء الماء في الصهريج إلى أن ينتهي الصيف ويدخل فصل الأمطار في الشتاء، وهناك يتحتَّم على المشتري أن يكون قد سَحَبَ جميع المياه الموجودة في الصهريج، وإلا فإنه سيفقدها وتعود إلى ملكية مالك الصهريج متى نزل المطر ودخلت أي كمية منه إلى الصهريج مهما كانت ضئيلة.

صهريج نجد:

كان أول، ما فعلناه أن أحضرنا خيطاً رفيعاً في نهايته حديدة مدوَّرة أشبه بصُنج الميزان، وفي أول يوم لمباشرتنا في بيع هذه المياه، وكنا قد أعلنا لعموم السقَّائين أننا في اليوم الفلاني سنفتح صهريج نجد لتصريف المياه الموجودة فيه، ومكان هذا الصهريج وغيره معروف لدى السقَّائين.

في اليوم المحدَّد ذهبت بعد شروق الشمس بنحو نصف ساعة إلى صهريج نجد (موقعه الآن في نهاية شارع غزة من الشرق تقريباً).

ذهبتُ ومعي عابد طايفي، ومعنا خيمة صغيرة وكيس قلع على هيئة مِزْوَدَة يغلق بقفل حديدي.

نَصَبنا الخيمة على مقربة من فوهة الصهريج، ثم فتحنا فوهات الصهريج الخمسة التي كانت مغطاة بألواح خشبية، ومقفلة بأقفال حديدية، بحيث يتعذَّر الوصول إلى الماء ما لم تفتح هذه الأقفال، وتُرفع تلك الألواح، وخلال ذلك كان السقاؤون يتوافدون مع براميلهم.

كيف كنت أقيس الماء في الصهريج؟

كان أول عمل قمت به هو أن أنزلت الخيط المنتهي طرفه بقطعة الحديد ـ كما شرحتُ ـ إلى ماء الصهريج حتى وَقَفَتْ الحديدة على أرضية الصهريج، ثم سحبت الخيط وقست ما عليه أثر الماء منه بالذراع، وسجَّلته لديَّ في دفتر أحضرته معي، ثم سمحت للسقَّايين بالبَدْء في رفع الماء، وكان ذلك يتمُّ بواسطة تنك مثبت فيها حبل يقف السقاء على فوهة الصهريج، ثم يدلي التنكة داخل عمق الصهريج ممسكاً بالحبل ويقوم برفعها حال امتلائها، ثم يفرغها في البرميل العائد له.

سعر التنكة الواحدة:

وكان السعر الذي قرره أخي للتنكة الواحدة قرشاً واحداً، أي: أربع هللات.

استمرَّ السقَّاؤون بالذهاب والإيَّاب ما بين الصهريج والبلد حتى أذان الظهر، ثم توقفوا لحرارة الشمس إذ كان الوقت صيفاً، وليتناولوا طعام الغذاء ويطعموا بهائمهم، وهنا يكون المستخدم عابد الطايفي قد حضر إليَّ على البغلة -حاملاً معه غدائي الذي أحضره من البيت بمطبقيةٍ بيده.

تعبئة النقود:

وإذ ذاك أقوم بتعبئة ما تَجَمَّع لديَّ من نقود بعضها هلل، وبعضها قروش، وبعضها ريالات، وبعضها أنصاف، وأرباع الريالات، أقومُ بوضعها في كيس القلع، ثم أقوم بإنزال الخيط الذي قستُ به الماء في الصباح أقوم بإنزالهِ في الصهريج حتى تستقر الحديدة في قاع الصهريج، وهنا أرفع الخيط وأقيس بالذراع ما عليه من أثر الماء، وأسجل في ورقة مقدار كمية الماء عند الافتتاح في الصباح بالذراع ومقدار ما يوجد فيه، بعد توقف السقائين ظهراً. وأضع هذه الورقة داخل كيس القلع مع النقود بعد أن أكون قد سجلتها في الدفتر الموجود لدي، ثم نحملها على ظهر البغلة ويذهب بها عابد، ويضع هذا الكيس القلع بما فيه من نقود في المقعد الذي نجلس فيه ليلاً في بيت مراد، وكان المقعد هذا يقع مقابلاً لمطبخ إبراهيم حلواني رحمة الله عليه وللبيت الذي اشتراه أخي بعد ذلك وهدَّ بعض أجزائه وعمَّره بواسطة المعلم محمد بن لادن. أي أنَّ المقعد هذا يقع بالناحية الجنوبية بالنسبة للمطبخ والبيت.

بيت مراد وجيرانه:

كان مدخل بيت مراد يفتح على جهة الشمال، وله باب آخر يفتح من جهة الشرق، ولكن المدخل الرئيسي هو الباب الشمالي، وأمامه برحة، من جهة الشمال، وهي متوسطة الحجم يحدُّها من الجنوب بيت مراد، ومن الشمال مطبخ إبراهيم حلواني، والبيت الذي اشتراه أخي، ومن الشرق بيت كنسارا، ثم يليه بيت الأصفهاني، حسين أصفهاني، الملاصق لبيت كنسارا من الجنوب، ثم بيت نورولي، الملاصق لبيت الأصفهاني من الجنوب أيضاً.

أمّا بيت مراد فيحده من الشمال ومن الشرق شارع، ومن الجنوب بيت علي العماري، ومن الغرب بيت حسين فايز.

عندما تدخل بيت مراد، من مدخله الرئيس من جهة الشمال، تجد دهليزاً يوجد فيه مجموعة من البراميل الخشبية المثبتة بسيور حديدية وتحتوي على إسمنت سائب، ثم تجتاز المدخل متجهاً إلى الجنوب بنحو ثلاثة أمتار، ثم تقابلك قاعة مغلقة، وعن يسارك مدخل الباب الشرقي، وقبل الباب من الداخل من جهة اليسار مدخل المقعد، وهو مجلس يتألّف من جزأين، الجزء الأول في نهايته الشمالية، وهو عبارة عن مَضْطبة ترتفع عن الأرض بنحو نصف متر، ومساحتها مترين في مترين، ونوافذها خشبية تفتح على البرحة، وهي مفروشة، وبها مساند، وبها صندوق خشبي صغير يسمى (بشتختة)، وهي مكان جلوس أخي عادةً من بعد حضوره من الكنداسة كل مغرب حتى طلوعه إلى البيت لأسرته بعد صلاة العشاء، وكان يجتمع لديه خلال ذلك مجموعة من الأصدقاء هم: إبراهيم السليمان التركي، عبدالرحمن الهويش، ومرزا أصفهاني، وحسن مشهور، وعبدالله النقيداني.

أمّا إذا اتَّجهت إلى اليمين بعد دخولك البيت: تجد عن يمينك وعن يسارك مجموعة من البراميل كما ذكرت، وبعد اجتيازك هذا المدخل بنحو متر تلتقي بدرج البيت.

وكان بيت مراد هذا مكوناً من ثلاث طبقات، كل طبقة تحتوي على شقتين، كان يسكن الشقتين الأوَل إبراهيم حلواني الطبَّاخ المعروف رحمة الله عليه، وأحمد أبو الغيث.

أمّا الطابق الثاني فيشغل الشقة القبلية منه محمود كيكي، وكان صاحب متجر في الخاسكية، يبيع فيه أواني منزلية.

والشقة المقابلة لها من جهة الشمال الغربي يسكنُها شخصٌ يُدعى علي أكبر رضا مع عائلته، ويبدو أنه ينتمي إلى عائلة آل زينل. ثم سكنها بعد ذلك أحمد بكري.

أمّا الطابق الثالث والأخير فكان أخي يشغل الشقة الشرقية منه، ويشغل الشقة الثانية الواقعة في الشمال الغربي حسن مشهور، ابن أخت حسين فايز، وكان سطح هذا المنزل مقسّماً إلى ستة أجزاء، بحيث تختصُّ كل عائلة من سكان الشقق بمكان مُعَيَّن لها، عليه سور وباب، وكانوا يستعملونه للنوم في أيام الصيف.

عودة السقَّائين:

بعد صلاة الظهر بنحو نصف ساعة يعود السقَّاؤون إليَّ مرة أخرى على الصهريج، ويستمرون في ملء براميلهم من ماء الصهريج، كما كانوا يفعلون في الصباح -حتى قبيل المغرب بنحو ساعة، حينئذ يحضر إليَّ عابد الطايفي على البغلة، ومعه كيس قلع مثبت فيه قفل من حديد، وهنا أفرغ فيه إيراد الفترة، ثم أقوم بقياس ماء الصهريج للمرة الثالثة لأعرف ما تبقى فيه من ماء ثم أُدوِّنُهُ على ورقة خاصة، أضعها في كيس القلع، بعد أن أكون قد سجلتُها في الدفتر الموجود لدي. ثم أتم إغلاق كيس النقود، وأحتفظ بالمفتاح معي ونعود إلى البيت، حيث نضع كيس القلع بجوار الكيس الذي أحضره عابد ظهراً.

إحصاء المبالغ:

وفي المساء بعد صلاة المغرب، واكتمال حضور كل من: عبدالله النقيداني، وإبراهيم السليمان التركي، وعبدالرحمن الهويش، وأخي، في المقعد، نفتح هذه الأكياس كيساً كيساً، ونقوم بفرز موجوداتها كل فئة على حدة: الهلل.. نصف القرش.. القرش.. وربع ريال.. ونصف ريال.. وريال..، كل فئة نضعها وحدها، ثم نضع الهلل والقروش وأنصاف الهلل في قراطيس، نضع كل عشرة قروش ضمن قرطاس واحد، يبرم عليها، ويثنى من أطرافها، وهكذا الحال بالنسبة لنصف القرش والقرش، وبالنسبة لأقسام الريال الربع والنصف.

مقدار كمية الماء المصروف:

وعندما نُتِم إحصاء هذه المبالغ كلها، ونعرف مقدارها الإجمالي: نرجع إلى مقدار كمية ما صرفناه ذلك اليوم من ذراع من الماء، ثم نُحِيلُ المبلغَ الإجمالي إلى هلل، ثم نقسم كامل المبلغ من الهلل على مقدار الأذرع المستهلكة من الماء، لكي يظهر لنا مقدار ما يحتويه الذراع الواحد من تنك الماء، على أساس أنَّ قيمة التنكة بهللة واحدة.

وبذلك، ندوِّن في الدفتر أنَّ الذراع الواحد من الماء من الصهريج الفلاني يساوي كذا تنكة من الماء؛ وكما أشرتُ آنفاً، فإنَّ هذه هي الطريقة التي اتبعناها في أول تجربة لنا مع مياه الصهاريج.

مقدار الحصيلة اليومية:

بعد ذلك نضع القراطيس في مراكن خشبية مُعَدَّة لهذا الغرض، ثم نبعثُ بها مع المستخدَم عابد الطايفي، ينقلُها على فتراتٍ متكررة إلى سعيد أبو الجدايل، وكان يشغل دكاناً للصرافة في الخاسكية، كنا نتعامل معه باستمرار، وذلك لتحويلها إلى جنيهات ذهب، وكان سعر الجنيه الذهب (جورج): سبعة ريالات فضة سعودية، وكانت الحصيلة اليومية في بداية الأمر تبلغ حوالي أربعين جنيهاً ذهبياً.

واصلنا العمل في بيع مياه الصهاريج التي ذكرناها، على هذه الطريقة نفسها، أي: طريقة معرفة مقدار كمية التنك التي يشتمل عليها ذراع الماء في كل صهريج من هذه الصهاريج، بحيث أصبح لدينا فكرة واضحة تمكننا من معرفة كمية تنك الماء الموجودة في كل صهريج، متى عرفنا قياس الماء الموجود فيه بالذراع.

خسارة موجعة:

تمَّ تصريف كميات المياه في ذلك العام على هذا المنوال، وقد ظهر في النهاية أنَّ هناك خسارة موجعة لا تقل عن ألف جنيه تحملها أخي بصبر

وجَلَد، بدون أن تظهر عليه أي علامة عن هذه الخسارة الفادحة التي لحقت به، وقد تصوَّر أولئك التجار أنهم قد صوَّبوا إليه الضربة القاضية التي لن يجرؤ بسببها مستقبلاً أن ينافسهم في تجارتهم هذه، حيث عدوه دخيلاً عليهم.

كيف عوَّض أخي خسارته:

في العام التالي عُرضت قوائم تلك الصَّهاريج كالعادة، وكانت المياه الموجودة في ذلك العام أكثر من العام السابق، فابتدأت المزايدة بين أولئك التجار على تلك القوائم، ودخل أخي معهم في المزايدة، وقد دُهِشُوا لذلك؛ لأنهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنهم ألحقوا به خسارة لن يستطيع الوقوف بعدها. بَيْد أنه أصرَّ على الاشتراك معهم في المزايدة حتى تجاوَزَت المبالغ المدفوعة أكثر من القيمة الحقيقية لموجود كل صهريج، ومع ذلك استمرَّ في المزايدة، وهنا اعتقدوا بأنه لو لم يكن رابحاً في عملية العام الماضي ربحاً مُجْزِياً: لما جَرُؤ على الدخول في المزايدة هذا العام، وَرفع سعرها إلى هذا الحد الكبير، ولذا ظلوا يزيدون عليه في المزاد وهو كذلك حتى يتقَّن أخي نتيجة لدرايته بمقدار ما يحتويه كل صهريج من الماء محسوباً بالتنكة، نتيجةً لِما سجله في دفاتره عن العام الماضي، أنَّ القيمة التي وصلها المزاد لكل صهريج تفوق قيمتها الحقيقية الفعلية أكثر من الضعف.

انسحاب أخي من المزاد:

هنا كتب اسمه بدون أن يضع أمامه أي مبلغ، وإنما كتب أمام اسمه كلمة «يستاهل» بمعنى انسحابهِ من المزاد، وليس له رغبة في الشراء.

تولى أولئك التجار تصريف مياه الصهاريج في ذلك العام، وقد مُنوا بخسارةٍ موجعةٍ، لم يستطيعوا معها تسديد قيمة تلك المياه إلا بعد سنوات، وعلى هيئة أقساط، وقد نتج عن ذلك إفلاسهم، وقد امتنعوا عن الدخول في المزايدة في القوائم التي عُرضت في العام التالي، إلا بكميات محدودة لصهاريج صغيرة، قد لا تساوي قيمة نصف الماء الموجود فيها.

شراؤه مياه الصهاريج:

وعندئذ كتب كل منهم أمام اسمه كلمة «يستاهل» إذ كان المزاد الأخير لكل صهريج قد رسى على أخي، وبذلك خلت الساحة له، وتمَّ شراؤه لجميع الصهاريج المعروضة، وكان عارفاً تماماً لمقدار أرباحه في كل صهريج، نتيجة لمعرفته التامة بعدد الأذرع من الماء الموجودة في كل صهريج، ومقدار العائد منها، على أساس أن سعر التنكة بهللة واحدة، وأنَّ الذراع الواحد يحتوي على كذا تنكة، وكل صهريج حسب سعته.

تضاعف الأرباح:

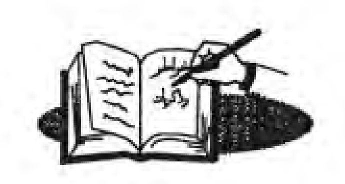
كان من حُسن حظ أخي أن كانت المياه الموجودة في ذلك العام أقل من الأعوام السابقة، وكان فصل الصيف شديد الحرارة، وكان الكثير من الصهاريج الصغار لم يصلها إلا كميات محدودة جداً من الماء لندرة الأمطار، ولذلك فقد اغتنم أخي الفرصة فرفع سعر التنكة الواحدة من هللة إلى أربع هلل، وبذلك تضاعفت أرباحه بما يعادل القيمة المدفوعة بأربع مرات على الأقل، ثم استمر على هذه الطريقة في الأعوام التالية حيث لم يبق له منافس في الساحة.

عدُّ النقود:

كنت أتولَّى تصريف هذه المياه من كل صهريج، وكان في كثير من الأيام يحضر إليَّ عابد الطايفي أربع مرات في اليوم الواحد، بحيث تُعَبَّأ أربعة أكياس من أكياس القلع بالنقود، كما شرحتُ آنفاً، مما نتج عنه أن كنا ـ أخي وأنا والمجموعة التي ذكرتها ـ نضطر إلى إبقاء كميات من هذه النقود بدون عَد إلى الليلة القادمة، يذهب عابد بما أحصيناه في تلك الليلة إلى الصَّيرفي سعيد أبو الجدايل، بينما تبقى الكميات التي لم تعد في مكانها، يضاف إليها حصيلة اليوم التالي. وكنا عندما ننتهي من العد نضع بساطاً على النقود الباقية.

ثروة أخي وبيوته:

كان نتيجة لهذه العملية أن منَّ الله على أخي بثروة معروفة المدخل والمصدر، وبطريقة واضحة صريحة، فتوسَّع في حياته، واقتنى من الرقيق ما لا يقل عن خمسة عشر نفساً، ما بين ذكر وأنثى، وقد اشترى بيتين متجاورين في حارة المظلوم، يقعان في الجهة الغربية من بيت جوهر، تفصل بينهما وبين بيت جوهر برحة صغيرة.





بيوت جدة

عندما تتجه قادماً من سوق الجامع؛ وأنت متَّجه غرباً يأتيك بيت باذيب عن يسارك، وعن يمينك ساحة تتَّجه من الشمال إلى فرن الصَّعيدي؛ عندما تجتاز بيت باذيب يأتيك عن يسارك شارعٌ يتجه من الشمال إلى الجنوب، في وسطه عن اليسار بيت طبيلة، الذي كان يسكنه محمد السليمان التركي وأخوه إبراهيم، وأمام هذا البيت على يدك اليمين شارع يمتد من الشرق إلى الغرب، أمَّا الشارع هذا الذي يقع في منتصفه بيت طبيلة فهو يلتقي بالشارع الممتد من شارع قابل من الغرب متجهاً إلى برحة نصيف فالعلوي من جهة الشرق، وفي نهاية هذا الشارع القادم من جهة بيت باذيب يقع على يمينك مسجد المعمار، وعن يسارك بيت الجمجوم، وأمام بيت طبيلة شارع، كما ذكرنا يبدأ من الشرق إلى الغرب.

وعلى بُعد نحو ثلاثين متراً وأنت متَّجه إلى الغرب، تضع على يسارك زاوية ابن عفان، ثم تجد عن يسارك أيضاً شارعاً يتجه من الشمال إلى الجنوب، واضعاً البيت الذي كان يسكنه المرحوم محمد بن زامل، وهو ملاصق لزاوية ابن عفان من جهة الجنوب، وملاصق لهذا البيت من جهة الجنوب بيت إسلام، ثم ينتهي بمسجد المعمار منعطِفاً إلى الشرق، فيلتقي بالشارع القادم من بيت طبيلة كما ذكرنا آنفاً.

وبعد اجتيازك لزاوية عثمان ابن عفان باتجاه الشمال تجد أمامك بيت الشيخ علي العماري، وأمامه برحة متوسطة الحجم، ثم بيت مراد ملاصقاً لبيت العماري من جهة الشمال، وأمام بيت مراد من جهة الشمال ساحة تقع

في أقصاها شمالاً مطبخ إبراهيم حلواني، وفي حالة مواصلتك السير باتجاه الغرب، بعد اجتيازك زاوية ابن عفان تجدُ عن يسارك بيت باجبير، وعن يمينك بيت باقيس، ثم تجد أمامك بيت ثانٍ لباقيس، وعن يمينك شارعاً يتجه من الجنوب إلى الشمال يبلغ طوله تقريباً عشرينَ متراً ينتهي ببيت حسين فايز ويلتقي بالشارع القادم من برحة بيت مراد، ثم يتجه إلى الغرب، وهناك عن اليمين، وعلى بُعْد نحو عشرين متراً من بيت حسين فايز، تجد شارعاً يمتدُّ من الجنوب إلى الشمال يمرُّ ببيتِ علي إسماعيل، فأحمد باغفار، فدكاكين قصبة الهنود فالمسجد الحنفي.

بعد اجتيازك لبيت فايز، وأنت متجه إلى الغرب، وبعد اجتيازك للشارع الذي ذكرنا من جهة اليمين تجدُ على يسارك بيت اللنجاوي، ثم يمتدُّ الشارع إلى أن يصل سوق الحراج، وهو يتجه من الشمال إلى الجنوب، ويستمر الشارع إلى أن يتصل بالشارع العمومي القادم من سوق الندى، والذي يقع مكانه الآن مدخل عمارة الملكة من الشرق.

وعندما تجتاز بيت باجبير، وتصل إلى بيت باقيس ـ كما ذكرنا آنفاً ـ تنعطف إلى جهة الجنوب، فتجد عن يسارك على بعد نحو ثلاثين متراً تقريباً بيت باجبير، الذي يقابله شارع سوق الصاغة، الذي يمتد من الشرق إلى الغرب حيث يتصل بسوق الحراج، ثم تستمر في سيرك واضعاً بيت باجبير عن يسارك، وبعد نحو خمسة عشر أو عشرين متراً تلتقي بنهاية شارع قابل من جهة الشرق، حيث تتجه قليلاً إلى اليسار بنحو خمسة أمتار حيث تجد أمامَكَ سوق النورية، الذي يبدأ من الشمال إلى الجنوب، والذي مكانه الآن أمام بيت السيد عمر فكهاني.

سوق النُّورية:

وهذا الشارع ـ أعني النورية ـ هو المكان المخصَّص لبيع اللحوم والخضار، ويتسوَّق منه جميع سكَّان جدة، وطوله حوالي خمسين متراً تقريباً أما عرضه فنحو عشرة أمتار؛ تقع حوانيت الخضار واللحوم على جانبيه الشرقي والغربي، والذي يُفضي من جهة الجنوب إلى بيت الحاج علي زينل

رضا، قائمقام مدينة جدة آنذاك، ثم يستمر الشارع من جهة الجنوب، واضعاً بيت غُلُوم فبيت الجوخدار عن يساره.

بيت جوهر:

نعودُ إلى موقفنا أمام بيت باذيب الذي مرَّ ذكرُهُ قادمين من سوق الجامع متَّجهين من الشرق إلى الغرب، واضعين الشارع الممتد من بيت طبيلة عن يسارنا، نمشي مسافة نحو عشرين متراً فنجد عن يسارنا بيتاً ضخماً، قوي البناء واسع الغرف، يعرف ببيت جوهر، وعن يميننا بيت الشيخ إبراهيم الصنيع، ثم تقابلُنا برحة متوسطة المساحة، يتفرع من هذه البرحة شارعان: أحدهما: يتَّجه إلى اليمين فيلتقي بعد نحو عشرين متراً بشارع يتجه من الجنوب إلى الشمال يُعرف بزقاق الخُنجي، وينتهي بمعصرة ابن عفيف، وهي المعصرة الوحيدة الموجودة في جدة آنذاك، وكانت تقوم بعصر السمسم.

أمّا الشارع الآخر الذي يتفرَّع من البرحة إلى جهة اليسار فهو عبارة عن زقاق ضيِّق، يبلغ عرضُهُ نحو متر ونصف، ويمتد من الشرق إلى الغرب بنحو عشرة أمتار، ثم يتجه إلى جهة الجنوب واضعاً مدخل البيت الرئيس الذي اشتراه أخي، والذي يفتح إلى جهة الجنوب في ظهره، ثم يتَّجه إلى البرحة الموجودة شمالَ بيت مراد، واضعاً مطبخ إبراهيم حلواني عن يمينه، وواضعاً بيت كنسارة فحسين أصفهاني، فنورولي عن يساره، ثم يستمر باتجاه الجنوب، حتى يلتقي بالشارع القادم من بيت طبيلة، الذي يمرُّ من شمال زاوية ابن عفان مُتَّجهاً إلى الغرب، واضعاً بيت باجبير عن يساره، كما سبق ذكره.

بعد اجتياز برحة مراد بالاتجاه إلى الجنوب تجد عن يمينك مدخل بيت مراد الشرقي، ثم يليه بيت علي العماري، الملاصق له من جهة الجنوب، ويقع بيت علي العماري، الملاصق لبيت مراد من جهة الجنوب، إلى جهة الشرق، وأمامه برحة متوسطة الحجم مقابلة لزاوية ابن عفان من جهة الشمال.

ومن البرحة الواقعة شمالي بيت مراد هناك شارع طوله نحو عشرين متراً يتجه من البرحة إلى الغرب، فيلتقي بالشارع القادم من الجنوب إلى الشمال، فاصلاً ما بين بيتَي باقيس، وبيت حسين فايز المطل على جهة الغرب عند التقاء هذين الشارعين، أعني القادم من برحة مراد والقادم من جهة بيت باقيس.

قلنا فيما سبق: أنه توجد برحة متوسطة الحجم أمام بيت جوهر من جهة الغرب، وأنَّ هذه البرحة عندما يصلها القادم من الشرق من سوق الجامع، واضعاً بيت الصنيع عن يمينه وبيت جوهر عن يساره: يقابله في هذه الساحة بيتان متلاصقان، أحدهما متداعي البناء، يلاصقه من جهة الغرب بيت آخر سليم البناء، وإن كان يبدو عليه القدم، البيت الأول الذي يلي البرحة مباشرةً يكاد يكون شبه مهجور، وكان يسكن في إحدى غرفه المدعو عمر كيال، أحد الدلالين في سوق الحراج، أمّا الآخر الملاصق لهذا البيت من جهة البحر، فكانت تسكنه أسرة أمين العوضي التي من ضمنها محمد أمين العوضي وزير التجارة سابقاً، وأخوه الدكتور محمد سعيد العوضي والمحامي حالياً.

بناء بيت أخي:

وفي عام ١٣٤٨هـ أو ١٣٤٩هـ اشترى أخي هذين البيتين، اللذين لا أعرف مالكهما آنذاك، وكنا نسكن في بيت مراد المواجه لهما من جهة الجنوب، كما لا أعرف مقدار القيمة التي دفعها أخي ثمناً لهما، ولكن الذي أعرفه أنه، في ذاك العام، أو العام الذي يليه، قام أخي بهدم البيت المواجه لبرحة جوهر، هدمه حتى الأساس، وأقام مكانه مقعداً وحوشاً يلي هذا المقعد من الشمال، وفتح في هذا الحوش باباً من جهة الشرق يُفضي إلى برحة جوهر. أمّا البيت الآخر فقد قام أخي بهدم الجزء الغربي منه مُبقياً على الجزء الشرقي، لأنه سليم البناء ويشتمل على غرف وطوابق ثلاثة، مع درج البيت. ثمَّ أقام مكان الجزء الذي هدمه من جهة الغرب بناءً جديداً يتكوَّن من غرف ومنافع مقابلة لغرف ومنافع الجزء الباقي، وأنشأ في هذا

الجزء قاعة كبيرة بالطابق الأرضي، وقد تكوَّن من المبنيين - أي القديم والجديد - عمارة المبنى التي هي عليه حالياً، مضيفاً إلى ذلك بناءَ غرفة زجاجية في سطح المبنى تقرب مساحتُها من أربعة أمتار في ثلاثة، كلها من الزجاج بما فيه بابها.

صالة الارتياح:

وكانت تلك الغرفة إنما أُنشئت لتكون مكاناً أشبه ما يكون بصالة موسيقى، إذ جلب لها صندوق الجرامفون المعروف من ماركة (هيز ماستر فويس)، كما حَشَد لها مجموعة كبيرة من أسطوانات الأغاني التي كانت متوفرة آنذاك، والتي تمثل أغاني محمد عبدالوهاب، وأم كلثوم، والشريف هاشم، والفنانة لور دكاش، ومشاهير المطربين.

كانت عائلة أخي تتخذ من هذه الغرفة، أو الصالة إن شئت، مكاناً آمناً للترويح والاستماع للموسيقى، بعيداً عن مراقبة رجال هيئات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، المنتشرة، وكان الجزاء شديداً على من وُجد عنده جرامفون وأسطوانات، فيؤخذ ما لديه من هذه الأسطوانات مع صندوق الغناء، ويكلف بحملها على رأسه، ويساق في الشارع حتى يصل إلى الساحة في الشارع العام أمام مسجد عكاش، فتكسر على مشهد من جمهور المتفرجين، ثم يساق صاحبها إلى السجن ليُمضي العقوبة التي قُررت عليه من أجل حيازته لهذه المنكرات الشنيعة في ذلك الوقت.

أشهر الأغاني العربية:

وكنتُ أغتنم فرصة أيام الجُمَع، فأصعد إلى تلك الصالة في بيتنا، لأقضي فيها جميع نهاري، لكي أستمع إلى ما استجدَّ من الأغاني، وكانت أشهر الأسطوانات رواجاً آنذاك هي: أغاني محمد عبدالوهاب: الهوى والشباب، يا شراعاً وراء دجلة يجري، علموه كيف يجفو فجفا، وكثير من الأسطوانات له ولبقية المطربين العرب الذين يمثل المطربون المصريون أكثريتهم، ومن أغاني أم كلثوم: سلوا كؤوس الطلى، وغني لي، ووُلِد الهدى.

المعلم محمد بن لادن:

أمَّا الذي تولى بناء البيت، فكان المعلم محمد بن لادن الذي بلغ من الشهرة بعد ذلك، واتساع الأعمال لديه ما هو معروف للجميع.

كنا ـ وأعتقد أنَّ ذلك كان عام ١٣٤٩هـ ـ قد انتقلنا من بيت مراد إلى البناء القائم في الجزء الشرقي، الذي لم يهدم.

كان المعلم محمد بن لادن يعمل ومعه أربعة صبيان، كانوا يأتون بالحجر المَنْقَبِيْ من جهة الرويَس الشمالي على عَرَبات الكارو، ويضعونها في برحة جوهر، وفي هذا المكان يقوم عُمَّال المعلم ابن لادن ويسمّون القرارية بتشذيبها وتهذيبها فيجعلوها على هيئة قوالب، ثم يقيمون منها البناء.

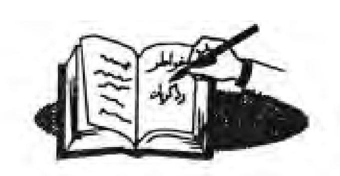
كان أول عملٍ قام به المعلم ابن لادن هو هدم البيت الشرقي، وإنشاء المقعد مكانه كما ذُكرت، وقد اتخذت أنا هذا المقعد بمثابة مكتبٍ، وكان به صندوق حديد ومكتب وكراسي، وهو ذو نوافذ خشبية تطل على الجهات الثلاث الجنوبية والشرقية والشمالية، وبابه يقع في جهة الغرب، مُفضياً إلى دهليز البيت الرئيس.

كان المعلم ابن لادن يطلب مني في كل أسبوع مبالغ معيَّنة في حدود ثلاثين ريالاً أو أربعين ريالاً، وهي كلها من القروش النيكل، ملفوفة في قراطيس، كما هو معروف، كان يأخذ مني هذه المبالغ أسبوعياً تقيَّد على الحساب إذ يقوم بدفع أجور عُمَّاله منها في نهاية كل أسبوع.

كان يحضر عندي في المقعد، مرتدياً قميصاً وفوطة، معتمراً على رأسه عمامة، وعندما يجلس أمامي يبادرني بقوله: «يا عم إبراهيم هات لنا رُشْبَة وبراد شاهي» ومعنى «رشبة» هو شيشة تنباك، وليس جراك، فكنتُ أنادي المستخدم حسين ينبعاوي، وأكلِّفه بإحضار الرشبة والبراد من قهوة في سوق الجامع حسب طلبه.

كان الرجل لطيف المعشر، دمث الأخلاق، متواضعاً مجيداً لعمله أميناً فيه، وقد استغرق البناء بين تسعة شهور وعام.

كملت عمارة البيت، وانتقلنا إليه، وفي هذا التاريخ ورد خبر وفاة والدي كما سوف إشير إليه.





في بيت أخي

انتقالنا إلى البيت الجديد:

في مستهل محرم عام ١٣٤٩هـ، انتقلنا من بيت السيد العطاس الذي يقع في حارة الشام إلى بيت محمد نوّار، وهو في حارة الشام أيضاً، على بعد نحو مائتي متر تقريباً من بيت العطاس، حيث يمتدُّ الشارع الذي يقع عليه بيت العطاس من الغرب إلى الشرق، ماراً ببيت العطاس عن يمينه، ثم بيتان آخران لا أعرف أصحابهما، ثم بيت ثالث كان يسكنه إبراهيم مُلاً المراقب في الكنداسة، ثم بيت الشيخ محمد نور شنكار، شريك سعيد بن زقر في بيع الأدخنة (السجاير)، وهنا تتَّجه إلى اليسار، فتجد برحة أمامك عن يمينها بيت محمد نوار، وهو عبارة عن بيتين متلاصقين، أحدهما يفتح بابه إلى الغرب، والآخر يفتح بابه إلى الشمال مقابلاً للمبنى الذي كانت تشغله السفارة البريطانية مستوصفاً تقدم فيه السفارة أنواع العلاج الأوَّلي.

طرنجة الحبشية:

وبين بيت النوَّار هذا ومستوصف السفارة بيت صغير ذو طابق واحد ذو غرفتين بابه من جهة البحر، بينه وبين باب بيت النوار نحو متر، تسكن هذا البيت امرأة حبشية، ضخمة الجثة تدعى (طُرُنْجَة) وهي تقوم بغسل الثياب وكيها، ويوجد عند طرنجة هذه بنت مملوكة صغيرة تبلغ من العمر نحو سبع سنوات، حبشية تدعى جميلة، وهي جميلة حقاً.

زواج أخي الثاني:

سكنا في هذا البيت، وبعد شهرين اقترن أخي بفتاة يتيمة تدعى (شُعَيْغ)[1]، كانت تقيم في بيت رجل تركي يدعى عصمان بدوي حيث كفلها وربّاها بعد وفاة والديها.

عصمان بدوي:

كان هذا الرجل إنساناً مثالياً، يتمتع بعفة يد، وطهارة لسان، وكان معروفاً بالاستقامة والتديّن، وكان موظفاً مسؤولاً عن بيت المال في جدة.

كان يقيم في مبنى صغير مكوَّن من ثلاث غرف، يقع مكانه على بعد نحو خمسمائة مترٍ شمال مبنى الخارجية الحالي في جدة، وكانت نهاية هذا الرجل النبيل أن وُجِدَ عليه نقصٌ حينما أُجريَ التفتيش على حساباته، وحيث أنَّ وجود مثل هذا النقص كان بالنسبة له كارثة لم يعلم عنها ولم تحتملها أعصابه، فكانت نتيجة ذلك أن أقدم على الانتحار حيث وُجد معلَّقاً بحبل، شانقاً نفسه تخلُّصاً من هذه الكارثة التي حلَّت به.

حفل الزواج:

اقترن أخي بهذه الفتاة، ولم يكن عندي أي علم بالخطوات التي اتُّخذت حتى تمَّ عقد الزواج، وإنَّما وجدتُ في أحد الأيام أنَّ هناك جمعاً من الحمَّالين أحضروا كراويتان لا يقل عددها عن خمسة عشر، لا أعرف من أين أتوا بها، ثم وضعوها في الساحة المقابلة للبيت من جهة الغرب، ثم وضعوا عليها بسطاً ومخداتٍ، لا أعرف من أين أتوا بها، ثم أُحضرت الأتاريك، وعلِّقت بالساحة، وتوافد المدعوون بعد صلاة العشاء حتى امتلأت هذه الكراويتات بالمدعوين ثم جيء بمعاشر، وهي طاولات خشبية مستديرة فيها أكياس من الحلوى وُزِّعت على الحاضرين.

---

(١) تزوج أخي زواجه الأول ولم يكتب لزواجه الاستمرار؛ وكان ذلك قبل أن أقدم إلى جدة.

وظلَّ الحفل ساهراً إلى الهزيع الأخير من الليل، وقد غاب أخي خلاله نحو أربع ساعات لا أعرف أين ذهب، ولكني فهمتُ فيما بعد أنه ذهب لبيت عثمان بدوي حيث يُنَصُّ على العروسة كما تقضي التقاليد، وقد كان لابساً ثوب لاس وكُوت، وسقاطة حريرية شغل الشام فوق رأسه.

وقد حَضَر خلال ذلك مجموعة من النساء صَعَدْنَ إلى البيت ومع إحداهن بقشة ملفوفة بداخلها ملابس، وكانت قد أحضرت إلى البيت في ظهر ذلك اليوم مجموعة من المخدات الناعمة، وطرَّاحة كبيرة، ولحاف من القطن، وشراشف حريرية، وعدد من شراب الماء المبخَّرة، ومَبْخرة وكمية من العود، وبَقِيَتْ هذه النِسوة في البيت.

وفي حوالي منتصف الليل حَضَر أخي، وبعد حضوره بنحو ربع ساعة خرج مجموعة من النِسوة من البيت، وبعد نحو نصف ساعة عُدْنَ إلى البيت مرةً أخرى، ويبدو أنَّ العروسة كانت معهنّ.

كان عصمان بدوي هذا يسكن ـ بالإضافة إلى سكنه بالبغدادية الذي ذكرناه آنفاً ـ بيتاً آخر في حارة الشام، يبعد عن البيت الذي نسكنه بنحو أربعمائة متر تقريباً من جهة الغرب.

خرج النساء مرةً ثانية، وبقيت في البيت امرأتان: العروس وزوجة عصمان بدوي.

بيت النوار:

وكان بيت النوار هذا الذي نسكنه مكوَّناً من ثلاثة أدوار: الدور الأول مكوَّن من صالون كبير، تقابله غرفة فمطبخ فحمام، أما الدور الثاني فيوجد فيه غرفة نوم، ثم صالون ثم حمام. نمت تلك الليلة على الكراويت حتى الصباح.

أمّا أخي فقد صعد إلى البيت بعد خروج النساء بعد عودتهم الأخيرة، وقد علمت بأن البقشة التي كانت مع إحدى النساء تحتوي على بدلة كاملة

رجالية من اللاس الأصلي: ثوب وكوت وصديري، ثم سراويل طويلة من البَفْتَة، ثم عدّة مناديل حريرية، ثم مجموعة من قوارير الطيب المتنوعة، ومجموعة من الغبانات التي هي غطاء للرأس، ومثل هذا الأمر شائع في الزواجات في ذلك الوقت.

فطور العروسين:

في الصباح أُحضر لنا تِبْسي مع أحد الحُمَّال، يحتوي على مجموعة من الأطعمة: كالفول والمطبَّق والحلاوة والشِرِيْك والعيش البيتي، مغطى بغطاء من الحرير، وكان هذا بمثابة فطور مرسل للعروسين من بيت العروسة - العم عصمان بدوي. ثم ذهبت المرأة التي كانت موجودة بعد طلوع شمس اليوم الثاني وبعد أن حضر الفطور كما شرحت، وقُدِّم للعروسين ثم تلوناهما أنا وتلك المرأة طُرُنْجة الحبشية.

سرُّ وجود القريبة ليلة العرس:

وقد فهمت فيما بعد أن وجود واحدة من أقرباء العروسة في ليلة دخلتها، سواء أكانت أمها أو أختها أو قريبتها، أمرٌ ضروري لكي تستطيع في الصباح أن تذهب إلى غرفة العروسين، بعد أن يكونا تركاها لتناول الفطور، فتأخذ منديلاً يتوجب وجوده على الفراش، وفي سرِّ هذا المنديل تكون الفرحة والاغتباط لأهل العروسة متى وجدت عليه آثار الدم.

خلافي مع زوجة أخي:

كانت العروسة شابة في حوالي الخامسة عشر من العمر، وكانت ساذجة غِرَّة لا تفهم شيئاً من شؤون البيت وشؤون الزوج، وما هو مطلوب منها من واجبات نحو ذلك، وواضحٌ أنَّ حياة اليُتْم له دخلٌ كبير في سلوكها هذا.

مضت شهور وأظنُّها خمسة أو ستة أشهر، وكانت زوجة عصمان

بدوي تتردَّد باستمرارٍ على البيت تدرِّبها على الطبخ، وتُمَرِّنها على شؤون البيت، وعلى المعاملة التي يجب أن تقابل بها زوجها، ولكن يبدو أنَّ الفتاة بطيئة الفهم.

كنتُ في أوقات الجمع ألازم سكني في الطابق الأول الذي هو الصالون، وكان ذا نوافذ خشبية تطلُّ على الساحة التي أمام البيت من جهة الشمال والغرب، ولتقاربنا في السِّن كنا نختلف في كثيرٍ من الأمور، وفي أكثر من مرة كنا نتشابك بالأيدي، وفي أحد المرات وعلى غير انتظار لم نشعر إلا وأخي يدخل علينا فجأة ونحن في حالة اشتباك، وكان الخلاف على أمورٍ تافهة وبسيطة، ولكن كلٌّ منا يريد أن يفرض رأيه على الآخر.

صفعة لن أنساها:

وبمجرد أن شاهدنا أخي هَرَبَ كلٌّ منا إلى ناحية، وكان نصيبي منها صَفعةً لن أنساها، أما هي فقد هَرَبت إلى الطابق الثاني، ولا أعلم ماذا كان نصيبها، ولكن الذي أعلمه أنه أمرها في صباح اليوم الثاني بالتوجُّه إلى بيت عمِّها عصمان بدوي، ثم جمع جميع ما يخصُّها من ملابس وثياب ووضعها في صندوق سِيسَم كبير صنع الهند، كان أُحضر معها ليلة الزفاف من ضمن العفش ثم أرسله، ويبدو أنَّ ورقة الطلاق معه أيضاً أرسله إلى بيت عصمان بدوي، بدليل أنَّها لم تعد إلى البيت مرةً أخرى مما يؤكد إرسال ورقة الطلاق مع العفش.

الخادمة زهرة:

بقيتُ أنا وأخي وحدنا في البيت، وبعد يومين حضرت إلينا امرأة سوداء اللون تدعى زهرة، وتدَّعي أنها من بيت الدمياطي في جدة في حارة البحر، وحضورها إلى البيت كان لتعمل شغالة، مما يدلُّ على أنَّ أخي قد كلَّف أحد أصدقائه بالبحث عن خادمة، لكي تعمل لديه في البيت، وتقوم بالواجبات من غسيل وطبخ وتنظيف وما إليه.

الماعز المصري:

كان أخي يقتصر في فطوره على حليب طازج في كل صباح، ولذلك كان يقتني رأسين من الماعز من النوع المصري، وهو نوع ذو أثداء عريضة، وذو لبن غزير، كان يوضع على أثدائها أكياساً تربط على ظهرها ثم تترك سائبة في الحي في الحارة شأن العشرات من أمثالها من الماعز التي تنتشر في الحارات والأسواق.

تكليفي بواجبات الخدمة:

لم تكد تمضي على هذه المرأة زهرة بضعة أيام حتى عَرَفَت مدى خوفي من أخي، ومدى شدَّته في معاملتي، ولذلك فقد أخذت شيئاً فشيئاً تكلفني بالقيام بواجبات هي من اختصاصها، وليس لي علاقة بها، ولكن بما أن المطبخ والحمام، وموضع غسل الملابس، وحِنيَة الفحم (غرفة)، كلها تقع في الطابق الأول أي أنني قريب منها حين وجودي في البيت. ابتدأت بتكليفي بادىء الأمر بإشعال كوانين الطبخ، ومعنى هذا أن أذهب إلى حنية الفحم، وآخذ كمية منها أضعها في الكوانين، ثم أشعلها بالنار، وأهف عليها حتى تولع، ثم تدرَّج الأمر شيئاً فشيئاً، إلى أن بلغ الأمر أن أصبحت مسؤولاً عن تغسيل القدور والصحون بعد الأكل، ولثقتها بأنني لا أجرؤ على مفاتحة أخي بهذه الأمور فقد أصبحت تعاملني وكأنني خادمٌ تابع لها.

فطور أخي:

ولعلَّ من المفيد تدليلاً على ما ذكرت أنَّ أخي ـ كما ذكرتُ ـ كان يقتني رأسين من الماعز، وكان فطوره كل صباح قاصراً على ما يحلب منهما، وكان لكلٍ منهما كيس يوضع على ثدي الماعز، ويربط على ظهرها إذا انتهى حلبها.

وفي أحد الأيام سقط الكيس من ثدي العنز، ويبدو أن بعض صغار الماعز التي كانت تتجوَّل مع هذه الأغنام رضعَت هذه العنز، وعند حضور

الماعز في المساء إلى البيت كالعادة لحلبها وجد أن واحدة منها ليس بها حليب، فأخذت الجارية زهرة هذه ترغي وتُزبد، وتهدّدني بأنني أنا السبب في عدم إحكام ربط الكيس وبالتالي فإنها ستشكوني لأخي مما جعلني أترجاها بألا تفعل، وللقارىء أن يتصوَّر هذا الموقف مني ومنها، فهي بدلاً من أن تخدمني أصبحتُ أنا خادماً لها.

زواج أخي الثالث:

ظلَّت هذه الحيزبون عندنا جاثمة على صدري كالكابوس مدة تقرب من أربعة شهور، حتى أزاحها الله عني باقتران أخي بزوجةٍ جديدةٍ، ما كادت تدخل البيت حتى طردتها في اليوم التالي.

بعد ما يقرب من شهرين على طلاق زوجته الثانية، علمتُ أنَّ أخي على وشك الاقتران بزوجةٍ ثالثة، وعلمتُ أنها من بيت الصَّعيدي تدعى مصباح، وأخوها يُدعى: حمزة صعيدي، وهو يملُك فرناً في مقابل بيت باذيب من جهة الشمال بحارة المظلوم، وهي محترمة، وتسكن في نهاية الشارع المتَّجه من سوق العَلَوي جنوباً، مروراً ببيت الكيَّال، الذي يقع عن يمين المتَّجه جنوباً حتى نهاية الشارع الذي ينتهي ببيت عبد ربه في حارة اليمن.

الإعداد للزواج:

في خلال ثلاثة أيام تمَّ إحضار مستلزمات الزواج: من كراويت ومخدَّات وبسط، وكلها مستأجرة لزوم حفل الزواج، وتحدَّد يومٌ معيَّنٌ للزفاف، وخلال ذلك أحضر لي لباساً معيَّناً، هو ثوب من اللاس الأصلي وهو قماش ناعم حرير أصلي، وجُبة من حرير بنية اللون، و (صمادة) وهي غترة من الحرير الأبيض، وجزمة لماعة كشف.

إضاءة الأتاريك:

وفي تلك الليلة بعد أن اكتمل حضور المدعوين والمباشرين في الساحة، ونُصِبت وأضيئت الأتاريك في مختلف جوانبها، وكذلك أضيء

البيت بالأتاريك العلاقي بعيد صلاة العشاء بنحو ساعتين، ارتديتُ وأخي ملابسنا وكانت ملابسهُ مماثلةً لملابسي، ثم ذهبنا مع مجموعة من الأصدقاء يقاربون العشرة أنفار، منهم: الفتيني، وإبراهيم ملا، وإبراهيم التركي، وعمر باحميشان، وصالح بازهير، وناصر زبيدي، ومحمد الجطيلي، ذهبنا صفّاً تتقدمنا أربعة أتاريك أنا وأخي في الوسط، وحملة الأتاريك أمامنا؛ يحيط بنا المرافقون.

وعند وصولنا فرن الحنبولي قابلنا مجموعة منهم: حمزة صعيدي أخو العروس، ونحو ستة أنفار معه من أقربائه، ثم مشوا معنا بما فيهم شيخ حارة المظلوم آنذاك، ويدعى: عبدالصمد، كما أن شيخ حارة اليمن بصحبة أخي العروسة مع الآخرين.

الوصول إلى بيت العروس:

سرنا جميعاً حتى وصلنا إلى بيت العروس، وكان مضاءً بالأتاريك، وفيه مجموعة من الكراويت والمساند والبسط، ومجموعة كبيرة من الحاضرين وكنا نسمع الغطاريف (الزغاريد) منذ اقتربنا من المنزل.

جلسنا على الكراويت في مكان مميَّز، أديرت علينا أكواب الشاهي، ثم مباخر الطِّيب، وبعد نحو ساعة تقريباً حضر أخو العروس حمزة صعيدي، وأمسك بيد أخي، وذهب إلى داخل البيت، وكان صوت الغطاريف (الزغاريد) يُجَلجل.

خمسة جنيهات على جبين العروس:

وبعد نحو ربع ساعة تقريباً عادَ أخي، وكان قد أعطاني خمسة جنيهات ذهبية عند مغادرتنا لمنزلنا في حارة الشام، قائلاً لي: هذه تضعها على جبين العروس، وإذ كنتُ لا أعرف أي خلفية عن هذا الموضوع سألته: كيف أفعل؟ أجابني بقوله: إن هناك (مقيِّنة)، وهي السيدة التي تشرف على تزيين العروس، وهذه سوف تساعدك وتشرح لك ما يجب أن تفعل.

وخز الإبر:

حضر أخي ومعه حمزة أخو العروس، الذي أخذ بيدي طالباً مني الذهاب معه، وعندما تلكّأتُ التفتَ إليّ أخي، وقال: اذهب معه. فذهبتُ وأنا لا أعرف ماذا سألاقي، وما كدتُ أدخل من عتبة الباب حتى وجدت امرأة في نحو الأربعين من عمرها أمسكت بيدي، وسارت بجواري متّجهةً بي إلى صالون كبير، كان فيه كرسي مرتفع عن الأرض بنحو متر، تجلس عليه العروسة التي ترتدي ثياباً بيضاءَ مزركشة، وهو ثوب الزفاف وأمامها كرسي مقابل لها.

ما كدتُ أدخل من الباب حتى أحاط بي مجموعة من النساء قد يتجاوز عددهن العشر على ما أذكر، وفجأة أحسست بوخز إبر أو دبابيس في ظهري، حتى كدت أصرخ وكانت المقينة التي تسير بجانبي تصرخ في وجوههن، وتطلب منهن الابتعاد عني، ولكن هيهات كن يتضاحكن، وكانت كل منهن تحاول سبق الأخرى إلى إيذائي.

أسرعت الخطو من شدة الألم حتى وقفت أمام العروس، فأجلستني المقينة على الكرسي، وقالت لي: أين الذي معك؟ فأبرزت لها الجنيهات الخمس، فوقَفَتْ معي، وأشارت بأصبعها إلى جبهة العروس، وقالت: حط هنا واحدة، وهنا واحدة، وهنا واحدة على امتداد جبين العروسة، وعندما وضعتُ أول واحدة سقطت فانحنيتُ لآخذها، فقالت لي: دعها في مكانها، فأسرعت بوضع البقية وهي تتساقط على الأرض، ثم أسرعتُ عائداً، والمقينة تمشي خلفي تذود عني إيذاء النسوة اللاتي اتخذن مني مجالاً للضحك والسخرية، فما كدتُ أخرج من البيت إلا وأنا ألعنُ في قرارة نفسي الساعة التي دخلتُ فيها.

عدتُ إلى أخي بأسوأ حالة، وسألني الحاضرون: ها ماذا فعل بك الحريم؟

التعتيمة:

عدنا إلى البيت مع رفاقنا الذين حضروا معنا بالطريقة نفسها التي قدمنا بها، وهناك كان يوجد في البيت ما بين عشرين أو ثلاثين نفراً من مباشرين

وأصدقاء، ثم مُدت سفرة طويلة، وضع عليها مجموعاتٌ من الصحون التي ملئت بأنواع عديدة من الحلوى على مختلف أصنافها، والتي تسمَّى (تعتيمة).

وقبيل الفجر بقليل حضرت مجموعة من النساء، ومعهن العروس، وأدخلنها المنزل، وبعد قليل تفرَّق الضيوف، وعادت النساء من حيث أتين إلا اثنتين بقين معها، وهي أم العروس، وأختها أسماء، حيث بقيتا في غرفة مجاورة نمن فيها تلك الليلة، ثم أخذن يتردَّدن ما بين منزلهنّ وبيتنا لمدة لا تقل عن شهر تقريباً.

زوجة أخي مصباح:

كانت مصباح هذه ـ رحمة الله عليها ـ فتاة لم تبلغ العشرين عاماً من العمر، كانت مهذَّبة، هادئةَ الصوت، مجيدةً للطبخ، وشؤون البيت، جميلة الصورة، قليلة الكلام، ولكن لسوء حظها أنها لم تنجب، وكانت تتحمل من أخي كل قسوته وشراسته بصَدْر رَحْب، وابتسامةٍ هادئة، مهيَّأةً له جميع متطلباته، وجميع ما يوفِّر له الهدوء والسعادة، ولكن كما قلتُ: إنها لم تنجب.

الانتقال إلى بيت مراد:

بعد الزواج بعدة شهور انتقلنا من بيتنا في حارة الشام، الذي هو بيت النوار، إلى البيت الجديد الذي استأجرناه، وهو بيت مراد الواقع في حارة المظلوم، وكنا نسكن في الطابق الثالث منه، يجاورنا فيه المرحوم حسن مشهور.

مرض أخي المفاجئ، وسفره لأسمرة:

بعد نزولنا في بيت مراد بنحو شهرين مرض أخي مرضاً مفاجئاً مزعجاً، إذ شرع يتقيأ دماً من جوفه، وفي خلال أيام معدودة انهارت صحته، فأصبح لا يستطيع الوقوف، ولم تكن هناك في جدة مستشفيات

بالمعنى الصحيح، اللهم إلا المستشفى العام الذي كان يوجد آنذاك في الزاوية الجنوبية الشرقية من مدينة جدة داخل السوق، والمعروف بمستشفى باب شريف، وهو مجرَّد من أيِّ عناية، مجرَّدٌ من الكفاءات، ومجرَّدٌ من الأجهزة المطلوبة، وهنا ارتأى كل من الجماعة إبراهيم الحمد الصنيع، ومحمد السليمان التركي بأنَّ أفضل حل لموضوعه هو أن يسافر إلى أسمرة في الحال فهناك يُذكَر عن وجود مستشفى إيطاليٍّ مجهز بأحدث الأجهزة، ويعمل به أطباء يتمتعون بكفاءة علمية ممتازة، وخاصةً في فن الجراحة.

استقرَّ الرأي على ذلك، واتُّخذت الإجراءات السريعة لسفره، وتمَّ ذلك في اليوم الثاني فأنزل من البيت على نقالة، وصعدنا به إلى الباخرة، وكنتُ مُصِرًّا على أن أُرافقه، ولكنه أصرَّ بكل شدة وعنف على أن أعود إلى البيت، تاركاً لي خمسة وعشرين قرطاساً أي خمسة وعشرين ريالاً على أن تكون هذه مصروفاً للبيت مدة غيابه، وفي حالة احتياجي آخذ من الشيخ إبراهيم الصنيع ما أحتاجه.

تنفيذاً لرغبته ودَّعتُه على الباخرة وهو على النقالة، وكانت باخرة إيطالية لا أذكر اسمها، وكنت حزيناً دامع العين، مفجوع القلب، لا أعرف: أيعود أم لا؟ وقد رافقه في هذه الرحلة الأخ ناصر زبيدي، وهو من الجماعة الذين يعملون معه في الكنداسة قهوجياً وفراشاً، وكان أخي يعطف عليه كثيراً.

تأمين حاجات البيت:

عدتُ إلى البيت، وكنت أنفق على تأمين حاجات البيت يومياً قرطاس واحد، وقد يزيد منه. كنت أذهب كل صباح بالزنبيل إلى النورية، ومعي قرطاس واحد من النقود ـ أي ريال ـ فأملأ هذا الزنبيل بالخضروات المختلفة واللحم وباقي المستلزمات ويبقى معي بعض من النقود.

عودة أخي سالماً معافى:

ولم يكد يمضي حوالي عشرين يوماً فقط على سفر أخي حتى وجدناه يدخل علينا فجأةً، عائداً من السفر صحيحاً معافى، وخلفه عربية كارو

تحمل أربعة أقفاص كبيرة كل قفص يحتوي على أربعة رؤوس من الديوك الرومية، وقد اتَّضح أنه بمجرَّد وصوله إلى أسمرا أُجْريت له عملية جراحية، فقد وُجد على جزء من كبده حشرة سوداء صغيرة في حجم نواة التمرة أحضرها معه في زجاجة بها محلول وداخلها هذه الحشرة، إذ كانت عالقةً بكبده، وهي التي سَبَّبت له النزيف.

وقد وزع الديوك الروميّة على أصدقائه الصنيع والتركي والعم محمد عبدالرحمن الزامل رحمة الله عليه.

الصفعة القاسية التي نلتها من أخي:

قبل ارتحالنا إلى بيت مراد، وقبل أن يتم أخي اقترانه بزوجته الثالثة مصباح، كانت الحيزبون زهرة تخدم عندنا في البيت، في ذلك الوقت حَدَث من أخي ما كاد يفقدني حياتي لولا لطف الله وعنايته، إذ وقع الحادث على مشهد من طُرُنجة الحبشية التي تسكن بجوارنا، كما ذكرت، وتفصيل الحادث كالآتي:

كنتُ ذكرت أنَّ البيت ثلاث طبقات، وأنني أسكن في الطابق الأول منه في غرفة كبيرة على هيئة صالون فيها كتبي وملابسي وجميع حاجياتي، وذات نوافذ خشبية تطل على البرحة الموجودة أمام البيت، وكنت أقضي أيام الجمع في هذه الغرفة، لا أغادرها إلا لجلب ما قد يحتاجه البيت من السوق.

البيهْ:

وكان يوجد آنذاك رجل في حدود الخمسين من عمره، يلبس لباساً أنيقاً، ويلبس على رأسه عقالاً ذهباً مقصَّباً، ويعرف عند الناس بـ (البيه)، وهذا الرجل غير مستقيم التفكير، وحالته أقرب ما تكون إلى الجنون من العقل، وكان بعض الصبيان يسخرون منه، ويقذفه بعضهم بالحجارة، فيجري خلفهم مُمْسِكاً بعصاه الطويلة، حيث يفرُّون من وجهه، ويظل هو واقفاً يشتمهم، ثم شيئاً فشيئاً يعاوده الهدوء، فيصمت ويصبح إنساناً عادياً كأحد العقلاء.

أحمد السحرتي:

وفي أحد الأيام وكان يوم جمعة، وكان الوقت آنذاك قبيل الظهر شاهدتُ البيه هذا من النافذة واقفاً يتحدث إلى أحمد السحرتي، وكان السحرتي هذا يسكن على مقربة منا يصنع سحاحير من الخشب، يزوِّقها بألوان ويبيعها، كان البيه واقفاً أمامه يتحدَّث معه حديث العقلاء، ورغبة مني في سماع حديث البيه نزلت إلى الساحة حيث كان يقف البيه، مواصلاً حديثه مع السحرتي.

وفي هذه اللحظة رأيت أخي قادماً من جهة الجنوب، فأسرعت عائداً لكي أصعد إلى غرفتي، وبما أنَّه شاهدني، وكان يسير ورائي فلم يكن في وسعي أن أركض، ولكن أخي أسرع الخطو خلفي، حتى إذا ما وصلت عتبة الباب أمسك بي، وهنا وجَّه لي ضربة على صفحة رقبتي اليمنى بعنف فسقطت على العتبة مغشياً عليَّ، والزَّبَدُ يخرج من فمي ومن أنفي.

استعادة الوعي:

وكانت طرنجة الحبشية واقفة آنذاك على بابها، وشاهدت ما حدث فأسرعت إليَّ ورفعت رأسي، واحتضنتني على صدرها بضع دقائق منادية على عبدتها جميلة بأن تُسرع بإحضار كأسٍ من الماء، فأحضرت الماء وأخذت ترشُّه على وجهي وتمسح الزبد من فمي، حتى استعدت وعيي، ويبدو أن الضربة كانت على أحد العروق المؤثِّرة فنتج عنها هذا الإغماء، وهذا الزبد، وكانت طرنجة تصرخ بأعلى صوتها: ما تخاف الله! قتلت الولد. مخاطبةً أخي الذي لم يأبَهَ لكلامها، مواصلاً صعوده درج البيت إلى غرفته.

فزعي من أخي:

هذه الحادثة مع نظيرتها الأولى التي حدثت لي في بيت السيد العطاس بُعَيْد وصولي إلى جدة ببضعة أيام، والتي كان سببها كما أشرتُ جلوسي مع الداشر على كرسي المقهى الموجود في عرض الشارع. هاتان الحادثتان قد

أثَّرتا في أعماق نفسي أثراً رهيباً نتج عنه أن كنتُ أتصور أنَّ أخي ورائي يهمُّ بضربي أينما كنت.

قسوة أخي وشدته:

وكنت ـ ولا زلتُ حتى هذه اللحظة ـ أشعر بالخوف والرعب، الذي حُفِرَ في أعماق نفسي حفراً، رحمه الله وعفا الله عنه، فهو لم يفعل ذلك كرهاً كما أثبتت لي الأيام، وإنما كان يفعل ذلك في اعتقاده لمصلحتي، إذ كان يعتقد نتيجة للحياة القاسية الشرسة التي تعاقبت على حياته منذ فَجْر طفولته، والتي لم تعرف معنًى للعطف أو الحنان أو الرحمة. كانت نظرته إلى الحياة تتلخَّص بأنَّ الوسيلة الفُضْلى، والطريقة المثلى للتربية هي وسيلة العنف والقسوة، ولا شيء غير ذلك.

حبه وحنانه وعطفه عليَّ:

وقد خَبِرْت بنفسي أنه يُكِنُّ لي أصدقَ الود، وأصْفَى الحب، وأنَّ قسوته هذه معي هي من أجل تقويمي وتهذيبي.

لقد كان يتجلَّى عطفه عليَّ في مبالغته في توفير الرفاه والسَّعادة لي ماثلاً ذلك فيما كان يوفِّره لي من فاخر الملابس، حتى أذكر أنه اشترى لي ساعة ذهبية بسلسلة ذهبية أيضاً بنحو خمسين جنيهاً ذهبياً.

الساعة الذهبية:

كنت أعلِّق الساعة على صدري، وهي ساعة مستديرة الشكل ذات غطاء تضغط عليه بأصبعك فيرتفع الغطاء ويظهر سطح الساعة وعقاربها تشير إلى الوقت، وكانت السلسلة الذهبية طويلة وعريضةً، وكنتُ أتباهى بها على زملائي في المدرسة.

ملابسي:

كنتُ أغيِّر ملابسي مرتين في اليوم: إحداهما في الصباح حيث أرتدي الثوب اللاسي والجبة الحريرية والسقاطة البيضاء الحرير وحذاء أسود كشف

لماع، ومنديل من الحرير بجيبي، وكان الخياط الذي كان يقوم بتفصيل هذه الملابس وخياطتها لي هو أحمد بادكوك الأبكم أخو محمد بادكوك، صاحب كيلو عشرة، وأخوه عبدالرحمن الذي كان يعمل مخلِّصاً للبضائع لدى أحمد باغفار.

وكان دكان الخياط أحمد بادُكُوْك يقع قريباً من منزلنا في زقاق الخُنْجِي.

قيمة الجنيه الذهب:

ولكي تعرف قيمة الجنيه الذهب، أي قيمته الشرائية آنذاك، أذكر أن رؤساء الدوائر كالمالية والشرطة والكنداسة والبريد، راتب الواحد منهم أربعة وخمسون ريالاً وقيمة الجنيه الذهب سبعة ريالات ونصف.

من سجايا أخي:

يوافق في كثير من الأحيان أن أمشي أنا وأخي قادمين من الكنداسة في طريقنا إلى البيت، مروراً بسوق الندى، وبطبيعة الحال فإنني أسير خلفه خطوة أو خطوتين، احتراماً له، ويوافق أن يقابلنا أشخاص يرغبون التحدُّث إليه، فيتَّجهوا لي موجِّهين إليَّ الخطاب: يا عم عبدالله، فأشير إليهم بيدي بما معناه أن عبدالله هو هذا الذي أمامكم ولستُ أنا، والسببُ في ذلك واضح هو الاختلاف البيِّن بين مظهري ومظهره، فأنا على أتم الأناقة بثيابي الحريرية، وحذائي اللمَّاع، وساعتي الذهبية، وهو أمامي شخص معتاد، مكشوفَ الرأس إلا من طاقية بيضاء واضعاً غترته على كتفه، ويلبس ثياباً بيضاءَ معتادة.

لم أذكر قط في حياتي أنه سألني: كم أنفقت؟ وكم بقي عندك من النقود؟ إذ كنت دائماً، وبصفة مستمرة، أحمل مفتاح خزنة الحديد معي، وبها الكثير من الريالات والجنيهات وقراطيس النقود، لا يسألني عن عددها.

وكنت دائماً لا يخلو جيبي من جنيهين ذهبية أو أكثر، بالإضافة إلى بعض الريالات والقروش.

حفظي من الانحراف والانزلاق:

ومع ذلك فإنَّ هذا الرعب الذي تأصَّل في أعماق نفسي نتيجةً للضربتين الآنفتي الذكر، اللتين مَرَّتا عليَّ، كان لهما الفضل الأكبر بعد الله في وقايتي من الانزلاق في المسالك الخطرة، والانحرافات التي ينحدر إليها الشباب في الغالب الأعم، خاصةً وأنا في فَوْرة الشباب، والمغريات موجودة ـ بكثرة ـ والنقود متوفِّرة، لا أُسأل ولا أُحاسَب عنها، ولكني حيث كنت أتصورُه خلفي يراقبني في أيِّ مكان أكون فيه.

كان هذا التصوُّر ـ بعد عون الله ـ يمنعني من الانحراف أو الرذيلة التي كانت جميع دواعيها متيسرة.

هذه الحياة المرفَّهة التي عشتها مع أخي، التي كان يضفيها عليَّ بكل سخاء، كان ينقصها شيءٌ واحد يحول بينها وبين الكمال هذا الشيء ينحصر في حرماني من الشعور بالعطف والحنان، الذي كنت آمل أن أسمعه وألمسه منه، وهكذا مكثتُ مقيماً في كنفه على هذا المنوال قرابة أربعة عشر عاماً، من نهاية عام ١٣٤٤ إلى منتصف شعبان ١٣٥٧.

زواج أخي الرابع:

شاءت إرادة الله أن تكون زوجة أخي الأخيرة أعني بها مصباح عاقراً، في الوقت الذي كان فيه أخي أشد ما يكون تطلُّعاً إلى الإنجاب والذرِّيَّة.

ولم تكن آنذاك توجد وسائل للفحص وتحديد العقم من الخصوبة، وعلى ذلك يبدو أنَّ أخي رأى أنَّ عليه أن يقترن بزوجةٍ أخرى أملاً بأن يُرزَق بذرية.

اقترانه ببنت العم محمد بن عبدالرحمن الزامل:

وفي شهر رمضان عام ١٣٤٧ لاحظتُ أنه على غير عادته أخذ يتغيَّب عن البيت مرةً ومرتين في الأسبوع حيث يبيت خارجه، وشيئاً فشيئاً

اتَّضح أنه قد اقترن بابنة المرحوم العم محمد العبدالرحمن الزامل، وهو رجل قد كان في حدود الخمسين من العمر، وهو من أبناء عُنَيزة، ومن سُراة أسرها، ينتمي إلى الزامل، وهي أسرة مرموقة يحكم عنيزة أحد أبناء هذه الأسرة، وأعني بها أسرة السليم، وقد قدم إلى الحجاز كما فهمت منذ مدةٍ طويلة في عهد الحكم العثماني، واندمج في البيئة الحجازية كأحد أبنائها، وكان يعمل آنذاك دلال كف، ومعنى دلال كف أن يأخذ عيِّنات من بضائع التجار، ويعرضها للبيع على تجار التجزئة، ويتقاضى عمولة على ما يبيع.

كان هذا الرجل يسكن على مقربةٍ من بيت مراد، الذي كنا نقيم فيه من جهة الجنوب، ولا تزيد المسافة بيننا وبينه، عن مائتي متر أو أقل، فبيته يقع مباشرة خلف زاوية ابن عفان من جهة الجنوب، بينما يقع بيت مراد شمال هذه الزاوية.

أسرة العم محمد عبدالرحمن الزامل:

كانت أسرة العم محمد تتألف من زوجة وابن وابنتين، وقد اقترن أخي بالكبرى منهن، وهي التي سبق أن اقترنت بمدير شرطة جدة آنذاك محمد العطيشان، إلا أن زواجه بها لم يدم أكثر من سنتين، لعدم انسجام والدته معها بعد أن أنجبت له طفلاً توفي لاحقاً.

ومعنى ذلك أن اقترانه بهذه الفتاة حقَّق له هدفين: الأول: أنها سبق أن أنجبت، والثانية: أنها ذات أصل وفصل تنتمي إلى أسرة كريمة من البلد نفسه الذي ينتمي إليه، وهي عنيزة.

زواج بطريقة هادئة:

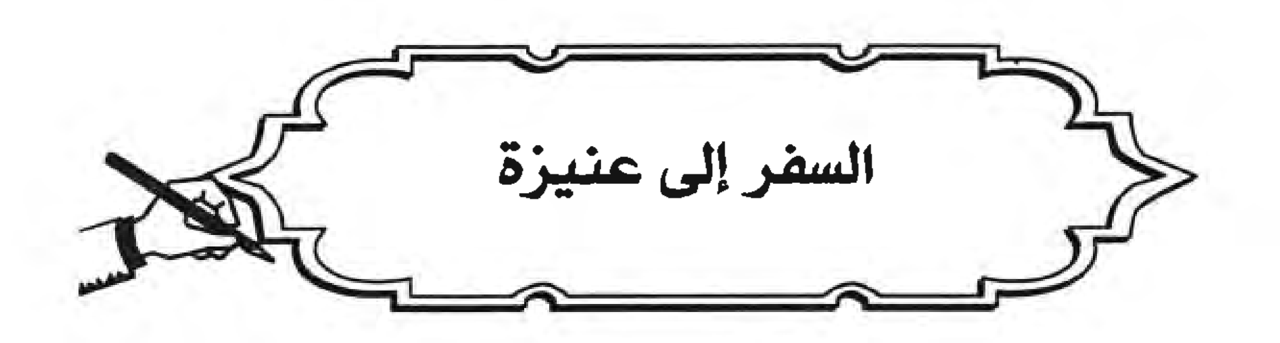
تمَّ الزواج بطريقة هادئة، دون أن تقام أي مراسم لهذا الزواج، واتَّضح أن تغيُّبه تلك الأيام كان عند زوجته الجديدة. ثم بعد مدة قصيرة أَشْهَرَ زواجه، وأعلمنا به جميعاً.

طلاق زوجته مصباح:

ثم تَبعَ ذلك أن طلَّق زوجته مصباح بعد أن أكرمها، وطيَّب خاطرها، حسب ما علمت ببعض النقود، موضِّحاً لها عذره في هذا الزواج طلباً للذريَّة.

انتقلت مصباح إلى بيت أهلها، وفي اليوم التالي حضرت زوجته الجديدة منيرة بنت محمد الزامل، ومعها أختها خديجة، وأخوها زامل، ووالدتها صالحة محمد برمبالي. سارت الأمور بطبيعتها.





السفر إلى عنيزة

وفاة أبي رحمه الله:

وفي عام ١٣٤٩هـ انتهى العمل في منزلنا الجديد، وانتقلنا إليه، وفي مستهل عام ١٣٥٠ تلقينا كتاباً من أخي حسون من عنيزة مفاده انتقال والدنا محمد الحسُّون رحمة الله عليه إلى جوار الرفيق الأعلى، وكانت أسرتنا في عنيزة آنذاك تتألف من والدي رحمة الله عليه، وأخي حسون، وأختي نورة وحصة، وكانت صغيرةَ السن؛ إذ يبلغ عمرها آنذاك حوالي ١٣ سنة فقد رأى أخي ضرورة ذهابي إلى عنيزة، لجَلْب هذه الأسرة.

قلة السيارات في ذلك الوقت:

وكانت السيارات في ذلك الوقت محدودة العدد لا يزيد الموجود منها في جدة عن عشرة أو خمس عشر سيارات على أكثر تقدير.

أول سيارة ركبتها:

أود أن أشيرَ هنا إلى حادثةٍ ذاتِ مغزى بالنسبة لأوضاع وسائل النقل والمواصلات في جدة آنذاك، إذ لم تكن جدة تحتوي إلا على عدد محدود من السيارات، قد لا تبلغ العشرين في مجموعها، معظمها تمتلكه شركة باسم الشركة النجدية التي أُنشئت في ذلك العام أعني عام ١٣٤٥هـ، لتزاول نقل الحجاج إلى المدينة، وكان أمين صندوقها المرحوم محمد صالح أبو

زنادة، وكانت أول شركة نقل تقوم في المملكة، يضاف إلى ذلك بضع أعداد من السيارات يملكها بعض الأفراد، منهم المرحوم علي العماري فقد كان يملك أربعاً منها، وبعض الأفراد الآخرين الذين لا أذكر أسماءهم الآن ولكن ما لديهم كان لا يتجاوز الأربع سيارات، ولعل في ذكر الحادثة التالية التي شهدتها بنفسي، ما يؤيد صحة ما أقول.

كان الزمن هو ثاني أيام عيد الفطر المبارك من عام ١٣٤٥هـ، وكان يسكن معنا في بيت النوار بحارة الشام في غرفة في السطح، سائق سوداني توجد لديه سيارة لوري، وإذ كنا مجتمعين في بيت المرحوم صالح المرشد، فقد رأوا أن يقوموا برحلةٍ على تلك السيارة إلى مركز أم السلم في طريق مكة القديم، فاتفقوا مع السائق على أن ينقلهم بسيارته إلى ذلك المركز، ومن ثم يعودون أدراجهم، وكأنهم بذلك، وفي تلك الظروف بامتطائهم لتلك السيارة، كأنهم يمتطون طائرة الكونكورد الحالية، فهي أول مرة، والمرة الأولى لهم جميعاً، يركبون فيها السيارة.

اتفق الحضور مع السائق إذ كان موجوداً معهم على أن يحضر سيارته، وكان عددهم في حدود العشرة تقريباً، وطلب منهم السائق أن يسمحوا له بأن يملأ الفراغ المتبقي في سيارته بركاب آخرين، وبعد نحو ساعتين، في وقت الظهر عاد السائق المذكور بسيارته وعليها ما لا يقل عن أربعين شخصاً كلهم وقوف في صندوق السيارة.

تشاور المجتمعون بالنسبة لهؤلاء الأشخاص الموجودين في السيارة، فرأى بعضهم العدول عن الركوب فيها، نظراً لازدحامها بالركاب، بينما رأى بعضهم أنه من الأفضل طالما أنه قد سبق الاتفاق مع السائق، وطالما أنها رحلة محدودة الركوب فيها على أن يكون مكانهم جميعاً في مقدمة صندوق السيارة، وفعلاً تمَّ ذلك.

كان من ضمن الركاب الذين أذكر أسماءهم: المرحوم صالح المرشد، الذي كنا ضيوفاً عليه في بيته في العيدروس، وعبدالله النقيداني، وإبراهيم السليمان التركي، ومحمد الجطيلي، وصالح بازهير، وناصر زبيدي،

وعبدالقادر التركي، وهو ضابط تركي آثر الإقامة في المملكة بعد انسحاب الأتراك، وعبدالرحمن الهويش، وأنا وأخي الأكبر عبدالله محمد الحسون، وكانت الأجرة لكل نفر لهذه المسافة القصيرة والتي لا تزيد عن ١٧ كيلو جنيهاً ذهباً، وركاب السيارة لا يقل عددهم عن خمسين شخصاً متزاحمين على ظهرها. قبض هذا السائق السوداني خمسين جنيهاً ذهبياً وكانت هذه التجربة الأولى لركوب السيارة بالنسبة للجميع.

استئجار سيارة صغيرة:

استأجر أخي سيارة صغيرة ماركة شفرولية جديدة سعة ٥ ركاب، كان يملكها المدعو عبدالرحمن بن عقيل (المجيرشة)، وقد كان قد اشتراها من الكندواني في جدة، وهو أول من استورد السيارات في جَدة، وكان مقيماً في بيت البغدادي الواقع جنوب برحة الكنداسة، استأجر أخي من عبدالرحمن المجيرشة هذه السيارة لمدَّة شهرين، بمبلغ ستين جنيهاً ذهبياً، على ما أذكر، على أن يكون السائق والبنزين مؤمَّن من قِبَل أخي، وفعلاً استأجر أخي رجلاً يُدعى موسى عرجة، وكان هذا وأخوه عبدالله عرجة الذي يزاول بيع الماء بالبراميل، يسكنان في بيت في حارة الشام قريباً من بيت النوار الذي كنا نسكنه، وكان على معرفة بأخي، وكنت زرتهما أكثر من مرة.

اتفق أخي مع موسى، وهو سائق يحمل رخصة قيادة، بأن يتولى قيادة هذه السيارة، وبذهب بها معي إلى عُنيزة لكي نحضر أخوتي.

استلمَ السائق موسى عرجة السيارة من مالكها عبدالرحمن المجيرشة، واستكملت تهيئة متطلبات السفر، ثم خرجنا من جدة في صباح أحد أيام شهر صفر عام ١٣٥٠هـ، وقد زوَّدني أخي بمبلغ مائة وخمسين جنيهاً ذهبياً، على أساس أن أدفع هناك في عُنيزة ما يكون على والدي رحمه الله من ديون.

الوصول إلى مكة المكرمة:

وصلت مكة في المساء، ونزلت عند ابن عمي عبدالكريم، وقد عرف سبب مجيئي، لأنه سبق أن بَلَغَهُ وفاةُ والدي، كنتُ مترفَ المظهر، أرتدي

ثوباً من اللاس الحرير، وعليه كوت من نوعه، والساعة الذهبية معلَّقة على صدري بسلسلة من الذهب، أنتعلُ الحذاء الأسود اللمَّاع المكشوف، وغترةً وعقالاً ومشلحاً أسودَ جديداً، يسمى آنذاك (نصف دربوجة)، بمعنى أنَّ الزري الموضوع على هذا المشلح من النوع العريض.

الجودرية:

كان وصولي إلى دكان عبدالكريم الحسون في الجودرية بعد العصر بنحو ساعة، وكانت الجودرية آنذاك تغصُّ بالكثير من أبناء عنيزة، بعضهم أصحاب دكاكين، وبعضهم أصحاب مباسط، وبعضهم الآخر دلاَّلين.

استرعى وقوف السيارة أمام دكان عبدالكريم انتباه الكثيرين، وسرعان ما شاع الخبر بينهم أنَّ هذه السيارة في طريقها إلى عُنيزة، فأخذ كلٌّ منهم يهيىء خطاباً، وبعضهم يأتي بِصُرَّةٍ مع الكتاب، ويسلِّمونها لعبدالكريم طالبين منه أن يسلِّمها لي؛ لتسليمها لذويهم بعُنَيزة، إذ لم يكونوا يعرفونني.

كان الواحد منهم يحضر إلى الدكان، ويسأل عبدالكريم قائلاً: هل صحيح أنَّ هذه السيارة ذاهبة لعُنَيزة؟ وأنَّ فيها ابن عمك إبراهيم الحسُّون الموجود في جُدَّة؟ فيقول لهم: نعم. وما هي إلا مدةٌ وجيزة حتى يعود هذا السائل ومعه خطاب مُغْلق، وصُرَّة صغيرة فيها نقود لتوصيلها لذويه.

تأخُّر سفري وسببه:

كان المفروض أن أتوجَّه في صباح اليوم الثاني، ولكن ابن عمي عبدالكريم رحمة الله عليه رفض ذلك، وأصرَّ على أن أبقى ذلك اليوم ويكون سفري في صباح اليوم الذي يليهِ، والسبب في ذلك هو أنه رأى في مظهري أمراً لا بد من تغييره، حيث أقنعني بأنه يتوجَّب عليَّ أن أبدِّل هندامي هذا بالكامل، وأن أشتري ثياب بفتة بيضاء جاهزة من أسواق الجودرية، وأشتري حذاء نجدياً وشماغاً أحمر، بحجة أنني لو ذهبتُ إلى عُنيزة بمظهري هذا لأصبحتُ موضعاً للتندُّر، إذ أن المجتمع لم يألف هذه النعومة المبالغ فيها.

وبعد جدال اقتنعتُ بصواب رأيه، فقضيتُ اليوم التالي في مكة عند عبدالكريم وجهَّز لي الأشياء التي يتوجب عليَّ ارتداؤها، وغيَّرتُ كل ما كنتُ ألبسُهُ ما عدا المشلح، وكان من نتيجة بقاء السيارة يوماً كاملاً أمام الدكان أن أصبح لدى عبدالكريم كوم من الكتب والصُّرر، فاضطررْنَا أن نأخذ صندوقاً خشبياً من حراج الجودريَّة، وضعنا فيه كل هذه الخطابات وصرر النقود.

سفر (أم قَذْهي) معي إلى عنيزة:

وفي ليلة السفر التي سيكون في صباحها السفر، مرَّ علينا رجل يدعى (قَذهي) وهو من أهل عُنَيْزة، ويشغل منصباً حكوميًا في مكة مرموقاً، وأظنُّه مستودع اللوازم. فوقف على عبدالكريم، وسأله على مسمع مني: أصحيح أنَّ هذه السيارة ستذهب إلى عنيزة؟ قال له: نعم.

سأله: من سيذهب فيها؟ فأجاب: ابن عمي إبراهيم الذي قدم بها من جُدَّة، فسأله: أين هو؟ فأشار نحوي، وكنتُ جالساً داخل الدكان، قال لي: أنت إبراهيم الحسون؟ قلت: نعم.

قال: من معك في السيارة؟ قلت: لا أحد.

قال: هل من الممكن أن تَصْطحب والدتي معك في السيارة على الأقل تسليك في الطريق؟ كان الموقف مُحْرجاً لي، إذ كيف يجوزُ لي أن أصطحب امرأةً معي، ولكنْ أردفَ قاطعاً صَمْتي: من فضلك هي امرأة عجوز فوق الستين، وهي على الأقل سَتُسلِّيك بحكاياتها في الطريق، والسيارة فارغة، ولولا ثقتي فيك ما طلبتك.

وهنا لاحظتُ أنَّ عبدالكريم يميل إلى إجابة طلبه، إذ قال: إن إبراهيم لن يقصِّر. وهنا قلت: أهلاً وسهلاً على الرَّحْب والسَّعَة، وإن كنت في قرارة نفسي غير مرتاح لذلك.

سألني: متى السفر؟ قلت: مع شروق الشمس من صباح غد إن شاء الله في هذا المكان.

بقيت السيارة في مكانها أمام دكان عبدالكريم، وتوجَّهتُ أنا والسائق موسى عرجة مع عبدالكريم إلى بيته، وكان موجوداً في شِعْب عامر، وهو عبارة عن غرفة ومطبخ وحمام.

بِتْنا بعد أن تعشَّينا ثم أفطرنا في الصباح فولاً ومطبقاً، ثم ذهبنا إلى السيارة، وإذا بقدهي واقفٌ ومعه أمُّه العجوز، ولكنها قويَّة المقام وجريئة وفصيحة، فما كدتُ أصلُ إلى السيارة حتى قال لها ابنها قدهي مشيراً إليَّ: هذا إبراهيم الحسون، فأخذت ترحِّب بي وتدعو لي بلسان فصيح جريء.

إلى الطائف:

تحرَّكت السيارة بنا بعد أن ودَّعنا عبدالكريم وقدهي، بعد طلوع الشمس مباشرةً، وكان جلوسي بجوار السائق، بينما جلست هي وشنطة صغيرة معها في الخلف، وبجوارها صندوق الخشب الذي يحمل الخطابات والصُّرر.

سِرْنا إلى الطائف حيث وصلناها قبل الغروب من ذلك اليوم، وبتنا أنا والسائق في أحد المقاهي القريبة من قصر شِبْرا، بينما نامت العجوز في السيارة، وفي الصباح الباكر أخذنا كفايتنا من البنزين من دكان في برحة القزَاز، وكان لديه مجموعة من صناديق خشبية تحتوي على صفائح من البنزين.

أخذنا أربع صفائح مملوءة بالبنزين ووضعناها في شنطة السيارة، وملأنا توانك السيارة بالبنزين، ثم مَرَرنا على مكان بيع الفواكه بالطائف، وكان السائق يعرفه، وأخذنا صندوقين من العنب، ومثلها سَفَرجل، ومثلها رمان، ثم مررنا على بائع حلوى يوجد في دكانه أصناف متنوِّعة من الحلوى، فأخذنا كميات من الغُرَيبة والحلقوم واللَّدُو والهريسة واللبنية والطحينية، ومجموعة من أقراص العيش، فأصبحت أم القدهي محشورة بين هذه الصناديق.

منطقة ركبة:

غادرنا الطائف صباحاً مواصلين السَّيْر إلى عنيزة، مررنا بمنطقة ركبة، وقد سبق أن ذكرت بعض التفصيل عن هذه البقعة عندما ذكرتُ قدومي من عنيزة، وهي عبارة عن فسيح من الأرض، تعلوه غابات من الأشجار اليابسة، وهي أرض دمثة هَشَّة.

كانت الأرض آنذاك لا زالت بكراً، فالسائق لا يجد أي مشقة أينما اتجه في السَّيْر عليها، إذ لا وجود لحفر أو أخاديد من تلك التي تحدثها كثرة سَيْر السيارات.

واصلنا سيرنا طول اليوم في فسيح من الأرض تكاد أن تكون متشابهة من حيث الروابي والأكمات والجبليات المتناثرة هنا وهناك، ولكن الأرض بصفة عامة منبسطة مستوية السطح تقريباً، يعلوها الكثير من العشب الجامد، والكثير من الشُّجَيْرات التي لا تزال خضراء.

مركز المويه:

مررنا بمركز (المويه) وهو قصر مربَّع الشكل به أربعة أبراج في جوانبه الأربعة، يبلغ ارتفاع جدرانه نحو أربعة أمتار، فيه أمير ومجموعة من (الخويا)، وبداخله كمية كبيرة من صناديق محتوية على تنكات البنزين، وبعض براميل الزيت، وعلى مقربةٍ منه بئرٌ عذبة الماء.

تزوَّدنا بتنكتين بنزين إضافية، ثم واصلنا سَيْرنا معتذرين لأمير القصر الذي ألحَّ علينا بأن يستضيفنا للغداء لديه ذلك اليوم، وبدلاً أن نستجيب له منحناه بعضاً مما في سيارتنا من فاكهة وحلوى، وقد سُرَّ بذلك.

واصلنا السير ولا أذكر أسماء الأماكن التي اجتزناها خلال سيرنا، ولكني لاحظت أنَّ السائق كثيراً ما ينحرف عن اتجاه سيرنا يميناً أو يساراً، ثم يتَّجه مرةً أخرى إلى خط السير، متَّجهاً إلى الشرق متجاوزاً بذلك بعض الأماكن الوعرة كمجرى شعيْب أو منحدر من الأرض، مما يدلُّ على أنه رجل ذو خبرة بهذا الطريق.

مزرعة في عمق الصحراء:

لم نتوقف إلا لتزويد السيارة بالبنزين فقط أو للصلاة، أما الأكل فداخل السيارة، وقُبيل الفجر وصلنا إلى مزرعة في عمق الصحراء.

هذه المرزعة عبارة عن أرض منبسطة، فيها بئر وساقية وغرفتين، وسورٌ من الطين يحتضن البئر والسَّاقية والغرفتين المجاورتين لهما، ويوجد بهذا السُّور باب من جهة الشرق، وخارج السور على بعد أمتارٍ بُرْكة ماء تمتدُّ بطول نحو ١٥ ذراعاً تقريباً في عرض ٥ أذرع، وعمق ثلاثة أمتار تقريباً، ويعلو هذه البركة حظيرة من سعف النخل، ومن أعواد الأثل على هيئة جمالون، تعلوها أشجار القرع المعروفة باليقطين.

صوت الساقية يثير الشجن:

وقفنا عند البركة، وكان صوت الساقية يثير الشجن بالنسبة لي، وكان السائق متعباً فقررنا البقاء في مكاننا هذا أمام البركة، ليأخذ السائق قسطاً من الراحة، أما أنا فكما قلت قد استفزّني صوت صرير الساقية الذي سبق أن عبر عنه الشاعر بقوله:

الشاكيات وما عَرَفْنَ صبابةً   الباكياتُ بمدمعٍ سحَّاحِ

عبَّر بصوت الساقية عن البكاء، وعبَّر عما تنزحه من ماء وتسكبه بالدموع، ولذلك وجدتني أندفع إلى حيث توجد هذه السواني، وكنت على بعد بضعة أمتار عنها.

استئذان سائق السواني في مساعدته:

فتحت الباب واتجهت رأساً إلى سائق السواني، ويعرف بنجد باسم «العامل»، وكان يتردَّد بالمنحاة خلف جملين يَسْني عليهما، وكان يسيرُ مُتَثاقلاً، ويبدو أنه كان يغالب النعاس، فاجأته بقولي: هل تبي من يَسْني عنك؟ أي: هل ترغب فيمن يساعدك؟ دُهِشَ الرجل لسؤالي، وأجابني بحدة: من أنت؟ فقلت له: مسافر وعابر طريق، وأحببتُ أن أساعدك إذا ترغب، وهنا استجاب لي، وسلَّمني العصا، وانكفأ نائماً إلى جانب الساقية.

ذكريات عُنيزة:

أطربني صوت الساقية وأشجتني ذكريات السواني، وعادت إليَّ ذكريات عُنيزة. هنا أخذتُ أسوط الجمال بعنف لكي يُسْرِعنَ بالسَّير، فإذا صوت الساقية يتضاعف عنفاً وشدة، وإذا قَذْف الماء من القُرَب يُسمع من بعد.

لم تكد تمضي دقائق حتى فُوجئت بصوتٍ ينبعث من إحدى الغرفتين راكضاً باتجاهي مردداً بعنف: (على هونك على هونك على هونك .الله لا يقويك. أجهدت البَعَارِين، ثم جَذَب مني العصا بعنف، وهنا وقف العامل مذعوراً من نومه، وهنا هدأ الرجل نسبياً عندما شاهد مظهري، وأنني أجنبي، ولستُ بعامله الذي يَشْني.

سألني: من أنا؟ فأجبته إنني أحد أبناء عُنيزة قادمٌ من الحجاز، ذاهبٌ إليها، ورفاقي يأخذون قسطاً من الراحة بجوار البركة، أما أنا فقد أحبَبْتُ أن أساعد العامل، طبعاً أفرغ شتيمته على العامل المسكين لسماحه لي بسياقة السواني، ولم يطلب مني الرفق بالجمال.

معاناة في شرب القهوة!!

ثم إنَّ الرجل طلب مني أن أوافقه على شرب القهوة عنده، وكان النور قد أشرق آنذاك، فلم أرَ بداً من إجابة طلبه، على الأقل أُمضي وقتاً عنده ريثما يتمكَّن السائق وأم قدهي من أخذ قسطٍ من النوم.

أخذني إلى غرفة صغيرة مساحتها حوالي مترين في متر ونصف مبنية بالطين، وتوجد في أحد جوانبها فتحة صغيرة جداً، وهنا أوقد النار وأحضر دلَّة صغيرة، لا يتجاوز طولها الشبر تقريباً، تبلغ سماكة الصدأ عليها ما لا يقل عن ثلاثة سنتيمترات، وضعها بجوار النار، وكان الحطب رطباً لا تأكله النار بسهولة مما تسبَّب في امتلاء الغرفة بالدخان، وكاد أن يوصلنا إلى درجة الاختناق. وكنتُ أفكر في نفسي: لعلي أن أجدَ وسيلةً لإقناعه بالسماح لي بالخروج من الغرفة لأنني اختنقت، ولكنه كان يقسم عليَّ اليمين

تلو اليمين بأنه مسرور وسعيد بلقائي وقبولي ضيافته، وأخيراً سلَّمت أمري إلى الله، وجلست، ولكن على مقربة من باب الغرفة حتى أتفادى الاختناق، وكان ينفخ على النار بثوبه لكي يذكي اشتعالها، وبعد جهد ومشقَّة ابتدأ ماء الدلة يفور، فقلت لنفسي: يا فَرَج الله. ثم أحضر محماساً حديدياً صغيراً ووضع فيه حبيبات من البن، ووضعها على النار يحمسها، ثم أفرغها في حجر ذي قعر مجوَّف أشبه بالمهراس، وأخذ يدقُّها ثم وضعها في الدلة واضعاً معها حبيبات من القرنفل، وصبَّ لي الفنجان الأول من هذه الدلة وكانت الشمس ابتدأت ترسل أشعتها، فدخلت علينا طفلة لا يتجاوز عمرها أربع سنوات، عليها مقطع صغير، وشعرها منفوش بغير انتظام، وعلى صدغيها جديلتان صغيرتان معكوفتان إلى أعلى كذيل العقرب، دخلت وهمست في أذن أبيها بكلمة لم أفهمها، وكانت قادمة من خارج السُّور من جهة البركة.

انتهينا من القهوة واستأذنته في القيام شاكراً له صنيعه إذ قدم لي مع القهوة بضعة تميرات قديمة، وهو ما يسمونه بالقصيم (حَوِيْل)، أي مرَّ عليه عام فأكثر.

تقديم طعام البرسيم للسيارة:

خرج معي مودِّعاً، وسرنا حتى وصلنا السيارة، وإذا أمام السيارة كمية من علف البرسيم، فضحكتُ. فقال لي: أتدري بماذا أخبرتني البنت الصغيرة؟ قلتُ له: لا. قال: إنها تقول أنَّ أمَّها حَصَدت هذا العلف وأحضرته أمام السيارة ظناً منها أنَّ السيارة تأكل العَلَف؛ لأنها لم تسمع ولم ترَ أي سيارةٍ من قبل.

ضحكنا أنا والرجل كثيراً، واتَّضح أنَّ هذه المزرعة تقع في أرضٍ منقطعة منفردة وحدها، بعيدة عن الطرق المعتادة، وتبعد نحو خمسين كيلو تقريباً من جهة الغرب عن قصر ابن اعقيِّل القصر التاريخي المعروف الذي هو على مقربة من مدينة الرس المدينة المشهورة بالقصيم.

مواصلة السَّيْر:

ودَّعنا الرجل بعد أن أهديناه بعضاً مما نحمله من الفواكه والحلوى، ثمَّ واصلنا سَيْرَنا مارِّين بقصر ابن اعقيِّل، فمدينة الرَّس فمدينة البدائع، وبعيد الظهر وصلنا إلى عنيزة حيث انحدرنا عليها من الجهة الشمالية الشرقية المعروفة بـ: (الوَهْلان) وتوليتُ أنا توجيه السائق إلى الطريق الذي يسلكه (فأهل مكة أدرى بشعابها).

حطُّ الرحال في بيتنا بعنيزة:

وصلنا إلى بيتنا في الشُّعيبي بين الصلاتين: صلاة الظهر والعصر، وكان باب البيت مغلقاً. طرقت الباب، فكلَّمتني أختي حصَّة من خلف الباب قائلة: من أنت؟ قلت لها: افتحي. فتركتني متجهةً إلى داخل البيت، ولمّا كان الوقت في تلك الساعة عادةً ما يقضيه الناس في تناول القهوة، بعد صلاة الظهر بعضهم عند بعض، فقد قدَّرت أنَّ أخي حسون لا بد أن يكون في منزلِ أحد أصحابه، ولا بد أنه في طريقه الآن إلى البيت، وقفتُ خلف السيارة مُسنداً إليها ظهري مُرْتدياً مشلحاً جديداً، وثوباً جديداً وكوتاً جديداً، وغترةً جديدة، وحذاءً جديداً، كلها ملفتة للنظر، وما هي إلا بضع دقائق حتى تَوَافَد الصِّبية والأطفال من هنا وهناك، ويدورون حول السيَّارة يشاهدونها مندهشين من رؤيتها، ثم أصبح يتهافت الكبار بحيث أصبحتُ أنا والسيارة محاطين بمجموعة من الناس ما بين كبار وصغار.

لقائي باخي حسون:

وبعد نحو ربع ساعة تقريباً إذا بي أشاهد أخي حسُّون مُقْبلاً من خلف مسجد الشعيبي، المقابل لباب دارنا من جهة الشمال، وعندما رأى الحشد الموجود أمام باب بيته أقبل مُسرِعاً مذعوراً، ثم دار على السيارة وأنا ما زلت على وضعي السابق، أنظر إليه وأبتسم في نفسي، ثم وجَّه خطابه للحاضرين: (وش هذه؟ ومن جابها هنا؟ ومن هو راعيها؟) فقالوا جميعاً: لا ندري.

وهنا كان لا بد لي من حسم الموقف، فوقفتُ ووجَّهت خطابي إليه قائلاً: هذه وراعيها ضيوفٌ لصاحب هذا البيت، فقال بشيء من التبرُّم والضيق: مرحباً بهم، الله يحييهم.

ويبدو أن شريط ذاكرته عندما طَرَق سمعه صوتي عَرَف الصوت، إذ كنتُ ولا زلت أمتاز بميزة معيَّنة تتجلَّى في اللثغ في لساني، استرجَعَتْ ذاكرته الصوت، فشَخص إليَّ ببصره، ولكنه رأى أمامه إنساناً بشكل آخر غير أخيه إبراهيم الذي يعرف صوته، وكنتُ آنذاك قد كبرت، وبلغت سنَّ الرُّشْد وتغيَّرت ملامحي إضافة إلى شكل ملابسي المتميِّزة، وهنا قال: أنت مين؟ قلت له: ألم تعرف الصوت؟ قال لي: لا. قلت: أنا أخوك إبراهيم، وهنا تمَّ العناق على مشهدٍ من كافة المتفرجين، ثم إنَّ (أم قدهي) وصفت لأخي حسون بيتها، وكانت تسكن في محلة (الجُدَيِّدة) بعنيزة بجوار قبة السناني المجاورة لمسجد الجِدَيِّدة من الشمال. فأرسل أخي معها في السيارة شخصاً يدعى إبراهيم الدبيبي، كان شاباً من أسناني، أرسله في السيارة بعد أن أفرغنا حمولتها في البيت على أن يوصل (أم قدهي) ويعود بالسيارة.

لقائي بأختي حصة:

بمجرَّد دخولنا البيت اجتزنا حوشاً كبيرة، وكانت غرف البيت تقع في أقصى الحوش من جهة الجنوب، وعندما شاهدتنا أختي حصة فرَّت من أمامنا مغلقةً على نفسها إحدى الغرف، وهنا ناداها أخي حسون قائلاً: هذا أخوك إبراهيم.

تفرَّست في وجهي من خلف الباب، ثم أتت إليَّ على استحياء، وغنيٌ عن الشرح ما يحصل في مثل هذا اللقاء.

وفود المرحبين:

ما كادت تجلس معي دقائق معدودة حتى أخذ الباب الخارجي يُقرع بعنف، فذهبتُ إلى أحد جوانب البيت، وذهب أخي وفتح الباب، وإذا بمجموعةٍ من الرجال والصبيان يندفعون إلى الداخل بحجَّةِ السلام عليَّ.

وكلهم جيراننا سكان محلة الشعيبي، بعضهم أعرفه، وبعضهم لا أعرفه، ولكن من لم أعرفه إما أن يقوم أخي حسُّون بتعريفه لي أو الشخص نفسه يعرّف نفسه.

وقد لقيتُ مشقةً وعنتاً ما بعده عنت نتيجة للقيام والقعود، في كل لحظة. ما أكاد أقعد على الأرض حتى أهبّ واقفاً لاستقبال آخرين، وكان من العرف المتبع في هذه المناسبات أن يقوم المستقبَل بضمِّ المستقبِل إلى صَدْره مقبِّلاً إيَّاه، وكنت أتحاشىٰ قدر الاستطاعة التقبيل مكتفياً بمد يدي بالمصافحة لكلِّ قادم، أملاً في أن يكتفي بذلك، ولكن بدون جَدْوى.

تجمُّع الناس حول السيارة:

وأثناء ذلك عاد إبراهيم الدِّبيْبي بالسيارة، وأوقفها أمام البيت بعد أن أوصل (أم قدهي) إلى بيتها، وكان لوجود السيارة أمام البيت ما ضاعف تجمُّع الجمهور حولها، فلم يكن هناك في عنيزة سيارات، وكان باب البيت مفتوحاً، وكل من وقف أمام السيارة دخل إلى البيت.

ضقت ذرعاً بهذا الوضع، وحاولتُ التخلُّص منه، ولكن هيهات إذ ما كدت أبدي تذمُّري لأخي حسون، وأفهمه رغبتي بمغادرة المكان حتى أنَّبني على ذلك قائلاً: هل تترك أناساً يَفِدُونَ للترحيبِ بك، وتختفي عنهم؟ ماذا ترانا سنقول لهم تبريراً لغيابك وأنت قادمٌ للتو؟

صلاة العصر:

سلَّمتُ أمري لله، ومكثتُ في هذا المكان حتى أنقذني منه مؤذِّن المسجد الذي سبق أن بناه المرحوم والدي بالشعيبي والواقع مقابل باب بيتنا حيث أُذِّن لصلاة العصر، فاغتنمت الفرصة وأسرعتُ إلى المسجد.

أتممنا الصلاة، واتّجهت داخلاً إلى البيت وإذا الوضع يتكرَّر كما كان سابقاً بل وأكثر زحاماً. استمررنا في استقبال المهنِّئين، وأكاد أزعم بدون مبالغة أن شفتيَّ قد أوشكتا أن تتورَّما من كثرة التقبيل.

الجلوس مع أختايّ:

كنت أثناء ذلك أفكر: كيف أتخلَّص من هذا الوضع، وهنا خَطَرَت لي فكرة أن أذهب داخل البيت إذ توجد أختاي الكبرى نورة والصغرى حصَّة، إذ لم تتح لي فرصة الجلوس معهما، وفي الوقت نفسه أتفادى مقابلة القادمين.

ظللت نحو ساعة مع أختي، وكان أخي حسُّون ـ سامحه الله ـ خلال ذلك ينادي عليَّ ما بين فترة وأخرى قائلاً: تعالَ، فلان وفلان ينتظرانك للسلام عليك، فاضطررت وأنا أتميَّز من الغيظ للخروج إليهم ومقابلة الوافدين، وهي بلا شك عاطفةٌ نبيلةٌ منهم نحوي، وكان المفروض أن أتغلَّب على عواطفي، وأقابلهم برحابة الصدر، والبشاشة والسرور، ولكن انفعالات النفس لها حكمها.

شريط الذكريات:

كنت أثناء استقبالي لهؤلاء الأخوة أستعيد شريط ذكرياتي بعنيزة، وبطبيعة الحال فإني أعرف شوارعها وأزقتها وأحياءها والكثير من بيوتها أعرفها معرفةً تامةً.

عبدالعزيز جريشان:

وتذكرتُ أنه يوجد الآن بعنيزة شخصٌ من سراة عنيزة ومن حكَّامها السليم يُدعى عبدالعزيز، وينعته أهل عنيزة بـ (جِريشان)، كان هذا الرجل كثير التردد على جدة، وكان حينما يفد إلى جدة يقيم في بيت الأفندي حسين نصيف مدة وجوده في جدة التي قد تدوم أسبوعاً أو أكثر، إذ لا توجد فنادق في جدة آنذاك، ثم كان حين وجوده في جدة يحضر جلسات التجار العنيزيين الموجودين في جدة في ذلك الوقت، وكانوا يجتمعون عادةً في الصباح وبعد الظهر، عند واحد منهم، وهم: إبراهيم الحمد الصنيع، ومحمد السليمان التركي، وعلي العمَّاري، ومحمد الصالح البسَّام، وعبدالله العلي البسام، والعم محمد العبدالرحمن الزامل رحمه الله.

كانوا يجتمعون إما في مكتب الصنيع، أو في مكتب علي العمّاري، أو في بيت محمد السليمان التركي، تم تعرّف ذلك الشخص ـ أعني جريشان ـ على أخي حيث دعاه إلى تناول الغداء لدينا في البيت، فحضر إلينا في الوقت المحدد، وبطبيعة الحال تعارفنا ـ أي هو وأنا ـ وتجاذبنا أحاديث شتى، وكوّن كل منا فكرة واضحة عن الآخر، فأحسستُ بالميل نحوه، والرغبة في إطالة الحديث معه، لِما استبان لي من حديثه أنه على جانب كبير من الثقافة العامة، وخاصةً في التاريخ والأدب، ويبدو أنه أخذ عني فكرةً مماثلة بدليل أنه ظلّ يومياً يحضر إليَّ في المقعد أثناء وجوده في جدة، مما نتج عنه ألفة صادقة بيننا وشعور باحترام متبادل.

كيف تنصّلت من استقبال باقي المُسَلِّمين:

في تلك الساعة التي كنتُ أستقبل فيها المهنّئين فجأةً خطر على ذاكرتي اسم هذا الرجل، فأسرعت بسؤال أخي حسون: أفلان موجود بعنيزة الآن؟ قال: نعم. وصل إليها منذ أسبوع قادماً من البصرة، وهو ـ أعني جريشان هذا ـ مُغرم بالأسفار، ولذا فقد كان دائم التَّرحال ما بين البصرة وبغداد ودمشق والقاهرة وجدة والقسطنطينية، وهذه الرحلات في تقديري هي التي زوّدته بالثقافة التي أشرت إليها آنفاً.

أثناء ذلك أذن المغرب، فاغتنمتُ الفرصة، وودَّعتُ الحاضرين على أساس الصلاة، ولكني بدلاً من أن أحضر الصلاة في مسجدنا دخلت إلى البيت، حيث توضّأت ومن ثم أخرجت من شنطتي كشاف يد ذو خمس بطاريات، اصطحبته معي، وتوجّهتُ إلى مسجد الجُدَيِّدة الذي يبعد عن بيتنا باتجاه الغرب بنحو ألف متر تقريباً، أدركتُ آخر ركعة مع الإمام في هذا المسجد ثم أكملت سيري متجهاً إلى بيت الأخ عبدالعزيز (جريشان).

في منزل الأخ عبدالعزيز جريشان:

ومن حسن الحظ أنني ما كدتُ أقف أمام بيته، وأطرق الباب حتى شاهدته مُقبلاً عليَّ من طرف الشارع قادماً من جامع عنيزة الكبير، بعد أدائه

صلاة المغرب فيه، وهنا كان اللقاء والعناق والترحيب وعاطفة فياضة بالسرور والغبطة، فتح الباب ودخلنا إلى مجلس القهوة.

مجلس القهوة في القصيم:

وعادةً في بيوت عنيزة، وكل بيوت نجد، على ما أذكر، لا بد أن يكون في البيت (قهوة)، وهي مبنى مربع الشكل تبلغ مساحتُه في حدود ثمانية أو عشرة أمتار، في عرض ما لا يقل عن ستة أمتار، وترتفع جدرانه نحو أربعة أمتار، وفي سقفه فتحة أو فتحتين أو ثلاثاً ـ على حسب سعته، يعلو هذه الفتحات لوحات خشبية على هيئة أبواب بحيث تفتح عندما يكون صاحب البيت في المقهى، لكي تكون منفذاً لخروج الدخان الذي ينبعث من (الوجار)، أي: الموقد ثم تغلق.

وعادةً ما يعتني صاحب البيت بالقهوة هذه، فيزخرف جدرانها من الداخل بزخارف جميلة بالجص الأبيض، على هيئة نقوش وزخارف يرتاح إليها النظر. أما القهوة هذه فيوجد في جانب منها حفرة من الأرض بطول متر تقريباً، تنخفض عن سطح الأرض بنحو شبر، وهي مبلَّطة من الجوانب بالطين، يوجد في طرفها الأعلى حدائد أشبه ما تكون بسوست السيارة، ويوجد في طرفها الآخر بناء بطول متر ونصف أو مترين، ذو رفوف بعضها يعلو بعضاً، نُضِّدت على هذه الرفوف مجموعات من الدلال الصفر الجميلة الشكل، المتعدِّدة الأحجام، وأعلى منها مجموعة من الأباريق المتعددة الأحجام.

صنع القهوة:

والطريقة المتَّبعة في صنع القهوة أن يوضع الحطب في الوجار، وبعد أن تشتعل النار فيه توضع على النار دلة كبيرة سوداء، وإبريق نحاس مملوءين بالماء، وموضوعين على الحدائد فوق النار، وهنا يجلس صاحب الدار أمام الوجار، وخلفه نافذة مفتوحة يوجد بها الحطب، وعن يمينه في مقعده هذا المحماس، وهو عبارة عن قطعة من الحديد بطول نحو نصف

متر، ينتهي طرفها بصحن مدور من الحديد، يضع هذا المحماس على النار، ثم يضع في الصحن كمية من حبات البن، ويظل يقلبها على النار، أي: يحمِّصها ويحركها بحديدة أخرى نحيفة تسمى يد المحماس، يظل يقلبها حتى يتغيَّر لون البن وتفوح رائحته، وهناك يفرغه في وسط (النِجر: الهاون) الذي هو عبارة عن إناء من الصِفِر، مجوَّف أصفر اللون، يُستعمل لطحن البن، وذلك بدق حُبيبات البن بداخله محدثاً صوتاً يُسمَع عن بُعد، وكثيراً ما كان هذا الصوت أي: صوت النجر هو الذي يجلب الضيوف والأصدقاء إلى صاحب المحل، وهناك بعد أن يفور الماء في الدلة والإبريق تتم الإجراءات المعروفة بصنع الشاهي والقهوة، ثم يتحلَّق الحاضرون حول الوجار إذا كانوا محدودي العدد فيتناولون فناجيل الشاهي والقهوة من يد الجالس أمام الوجار، والذي يعرف مكانه باسم (المحكمة).

وتكون غرفة القهوة قد فرشت برمل أحمر ناعم يسمونه (سِهْلَة)، يُجلب من النفود خارج عنيزة.

أما قهاوي السراة والأثرياء فعادةً ما تفرش الأرضية بقطع من الزل، أو البسط الفاخرة، وتكون جوانب القهوة قد مُدَّت عليها المساند المريحة.

دخلنا إلى القهوة أنا وعبدالعزيز، وقد فاجأني عبدالعزيز بقوله: ما أسعدها من فرصة! أنت هبطت عليَّ من السماء. قلت له: كيف؟ قال: إنني عازم الأمير عبدالعزيز العبدالله السليم ـ أمير عنيزة آنذاك ـ عازمه على القهوة عندي بعد صلاة العشاء، وهذه فرصة ثمينة لك لكي تتعرَّف عليه وتتجاذب معه الحديث، طبعاً كنتُ أعرف الأمير ولكن بطريق السمع، إذ لم يسبق لي أن رأيته، أو جلست معه.

شرعنا نتجاذب أطراف الحديث وإذ كنتُ متهيباً من لقاء هذا الرجل، أعني الأمير، فقد رجوت من مضيفي أن يعفيني من هذا اللقاء، ولكنه أصرَّ على أنه لا بد من بقائي ومقابلته.

تناول طعام العشاء:

بعد دخولنا بنحو ربع ساعة إذا بطفل صغير يأتي إلينا من داخل البيت

ويقول لنا: تفضلوا العشاء، فقمنا إلى صالون فسيح بجوار القهوة، وإذا (بمُوقَعة) أي: إناء من الخشب مجوَّف يوضع فيه الطعام موضوعة على سفرة من الخوص، وهذه (الموقعة) هي المعروفة لغوياً بالقصعة، وجدناها مملوءة بما لذَّ وطاب: مطازيز، وفقع، ولحم؛ وإذ كنتُ جائعاً والطبخ كان جيداً، فقد أكلت بنهم لا مزيد عليه.

رُفعت السفرة وبعد غسيل أيدينا من بزبوز مثبت بالجدار بجواره قالب من الصابون النابلسي ومنشفة يد معلقة، وهذا يدل على تحضُّر هذا الرجل.

اللقاء بأمير عنيزة:

في الوقت المحدَّد، أي: بعد صلاة العشاء الذي مرَّ علينا الوقت فيه دون أن نشعر، وإذا باب القهوة يُقرَع من الخارج، وبالمناسبة فإن كل مجالس القهوة في بيوت القصيم يكون لها بابٌ مستقلٌ على الشارع، وهو غير الباب الرئيس للبيت.

ذهب الصبي وفتح الباب، فدخل علينا رجل أسمر اللون، متوشِّحاً سيفاً على جنبه، وأعلم مضيفي بأنَّ الأمير في طريقه الآن إليه، وقد علمت أن هذا الرجل وهو أحدَ إخْوَيا الأمير الخاصين يُدعى: قلان الشحيتان.

ما هي إلا دقائق حتى أقبل الأمير، فوقف مضيفي ووقفتُ معه، واتَّجهنا إلى الباب، وقام هو باستقبال الأمير، والترحيب به، وكان الأمير بتقدم وخلفه أربعة من الرجال يحمل كل منهم سيفاً مذهباً، يضعه على جنبه، بطبيعة الحال تلطَّف مضيفي، فعرَّف الأمير عليَّ، بعد أن كنت صافحته وسلَّمتُ عليه، ثم جلس الأمير متكئاً على شداد كوِّر عليه جاعد من الصوف، وبجواره مخدات من الريش.

جلس الأمير على قطعة من الزَل الكاشاني الممتاز، سألني الأمير بعض الأسئلة العابرة عن الحجاز وعن الموجودين في جدة من أهل عنيزة، وكنت أجيبه بتحفظ، وقد فهمت منه أنه يعرف أسرة الحسون معرفة جيدة، يعرف منها جدي حسُّون المحمد رحمة الله عليه، وأبي محمد، وأعمامي

حمد وعلي، وكذلك أبناء عم أبي حَمَد إبراهيم الحسون، وعبدالله إبراهيم الحسون، وقد فهمت فيما بعد أن معرفته بهؤلاء نتجت عن حادثة مشهورة حدثت بعنيزة وانتشر خبرها في كل بيت.

قصة عبدالله الإبراهيم الحسون مع أمير عنيزة:

وإيضاحاً لموضوع تلك القصة فإني، وإن كنت لم أشهد وقوعها، إذ تمَّ وقوعها قبل مولدي بعدة سنوات، وإنما سمعت تفاصيلها من أفواه الكثير من أسرتي وأعمامي، وفي مقدمتهم والدي وعمِّي حمد والكثير من الجيران، وملخّص موضوعها كالآتي:

كان ابن عم والدي المدعو عبدالله الإبراهيم المحمد الحسون رجلاً يمتهن التجارة، كثير الأسفار ما بين عنيزة والكويت وبغداد والبحرين، وفي أثناء أوبته إلى عنيزة، في إحدى السفرات قدَّم له أحد مواطنيه وكان مقيماً في بغداد أو الكويت، لا أذكر، قدم له حينما علم بنيته السفر إلى عنيزة من تلك المدينة، قدّم له صرَّة صغيرة تحتوي على بعض النقود الذهبية التي لم يذكر عددها، طالباً منه ذلك المواطن تسليم هذه الصرَّة إلى أسرته في عنيزة، أي أسرة المواطن.

صُرَّة ذهبية:

وقد حمل هذه الصُرة معه واضعاً إياها داخل مزوده في خرج راحلته التي كان يمتطيها، دون أن يعرف مقدار الكمية الموجودة في الصرَّة، وإنما فهم من المرسل أنها تحتوي على بضع نقود ذهبية.

حينما وصل هذا المسافر إلى عنيزة أناخ بعيره أمام باب منزله، وعليها الخرج الذي توجد بداخله المزودة التي وضع فيها الصرَّة، أناخ بعيره وأسرع إلى داخل منزله لتحية أهله فرحاً بوصوله إليهم، ثم بعد مدة قد تكون ساعة أو أكثر عاد إلى راحلته فحمل الخرج من ظهرها وأدخله إلى بيته.

في ذاك اليوم الذي وصل فيه قرع بابه صاحب صرة النقود المرسلة معه. سأله: لنا معك صرة نقود مرسلة من فلان، قال: نعم، انتظر آتيك

بها. دلف إلى داخل الدار، وكم كانت دهشته حينما فتَّش الخرج فلم يجد تلك الصرَّة!! أخذ يفكر أين ذهبت، ويعلِّل نفسه بشتى الأماني ومع ذلك فرغم البحث المضني الدقيق لم يجدها، وكان في بادىء الأمر قد خرج إلى صاحب الصُّرَّة الواقف أمام الباب، وطلب منه أن يعود إليه في الغد لكيما يبحث عنها، مؤكِّداً لهذا الشخص أنه فعلاً تسلَّم تلك الصرَّة من المرسِل.

اتهام بالخيانة:

عاد في اليوم الثاني إليه، ولما لم يجدها، فقد أوضح له أنها فُقِدت، ومع ذلك فإنه مستعد أن يدفعها له إذا أعلمه بمقدار موجودها، إلا أن ذلك يحتاج إلى مدة لا تقل عن أسبوع لكي يستدينها من الأصحاب ويدفعها، بيد أن صاحب الصُّرَّة لم يقتنع برواية الرجل، واعتبرها خيانة منه لأمانة أرسلت معه، وعلى الفور ذهب صاحب الصُّرَّة إلى أمير عنيزة آنذاك عبدالعزيز العبدالله السليم شاكياً الرجل، ومتهماً إياه بالغدر والخيانة.

حضوره أمام الأمير:

وفي الحال أُحضر الرجل ناقل الأمانة، وهو عبدالله الإبراهيم المحمد الحسون، أحضر أمام الأمير، وبسؤاله عن مصير الصرَّة من قِبل الأمير، اعترف له بكل صراحة أنه فعلاً استلم صرَّة من فلان حين نوى القدوم إلى عنيزة من البلد التي كان قادماً منها لكي يسلِّمها إلى قريب هذا المرسل في عنيزة، موضِّحاً للأمير أن الصرَّة مدار البحث بعد تسلمها من المرسل وضعها في مزودة داخل الخرج الذي كان على ظهر راحلته التي قدم بها إلى عنيزة، لم يقتنع الأمير بهذه الإفادة المفصَّلة، وهذا الاعتراف الصريح باستلامه للصرة، وبأنها فقدت وهو مسؤول عنها بدون شك، ويطلب مهلة بضعة أيام كيما يجمع له قيمة هذه الصرَّة حسب ما يذكر عددها المرسَل إليه كيما يجمعها ولو بالدَّين.

أصرَّ الأمير بشيء من الحنق والغيظ، وأمر بأن يُحبس عبدالله الإبراهيم المحمد الحسون هذا داخل السجن.

تعذيب المتَّهم:

في اليوم الثاني عندما اكتظ المسجد الواقع بجوار جامع عنيزة الكبير، وهو عادةً يكتظ الناس فيه بعد صلاة العصر، حيث يجلس الأمير وأخوياه على مقاعد من الطين مخصصة لجلوسهم.

كان الأمير قد أمر رجاله بأن يُحضِروا في هذا المكان، بعد العصر مباشرة كمية من جريد النخل الأخضر ويسمى: (رطيب)، بعد صلاة العصر من ذلك اليوم، وبعد أن اكتظَّت الساحة بالجمهور، وكان الجريد قد أُحضر تحت أقدام الأمير.

أمر الأمير أن يؤتى بابن حسون هذا مكتوفة أيديه خلف ظهره ثم بُطح على الأرض على مقربة من أقدام الأمير، وأمر الزبانية بأن يتعاقبوا على جلده بهذا الجريد الضخم، وهو يحلف بأغلظ الأيمان على براءته ولكن هيهات، ظلوا يتعاقبونه بالضرب حتى تكسَّر عدد من الجريد، وحتى غاب عن وعيه، وصار لا يحسُّ بالضرب، فسُحب من رجليه سحباً على الأرض، وأودع السجن مرة أخرى ولم يكن السجن بعيداً عن موضع الضرب أكثر من عشرة أمتار تقريباً.

إصرار الأمير على اتهامه بالغدر والخيانة:

كان الجمهور الواقف الذين كانوا يشاهدون الضرب، والذين عرفوا من هو المتهم، أخذوا يصرخون بأعلى أصواتهم أن ابن حسون هذا مظلوم وأنه بريء، وأن ما يعرفونه عنه من التديُّن واستقامة الخُلُق ينفي عنه مثل هذه التهمة، ولكن هيهات، لأنَّ الأمير كان مقتنعاً بغدره وخيانته.

في اليوم الثاني وفي المكان والوقت نفسه أعيد المشهد مرةً أخرى، وكان المتَّهم قد استعاد وعيه، وإن كانت جراحه، وأجزاء جسمه لا زالت تنزف بالدماء، أعيد المشهد مرة أخرى وتمَّت العملية نفسها التي تمَّت بالأمس، ثم أعيد للسجن.

خلال ذلك تنادى الكثيرون ممَّن لهم معرفة بهذا الشخص المتَّهم، وذهبوا إلى الأمير طالبين منه إطلاق سراحه واستعدادهم بأن يدفعوا حالاً ما

بداخل الصرة المفقودة مهما بلغ مقداره في الحال وبدون تردد، إلا أن الأمير استمر في إصراره وعناده، على أن يستمر بجلد المتَّهم إلى أن يحضر الصرة نفسها أو يموت تحت الضرب.

تدخُّل القاضي صالح العثمان:

أسرع أولئك الغيورون إلى قاضي عنيزة آنذاك المرحوم صالح العثمان القاضي، وشرحوا له الوضع موضِّحين له أن الضحية ـ وأعني به المتَّهم ـ مظلوم، وأنه لو كان يريد الخيانة لما كان اعترف بوجودها معه.

تدخَّل القاضي مع الأمير، وطلب منه إطلاق سراح المتهم، طالما أنَّ هناك جهات ستدفع قيمة الصرة، ومع ذلك كله فقد ركب الأمير رأسه، وأصرَّ في لجاجته وحقده، وأبقى المتَّهم في السجن مدة أربعة أيام كيما يستعيد وعيه، ثم كرر عملية الضرب معلناً أنه لن يرفعها حتى يحضر هذه الصرة أو يموت تحت الضرب.

كان موقف الأمير هذا شاذاً، ومثيراً للاشمئزاز والاستنكار، وكان حديث مقاهي مدينة عنيزة ومجالسها، طيلة تلك المدة.

كشف السارق:

وبعد مضي ما يقرب من عشرين يوماً حضر إلى الأمير في مجلسه، وكان يشرف على عملية الضرب رجلٌ كان خارج عنيزة يقيم في الوادي، وكان حديث الناس هو قضية ابن حسون هذا، وكان هذا الرجل قد مرَّ من أمام بيت المتَّهم ابن حسون في ذلك اليوم الذي قدم فيه من السفر ـ وأعني به ابن حسون ـ، وكانت بعيره أمام باب منزله وعليها الخرج، وأنه ـ أي هذا الرجل ـ وكان يسير في الطريق باتجاه بيت ابن حسون قد شاهد شخصاً يدعى (ابن إيحِيوي) شاهد هذا الشخص يدخل يده في الخرج الموضوع على البعير، ويستخرج منه صُرَّة يأخذها على عجل وينصرف، كانت هذه الشهادة أشبه بقنبلة فجرت غضب الجماهير، كما كانت لطمة بالغة العنف لغطرسة الأمير وغروره.

ابن إيحيوي:

كان الرجل الشاهد هذا يجهر بصوته لكي يُسمع الجماهير الحاشدة التي كانت تشاهد المتَّهم مُمَدَّداً على الأرض مثخن الجراح، وهنا صاحت الجماهير الغاضبة: (ابن إيحيوي) يكررونها، فلم يسع الأمير إلا أن يرسل في طلبه، وكانت أقسى صفعة وُجِّهت للأمير أن يكون (ابن إيحيوي) هذا هو أحد إخويا الأمير، ومن جلسائه المقرَّبين.

اعتراف السارق:

جيء بابن إيحيوي هذا، وشُرع بالتحقيق معه وأنكر في بادىء الأمر، ثم لم يلبث أن اعترف بمجرَّد أن مُدِّد على الأرض وشُرِع في ضربه، هنا اعترف بوجود الصرة عنده، وأنه أخذها من الخرج، وهنا أُرسل مخفوراً إلى بيته فأحضرها.

الإفراج عن المتَّهم:

عند ذلك أُفرج عن المتهم ونقل إلى داره حيث مكث عدة شهور لا يستطيع القيام نتيجة لما لحقه من الضرب.

حاول الأمير عبدالعزيز العبدالله السليم، بعد أن أُسقط في يده، وظهر الحق، حاول بشتى الطرق أن يستحلَّ عبدالله الإبراهيم المحمد الحسون هذا، وأن يسامحه، وأن يعفو عنه مقابل أي مبلغ من المال يريد، بيد أن ذلك لم يتم، إذ كان جواب المتهم هذا بأني سأقف معك غداً بين يدي الله، وسآخذ حقي منك، وبذلك أسدل الستار على تلك القضية.

(شرقي) الحسود يقع في الشرك:

أديرت القهوة، ثم تلاها الشاهي، وكان من ضمن إخويا الأمير رجل يدعى (شرقي) وهو معروف بداء الحسد ومكروه من المواطنين؛ لأنه بذيء اللسان، ويميل إلى الشر أكثر من ميله للخير، وكنت أعرفه معرفة جيدة قبل

خروجي من عنيزة، فقد كان كثيراً ما يحضر إلى مزرعتنا في عنيزة، قبيل المغرب في كثير من الأيام، هو والمرحوم محمد الفهد الحمدان، والمرحوم عبدالعزيز الريس.

كانوا يحضرون إلى المزرعة (مسيّان) أي: قبل غروب الشمس بنحو ساعة، ثم يجلسون إلى جانب البركة، يتجاذبون أطراف الحديث حتى يؤذَّن للمغرب، فيؤدون الصلاة في مسجدنا بالشعيبي.

وكانوا عند حضورهم ينادونني، فأذهب إليهم، وهم جالسون على الأرض متكؤون على حافة البركة، فيطلبون مني أن أؤذن لهم إذ كان عمري آنذاك يتراوح ما بين أربع سنوات إلى خمس سنوات، وكانوا يتلذذون، ويتفكهون من صوتي بالآذان لأنني (ألثغ)، بيني وبين نطق حرف الراء خصومة وما زالت.

تِفليسية:

وكنت أتقاضى مقابل ذلك منهم (تِفْلِيسية) وهي قطعة نحاسية صغيرة من العملة العثمانية، مكتوب عليها «ضرب في القسطنطينية» وهي تساوي هللة تقريباً.

من أجل ذلك كان شرقي هذا عندما رأى هندامي، ومظهر لباسي الذي كنت أرتديه عزَّ عليه أو أثاره الحسد أن يكون الطفل إبراهيم الحسون الذي كان يؤذِّن له بتفليسية لابساً ثوباً من الخام: يصبح مرتدياً هذا الزي الراقي، وبدافع من طبيعته الشريرة أراد أن يغمز قناتي وأن يسخر مني، وأن يتَّخذ مني وسيلة لإضحاك الأمير عليَّ، إذ أنه وعلى غير انتظار وبدون أي مناسبة أو مُقدِّمة، وجَّهَ خطابَهُ إلى الأمير قائلاً: يا طويل العمر! هذا إبراهيم الحسون وُلَيْد راعي الشعيبي، وكان يؤذن لنا ونعطيه تفليسية، وهو قادم الآن من الحجاز ويقولون: إنه دخل المدرسة هناك، ويعلمونهم الجغرافيا، وأنَّ الأرض يا طويل العمر تدور، فماذا ترى يا طويل العمر أن نطلب منه أن يخبرنا كيف تدور الأرض؟

كيف تدور الأرض؟

وكان الأمير مضطجعاً آنذاك، فاعتدل في جلسته وقال هازّاً يده: بلى بلى، إيه بالله نبيه يعلمنا، هيا خبرني يا إبراهيم كيف تدور الأرض؟ وهنا كان الوضع لي في غاية الإحراج والارتباك، بل والحنق والغيظ من هذا الخبيث وهنا أجبت الأمير بأن يسمح لي قبل أن أشرح له ما طلبه خويه شرقي، يسمح لي بأن أمتحن أنا شرقي أولاً، وأسأله بعض الأسئلة لكي أتأكد من فهمه، حتى أقتنع بأنه جديرٌ بأن يفهم ما سأشرحه له، وإلا فلا فائدة من أن أكلِّف نفسي الشرح لمن لا يفهم.

أجاب الأمير: نعم نعم عندك إياه، اسأله.

اختبار الشرقي:

وهنا وجهتُ السؤال إلى شرقي قائلاً له ما نصه: أنت تسألني عن كروية الأرض، وهل هي تدور أم لا، وأنا لن أجيبك حتى تجيبني أولاً على سؤالي الذي هو: لو طلب منك مجادل كيف تفرق بينك وبين الحمار، أي بمعنى: ما الفارق بينكما طبعاً أنت مخلوق وهو مخلوق، وكل ما هو موجود في جسمك موجود في جسمه إذاً ما الفرق بينك وبينه؟

وهنا أخذت الأمير نشوة من الطرب، وأخذ يضحك، ويرفع رجله ويضرب بها الأرض، ويقول مخاطباً شرقي: وقعت بسوء فعلتك. لطالما نصحتك من التعرُّض للناس، هيّا هيّا أجبه.

وهنا قال شرقي وسط ضحكات الحاضرين وعلى رأسهم الأمير: الفرق بيني وبينه أنه هو حمار وأنا آدمي.

أجبته: أنني لم أقل غير ذلك إنما أسألك: ما هي الميزة أو العلامة التي تُميِّزُك عن الحمار، أنت عندك رأس، وهو عنده رأس، جوارحك الموجودة هي عنده الشيء نفسه. أجاب: أنا رأسي مرتفع إلى أعلى، ورأس الحمار ممتد إلى الأمام متدلياً إلى الأرض، أجبته بأنَّ حكمة الخالق اقتضت

أن يكون لكلٍّ منكم شكله الخاص، ولكن جميع العناصر والمميزات مشتركة بينكم.

قال: الحمار له ذيل، وأنا لا يوجد عندي شيء، أجبته بأن ذيل الحمار وضعه بالنسبة لجسمه لكي يذب به ما قد يعلو جسمه من حشرات، أما أنت فيوجد لك ذيل يتسق مع تكوينك الجسماني، وهو آخر فقرة من عمودك الفقري وهو الذي يعرف بالعُصْعُص.

كان الأمير والحاضرين يكادون أن يُغشى عليهم من الضحك، وهو يخبط برجله على الأرض قائلاً: أجبه أجبه.

أخيراً قال بشيء من الفرح ونشوة النصر: أنا عندي عقل، والحمار ما عنده عقل، قلت له: بالعكس أنا أثبت لك أنَّ الحمار عنده عقل ولكن بالنسبة لتكوينه الجسماني.

قال: أثبت ذلك. قلتُ: لو وقفت أنت بطرف الشارع، ووضعنا حماراً في الطرف الآخر وناديت الحمار، فهو بطبيعة الحال لا يجيبك، ولكن لو وضعنا مكانك حمار ونهق هذا الحمار لأجابه الآخر بنفس النهيق دليلاً على أنه عرف لغته وعقل نداءه.

قال: هذا ليس بكافٍ. قلت: إليك الدليل الآخر لو حفرنا في وسط زقاق ضيق وليكن عرضه متر واحد تقريباً حفرة، عمقها مترين، ثم أتينا بحمار بعد أن منعنا عنه الأكل لمدة يومين أو ثلاثة ووضعنا في هذه الحفرة كمية من البرسيم، ثم جئنا بهذا الحمار، وشاهد العلف في الحفرة هل يقفز إلى الحفرة أم يمتنع؟

هنا صاح الأمير: بل يمتنع يمتنع. قال: إذاً يا طويل العمر هذا دليل العقل، ولو لم يكن لديه عقل لقذف بنفسه داخل الحفرة لشدة ما يعانيه من جوع.

كانت كلمات السخرية تنهال على شرقي من إخويا الأمير كانوا يوجهون إليه الكلمات اللاذعة، ويبدو أنهم يتشفَّون منه، وهنا قال شرقي: يا طويل العمر فُكَّني من ابن حسون.

فوجّهت الخطاب إلى الأمير قائلاً له: يا طويل العمر ما دام لم يستطع شرقي أن يفرق بين نفسه وبين الحمار، فكيف يعرف دوران الأرض وكرويتها؟

قال لي: صدقت، وإذا كان شرقي عجز عن الجواب فأنت أخبرنا عنه. أجبته بأنه لا يوجد أي ميزة أو فارق يميِّز بين المخلوقات الحية ذات الروح، إذ كل الأجهزة الموجودة في أيِّ حيوان موجودة في الآخر، بل إن الميزة التي يمتاز بها الإنسان عن الحيوان جاءت من خارج التركيب الجسماني في تكوين كل منهما، جاءت خارجة عن ذلك مُضمَّنَةً في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ الآية.

انتهى المجلس على هذا الشكل المضحك بحيث أن شرقي قد خنس، ولم يفه بكلمة، بينما كانت وخزات ولمزات الخويا وضحكاتهم تنهال على رأسه، وبذلك أُسدل الستار على سؤال شرقي، من حيث كروية الأرض وكيفية دورانها.

بعد ذلك هبَّ الأمير واقفاً، وتبعَهُ رجالُهُ، والمُضيِّف وأنا، ودعناه حتى الباب الخارجي، ثم عدنا أنا ومضيفي إلى حيث كنا نتجاذب الحديث ونعيد الذكريات، وظلِلْنا على هذا الحال حتى الهزيع الأخير من الليل، وكنت أحاول بين فترة وأخرى الاستئذان منه، ولكنه يصرُّ على بقائي معه، وأخيراً سمح لي، فودعته على أمل أن نلتقي غداً صباحاً بعد طلعة (القَرّايَة) يعني: إلى وقت خروج الطلاب من كتاتيبهم، أي: حوالي التاسعة صباحاً بالتوقيت الإفرنجي تقريباً، نلتقي في دكان عمي صالح العبدالله الحسون، وهو في الواقع ابن عم والدي، ولكننا ندعوه بالعم تكريماً له.

العودة من دار عبدالعزيز جريشان:

عدت من دار مضيفي التي تقع في غرب عنيزة، مقابلةً حائط (مزرعة) البرغوش، سرت في هذا الشارع متجهاً من الغرب إلى الشرق حيث محلة الشعيبي الذي توجد دارنا فيها، وتبلغ المسافة بين دار مضيفي ودارنا بنحو

كيلومترين تقريباً. سرت بذلك الشارع ماراً بالعَقِيْلِيَّة فسوق الخياط فالجِدَيْدة فالمِسْهِريَّة فمحلة الشعيبي.

إتريك اليد:

كان إتريك اليد ذو الحجار الأربعة ينير لي الطريق على امتداده، إذ كان الظلام حالكاً في الأيَّام الأخيرة من الشهر.

نبل شقيقتي نورة:

دخلتُ بيتنا، وكنت أظنهم جميعاً مستغرقين في النوم، ولكن كم كانت دهشتي عظيمة حينما وجدتُ أختي نورة رحمة الله عليها تهبُّ واقفة لاستقبالي وقد خجلتُ من نفسي إذ قدرتُ أنني السبب في أن تظلَّ سهرانة إلى هذا الوقت، لم تُسمعني أي كلمة عتاب، وإنما أسرعت إلى سفرة من الخوص وضعتها أمامي، ثم وضعت عليها قصعة (مُوَقَعة) من الخشب ممتلئةً بالمطازيز واللحم واللوبا والجبا، أي: الكوسة. بطبيعة الحال كانت أكلة شهية، وهي فخورة بها لتقدمها إلي، ولكن هيهات، كنتُ قد ملأتُ بطني في بيت مضيفي، الذي كان قد أحضر لي قبل مبارحته لداره صينية عليها الكثير من أنواع الحلوى، أكلت منها حتى شبعت.

تظاهرت أمام شقيقتي برغبتي للأكل تطييباً لخاطرها، وأخذت ألحُّ عليها بعنف بأن تقوم الآن إلى فراشها، وأفهمتها بأنني لن آكل ما لم تقم إلى غرفتها لتنام، فاستجابت للطلب، وبعد ذلك نحيَّتُ القصعة جانباً ووضعتُ السفرة عليها.

أذان الفجر:

كما ذكرتُ فإنَّ المسافة التي تفصل بين بيتنا وبين مسجد الشعيبي لا تبلغ عشرة أمتار، فما كدتُ أستلقي على فراشي حتى لَعْلَعَ صوت المؤذن بأذان الفجر، وهنا سمعتُ أخي حسون ينادي عليَّ خارج الغرفة ظناً منه أنني نائم ينادي قائلاً: الصلاة يا إبراهيم، فنهضت قائماً وتوضأت، وذهبت

إلى المسجد حيث أدينا صلاة الفجر، وكان أهل المحلة جميعهم حاضري الصلاة.

بعد انتهاء الصلاة وفي برحة المسجد، أقبل عليَّ الجيران ممن لم يكن حضر في اليوم السابق، يهنؤوني بسلامة الوصول، ولا تسأل عن الضم والتقبيل.

ما كدت أتخلص منهم وأغادر المسجد، وكان المفروض أن أتَّجه إلى البيت، فقد كان هناك إبريق الشاهي، وإبريق الحليب وقرصان الفتيت والكليجة، ورطب السكرية، ودلة القهوة، وكلها أشياء محبَّبة.

صدى الطفولة وشجو الذكريات:

بدلاً من اتجاهي إلى داخل البيت وجدتُ نفسي أندفع مُسرعاً باتجاه أزقة بيوت الشعيبي أطوف بها، وأتفقَّد بيوتها بيتاً بيتاً بدافع غريزي لا أعرف سببه، اللهم إلا أن يكون صدى الطفولة، وشجو الذكريات، ثم إذا بي أندفع إلى حي المَلاح، ثم إلى حي الدغيثرية، ثم إلى حي القاع، ثم إلى حي الهفوف، ثم إلى حي الجِدَيْدَة، ثم حي السويطي، ثم مزرعة الضُيبي، وهي التي أنشأها المرحوم جدي حسون، وَوُلد وترعرع فيها، والدي محمد وأخوانه، ثم عدتُ إلى البيت في الشعيبي، وقد استغرقت رحلتي هذه سيراً على الأقدام نحو ساعتين، وقد وجدتُ أخي حسون ينتظرني في القهوة وهو في أشد الضيق والتبرُم، وهو معذور في ذلك، حيث لم أعلمه بجولتي هذه عند خروجي من المسجد، على كلٍ اعتذرتُ له، وأوضحت له خطئي، مبدياً أسفي واعتذاري.

كان السائق موسى عرجة منذ عودته يوم أمس، بعد أن أوصل والدة القدهي إلى مسكنها مع الدليل إبراهيم الدبيبي، غارقاً في النوم لا يكاد يصحو إلا للأكل فقط ثم ينام، وإذ كانت السيارة تحمل الصندوق الخشبي الذي يحتوي على رسائل، وصرر أخواننا العنيزيين في مكة المرسلة معي لذويهم في عنيزة.

حمل صندوق الأمانات إلى دكان عمي:

كنت غير متأكد من وصول السيارة فيما لو انتقلت بها إلى دكان عمي صالح العبدالله الكائن بسوق الجديدة، نظراً لوجود السلسلة، وهي ذات درجات أربع يتعذر على السيارة اجتيازها، فقد أبقيت السيارة في مكانها، واستعنت بأحد الموجودين بأن يحمل هذا الصندوق على رأسه، ويذهب معي سعياً على الأقدام إلى دكان عمي.

استأذنت من أخي حسون، موضّحاً له أنَّ هذه أمانات معي يتوجَّب عليَّ أن أذهب بها إلى دكان عمي صالح، إذ كنت أجهل أصحابها، بينهما هو يعرفهم معرفة جيدة.

دكان عمي في عنيزة:

وصلنا إلى دكان عمي، وكان قد فتح دكانه قبل وصولنا بدقائق، فأنزلنا الصندوق داخل الدكان بعد أن نفحت حامله بما يرضيه.

كان الدكان شأنه شأن بقية الدكاكين بعنيزة يرتفع عن الأرض بنحو ذراع أو أكثر مبني من الطين، وكل مكان يفصله عن الآخر حاجز صغير من الطين، بحيث يتسع الفضاء الموجود أمام الدكان لجلوس نفرين أو ثلاثة على الأكثر في مقدمة الدكان.

أمّا الدكان فيبلغ عمقُه نحو ثلاثة أمتار في عرض مترين تقريباً، وارتفاع سقفه نحو مترين أيضاً، ومحتوياته هي أعداد محدودة من طيق القماش الخاص بالنساء ذات الألوان المتعددة، ومثلها بعض قطع الخام الأبيض، وبعض الشمغ والعبايات والأحذية، وموجودات أخرى ليست بذات أهمية، وأقدِّر تقريباً أنَّ موجودات الدكان قد لا تتجاوز قيمتها المائتي ريال.

كان عمي من أوائل الأشخاص الذين حضروا إلى دارنا مساء أمس للترحيب بي، وظل موجوداً معي مدة طويلة. أفهمته بقصة الصندوق هذا، وكنت وضعت على الصندوق قفلاً صغيراً احتفظت بمفتاحه معي نظراً لوجود صرر النقود فيه.

أفهمت عمي بعد أن سلَّمته مفتاح القفل بأن بداخل هذا الصندوق كمية هائلة من الرسائل، ومن صرر النقود، ورجوته بأن يكفيني مؤنة تسليمها لأصحابها، نظراً لجهلي بمعرفتهم، ولأنه هو سيعرف صاحب الرسالة وصاحب الصرة بمجرد الاطلاع على الأسماء.

كان هو بداخل الدكان، وكنت أنا جالساً على (الحِبْس) أي: دكة الدكان، وإذ كنت أتجاذب أطراف الحديث معه كنت أتخيل أن البلد خالية من السكان، وسبب ذلك أني كنت أشاهد الشارع أمامي تمضي دقائق قبل أن يمرَّ به مخلوق، وكان المارة قلة وأكثرهم (روّايات) أي: نساء يحملن القُرب على ظهورهن، لجلب الماء لبيوت الموسرين من آبار حلوة معيَّنة معروفة بعنيزة، وهما بئران أحدهما يسمى الحويطة، والآخر يسمى القُسِيمْ، ويبعد أحدهما عن الآخر بنحو ثلاثمائة متر تقريباً، ويقعان جنوب عنيزة.

فضول من بعض أهل عُنيزة:

كنت جالساً على الدكة أرتدي مشلحي الجديد الأسود، وثيابي البيضاء البفتة، وتعرف هناك باسم ثوب الزهور، وشماغاً جديداً، وعقالاً وأحذية جديدة، وأحسب أن مثل هذا اللباس لا يمكن أن يثير أي اهتمام، ولكن الذي شاهدته عكس ذلك فقد لاحظت أن كثيراً من الأفراد بما فيهم الروَّايات حين عودتهنَّ بعد إفراغ قربهنَّ عندما يمررن من أمامي ويبتعدن عني بضع خطوات إذا هنَّ يلتفتن إليَّ ويتهامسن فيما بينهن، ولم أعرف أو أفهم سبباً لتهامسهنَّ، وقد ضقت من هذا الوضع، وشعرت وكأنني دمية ينظر إليَّ، أو شيءٌ غريب غير مألوف، وعندما استرعيت انتباه عمي إلى هذه الظاهرة التي أشاهد، قال: يا إبراهيم لا تهتم مثل هذه الأمور، فأهل عنيزة نقَّادة، وبعضهم فضوليون.

قدوم عبدالعزيز جريشان:

مكثت نحو ساعة على الدكة، وإذا بمُضيفي بالأمس يُقبل إليَّ من طرف الشارع تنفيذاً لاتفاقنا في ليلة البارحة، وقد سُررتُ لمرآه، وكأنه ملاك أسرع لإنقاذي.

استأذنت من عمي، ونزلتُ مُسرعاً أقابل صديقي، ثم ذهبنا معاً إلى خارج الديرة، أي إلى البساتين والمزارع حيث توجد هناك السواني وأشجار النخيل الباسقة وكروم العنب والأترنج، ومزارع الذرة والمناظر التي تجلب البهجة والسرور.

التنزُّه في مزارع عنيزة:

ذهبنا إلى مزرعة (المغيدر)، وهو حائط يحتوي على ما لا يقل عن ثلاثمائة نخلة، ثم أخذنا ننتقل من مزرعة إلى مزرعة. نمتع أنظارنا بالمناظر الجميلة مارين بمزرعة الدغيثرية، فمزرعة السلامة، فمزرعة الشهوانية، فمزرعة القطع، فمزرعة السُفيلا، فمزرعة الربيعية، حيث أمضينا في هذه الجولة نحو أربع أو خمس ساعات، وكان وقت الظهر قد حان، فاتجهنا إلى جامع عنيزة الكبير الواقع في وسط البلد حيث أدينا صلاة الظهر.

الشيخ عبدالرحمن بن سعدي:

وكان إمامه آنذاك فضيلة العالم الورع الوقور الشيخ عبدالرحمن بن سعدي صاحب المؤلفات الكثيرة، وعلى رأسها تفسيره لكتاب الله الكريم الذي ضمنه في مجلداً، شاملاً تفسير القرآن الكريم[١]، وهو من أجود ما صُنِّف في هذا الموضوع، نظراً لاختصاره، وبعده عن الحشو، وتعدد الأقاويل، فهو يركز على تفسير الآيات الكريمة بما أجمع عليه علماء السلف، دون أن يتطرَّق إلى المجادلات والافتراضات التي حفلت بها الكثير من كتب التفسير.

الغداء في بيت مضيفي:

ذهبنا مباشرة بعد الصلاة إلى بيت مضيفي حيث وجدنا الغداء جاهزاً وهي صينية مملوءة بالرز العنبر، ذي الرائحة الزكية، مع اللحم الشهي واللبن والتمر، وبضعة صحون من الخضار المطبوخ: كالبامية والكوسة والقرع.

---

(١) وقد طبع أخير في مجلد واحد.

بعد الغداء مكثنا في القهوة حيث الشاهي يدار علينا بين آونةٍ وأخرى بواسطة ابنه، وإذ كانت توجد في القهوة، وكانت واسعة بضعةُ دواليب مملوءةٌ بكتب متنوعة، وقد أخذ كل منا كتاباً يقرؤه حتى حان وقت صلاة العصر.

السلام على الشيخ ابن سِعْدي:

ذهبنا إلى الجامع مرة أخرى، وأدينا الصلاة، مغتنماً الفرصة لكي أسلم على فضيلة الإمام ابن سِعْدي، أعرفه قبل خروجي من عنيزة، وأحضر صلاة الجمعة مع والدي أنا وأخي حسون.

سلَّمتُ على الشيخ بعد أن عرَّفتُه بنفسي، فهشَّ وبشَّ، واحتفى بي كثيراً، ودعا لي بالتوفيق والنجاح، مُلحاً عليَّ بمواصلة الدراسة حينما فهم من مضيفي الذي كان واقفاً معي أنني حالياً تلميذٌ أواصل الدراسة في مدرسة الفلاح بجدة.

ساحة المسجد الكبير:

ثم انتقلنا أنا ومضيفي إلى الساحة الواسعة أمام المسجد الجامع، وهي مساحة واسعة، قد تقارب مساحتها خمسمائة مترٍ طولاً، في مثلها عرضاً وهي ساحة تعجُّ بالنشاط التجاري، بعد صلاة العصر مباشرة من كل يوم، بحيث يبلغ الزحام فيها ذروته، إذ لا يكاد المار بها يجتازها إلا بشق الأنفس نظراً للزحام، إذ كانت تكتظُّ بالعديد من السلع وبالأعداد الوافرة من الجمال على مختلف أعمارها، والتي تعرض للبيع في هذه الساحة، والتي يجلبها مُلاَّكها من أفراد البادية الذين يقدمون من مسافات بعيدة عن المدن المأهولة، ولذلك تجد في الساحة ما لا يقل عن مائة إلى مائتي رأس من الإبل، بعضها داخلٌ للبيع وبعضها خارجٌ، وقد تمَّ بيعها.

الشُّريطية:

وكان (الشُّرِيطية) أي: السماسرة، وهم مجموعات من الأشخاص قد لا تتوفر لديهم طهارة الذمة في الغالب الأكثر، يتواطؤون فيما بينهم لكي

يستحوذوا من البدوي المسكين على السلعة التي يعرضها، وهي البعير غالباً بأبخس ثمن، ذلك أنهم يتفقون فيما بينهم على أن يتقاسموا الأدوار فيما بينهم في المزايدة على السلعة، ولنفرض أنَّ السلعة قيمتها مائة ريال فيأتي أحدهم ويسومها من البدوي بثمانين ريالاً، ثم يعقبه الآخر من خلفه ويسومها بخمسين ريالاً، ثم يأتي الآخر فيسومها بستين ريالاً ثم يأتي رابع فيدفع فيها ثلاثين ريالاً، ويتم ذلك في دقائق معدودة، ويقوم كل منهم بنخس البدوي بالعصا التي يمسكها قائلاً له: بع بع، فيقع البدوي في حيرة، يلتفت يميناً فينخسه هذا من الشمال، ويلتفت شمالاً فينخسه الآخر من اليمين، وهم محيطون به إحاطة السوار بالمعصم، لا يَدَعُون له أي مجال للتفكير، وإنما يكررون كله: بع. بع. بع. ثم يتظاهر الرجل الذي دفع الثمانين في الأول بالابتعاد عن الحلبة، وعزوفه عن الشراء مُظهراً عدم رغبته في السلعة، وفي الغالب الأكثر يتشفق البدوي أن يبيعها بأقل من السوم الأول فإذا كان السوم الأول ثمانين، وقد تظاهر صاحبه بعدوله عن الشراء، فإن البدويَّ يتشفق على البيع بخمسة وسبعين لأن البدوي في هذه الحالة يود أن يتخلص من حالة الاختناق، ونخس العِصي التي كانت تنهال على ظهره، وهكذا تباع السلعة ظاهرياً على شخص واحد بينما في الواقع هي شراكة بين كل السماسرة.

أربعة أيام في عنيزة:

مكثت أربعة أيام في عنيزة أغادر البيت بعد شروق الشمس من كل يوم، ولا أرجع إليه إلا في منتصف الليل، نقضي معاً أنا وصديقي عبدالعزيز الزامل السليم (جريشان)، متنقلين بين مزارع عنيزة الواسعة ونتناول الغداء والعشاء في بيته.

قفص حديدي مغلق:

وكنت أحسُّ بانشراح وسعادة خلال هذا التجوال، ولكن عندما أعود إلى البيت أحس بضيق وكآبة أكاد أختنق منها أحس كأنني طائر يسبح في أجواء الفضاء ثم يجد نفسه فجأةً في قفصٍ حديدي مغلَق.

ولذا فقد عزمتُ في الليلة الخامسة لوجودي في عنيزة بأنه لا بدَّ لي من مغادرتها، ولذا فإنه في صباح اليوم الخامس بعد أن تناولنا الفطور، وهو هنا يسمى (قُدُوع).

القدوع:

والقدوع عادةً ما يطلق على قليل من التمر قبل أن تدار القهوة على الحاضرين، أمّا قُدوعنا في ذلك الصباح فكان مخالفاً لذلك إذ يتألّف من الحليب الطازج وكمية من أقراص (الكليجا)، وأقراص (الفتيت) مع كمية من (المُغَمِي) والزبد، والمغمي هو عبارة عن تمر السكرية المضغوط بالدبس وهو تمر مميَّز معروف.





مغادرة عنيزة خلسةً:

كنتُ في الليالي السابقة قد سألتُ أخي حسُّون عما إذا كان يرغبُ أن يذهب معنا إلى الحجاز مع أختي نورة وحصة، وفهمتُ منه أنه يفضِّل البقاء في عُنيزة، بحُجَّةِ أنَّ المزرعة تستلزم وجوده وإشرافه، وهي مزرعة الشعيبي، خاصةً وأنني سآخذ البنات معي.

لذلك فقد صممتُ في ذلك الصباح على أن أغادر عنيزة فجأةً، وبدون مقدمات، ولكن كيف؟ طلبت من أختيَّ أن أذهب بهما في نزهةٍ بالسيارة في داخل البلد فوافقا معي، وعلى هذا الأساس أمرت السائق، وطلبتُ من أخي حسون مرافقتنا، ولكنه كان مشغولاً بالمزرعة، وودَّعتُه دونَ أن أُعلِمَهُ بنيتي.

عندما تركنا البيت اتجهنا بالسيارة إلى الشمال الشرقي من عنيزة عن طريق الوَهَلاَنْ، وهي الطريق التي قدمنا منها عند مجيئنا، ثم همست بأذن السائق بأن يتوكَّل على الله، ويتجه إلى جدة حيث إن السيارة مزودة بثلاثة تنك مملوءة بالبنزين، وخزانها فيه أكثر من نصفه، وهي جديدة واستهلاكُها للوقود محدود جداً.

واصلنا سيرَنا طيلةَ ذلك اليوم على خط قدومنا إلى عنيزة، بدون توقف إلا في فترتين ـ على ما أعتقد ـ نؤدي فيهما فروض الصلاة، وفي ضحى اليوم الثاني كنا على مشارف مكة، واضعين الطائف عن يسارنا دون

أن نمرَّ به، وفي ظهر ذلك اليوم وَقَفَت بنا السيارة أمام بيتنا بيت مراد في حارة المظلوم بجدة، أي: أن زمن الرحلة كان في حدود ٢٤ ساعة تقريباً.

الوصول إلى جدة:

وصلنا إلى بيتنا، أنا وأختي نورة، ومعها طفليها محمد ومضاوي الهزاع وكذلك أختي الصغرى حصة وكان يبلغ عمرها آنذاك حوالي ثلاثة عشر سنة تقريباً.

ومن الواضح أنه فورَ وصولِنا قد أُمِّنَتْ لهم الملابس المتعددة وقد مَكَثَتْ أختي نورة مع أبنائها نحو شهرين أو ثلاثة تقريباً، ثمَّ فضَّلت العودة إلى عُنيزة مع أطفالها، أمَّا حصة فقد بقيت.

ومباشرةً أمر أخي بأن تلازِم أختي حصة المطبخ يومياً، اعتباراً من ثالث يوم وصولها، وأن تتعلم الطبخ، وكل ما يتعلق بشؤون البيت، رغم وجود عدد من الجواري في البيت، لا يقل عن ثمان، ولكنه طلب من زوجته أن يوضع ثقل العمل على أختي حصة، رغبةً في منفعتها وصالحها.

العودة إلى المدرسة:

عدتُ أنا إلى مدرستي، وكان ذلك في نهاية محرم عام ١٣٥٠هـ، وسارت الأمور رتيبة كسابقِ عهدِها.

وفي عام ١٣٥٢هـ قَدِم إلى جدة المرحومان: عبدالعزيز بن فهد بن معمر، وناصر بن صالح بن معمر، قادمين من ينبع؛ إذ عُيّن الأول قائمقام لجدة، والثاني معاوناً له.

زواج أختي حصة وانتقالها إلى الطائف:

وفي عام ١٣٥٤هـ اقترن المرحوم ناصر بن صالح بن مَعْمَر بشقيقتي حصّة، وبعد ذلك بنحو ستة شهور انتقل الأمير عبدالعزيز بن فهد بن معمر

ومعاونه ناصر بن صالح بن مَعْمَر إلى الطائف، حيث عُيِّن الأول أميراً للطائف، والثاني معاوناً له، وكانت مدة إقامتهم في جدة حوالي سنتين ونصف وبطبيعة الحال انتقلت أختي كذلك إلى الطائف مع زوجها، وكانت أكثر إقامة الأمير عبدالعزيز بن معمر في بداية مهمته في مكة خاصة في أشهر الحج، إذ يكون الملك عبدالعزيز موجوداً فيها، أما إمارة الطائف فكان يقوم بها في غيابه معاونه ناصر المعمَّر الذي عُيِّن بعد ذلك أميراً للطائف بعد تقاعد الأمير عبدالعزيز نتيجة لمرضه.

أصدقائي في جدة:

كانت الحياة في جدة بالنسبة لي حياةً راغدةً مطمئنة، إذ توفَّرت لي جميع أسباب الرفاهية والسعادة، وقد سبق أن شرحتُ في خواطري السابقة عن الوضع الذي كنتُ أتمتع به من أخي من حيث الجانب المادي، وأنه كان قمَّةً في البذخ والرفاهية، وكان يصاحب ذلك أن هناك مجموعة من الأصدقاء تجتمع يومياً إلا ما ندر في الساحة الواقعة أمام بيت الأصفهاني، وأمام بيتنا من جهة الشمال.

كانت هذه الشلة تجتمع يومياً بعد صلاة المغرب مباشرةً، وتظل مجتمعةً إلى ما يقرب من ساعتين بعد صلاة العِشاء، وكانت تتألف من محمد العوضي، الذي أصبح بعد ذلك وزيراً للتجارة، والأخ علي عمر الفكهاني، الذي تولَّى أمانة صندوق مؤسسة النقد في جدة حين أسست، وظَلَّ يشغلها حتى وفاتهِ، ومحمد أحمد بن حِمْد، الذي كان يتعاطى التجارة وكيلاً لمكائن سنجر للخياطة، ومحمد أمين العوضي، وهو ابن عم محمد العوضي، الذي مرَّ ذكره، وهو من خريجي مدرسة الفلاح، الذين سبقوني في التخرُّج بِعدَّة سنوات، ومنهم شهاب عبدالجواد، وإسماعيل أبو داوود، وعبدالحميد مطر، وعمر غراب، وأحمد بلينا، وهو أي: محمد أمين العوضي هذا: شقيق يوسف العوضي - أمدَّ الله في حياته - الذي يقيمُ حالياً في الخبر، وهو أحد أساتذتنا في مدرسة الفلاح كما أشرتُ سابقاً، ومحمد علي أصفهاني، وهو عم محمد حسين أصفهاني الذي أسس فيما بعد مطابع

الأصفهاني بجدة، وكانت مهمة محمد علي هذا هو أنَّ والده حسين أصفهاني يقوم بتأمين إضاءة بعض الشوارع بالأتاريك لحساب بلدية جدة، كما يؤمِّنُ كميةً من هذه الأتاريك، وخاصة العلاقي منها في الساحات والبيوت في حفلات الأفراح، وكان يقوم بتجهيز هذه الأتاريك وإصلاحها، هو رجل فارسي، قصير القامة يُدعى مِرزا، وهو خال محمد علي أصفهاني، وخال إبراهيم حسين أصفهاني، الذي هو والد محمد حسين أصفهاني.

مِرزا حسين الأصفهاني:

كان هذا الشخص دؤوباً على العمل، يقضي طيلةَ ساعاتِ النهار في إصلاح ما قد يكون خرب من هذه الأتاريك، وتجهيزها بالغاز والفتائل وإضاءتها حتى إذا حان وقت غروب الشمس انطلق مجموعة من الصبيان لديه ينقلون هذه الأتاريك على أكتافهم، ويقومون بتعليقها في الأماكن المخصصة لها.

ألماس خُمَيِّس:

وكان ينافس حسين أصفهاني في هذه المهنة ـ أي: مهنة إعداد الأتاريك وتأجيرها ـ شخص آخر يُدعى: ألماس خُمَيِّس، ويقع مكانه أمام بيت خميس في حارة اليمن، وهي التي تقع على مقربة من برحة بيت الجدع، فأنت حينما تتَّجه من الغرب إلى الشرق، أي من شارع قابل، عندما تصل إلى البرحة الموجودة أمام بيت نصيف، تتجه إلى الجنوب واضعاً بيت نصيف عن يسارك، ومستمراً في السير في الشارع نفسه متجهاً إلى الجنوب، مجتازاً عن يمينك، على بعد بضعة أمتار من بيت نصيف يتجه إلى الغرب بعد أن تضع بيت البسيوني وبيت الجوخدار عن يسارك، ثم يلتقي بحوش النخلة، فبرحة بيت زينل، فالخاسكيه.

بيت الجوخدار

وبيت الجوخدار هذا من البيوت الفخمة في جدة، المعدودة من معالم

جدة لما تمتاز به من جودة التصميم، وفخامة البناء، إذ طوابقها العليا كلها من الخشب الفخم الذي يتيح لها التهوية من مختلف الجهات، وكان عميد هذه الأسرة هو المرحوم محمد نور جوخدار، الذي تولّى ابنه جميل فيما بعد رئاسة بلدية جدة، كما بلغني أنّ أحد أفراد هذه الأسرة كان يعمل في وظيفة مهمة بالمراسم الملكية.

كانت أسرة آل جوخدار من الأسر التي تنال العدد الأكبر من حجاج أندنوسيا فكنت ترى الشوارع المحيطة بهذا البيت مكتظة بالحجاج الأندنوسيين.

بيت خُمَيِّس:

عندما تجتاز بيت نصيف ـ كما قلت ـ مُتَّجهاً إلى الجنوب، وتجعل هذا الشارع الذي يؤدي إلى بيت الجوخدار عن يمينك، مواصلاً سيرك باتجاه الجنوب تجد على يسارك بيت آل خُمَيِّس، وهو بيت ضخم شامخ البناء، إلا أنه من حيث الزخرفة ومن حيث هندسة البناء، وكثرة الرواشين وزخرفتها، أقل من بيت الجوخدار بكثير، وهذا البيت ـ أعني بيت خميس ـ يرد إليه كل عام مجموعة من حجّاج أندنوسيا، ولكنهم أقل بكثير مما يرد لآل الجوخدار.

ورشة الأتاريك:

وأمام بيت خُميس من جهة الغرب صالون كبير يفتح بابه إلى جهة الشمال، وهو عبارة عن ورشة كبيرة تضمُّ العشرات من أتاريك الإضاءة، يتولاها ويشرف عليها ألماس خُميِّس ـ كما ذكرنا ـ، وهو يقوم بتأجير هذه الأتاريك على بلدية جدة، لإضاءة الشوارع في حارة اليمن، أو يؤجرها على حفلات الزواج والمناسبات، أسوةً بما يفعله الأصفهاني.

بيت الجدع:

ثم تفضي إلى برحة واسعة يوجد في طرفها الجنوبي الشرقي بيت

الجدع، كما يوجد في طرفها الشمالي الغربي بيت أحمد عباس، أمّا بيت الجدع فكان وكيلاً لمجموعة من الحجاج من مختلف الأجناس، وقلة من الأندنوسيين، فكانت هذه البرحة تمتلىء بعد انقضاء موسم الحج حيث يتجمّع الحجّاج هنا ليتم سفرهم بطريق البحر إلى بلادهم.

بيت أحمد عباس يحضر أول جهاز راديو:

أما بيت أحمد عباس هذا فقد اشتهر بسبب حادثة معينة، هي أنه في مستهل عام ١٣٥٠هـ جلب أول جهاز راديو يصل إلى جدة، وكان لبيته هذا مقعد يطلُّ على الساحة، فكان يُشغِّل الراديو على البطارية السائلة كبطارية السيارة. وما كاد ينتشر خبر هذا الجهاز الغريب الذي يذيع الأغاني والموسيقى في جدة حتى أصبح بيت أحمد عباس هذا مقصداً يتوافد إليه أهل جدة زرافاتٍ زرافات، لكي يسمعوا، ويتأكدوا من صحة الخبر.

اختراع غريب:

وكانت هذه الساحة الواقعة ما بين بيت خميس وبيت الجدع وبيت أحمد عباس هذا: تكتظ بالجمهور الوافد للاستماع إلى هذه المعجزة الغريبة، التي تنطق بمختلف اللغات.

أجهزة الجرامفون:

علماً بأن نطق جهاز الراديو في الواقع لم يكن مستغرباً إذ كانت آنذاك عشرات أجهزة الجرامفون التي تدار إبرتها على الأسطوانات، فتنطق بشتى الأغاني كانت منتشرةً بكثرة في بيوت أثرياء جدة.

شلّة متآلفة:

كُنَّا نحن المجموعة التي ذكرتُ أسماءهم آنفاً وكنا نجتمع يومياً بعد صلاة المغرب إلى ما بعد العشاء بنحو ساعتين، كنا مجموعة منسجمة نتبادل أطراف الحديث عن مستجدات البلد في ذلك اليوم، ونتبادل أيضاً الآراء فيما

نكونُ قد قرأناه من كتب، وما كانت تنشر صحافة مصر من أحداث يومية سواءٌ في المحيط العربي أو في العالم الخارجي، وكنا عادةً كل أسبوع نقضي ليلة الجمعة في محلة النُزُلة اليمانية، أو في جزيرة أبي سعد.

النزلة اليمانية:

في النزلة اليمانية في أيام الشتاء، وموقعها الحالي في الجنوب الشرقي من قصر خُزَام، الذي بناه المرحوم الملك سعود والذي لم يبق من معالمه سوى بوابته الشمالية القائمة الآن، حيث أزيلت أسوار القصر في عهد الملك فيصل، ووزِّعت أجزاء منه منحاً.

العُقْدة:

كان «العُقْدَة»، وهذا اللقب كنا نطلقه على محمد علي أصفهاني رحمة الله عليه، إذ كان قصيراً مُدَحْرَجاً، ما نقصَ من طولهِ أضيفَ إلى عرضه، فكان أشبه بالعقدة، وكنا نناديه بهذا اللقب، وكان يتقبله نتيجةً لروحه المرحة بدون أي اعتراض.

دكان الخواجة يني:

كان هذا «العقدة» يقوم نيابة عن الشلة في مساءِ كل يوم خميس بالذهاب إلى دكان الخواجة إكيلي يَنّي، وهو تاجر يوناني فصيح اللسان، ودكانه يقع في الركن الشمالي الغربي من نهاية شارع قابل، وهو المتجر الوحيد الذي تتوفر فيه مجموعة من الأجبان الفاخرة والحلويات والمعلبات على مختلف أشكالها، وإن كان يوجد أمام دكان يَنّي هذا، ملاصقاً لمسجد عكاش من الشرق متجرٌ آخر يمتلكه تاجرٌ يدعى الخضري.

دكان آل دخيل:

كما يجاور دكان «يني» كذلك من جهة الشمال متجرٌ لآل دخيل يبيعون البضاعة نفسها، وإن كان هذان المتجران يوجد فيهما أنواع مما هو موجود

عند يني اليوناني إلا أنهما أقل بكثير مما هو موجود في ذلك المتجر(١).

يشتري «العقدة» هذا كميات كافية من متجر يني هذا، ثم يضعها على عربة كارو راكباً العربة مع بضاعته هذه، مُتجهاً إلى النزلة اليمانية، وهناك يضع بضاعته هذه، ويظل في انتظارنا، ونحن عادةً إمَّا أن نستقل عربة كارو، أو نذهب سيراً على الأقدام نحو ساعة، وكانت مباني النزلة آنذاك أحواش محاطة بأسوار من الطين، وقد يوجد فيها أحواش ذات غرف مسكونة، إلا أنَّ الكثير من الأحواش غالباً ما تكون خالية.

كيف كنا نتواصل مع صحافة ومصر ومجلاتها؟

كنا نقضي أيام الجمع تلك في سَمَرٍ ومَرَحٍ، نتبادل الطرائف والنكت، كما نكوِّن مجموعات: هذه تلعب بلوت، وتلكَ تزاول لعبة الكيرم، وبعضٌ يلعب الضومنة.

وفي إحدى السمرات كان الحديث يدور بين هذه الشلة حول مصر وثقافة مصر، وما كان يحمله كلٌّ منا في ذهنه من صورةٍ براقةٍ عن مصر

---

(١) يني أكيلي ابن أخ المدعو نُقُولا، يوناني الأصل مؤسِّس هذا المتجر، وكان نقولا هذا زوجاً لابنة ماركو اليهودي، ويقال أنه استفتى الفاتيكان: هل يجوز زواجه كمسيحي باليهودية ابنة ماركو؟ ويقال: أنهم أفتوه بجواز ذلك.
وتجدر الإشارة أنَّ أكيلي يني هذا يوناني مسيحي، كما تجدر الإشارة أيضاً إلى وجود تاجر يهودي يقع دكانه في أول مدخل شارع قابل من الجهة الجنوبية، مقابلاً لمتجر أكيلي يني بحيث يفصل بينهما شارع قابل فقط، ويدعى هذا التاجر باسم ماركو، وهو وقتذاك ـ كما شاهدته أعني في عام ١٣٤٥هـ ـ كان رجلاً طاعناً في السن ضخم الجثة كث الشارب، تشبه شعرات شاربه الشوك.
كان في حدود السبعين من عمره، يتكلم العربية بطلاقة، وبلهجة أهل جدة بحيث لا تميِّزه عنهم ما لم تُعلم مسبقاً بأنه يهودي، وحيث أنه يرتدي ملابس أهل البلد، وكانت تجارته تنحصر في الغالب في العاديات القديمة، أي: الأدوات المنزلية وقطع النقود والأثاث وما إلى ذلك من أشياء نادرة الوجود.
وكانت له ابنة تعاونه في المتجر بعض الأوقات، كانت فارهة الطول، ممتلئة الجسم كاشفة الوجه، ذات جمال فوق المتوسط، تأتي إلى النورية لشراء مستلزمات بيتها، فتختار نوعاً معيناً من الحمَّالين لنقل مشترياتها إلى البيت.

تمثل أرقى الترف العقلي، وأكاد أزعم أنَّ كلاً منا كان يختزنُ في ذاكرته قوائم طويلة عن معالم مصر، من آثار تاريخية، أو معالَم في الأدب، ورجال الفكر، أو قمماً في الشعر والشعراء والأدب، فكان يندر أن تجد شخصاً لا يعرف من هو طه حسين، أو محمود عباس العقاد، أو مصطفى صادق الرافعي، أو حسين هيكل، أو النحاس باشا، أو مكرم عبيد، أو لطفي السيد، أو توفيق الحكيم، أو محمد عبدالوهاب، أو أم كلثوم، أو الكثير الكثير ممن كانت تزخر به أرض الكنانة آنذاك من قمم وأعلام من مختلف نواحي الحياة الإنسانية.

كما أنك قد لا تجد إلا قلة ممن لا يعرف عن صحافة مصر، ومجلاتها ومطابعها ومكتباتها، ودور العلم والثقافة التي تزخر بها، وعلى أعلى المستويات. كنا نجتمع، وكان مصدر تثقيفنا بهذه المعلومات هي نافذة واحدة لا غيرها، إذ لم يكن هناك آنذاك مذياع، ولا تلفاز، ولا وكالة أنباء ولا أقمار فضائية إنما كانت تلك النافذة، التي تزودنا بتلك المعلومات، هي الباخرة تالودي، أو الباخرة زمزم أو الباخرة الطائف، التابعة للشركة الخديوية للملاحة: إحدى شركات بنك مصر، الذي أنشأه طلعت حرب باشا. إذ كانت تلك البواخر التي تتردد على ميناء جدة، تحمل إلينا أسبوعياً ما تقذف به المطابع في مصر من صحف ومجلات وكتب ونشرات، وقد سبق لنا أن ذكرنا العديد من أسماء هذه الصحف والمجلات وأسماء أصحابها فيما سبق من هذه الخواطر.

محمود يغمور:

كان الشخص الذي يستورد هذه الصحف هو المرحوم محمود يغمور، فكان يتصل بإدارات تلك الصحف، ويبعث لها مبالغ معينة، مقابل أن ترسل له أعداداً معينة، مما تنشرُه من صحيفة أو جريدة أو مجلة.

توزيع الصحف والمجلات:

وفي كل يوم أحد يقوم هو بتوزيع هذه الصحف على عملاء يكونون قد ارتبطوا معه مسبقاً ويدفعونَ له مبالغَ لقاء أن يزوِّدهم أسبوعياً بأعداد مما

يرغبونه من تلك الصحف والمجلات التي ترد إليه، وكان الإقبال من قبل الجمهور في جدة، وخاصةً من قبل الشباب الذين هم في العقود الثانية من حياتهم، كان الإقبال شديداً فما يكاد يحل يوم الأحد حتى ترى حوش قابل، وهو حوش يقع في الشمال الغربي عن مسجد عكاش، وكان فيه مكتب آل قابل، وكان في الوقت نفسه يوجد فيه سكن محمود يغمور متعهد الصحف. ما يكاد يحل ذلك اليوم حتى ترى الحوش يغصُّ بالحاضرين بشكل ملفتٍ للنظر، انتظاراً لاستلام الصحف.

أول شركة شاركت فيها:

في تلك الليلة كان مدار حديثنا هذا الموضوع، وقد اقترح أحد الزملاء الموجودين، وأخاله إما علي عمر فكهاني أو محمد أحمد بن حمد رحمة الله عليهما، وكيل مكائن (سنجر) اقترح أن نكوِّن جمعية على هيئة شركة، بحيث يدفع كل واحد منا خمسة ريالات مقدماً، فيتكوَّن لدينا حصيلة نحوِّلها إلى عملة مصرية، ونبعث مبالغ معينة إلى بعض الصحف المعروف بأن رواجها يحتل المرتبة الأولى هنا في جدة، وهي: المصوِّر، وآخر ساعة، والجيل، ومنبر الشرق، والسياسة الأسبوعية، واليومية، ونطلب من كل جريدة أن ترسل لنا الأعداد لمدة شهر في حدود المبلغ الذي دفعناه.

وقد تحمَّس للفكرة (العقدة) محمد علي أصفهاني فهو وحده الذي يملك الوقت الذي يمكنه من القيام بهذه المهمة، لأنَّ الاتصال بالصحف، واستلامها حين وصولها من مصر وتوزيعها بواسطته، وقد تبلورت الفكرة فيما بعد، فلم تمض إلا أيامٌ معدودة حتى أخذت الفكرة طريقها إلى التنفيذ واستلم العقدة المبالغ من كلٍّ منا، وباشرَ المهمة، وكانت الحصيلة الأولى التي جلبناها تنحصر في خمسة أعداد من كل صحيفةٍ ومجلة، ثم تطوَّر الوضع، فأخذ التوزيع في الانتشار، ولم تكد تمضي سنة على هذا الوضع حتى أصبحت الكميات التي تصرف عشرات الأضعاف عما كان يستورد في بادىء الأمر، ونتج عن ذلك أيضاً أن ابتدأ عملاء محمود يغمور رحمة الله

عليه ينسحبون منه ويسجلون أسماءهم عند العقدة، لأن العقدة أي الأصفهاني تميَّز عن محمود يغمور بأن اتفق مع مجموعة من الشباب يحضرون إليه في داره ظهر كل يوم أحد، ويستلمون منه الأعداد التي يوزعونها على العملاء في أماكن تواجدهم بموجب الأسماء التي يكتبها لهم، بحيث أنَّ الزبون يصله العدد بعد وصوله من الجمرك بساعات، وهذه الخدمة لم يكن يقوم بها محمود يغمور ـ رحمة الله عليه ـ لأنه وحده كان يقوم بالتوزيع على عملائه مما يستغرق وقتاً طويلاً قبل أن يستلم الزبون جريدته، يضاف إلى ذلك أنه كان ـ رحمة الله عليه ـ ضخم الجثة، بطيء الحركة، يرهقه السير.

نمو الشركة وازدهارها:

نَمَتْ شركتنا وازدهرت، وتضاعفت الأرباح دون أن يكون هناك بيننا عقد موقَّع مكتوب يشير إلى هذه الشركة، وكيفية نظامها، بل كانت ثقتنا كاملة، ومطلقة في العُقْدة، وكان له مطلق الصلاحية يتصرف كيفما شاء.

بعد نحو عام تقريباً توقَّف محمود يغمور ـ رحمة الله عليه ـ عن مزاولة هذه المهنة نظراً لانصراف عملائه عنه للأسباب التي أوضحتها.

لم يكن أيٌّ منا ـ نحن الشركاء ـ محمد العوضي وزير التجارة سابقاً، وعلي عمر فكهاني، وأحمد محمد بن حمد، وإبراهيم الحسون، ومحمد أمين العوضي ابن عم وزير التجارة السابق، وكنا نجتمع مساء كل يوم في برحة مراد أمام منزلنا ومنزل الأصفهاني، لم يكن أيٌّ منا يفكر في سؤال الأصفهاني عن نتائج العمل، باعتبار أنه سيقوم بنفسه بتوزيع الأرباح علينا، لأن الشركة انتعشت وتوالى نجاحها، وخلى الجوُّ لها بعد انسحاب اليغمور من هذه المهنة، وانفراد شركتنا بالتالي بكامل السوق.

الاستفسار عن أرباح الشركة:

وفي إحدى الجلسات اقترح الأخ علي عمر فكهاني أن نطلب من الأصفهاني معرفة كم بلغ رصيد الجمعية، وأن توزِّع علينا، نحن الأعضاء

الأرباح المتوفرة لديه، ولكننا لاحظنا أنَّ الأصفهاني لم يكن مرتاحاً لهذا الاقتراح، ولكنه وعد بمراجعة حساباته، وأنه سيخرج لنا كشف بالمصروفات التي تكبَّدها على زعمه، وأنَّ ذلك قد يحتاج إلى بعض الوقت، فوافقناه، لأنه لم يخطر ببالنا قط أن يكون في سلوكه ما يريب أو يبعث الشك.

تهرُّبٌ ومراوغة:

ولكن المدة طالت دون أن يفي بما وعد، وأحسسنا بأنه يحاول التهرُّب والمراوغة عن تقديم أي حساب عن هذه العمليات علماً بأنه قد مضى عليها آنذاك ما يقارب الثلاث سنوات، وعندما حاصرناه في إحدى تلك الجلسات، وأعطيناه مهلة أسبوع فقط، لكي يقدِّم لنا كشوفات الواردات والمتصرفات، خلال تلك الفترة الماضية إذا به يفاجئنا في نهاية الموعد المحدد بكتابٍ مطوَّل من عدة صفحات يشرح فيه أنه أنفق مبالغ طائلة لا تكافىء إيرادات الشركة: هناك أجور صبيان وموزِّعين، وهناك إيجار محل للشركة، علماً بأن الشركة لا محلَّ لها سوى مقعد منزله، وخلاصة الكتاب أنه أظهر أنه ضحك على ذقوننا جميعاً، فأخذتنا ثورة الغضب بدون شك، وخاصة الأخ علي عمر فكهاني الذي كاد أن يشتبك معه، ويأخذ بتلابيبه، ولكن كانت النتيجة أن أدركنا بأنَّا نحن المفرطين، وأنه لا جدوى من العنف معه، وأنه من الأفضل البحث عن وسيلة تمكننا من الحصول، ولو على بعض الشيء من هذه الأرباح بطريقة هادئة.

توسيط العم حسين فايز:

وكان يحضرُ معنا على ما أذكر الأخ حسن مشهور، وهو يعمل كاتباً عند خاله حسين فايز فاقترح أن نوسِّط العم حسين فايز ليحلَّ المشكلة، ولما لم يكن أيٌّ واحد منا مستعداً لأن يقف مع الأصفهاني موقف الخصومة ويقاضيه أمام السلطات الحكومية أو القضائية فقد وافقنا على هذا الاقتراح.

اغتبط الأصفهاني لهذا الحل، فطلبنا جميعاً من حسن مشهور أن ينقل

إلى خاله حسين فايز رجاءَنا بأن يتولى هو بواسطة موظفي مكتبه التجاري دراسة ومناقشة البيانات التي قدَّمها الأصفهاني لكي تظهر الحقيقة.

وافق المرحوم حسين فايز على هذا الرجاء، فأحلنا إليه خطاب الأصفهاني والعشرات من الكشوفات والفواتير المرفقة به التي زعم الأصفهاني أنه أنفقها، وبقيت الأوراق لدى المرحوم حسين فايز مدة طويلة، لأنه تغيب عن البلاد عدة شهور ثم عاد.

مغادرتي جدة:

وخلال تلك الفترة كنتُ قد غادرتُ جدة في ٧ شعبان عام ١٣٥٧هـ مع أحمد بك لاري، وعبدالصمد نجيب، وعبدالجليل عبدالجواد، وعبدالله خطاب، ويوسف رمضاني من ضباط الشرطة وأحمد قاسم فَتني، وعبدالقادر باحفظ الله، حيث توجهنا في ذلك اليوم إلى المنطقة الشرقية عن طريق الرياض.

رسالة مطوَّلة من الصديق علي فكهاني:

غادرتُ جدَّة وبذلك انقطعت صلتي بهذا الموضوع، ولا أعلم بالتفصيل ما الذي حدث بالضبط بشأنه، ولكنني علمتُ بعد ثلاثة أعوام، وأنا مقيم في مدينة الخُبَر موظفَ جمرك من رسالةٍ مطولة من الصديق المرحوم علي عمر فكهاني لا زلتُ أحتفظ بها ضمن محفوظاتي العزيزة عليَّ إذ كانت مسهبة، مُشْبَعَةً بالمعلومات عن الحياة التي أعقبت مغادرتي جدة، إذ انتثر عقد الجماعة، وأعني بها جماعة الشركة الصحفية، وأنَّ الأوراق بقيت عند المرحوم حسين فايز، وأنَّ الأصفهاني قد أقنع حسين فايز بأن المصروفات توازي الواردات، وأن حسين فايز اقتنع بهذا، حيث لم يراجعه أو يناقشه أو يفهمه بكذب تلك البيانات، أحدٌ من الشركاء فكل منهم انشغل بنفسه ولم يرد أن يجعل من نفسه ملاحقاً للأصفهاني، طالما بلغت به الجرأة إلى إنكار الحقوق لهذا الحد.

الخروج من المولد بلا حمُّص:

وهكذا طلعنا من المولد ـ كما يقول المثل العامي ـ بدون حمص. ويبدو أنَّ ذلك كان نتيجة لدعوةٍ صادقةٍ رُفعت إلى السماء بحرارة وصدق من المرحوم محمود يغمور؛ لأن عملنا، وإنشاء هذه الشركة كانا سبباً في نكبته.

والملفت للنظر أنَّ هذه الشركة قد انحصرت في ملكيةٍ خاصة هي ملكية الأصفهاني، وأنها نمت وازدهرت، وتوسعت، ثم آلت بعد ذلك إلى ملكية محمد حسين أصفهاني بعد وفاةِ عمه محمد علي أصفهاني الذي استحوذ على الشركة ولم يكن له ذرية.

عود على بدء:

سارت حياتي رتيبة هادئة، أزاول نشاطي في عمل البراميل من حيث تأجيرها، واستيفاء عائداتها، وأمارس في الوقت نفسه عملي في فترةٍ أخرى للتدريس في مدرسة الفلاح أستاذاً متبرعاً بدون راتب، للخطابة والتاريخ والإنشاء. أعيش عيشة راغدة هانئة لا يكدر صفوها شيء، وكان أصدقائي ومن أحتكُ بهم من زملاء الدراسة أو غيرهم يغبطونني على هذه الحياة لما يرونه عليّ من سمات الرفاهية ورغد العيش، وكانوا يعتقدون في قرارة أنفسهم، وأنا من ضمنهم، أنَّ ابتعادي عن هذه الحياة أي خروجي من جدة وسفري من جدة، ومفارقة أخي أبعد من الخيال.

طموحات وآمال:

كان هناك شيء يجول في أغوار نفسي لا أحسُّ بأن له معالم مُشخَّصة، ولكنني دائماً وأبداً أحسُّ أنَّ هناك إشعاعاً ينبعث من أغوار النفس، وهذا الإشعاع هو طموحات متلاحقة إلى الاستزادة من العلم والمعرفة، والطموح إلى نَيْل درجة علمية عالية كدكتور أو بروفسور أو إلى أي مسمًّى يوحي بشمول المعرفة وسعة الأفق. ولكن كيف الوصول إلى ذلك؟ هنا بيت القصيد.

كنتُ ـ وليعذرني القارىء، إذا ذكرت عن نفسي ما يوحي بأنه مدح وتزكية وإطراء، إذ إن عملاً كهذا يعتبر في منطق العرف سخفاً وإسفافاً على قاعدة: (مادح نفسه يقرؤك السلام) كما يقول المثل العامي، ولكن وأنا أكتب للتاريخ تقتضيني أمانة العلم أن أسجِّل الواقع كما هو دون التفات إلى نقد أو استهجان ـ.

إدمان القراءة:

كنت ألتهم القراءة بشكل إدمان، سواء كانت هذه القراءة للصحف التي كانت تردني أسبوعياً من مصر بالعشرات، أو كانت الكتب التي كنت ألتهمها التهاماً، وكان حرصي على اقتنائها بأي ثمن أشبه بالهوس.

أول كتاب قرأته:

ولعَلِّي أذكر أنَّ أول كتاب قرأته كان «مرآة الحرمين» للواء إبراهيم رفعت باشا، الذي تولَّى إمارة رحلة المحمل المصري إلى الحج في عام ١٣١٨هـ و ١٣١٩هـ و ١٣٢١هـ.

مكتبة باخريبه:

وجدتُ هذا الكتاب عند شخصٍ يدعى باخريبه، كان افتتح مكتبةً على شارع سوق الندى، تقع على بُعد عشرين متراً تقريباً للنازل من سوق الندى جنوباً إلى مسجد عكاش، أي أنها تقع على الزاوية الشمالية لنهاية شارع الشرايبي، عند التقائه بشارع سوق الندى، المتَّجه إلى مسجد عكاش. كانت هذه المكتبة هي الوحيدة في جدة آنذاك.

جنيهان ذهبيان:

وقد دفعت في هذا الكتاب جنيهين ذهبيين، لأن صاحب المكتبة اكتشف مدى لهفتي ورغبتي في الحصول على الكتاب، لما كان يحتويه من معلومات قيمة، وتفصيلات دقيقة عن بيوتات وأهالي الحرمين، وما كان لهم

من مخصَّصات سنوية ترد من الخارج، وهي حصيلة لأوقاف موقوفة على أهل الحرمين، كما حَفُلَ الكتاب بصورٍ رائعة لمشاهد الحج، وأمراء مكة وأعيان الحجاج والمشاعر المقدسة في جميع أنحاء مكة ومنى وعرفة والمدينة المنورة، كل ذلك جعلني أدفع له بالجنيهين الذهبيين، أي: أضعاف أضعاف قيمة الكتاب بدون أن أتردد، ولو طلب مني أكثر من ذلك لدفعت.

شلة بيت نصيف:

كنت نتيجةً لهذا الزخم الهائل، نتيجةً لانكبابي على القراءة، أحس بغرور يملأ نفسي، وهو شيء طبعي وخاصة مع شاب قد لا يكون تجاوز دور المراهقة إلا قليلاً.

كنت أحرص على المناقشة والجدل، وكنت أتصيَّد كل من أعتقد أنَّ لديه استعداد للجدل والمناقشة، وكنت دائماً الفارس الرابح.

كان هناك نخبة مُختارة غير الشلة التي سبق أن ألمحت عنها، التي انحصرت في النهاية في جمعية توريد الصحف المصرية، وشرحت عنها فيما سبق، تلك النخبة المختارة هي رجال أفاضل يكبرونني سناً ومقاماً وعقلاً ومعرفةً ودراية، ومع ذلك فقد انضممتُ إلى شلتهم واحداً منهم، تلك النخبة تتمثل في المرحوم حسين محمد حسين نصيف، وهو أكبر أنجال الأفندي محمد حسين عين أعيان جدة، وأخيه عمر، والمرحوم صالح إسلام.

وكان يحضر إلينا أحياناً المرحوم الشاعر حمزة شحاتة، وأحياناً حسن عوَّاد عندما يكونا في جدة.

كنا نجتمع في غرفة كبيرة في الطابق الأرضي من بيت الأفندي نصيف، تقع في الزاوية الجنوبية الشرقية من البيت، يصل إليها الداخل إلى البيت بعد اجتيازه للباب الخارجي متجهاً إلى الجنوب واضعاً الصالون الكبير الذي هو مقر مكتب الأفندي، ودواليب مكتبتها الضخمة عن يمينه، متجهاً

إلى الجهة الجنوبية الشرقية حيث مدخل تلك الغرفة، كنا نجتمع في فترات قد تبلغ المرتين أو الثلاث في الأسبوع، وكان صاحب المحل مضيفنا حسين نصيف رحمه الله، يوفِّر لنا الكثير من الكتب والصحف والمجلات مع لعبة الكيرم والضومنة والورق، وكل هذه نادراً ما نستعملها، إذ نمضي اجتماعنا، الذي لا يقل عن ساعتين أو ثلاث في القراءة والمناقشة.

حادثة طريفة مع صالح إسلام:

وأذكرُ على سبيل المثال حادثةً طريفةً، حدثت لي خلال أحد الاجتماعات مع المرحوم صالح إسلام الذي كان مثالاً لسماحة الخلق، وحلاوة المنطق، وطرافة النكتة.

كنت دائماً أشتبك معه في عراك جدلي وكثيراً ما تغلبت عليه، وذلك واضح لأنني أقرأ أضعافَ ما يقرأ، وكان عندما يحسُّ بمرارة الهزيمة - رحمة الله عليه - يحاول أن يلمزني، أو ينكِّت علي، واصفاً إياي بأنني بَدَوي، يقولها على هيئة التهكمُ والسخرية، وقد توسع مرةً معي في هذا الموضوع فخرجت نكتته التي وجَّهها إليَّ عن كونها نكتة تستحق الضحك إلى مغمز يمسُّ الكرامة، وهنا لم أجد بداً من أن أردَّ له الصاع صاعين، فقد وجه إليَّ على سبيل التهكم قوله مخاطباً إياي: احمد ربك، احنا في الحجاز مدَّنَّاكم، إذ علمناكم لبس السراويل وكنتم في بلادكم لا تعرفونها، كان أحدكم يقضي حاجته فيمسح سوأته بالتراب، فأجبته: نعم، إنك لصادق فيما تقول، وإنها مع ذلك لسمة توارثناها عن جذور العروبة منذ وجدت كلمة العروبة، ويكفي بكلمة العروبة نسباً، ومع ذلك فلكي أثبت لك بالواقع المحسوس الذي لا تستطيع إنكاره أن البدوي الصغير الذي تسخر منه الآن الذي قد لا يتجاوز العقد من عمره يقوم بكل سهولة باجتياز الجزيرة من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها يسوق أغنامه لا يوجد معه أي سلاح، سوى عصا بسيطة في يده، يقضي الليالي المظلمة في مهامه القفر، دون أن يخشى أو يخاف، بينما الواحد منكم - وقد تكون أنت منهم - يولد

في بيت أهله، ويشب ويترعرع في هذا البيت، ويبلغ الثلاثين والأربعين من عمره، ومع ذلك فهو لا يجرؤ أن يصعد درج هذا البيت متى غربت عليه الشمس وهو خارجه، ما لم يطلب من صبي البيت أن يُنزِل له الفانوس؛ لينير له الدرج، وقد تقبلها - رحمة الله عليه - بصدر رحب، وقد أنَّبَهُ المرحوم حسين نصيف بقوله: لقد نصحتك بألا تتعرض لهذا الشرقي، وظلت هذه الحادثة موضع تندُّر فيما بيننا.

كيف كنت أُقضي أوقاتي:

كنتُ أقضي سحابة نهاري في الغالب الأكثر عندما لا تكون لدي حصص تدريس في مدرسة الفلاح، كنتُ أقضي سحابة يومي في الطابق الأوَّل في منزلنا الجديد، الذي كان يتألف من ثلاث طبقات: الطبقة الأولى كانت مخصصة لي وحدي حيث أحفظ ملابسي، وحيث توجد أكوام تملأ جوانب الغرفة من الصحف والمجلات.

أما الطابق الثاني فكان مخصَّصاً للجواري والخدم، وأماكن الطبخ، وكان عدد الجواري في البيت لا يقل عن عشر على مختلف الأعمار.

وأمَّا الطابق الثالث فكان مخصصاً لأخي وأهله وأبنائه، أما السطح فقد كان موزعاً إلى ثلاثة أماكن، كل منهما مستقل بذاته، يفصله عن الآخر جدار لا يقل عن مترين. في جانب من هذا السطح قبة زجاجية ذات باب محكم كما سبق أن ذكرنا.

وكان هذا المجلس مقتصراً على استعمالي وحدي يوماً واحداً في الأسبوع، هو يوم الجمعة، أقضي فيه طيلة النهار بين هذه الأسطوانات وشرب الشاهي.

أما بقية أيام الأسبوع فهي خاصة بالأهل. ومن الواضح أنَّ التقاليد التي نسير عليها في هذا البيت هي التقاليد والأعراف نفسها التي كنا نسير عليها في مدينة عنيزة، ومعنى ذلك أن الأخ لا يرى زوجة أخيه بعد أن يبلغ

الحلم بأي شكل من الأشكال، وبالفعل فقد عشت في هذا البيت مع زوجة أخي الجديدة، أم أبنائه طيلة وجودي معها في هذا البيت، دون أن أرى أي جزء منها، وإذا كان ثمة ما يوجب الحديث معها فكان من وراء الباب.

إعتاق أخي للجواري:

وأذكر بالمناسبة أنه في عام ١٣٥٥هـ، في أواخر شهر رمضان من تلك السنة، وكنتُ وإياه حينئذ في المقعد الملاصق لباب المنزل من جهة الشرق، استدعاني، فوقفت أمامه، فأمرني بأن أصعد إلى حيث سكني في الطابق الأول وقال: أستدعي إليَّ بعضاً من الجواري الموجودات آنذاك في بيته. أستدعيهن إليَّ واحدة بعد الأخرى: أسألها عن اسمها الكامل، وعن اسم والديها، وعن البلدة التي وُلدت فيها، وفعلاً صعدت إلى سكني، وكانت الموجودات آنذاك على ما أذكر تسع إناث أذكر منهن: صفا، وسعيدة، ونجيبة، وميمونة، وسعاد، وسارة، وبشرى، وزهرة، وبركة، ولا أذكر الآن بقية الأسماء، ثم نزلت إليه وقرأتُ عليه الأسماء واحداً واحداً، فأملى عليَّ وأنا واقف ما يلي قائلاً: اكتب:

أنا عبدالله محمد الحسون، أقرِّر بطوعي واختياري بأنني قد أعتقتُ لوجهِ الله مملوكتي فلانة بنت فلان، وأنني أخيِّرها إن أحبت أن تبقى في البيت فهي تبقى حرة مكرَّمة، وإن أرادت أن تغادره فهي حرة أيضاً.

واستثنى من الإماء الموجودات ثلاث نساء هن: سعاد، وبشرى، وصفا، استبقى هؤلاء النسوة، وأمرني بأن أحرِّر صوراً من هذه الوثيقة لكل من هؤلاء الجواري ما عدا الثلاث، وبعد ساعة كنتُ كتبتُ هذه الوثائق، كل منهن على حدة، فقدمتها إليه فوقعها بتوقيعه ـ رحمة الله عليه ـ، وأمرني بأن أستدعيهنَّ مرة أخرى مجتمعات، وأسألهن أولاً عمن ترغب البقاء، وعمن ترغب الخروج وبعد أن سلمتهنَّ تلك الوثائق، وكان

مشهداً مُفجِّراً للعواطف ذلك المشهد الذي كان يحدث من كل واحدة منهنَّ عند استلام ورقة عتقها إذ كانت تجهش بالبكاء في منظر عاطفي مثير.

نزلتُ إليه وعرفته بمن ترغب البقاء في البيت رغم عتقها، وبمن تريد المغادرة، وكنَّ ـ أي من ترغب المغادرة على ما أذكر ـ أربع، وهنا فتح صندوقه الذي أمامه، وأخرج منه أربعين جنيهاً ذهباً سلمها إليَّ، وطلب مني أن أصعد مرة أخرى وأستدعي هؤلاء الأربع اللائي رغبن في الخروج وأدفع لكلٍّ واحدة منهن بيدها عشر جنيهات ذهبية مساعدة لها على استقبال حياتها الجديدة، موضِّحاً لها في الوقت نفسه أن هذا البيت الذي تخرج منه الآن برغبتها واختيارها حرةً طليقةً، سيظل فاتحاً باسطاً يديه حباً بها للعودة إليه في أي وقتٍ تشاء، معَّززةً مكرمةً، وكأنها لم تخرج منه، وذلك وفقاً لما أوصاني به أخي.

حكايتي مع الشيشة:

خلال تلك الفترة، أي: في أوائل الخمسينات، كنتُ قد تعلَّقت بشرب الشيشة، نتيجةً لمجالستي حسن مشهور، صهر حسين فايز، وكان يسكن معنا سابقاً في بيت مراد قبل انتقالنا إلى بيتنا الجديد، وكان يحضر لدينا في المقعد الذي كان موضع جلوسي، وشيئاً فشيئاً تعلقتُ بشربِ الشيشة حتى أدمنتُ عليها، فصرت لا أستطيع مفارقتها، وكان يتم ذلك خفيةً عن أخي، وأذكر أنه أثناء ذلك، وكنتُ آنذاك لا أزال على مقاعد الدراسة في السنة النهاية بمدرسة الفلاح، اتفقت مع صاحب مقهى خارج سور جدة شرقي مدرسة الفلاح، هذا المقهى يسمى قهوة الفحم، ويقابله من جهة الجنوب مقهى آخر يحمل الاسم نفسه، يفصل بينهما شارع لا يقل عن خمسة أمتار تقريباً وهذه المواقع آلت ملكيتها إلى أخي، ومقام عليها ما يعرف الآن بشارع الحسون بباب مكة.

اتفقت مع صاحب هذا المقهى أن يحضر لي الشيشة بمجرد أن يسمع

صفارة المدرسة الخاصة بفترة الفسحة الصباحية التي تفصل بين الحصتين الأوليين والحصتين الأخيرتين، فما تكاد الصفارة تطلق حتى أهرول بأقصى سرعة إلى ذلك المقهى.

وكما أشرت فإنَّ موقع هذا المقهى والمقهى الآخر والمنطقة التي بهما قد آلت ملكيتها إلى أخي بعد شرائها من الأفندي محمد نصيف، وأنشأ عليها أملاك الحسون في نهاية الستينات الهجرية.

ظللت أشربُ الشيشة طيلة هذه المدة، موهماً نفسي بأنَّ أخي لا يعلم عن هذا الموضوع، مع أنني الآن أعلم يقيناً أنه كان يعلم، وإنما كان يغض النظر ويتجاهل، كنت أغتنم فرصة صعوده إلى عائلته في الطابق الثالث من منزلنا بعد صلاة العشاء في كل يوم، فأبادر بإرسال حسين ينبعاوي البواب إلى قهوة سوق الجامع فيحضر لي الشيشة بأسرع وقت، وكان الصديق الأستاذ محمود عارف يشاركني في تعاطي شربها حينما نجتمع مساء كل يوم أحد لقراءة الصحف والمجلات الواردة من مصر على الباخرة، كما أشرت سابقاً.

وكان حسين البواب يَلقى التعب والعنت منا، يظل رابطاً على مقربةٍ منا عند الباب ويذهب ما بين كل نصف ساعة وأخرى لتغيير الرأس، أي رأس الشيشة، وجلب براد شاهي من جديد.

وفي أحد الأيام، وكنت عادةً أجلس مكان أخي أمام البشتخته، أي: الصندوق الذي يجلس أمامه، وفيه أوراقه، والكثير من النقود، وعادةً عندما ينزل في الصباح في طريقه إلى الكنداسة يدخل المقعد، ويفتح هذه البشتخته، ويأخذ منها ما قد يحتاجه من نقود أو أوراق.

كانت أرضية المقعد مفروشة بالبلاط، وصادف في أحد الأيام أن مكثتُ أنا والأخ محمود عارف إلى قرب الفجر، حيث ودَّعني مُتوجِّهاً إلى بيته، الذي كان يقع في الزاوية الشرقية الشمالية من مسجد الشافعي

بسوق الجامع خلف بيت رضوان، أما أنا فقد استمررت في القراءة، ويبدو أنَّ طول السهر جعل النعاس والنوم يتسرب إلى أجفاني فأفقدني ذلك الحس والحركة من حيث لا أشعر، وكنتُ واضعاً رأسي على الجرائد التي كانت متكومةً فوق البشتخته ممسكاً في الوقت نفسه بالشيشة، ويبدو أن حركةً بدرت مني نتج عنها سحب اللي، فاهتزت الشيشة وسقطت على الأرض، وتحطم رأس الشيشة، وانتثر الماء والرماد على أرضية المقعد.

لم أشعر إلا بيد تربَّت على كتفي بعنف، وإذا الصوت صوت حسين البواب يقول لي بعنف وفزع: يا عم إبراهيم قم.. قم! فرفعتُ رأسي ويا لهول ما شاهدتُ: كانت الشمس مشرقةً، ومعنى ذلك أنَّ أخي قد نزل، وشاهد المنظر، فسألت حسين بلفهة: هل نزل عمك إلى الكنداسة؟ قال لي: نعم، مرَّ، ووقف بباب المقعد، وشاهدك وأنت نائم، وشاهد الشيشة، ورأس الجراك والماء المنبعث عن الشيشة مع الرماد على أرضية المقعد، وقف ثم خرج دون أن يدخل المقعد.

وهنا وقعت في موقف لا أحسد عليه إذ ماذا سيكون الأمر؟ لا زالت حادثة الداشر، وحادثة البيه عند السحاحرجي بحارة الشام، لا زالتا غائرتين في أعماق تفكيري، ومعنى ذلك أنَّ ما سألقاه من أخي يفوقهما معاً عنفاً وقسوة.

لم يكن لي من حيلة، أو وسيلة، إلا أن أصعد إلى غرفتي، فأتمدد على فراشي طالباً من الجارية صفا أن تغطيني، مظهِراً أنني مريض، أحس بقشعريرة وبرد، طالباً منها أن تضاعف عليَّ الأغطية وأن لا تُنَزِّل لي الغذاء كالمعتاد لأنني مريض، نفسي لا تشتهي الأكل، وأن تشعر سيدتها بذلك، أي زوجة أخي آملاً بأن تبلغه عن طريقها عن المرض الذي ألَّم بي فجأةً، مما استغنيت بسببه عن تناول طعام الغداء، مع أنني يعلم الله في أشد حالات الجوع.

حضر أخي كالعادة من الكنداسة بعد أذان الظهر كالمعتاد، تناول طعام غدائه، ثم نام قيلولته كالمعتاد ساعة أو ساعتين، ثم عاد إلى عمله في الكنداسة قبيل العصر كالمعتاد، أما أنا فقد تنفست الصعداء حينما علمت بأنه عاد إلى عمله في الكنداسة، فجلست أمام الروشان الخشبي المطل على الشارع أفكر كيف أحتال بطلب الأكل، وبينما كنت كذلك، وكان الوقت قبيل المغرب بنحو ساعة إذا بي أرى محمود يغمور - يرحمه الله - قادماً من برحة مراد باتجاه بيتنا، وكان يحمل شيشة عدنية جديدة طولها أكثر من متر ومعها لَي جديد عدني يبلغ طوله ستة أمتار وأربعة رؤوس جراك ضخمة، وثلاث علب جراك من وارد باعشن الممتاز، وينادي عليَّ بأعلى صوته: يا إبراهيم الحسون إنزل! وكان معه صبي حجازي يمشي خلفه ويحمل في زنبيله هذه الأشياء التي ذكرت.

كان يناديني بإلحاح، وكنت متهيِّباً من النزول إليه، إذ كان ذلك الوقت موعد عودة أخي إلى البيت، فكيف يكون الموقف لو رآني واقفاً أسفل مع محمود يغمور، وهو يعلم أنني مريض لم أتناول الغداء من أجل المرض، ولكن محمود يغمور أخذ يوالي الصراخ عليَّ، فلم أر بُدّاً من النزول إليه.

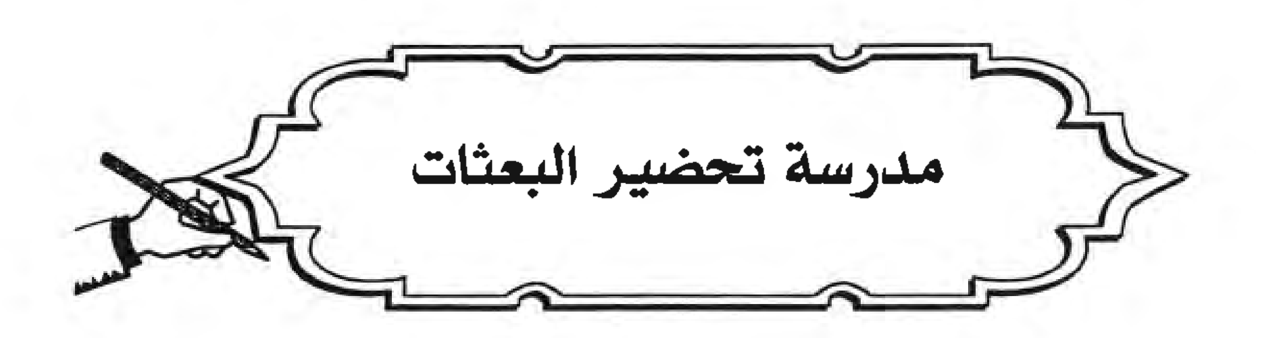
وفي هذا الظرف أمر الحامل بأن يضع الزنبيل على الأرض، وطلب مني أن أستلم منه هذه الأغراض موضحاً أنه مُعمَّد بشرائها، وتسليمها لي من قبل أخي، وغنيٌّ عن الشرح حالة الذهول والسرور معاً اللتين شعرتُ بهما ساعتئذ، وهنا انفتحت نفسي، وأمرت البواب حسين بأن ينادي على الجارية صفا بأن تنزل غذائي.

كان هذا التصرف من أخي تصرفاً له مدلول، وفعلاً فقد خاطبني في تلك الليلة حين حضوره كالعادة إلى المقعد، بعد المغرب مباشرة، قائلاً: هل جاءك محمود يغمور هذا المساء، وسلمك الأغراض التي أمرته بأن يشتريها لك؟ قلت: نعم. فقال: أين هي؟ (وكنت بعد

استلامها من محمود يغمور أمرت البواب حسين ينبعاوي بأن يضعها في القاعة الملاصقة للدرج في أقصى الدهليز) قلت له: هي موجودة، فأمرني بإحضارها، وكان البواب حسين على مقربة منا يسمع فأحضرها. قال لي بعد أن رآها: هل ينقصها شيء؟ قلت: لا. كاملة: لَيْ وشيشة وثلاثة رؤوس، وثلاثة علب جراك. قال: أنا أمنتها لك طالما أنك لا تستغني عنها، ولكي تغنيك عن ولوج المقاهي، إذ بلغني أنك واضع لك شيشة في قهوة الفحم، خارج باب مكة.

شكرته على صنيعه هذا، ونصبتُ الشيشة أمام مكتبي في داخل المكتب ونفشت مزهوّاً كالطاووس أمامي الشيشة العدنية العملاقة، ولَيُّها الذي يبلغ عدة أمتار أناغيها على مكتبي دون خوف أو وجل.





مدرسة تحضير البعثات

سارت حياتي رتيبةً خلال السنوات التي تلت تخرُّجي من مدرسة الفلاح، وهو عام ١٣٥٢هـ، كنتُ أقضي أوقاتي سحابة النهار - إذا لم يكنْ لدي حصص للتدريس في مدرسة الفلاح في ذلك اليوم - كنت أقضيها بين الصحف وأحضان الكتب، ولَيُّ الشيشة لا يكاد يفارق فمي، وقد بلغ بي الهوس أو السرف في الواقع أن أخذت أضع في جوف الشيشة ماء الورد بدلاً من الماء العادي، وكنت في غاية السعادة.

الذهاب مع أخي إلى الكنداسة:

وفي كثير من الأوقات أذهب إلى الكنداسة، أجلس بجوار أخي في مكان عمله، وكثيراً ما كان يترك مكانه، ويطلب مني أن أعمل بدلاً منه، وقد يعود لي، وقد لا يعود لأنني عالم بطريقة العمل المتبع، من حيث إقفال المواسير وإيقاف الصرف عند آذان الظهر، والقيام بوزن كميات المياه في خزانات المياه، وتسجيل الكميات المتوفرة بها، ثم عد نقد الإيرادات، وتسليمها لأمين الصندوق إبراهيم السليمان التركي، أو الذي خلفه في أمانة الصندوق عبدالوهاب زاهد، حيث انتقل إبراهيم السليمان للعمل في مستودع أرزاق الحكومة.

حياة هانئة قريرة:

ظلت هذه الحياة بالنسبة لي هانئةً قريرةً لا يكدرها شيء. في المساء

أنشغلُ بملاحقة السقَّائين أينما وجدوا، وكانت أماكن تواجدهم متفرقةً ما بين داخل جدة وخارجها، كما سبق أن شرحت.

كانت حياتي آنذاك ناعمةً مرفَّهة، كلُّ ما أتمناه موفرٌ بين يدي: صحف، كتب، جراك، بغلة أركبها حيث لا يتوفر سيارات، نقود بين يدي لا أُسأل عما أصرِف، وإنما كان ينقص سعادتي هذه عنصر وحيد فقط هو أن يزال هذا الحاجز الواهي بيني وبين أخي بحيث يصبح في وسعي أن أجلس أمامه يحدِّثني وأحدِّثه، وأبادله أطراف الأحاديث والآراء، ولكن كان ذلك لسوء حظي خامس المستحيلات، وقد أوْضَحتُ هذه النقطة فيما سلف من هذه الذكريات ما يغني عن تكرارها.

الإعلان عن مدرسة تحضير البعثات:

في أواخر عام ١٣٥٥هـ أعلن على نطاق رسمي أنَّ مديرية المعارف، وكان يرأسُها آنذاك الوطني الشجاع، الرجل الوقور، السيد طاهر الدباغ الذي عُيِّن مديراً للمعارف، في ذلك العام أعلن بأن المعارف ستفتح بدءاً من غُرَّة محرم عام ١٣٥٦هـ مدرسةً داخليةً باسم (مدرسة تحضير البعثات)، وأُعطِيتُ إيضاحات عن المواد التي ستُدرَّس في هذه المدرسة، وهي مواد متميِّزة لم تكن متاحة للمدارس آنذاك، إذ أنَّ موادها ستنحصر في تعليم اللغة الإنكليزية على نطاق متخصِّص وموسَّع، وعلى الجبر والهندسة سواء كانت نظريات أو تطبيقات، وعلى علوم الاجتماع، ومواد أخرى، لا أذكرها الآن، ولكن كلها من هذا النوع والمستوى.

والغرض من إنشاء هذه المدرسة أن يُتمَّ الطالب الدراسة فيها لمدةِ ثلاث سنوات، ثم يُبْعَث إلى جامعات القاهرة، إذ قد يكون قد نال من التحصيل ما يؤهِّله لدخول تلك الجامعات.

الهدف الأساسي من الابتعاث إلى القاهرة:

الهدف الأساسي من هذا الابتعاث إلى القاهرة هو الحصول على شهادات عليا في مختلف العلوم، كالبكالوريوس والليسانس والماجستير والدكتوراة، وما أشبه ذلك من شهادات عليا متخصِّصة.

كان الإعلانُ قد نُشر في جريدتي أم القرى وصوت الحجاز إن لم تخني الذاكرة، وكان ينصُّ على أن هذه المدرسة، أي مدرسة تحضير البعثات ستكون داخلية، مقرها مكة في شارع السوق الصغير، وستستقبل الراغبين من مكة وخارجها كجدة والمدينة وغيرها، بحيث يؤمَّن لمن هو من خارج مكة الأكل والمسكن داخل هذه المدرسة، بالإضافة لجميع الكتب المدرسية المقررة، وقد استؤجر لهذا الغرض بيت البوقري في السوق الصغير.

رغبتي في مواصلة الدراسة:

كانت أغلى أمنياتي في الحياة آنذاك أن تتاح لي فرصة مواصلة الدراسة للحصول على أعلى مستوى علميّ ممكن، لأنني على كثرة ما كنت أقرأ من كتب وصحف ومجلات أحسُّ بأني في أول السُّلَّم بالنسبة للعلم والمعرفة، ولذلك كان هذا الخبر بالنسبة لي أشبه بقطرات المطر التي تتساقط على أديم الصحراء في جمرة القَيْظ، استحوذ هذا الموضوع على تفكيري بحالةٍ أشبه بالهوس.

محاولة إقناع أخي لمتابعة دراستي:

ولمَّا كانت البراميل، وموضوع تأجيرها، وما يتعلَّق به في عهدتي، ومن الواضح أنه لا بد من شخص يرضى عنه أخي، ليقوم بهذه المهمة نيابةً عني.

كان هناك رجل فاضل من رجال التعليم البارزين وهو أحد أساتذتي، عندما انتقلت إلى الفصل الرابع في المدرسة الرشدية المجاورة لمسجد الباشا، من جهة الغرب، في حارة الشام، خلال الأشهر الأولى من عام ١٣٤٦هـ، أي قبل انتقالي إلى مدرسة الفلاح مباشرةً.

توسيط أستاذي عبدالوهاب سنَّاري:

كان هذا الشخص على جانب كبير من سعة الثقافة، وغزارة المعرفة، وسماحة الخلق، ويدعى عبدالوهاب مصطفى سُنَّاري، كان على صلةٍ وطيدةٍ

بأخي، كثيراً ما يحضر عنده في المقعد، ويمكثون الساعات الطِّوال يتجاذبون أطراف الحديث، وكان أخي يرتاح إليه، ويفضِّل الجلوس معه، لذلك فقد وجدتُها فرصةً في رغبتي في الالتحاق بهذه المدرسة على يد الشيخ عبدالوهاب مصطفى سنَّاري، ورجوتُه أن يستعمل الوسيلة التي يراها بلباقته المعروفة ليمهِّد لأخي، ويحسِّن له ضرورة تمكيني من الالتحاق بها عندما يجتمع به، نظراً لشدة تعلُّقي بها، وتطلعي إلى تحقيقها، وأفهمته أنني أنتظر منه بحث هذا الموضوع في أسرع وقت ممكن لأنه لم يبق على افتتاح المدرسة سوى عشرة أيام فقط.

رفض أخي لرغبتي:

بعد يومين حضر إليَّ الشيخ عبدالوهاب مصطفى سناري، وأفهمني بأنه لم يستطع إقناع أخي بالموافقة على رغبتي، مدلِّلاً على رفضه لهذه الفكرة أنه قد وفَّر لي كلَّ أسباب السعادة، وأنه بالنسبة للعلم والمعرفة قد بلغت في نظره أعلى مستوى ممكن. كما يسمع من جلسائي حينما يجلسون إليه.

صدمة شديدة:

كانت الصَّدمةُ شديدةً بالنسبة لي وموجعة أيضاً، فهو فعلاً كما يقول قد وفَّر لي جميع أسباب السعادة، وقد أتاح لي فرصة القراءة والاطلاع، ولذلك فإنه في نظره لا مجال للموافقة على طلبي.

كنت أحسُّ بصدق هذا التبرير، ولكن ينازعني من الجانب الآخر الشوق الملِّح إلى العلم والمعرفة، يقيناً مني بأنَّ هذه الحياة المرفَّهة التي وفَّرها لي أخي، واستند إليها في تبريره، إنما هي مظهر سطحي، لا وزن له في واقع الحياة الواعية، فالعلم والمعرفة وحدهما هما السعادة الكاملة الخالدة.

إعادة المحاولة:

ظللت أفكر عدة أيام في الموازنة بين الإذعان لرغبة أخي، أو التمرُّد عليه، وتحقيق رغبتي، وكانت الرغبة الأخيرة هي الأوفر حظاً في نفسي،

وكانت تتضاعف عمقاً يوماً بعد يوم، ولذلك فقد أسرعتُ في اليوم الثالث من لقاء عبدالوهاب مصطفى سناري إلى لقائه في بيته، وكان يسكن في حارة الشام، على مقربةٍ من المحكمة الشرعية، الموجودة آنذاك بجوار الزاوية المقابلة لبيت المغفور له محمود شنكار من جهة الشرق.

طرقت عليه الباب ليلاً، وكان ذلك بعد أن صعد أخي إلى السطح كعادته في مثل هذا الوقت كل ليلة.

فوجىء الرجل بمجيئي في هذا الوقت من الليل، وكان على ما يبدو يستعد للذهاب إلى فراشه، ولذلك فاجأني بقوله: خيراً إن شاء الله؟ قلت: أرجو أن يكون ذلك.

أوضحت له بأن حرماني من الالتحاق بهذه المدرسة شيء يتساوى مع إعدامي، وأنني مصمِّمم كلَّ التصميم على ضرورة الالتحاق بها مهما كانت الظروف.

قال: أنت تعلم صلابة أخيك، وصعوبة إقناعه بالعدول عن رأيه، ولكني مع ذلك تقديراً للهدف السامي الذي تسعى من أجله، وهو الاستزادة من العلم، مضحياً بكل ما أنت فيه من رفاهية ورغد، سأعيد الكَرَّة معه مرةً أخرى، وسأبذل جهدي في إقناعه، وشرح الغاية النبيلة التي تروم الوصول إليها، وأنك لو تعلم أنَّ ما تهدف إليه سيسبب ضرراً يلحَق بأخيك ستبذل له حياتك دون أن يقع فيه.

آخر الدواء الكي:

شكرته بحرارة ملوِّحاً له، وأنا أودِّعه، بأنني أنتظر منه الإجابة السريعة الحاسمة، ومشيراً بأنَّ آخر الدواء الكيّ، وأعني التمرُّد على إرادة أخي، وهذا ما لا أحبُّه.

بعد يومين من هذا اللقاء علمت أنَّ عبدالوهاب سناري قد اجتمع بأخي أكثر من مرة، كما فهمت من حسين ينبعاوي البوَّاب، إذ أخبرني أنَّ

عبدالوهاب سنّاري حضر لأخي ثلاث مرات أثناء غيابي عن البيت في ملاحقة أجور البراميل، وأنه كان يسمع نقاشاً حاداً بين الاثنين يبلغ إلى حد الغلظة والتوتُّر، وأنه في اللقاء الأخير قد سمع أخي يقول مخاطباً عبدالوهاب: ما دام الأمر كذلك فهو حرٌّ ليذهب حيث شاء، وإني بعد الآن لن أعترف بأن لي أخاً يُدعى إبراهيم.

فهمت من البوّاب حسين صورة عامة عن النقاش، ومع ذلك فقد تفاءلت ورجَوْتُ خيراً.

وبعد عودتي إلى البيت بحوالي الساعة الرابعة بالتوقيت العربي من ليلة ١٢/٢٧/ ١٣٥٥هـ أخبرني حسين البواب بأنَّ عبدالوهاب سناري يطلب مني أن أتوجَّه إليه حال حضوري إلى المقعد وأنه في انتظاري.

أسرَّني ذلك كثيراً، فأسرعت إليه في داره، فوجدته في انتظاري، وعندما أقبلت إليه في مجلسه وقف وقال: أبشُرك فقد انحلت العقدة، ولكن بعد جهدٍ ومشقة، وبعد قيد التزمت به بالنسبة لأخيك، ثم أوضح لي الموضوع وملخصه: أنَّ أخي وافق على أن أذهب حيث شئت، وأنه بعد الآن لن يعترف بأيِّ صلةٍ تربطني به، وأنَّ عبدالوهاب سناري تعهَّد له بأن يستلم مني سجلات البراميل وحساباتها، ويقوم بجباية إيراداتها ريثما يتحصلون على موظف يسندونها إليه.

كان فرحي بالغاً، وإن كان قد عراني شيء من الدهشة والذهول، لأن يبلغ الانفعال بأخي بأن يتبرأ مني، وأن يقطع كل صلة تربطني به. إلا أنني كنت أشعر من الجانب الآخر أنَّ هذا الانفعال سحابة صيف، لا تلبث أن تزول مهما كانت الظروف.

التمهيد للسفر:

شكرت عبدالوهاب سنّاري، وعدت إلى البيت، وأخذت أرتِّب ملابسي وحاجياتي تمهيداً للسفر، وفي مساء ذلك اليوم راجعت إدارة

البريد عن سيارة تقوم مساء كل يوم من جدة إلى مكة، وكان قد نُشِر في الصحف أنَّ إدارة البريد قد عُمِّدت بإركاب من يراجعها من الطلاب الذي يرغبون الالتحاق بمدرسة تحضير البعثات، وكان موقع إدارة البريد في جدة آنذاك بجوار باب الصبة غرب جدة. وعلمت أن الأمر موجود لديهم فعلاً، وأنه في وسعي أن أحضر إليهم غداً الساعة العاشرة مساءً، أي الرابعة عصراً بالتوقيت الإفرنجي، حيث تغادر السيارة إلى مكة.

زفُّ البشرىٰ للأصدقاء:

قضيت ذلك اليوم، وصباح اليوم الثاني فرحاً مسروراً، ذهبت إليهم أزفُّ إليهم البشرى: صديقي الوحيد المرحوم عبدالوهاب باناجة، والإخوان: حسين بكري، وحمزة خُمَيِّس، وشحاتة قنديل رحمهم الله، والأخ محمد نور جمجوم، والأخ صدقة أبو زيد أمدَّ الله في حياتهما وهم زملائي الخرِّيجين من مدرسة الفلاح. وكذلك لرفقاء الشلة محمد سعيد العوضي أمدَّ الله في حياته، والأصدقاء السيد علي عمر فكهاني والسيد محمد أحمد بن حمِد والعقدة محمد علي أصفهاني رحمهم الله جميعاً، وقد اغتبطوا لذلك وتمنوا لي مزيداً من التوفيق.

قصيدة الصديق الشاعر محمود عارف:

وكان الصديق محمود عارف أمدَّ الله في حياته[1] قد انقطع عن الحضور إليَّ في المقعد كالعادة لمرضه، ولكنه عندما سمع بالخبر حضر إليَّ في تلك الليلة ليلة السفر، ومكثنا معاً حتى وقت متأخِر من الليل وقد جادت قريحته تسجيلاً للمناسبة بأبيات شعرية، كتبها بخط يده، وهي موجودة لديَّ محفوظة، وكانت ثالثتنا في الجلسة تلك هي شيشة الجراك، فقد ذكرها نصّاً في تلك القصيدة.

---

(١) انتقل إلى رحمة الله تعالى أثناء تصحيحي لتجارب الكتاب في آخر ذي القعدة ١٤٢١.

دموع الوداع:

أنشد الشاعر هذه الأبيات وداعاً لصديقه الحميم إبراهيم المحمد الحسُّون، وذلك منتصف ليلة السابع من شهر محرَّم عام ١٣٥٦هـ، وكان ذلك في مقعد الأخير الكائن بداره في حارة المظلوم بجدة، بمناسبة اعتزامه - أي: إبراهيم الحسُّون - السفر صباح اليوم التالي إلى مكة المكرمة، للانضمام إلى مدرسة تحضير البعثات التي أنشأتها في ذلك العام المديرية العامة للمعارف، في عهد مديرها العام السيد طاهر الدبَّاغ رحمه الله.

ضاع صبري أوّاه يوم الوداعِ ... يا لبعد أراه غير مطاقِ
ضاع صبري فمن يخفف عني ... ما أعاني من قلبي الخفاق
أيهذا الحسون قلبي أمسى ... بين ناري كآبة وفراق
نار حزن تأرثت في فؤادي ... أشعلتها عواطف الأشواق
ولظى فرقة - وقيت لظاها ... أنا منها في رجفةٍ واحتراق
مَن لصفوي؟ وقد عرفتك دهراً ... تبعث الصفو في قلوب الرفاق
مَن لأُنسي؟ وكنت في القرب أنسي ... وشريكي في غايتي واعتلاقي
يا رعى الله عهد تلك الليالي ... عهد طيب اللقاء وصفو الوفاق
عهد أن كنت ثاني اثنين والشيـ ... ـشة نحسو جراكها في استباق
الصفاء الذي عرفناه حلواً ... عاد بعد الفراق مُرَّ المذاق
والزمان الذي قضيناه لهواً ... خَلَّف اليوم حسرةً في التراقِ
والوداد الذي شربناه عطفا ... لم يدم نبعه، وما دام ساق
طِرْ إلى المجد في عزيمة نَسْرٍ ... وتحمَّل فيه أليم المشاق
فإذا ما ظفرت بالمجد أرسل ... نغمات الحسُّون في الآفاق
يا نزيلاً بأرض مكة هذي ... نفثات من الشعور بواقي
سجَّلتها بواعث الودِّ في الشـ ... ـعر فسالت من نبعها الدفَّاق
قد سرت في السطور ناراً تلظَّى ... ودموعاً سريعة الانطلاق

إنــمــا هــذه الــدمــوع رســالا ت فــؤاد مــحــطَّــم الأعــراق
تُـذكِـرُنـا الـحـيـاة بُـعْـدَك حـتـى يـقـضـي الله أمـره بـالـتـلاقـي
فـسـلام عـلـيـك مـا نـاح طـيـرٌ شـاكـيـاً لـلـطـيـور بَـرْح الـفـراق

محمود عارف
٧ ـ ١٣٥٦/١/٨هـ

سفري إلى مدرسة تحضير البعثات بمكة:

في مساء اليوم الثاني توجَّهت إلى البريد، ومعي البواب حسين، يحمل شنطة ملابسي، وهناك أمام سيارة البريد لاحظت عن بُعد النسيب زامل المحمد العبدالرحمن، الزامل شقيق زوجة أخي رحمه الله، شاهدته فأومأ لي بيده عن بُعد إشارة الوداع، فبادلته بمثل ذلك.

وصلنا مكة حوالي الساعة الثالثة ليلاً، أي التاسعة، فقد تعثرت السيارة للتغريز في منطقة ما بين جدة والعلمين، لمدة لا تقل عن ساعتين، ولم تكن الطرق آنذاك قد سفلتت.

لجهلي بمكان السوق الصغير، وبموقع المدرسة في بيت البوقري الذي أُعلن عنه مقراً للطلاب، سألت سائق سيارة البريد عمَّا إذا كان يعرف هذا المكان؟ فأجاب بنعم، فرجوته أن يوصلني إلى الموقع وفعلاً وصلت إلى موقع المدرسة.

زملاء الدراسة:

سبقني إلى الدار هذه كل من الزملاء معتوق باحجري، وحسن يوسف نَصِيف، ومحمد بادكوك، وكان معهم المسؤول عن الدار والمشرف على الطلاب السيد عقيل عبدالله غمرى، أرشدني المشرف أين أضع حاجياتي، وكانت هناك حجرة مستطيلة في الطابق الثاني من المبنى، وُضِعَتْ في أركانها أربعة سرر، ومعنى ذلك أنها مخصصة لأربعة من الطلاب، وأمام كل سرير مشجب لتعليق الحوائج.

وصف مبنى المدرسة:

كان المَبْنى يتكون من طابقين وسطح: في الطابق الأرضي صالون مستطيل في حدود عشرة أمتار في ستة أمتار تقريباً، وهو الذي يلي الباب الخارجي من الداخل مباشرة، كما يوجد في هذا الطابق ثلاث غرف كبار هي فصول دراسية، وُضعت فيها الدروج والمقاعد، لتَسَع ما لا يقل عن تسعة أو عشرة طلاب، ومثلها غرفتين أخريين بالترتيب نفسه، كلها، أعني الغرف الثلاث، مجهزةٌ بالأدراج والمقاعد والسبُّورات، وكرسي للأستاذ وطربيزة خشبية أمامه، كما يوجد في جانب آخر معزولاً عن هذه الغرف غرفةٌ واسعة، اتُّخِذت مطبخاً، ويُدخل إليها من جانب آخر عن طريق الباب الرئيس للمبنى، كما يوجد بها أماكن لوضع مستلزمات الطبخ، وأماكن لجلوس الطباخ ومعاونيه والمستخدَمين من الفرَّاشين وغيرهم.

أمّا الطابق الثاني ففيه صالون يعلو الصالون الأسفل، وهذا مكانٌ يتناول فيه الطلاب وجبات الطعام، وفي هذا الطابق خمسة غرف أخرى مجهَّزة بأربعة أسرَّة بفرشها وما يلزم لها.

أما السطح فكان ساحةً واسعةً، فيه أسرَّة بعدد الطلاب الموجودين، وفوق كل سرير ناموسية من الشاش، لحماية الطلاب من الناموس (البعوض) الذي لم تُجْدِ معه نفعاً تلك الناموسيات، فهو فضلاً عن إقلاق راحة الطلاب بما يحدثه من زنين وأصوات فإنه ما يكاد يجد فجوة حتى يهجم على جسم الطالب يوسعه لسعاً.

تكامل وصول الطلاب:

ما كاد ينتهي يوم ٣٠ ذي الحجة عام ١٣٥٥هـ حتى تكامل وصول الطلاب الملتحَقين بهذه المدرسة من خارج مكة، وهم: معتوق باحجري، وحسن يوسف نصيف، وإبراهيم محمد الحسون، ومحمد بادكوك، وشحاتة قنديل، ويحيى كتُّوعة من جدة، ومن المدينة المنورة: منصور عارف، وعبدالحميد عبدالقدير.

المشرف على المدرسة:

كان المشرف على المدرسة السيد عقيل عبدالله غمري، وهو الذي أنيط به، فضلاً عن مراقبة الطلاب وسلوكهم، وحفظ النظام بينهم به، تأمين معيشتهم فهو المسؤول عن تأمين احتياجات المطبخ ومستلزماته، وكان بحقٍّ على قدر المسؤولية، وعلى قدرٍ من نزاهة اليد والضمير، والإخلاص في العمل. كان يمدُّ السفرة على الأرض في الصباح لتناول وجبات الفطور، وكانت تتألف من جبنٍ وبيض وحلاوة وأحياناً يأتي بتونة، والفول طبق أساسي.

أما الغداء فيتألَّف عادة من الخُضْروات والرز واللحم وسلطة ونوع واحد من الفواكه، حسب توفرها في موسمها، وكان كثيراً ما يستشير الطلاب ـ رحمة الله عليه ـ عما يرغبون أن يأكلوه في الوجبات الثلاث، فيؤمِّنُها لهم.

بَدْء الدراسة:

في صباح اليوم الأول من محرم عام ١٣٥٦هـ تناولنا الفطور مبكراً، قبل شروق الشمس، ثم بدأ يتوافد علينا الطلاب المنتسبون من أهل مكة، وهم على ما أذكر: صالح مداح، آدم سُناري، حامد هَرَساني، جميل قطَّان، سيف الدين عاشور، شرف كاظم، حسن شطا، أحمد شطا، عمر بن عقيل، وسعيد آدم.

أساتذة المدرسة:

ثم دخل علينا مدير المعارف العامة السيد طاهر الدباغ ـ رحمة الله عليه ـ، ومعه كل من الأستاذ رشوان محفوظ، والأستاذ محمد أبو حامد، وهما أستاذان مصريان أحدهما للرياضيات وهو الأستاذ رشوان محفوظ، والثاني الأستاذ أبو حامد للغة الإنكليزية، ثم قدم بعدهما الأستاذ إسحاق عزوز من أساتذة مكة للغة العربية، وكان هؤلاء هم كل الأساتذة عند بدء الدراسة.

كلمة مدير المعارف:

جرى التعارف فيما بين طلاب الدار، وطلاب مكة، ثم تلي ذلك كلمةٌ قيمة توجيهية، موجَّهة لنا جميعاً طلاباً ومعلمين، من مدير عام المعارف السيد طاهر الدباغ، شارحاً لنا الهدف النبيل الذي رَمَت إليه الحكومة من إنشائها لهذه المدرسة، وعلى هذا المستوى، وأنها بالإضافة إلى ذلك تتولى الإنفاق عليها في جميع احتياجاتها، وأنها ستبعث طلابها إلى الخارج عندما يتمُّون الدراسة فيها، لكي يحصلوا على أعلى الشهادات العالية على نفقتها، دون أن يتكلَّف الطالب قرشاً واحداً، ثم خصَّنا جميعاً طلاباً ومعلمين بأن ينظر أحدنا إلى الآخر كأصدقاء وكأخوة تربطهم آصرة المحبة والاحترام.

توزيع الطلاب:

تجوَّل المدير العام، ونحن معه على الفصول الأربعة، وحينما رأى أن من الأفضل نظراً لقلة الطلاب الموجودين، أن يوضعوا جميعاً في فصل واحد إلى أن يتمَّ وجود طلاب أكثر، وفعلاً تمَّ ذلك ووُزِّعنا على المقاعد في إحدى الغرف.

توزيع الكتب المقررة:

وكانت الكتب المقررة قد هُيِّئت ضمن صناديق موجودة في أحد جوانب الصالون الأرضي، ووزِّعت علينا نحن الطلاب، واحداً واحداً، ثم رأى مدير عام المعارف أن يؤجِّل بدء الدراسة إلى يوم غد، وأن يترك فراغ هذا اليوم لتبادل الأحاديث، والتعارف بين الطلاب والأساتذة، وبين طلاب مكة وخارجها. وفعلاً تمَّ ذلك، فقضينا هذا اليوم بتبادل الأحاديث، وكانت أعمارنا تتراوح ما بين خمسة عشر سنة إلى عشرين سنة أو اثنتين وعشرين، وكان أكبرنا سناً معتوق باحجري رحمة الله عليه.

انتظمت الدراسة منذ صباح اليوم الثاني من شهر محرم عام ١٣٥٦هـ، كما مرَّ آنفاً، وسارت هانئةً راضيةً يسودها الحب والألفة بين الأساتذة

والطلبة، وكانت عناصر الود تتأصَّل يوماً بعد يوم، وتتعمَّق أكثر فأكثر بين هؤلاء جميعاً.

مواد الدراسة:

كانت مواد الدراسة التي وُزعت علينا كتبها تنحصر في علوم الهندسة النظرية والتطبيقية وعلوم الجبر على مختلف تفرعاته وشعبه، وكذلك علم الأحياء والجغرافيا والكيميا والفيزياء واللغة الإنكليزية، وتوجد ضمن حصص الأسبوع الدراسية قلة من المواد العربية لا تتجاوز الست حصص في الأسبوع، وكانت متساويةً من حيث عدد الحصص بين اللغة العربية وما يتعلق بها من علم المنطق والبديع والبيان والاشتقاق والصرف والنحو وما إلى ذلك، وعلوم التاريخ والاجتماع، كمقدمة ابن خلدون وتاريخه، ومحاضرات الخضري في تاريخ الدول الإسلامية الأولى كالأموية والعباسية في المشرق، ثم الأموية في المغرب، أي في إسبانيا، ثم في تاريخ الدول التي نشأت هنا وهناك على امتداد رقعة الأرض الإسلامية من شرقها بحدود الصين إلى غربها في المغرب العربي، ودويلات الأندلس (الطوائف)، ودولة البويهيين والحمدانيين والسلاجقة والدولة الخوارزمية، ثم نشأة الدولة العثمانية وتزعمها للعالم الإسلامي، وحملها لراية الخلافة، واستعادتها لهيبة الإسلام وسطوته، إذ قُدِّر لها سلاطين عِظام كانوا يقضون السنوات الطوال يتقدمون جنودهم في ساحات النزال، وقد سقط كثير منهم صَرْعى شهداء في ساحات القتال في البلقان وأوروبا، حتى تمكنوا بفضل الله ثم بفضل صدقهم لعقيدتهم أن يقفوا بحوافر خيولهم على أبواب مدينة فِينَّا العاصمة النمساوية.

بركة ماجن وقهوة باجراد:

سارت الأمور في جو يسوده الحماس من كلا الجانبين، طلاباً وأساتذة، وكنا طلاب القسم الداخلي نخرج مساء كلِّ يوم بعد صلاة العصر مباشرة سَيْراً على الأقدام إلى مكان يبعد عن السكن يدعى (بركة ماجن) في

الجهة الجنوبية الشرقية من مكة المكرمة، وكان يوجد فيها مقهى باسم (قهوة باجراد)، كنا نذهب إليها سيراً على الأقدام يرافقنا المشرف على الدار، السيد عقيل غمري رحمه الله، ونمكث في ذلك المقهى نحو ساعة، نؤدي بعدها صلاة المغرب، ثم نعود أدراجنا إلى الدار، فنتناول طعام العشاء، ثم نذهب إلى غرفة الدراسة ونتذاكر الدروس، ويسأل بعضنا بعضاً فيما يكون قد صعب عليه فهمه، أو فاته سماعه، وبعد نحو ساعة وأكثر نصعد إلى السطح ثم في حوالي الساعة الرابعة والنصف تقريباً بالتوقيت العربي، العاشرة والنصف بالتوقيت الحالي، يتوجَّب علينا أن يأوي كلٌ منا إلى فراشه مختفياً في أحضان ناموسيَّته.

جرس الساعة الكبير:

وقبيل الفجر بنحو نصف ساعة يرنُّ جرس الساعة الكبيرة المعلَّقة في الصالون الأرضي من المبنى، وكانت من الحجم الكبير يمكن سماعها بوضوح، لقوة جرسها، فما يكاد الواحد منا يسمع دقَّة الساعة، حتى يهب من فراشه متجهاً لدورة المياه للوضوء ثم إلى المكان المعد للصلاة حيث كان يؤمُّنا أحد الطلاب، وأذكر أنه زميلنا السيد عمر عقيل، وبعد الصلاة نصعد إلى السطح، فنُنَظِّم فرشنا ونطوي ناموسياتنا، ونضعها في مكان معيَّن في أحد جوانب السطح، مظللاً بألواح من الخشب على هيئة سقيفة تقي الفرش من حرارة الشمس.

خطاب لأخي وللأستاذ السناري:

في اليوم الثاني من وصولي مكة حرَّرت لأخي خطاباً مطوَّلاً، سُقْت فيه كل ما أعرفه من مبرِّرات، ووسائل إقناع وإيضاح، للهدف الذي من أجله صَمَّمتُ على التحاقي بمدرسة تحضير البعثات، وكان الخطاب يتألَّف من ثلاث صفحات من القطع الكبير، أرسلته بالبريد المسجَّل، وفي الوقت نفسه أرسلت خطاباً آخر مسجلاً أيضاً باسم الأستاذ عبدالوهاب سناري، ذكرت له عن الخطاب الذي أرسلته لأخي، ورجوته أن يشعرني بردِّ فعله

على مضمونه، حينما يقوم هو عبدالوهاب بقراءته عليه، لأنَّ أخي أُمِّيٌّ لا يقرأ، وهو ـ أي عبدالوهاب ـ يوجد معه في المقعد مساء كل يوم بحكم قيامه الآن بعملي.

الحديد لم يبرد:

بعد أربعة، أيام على ما أذكر، تلقَّيت رسالةً من عبدالوهاب مضمونها، أنَّ الحديد لم يبرد بعد، وأن عليَّ أن أنتظر مدة أيام وأسابيع أو أكثر ريثما تهدأ ثورة غضب أخي.

نفاد النفقة:

عندما غادرت جدة لم يكن لديَّ من النقود أكثر من عشرة ريالات لا أملك غيرها، وشنطة ملابسي، وفيها خمسة مشالح متفاوتة الألوان والجدة والقدم، ولم يدر بخلدي قَطُّ أنني سألاقي موقفاً أجدُ نفسي خالي الوفاض، فهناك متطلبات يومية تقتضي مني نفقات قد لا تقل عن ريالين أو أكثر في اليوم الواحد، وكنت بحاجة لإرسال ملابسي للغسال لغسلها وكيها وكنت محتاجاً إلى من يؤمِّن لي الحصول على علبة جراك كل فترة بين ثلاثة وأربعة أيام، لا تقل قيمة هذه العلبة عن خمسة أو ستة ريالات.

وبالمناسبة فإني قد اصْطَحبتُ شيشتي معي، إذ لم أكن أستطع مفارقتها، وقد أظهرتها للمشرف على الدار الأستاذ عقيل الغَمْري، عند وصولي من جدة، وأوضحت له شدَّة تعلُّقي بها، وعدم استطاعتي تركها، فتفهَّم الرجل موقفي، وسمح لي بها.

بيع مشالحي:

لم يمض أسبوع واحد حتى نفدَت العشرة ريالات التي كانت معي، فوقعت في حَيْرةٍ، واضطررتُ أن أؤمِّن قيمة الجراك ببيع مشالحي واحداً تلو الآخر، كلما نفدت النقود مني، فكان أغلاها على ما أذكر بيع في سوق الجودرية بأربعين ريالاً، أو نحو ذلك.

رسائلي لأخي:

استمرت الدراسة في سَيْرها، كما هو مقدَّر لها، والكلُّ يبذل جهده للتحصيل والدرس، أمّا أنا فقد كان يشغلني عن الدراسة والاستذكار هَمٌّ آخر يأخذ عليَّ منافذ تفكيري ساعات النهار والليل، ذلك الهمُّ هو علاقتي بأخي فكما ذكرتُ فيما سبق عن الخطاب الذي تلقيته من عبدالوهاب مصطفى سناري، رداً على الخطاب الذي بعثته إليه في اليوم الثاني وصولي مكة وأفهمني فيه بأنّ الجوَّ لدى أخي بالنسبة لي لا زال مكدَّراً عاصفاً أو كما قال نصاً: بأنَّ الحديدة ما زالت حامية.

كنتُ أفكر دائماً بأنه مهما كانت الظروف، ومهما كان غضب أخي، فإنه لا بد أن يرعوي، وأن يعود لرشده، وأنه حينما يستعرض موقفي، لن يجد فيه ما يحمله على الغضب، لأنّه ليس فيه ما يشين، لا حقد، ولا تمرد، ولا جحود ولا نكران، لما أسبغه عليَّ من نعم منذ أوَّل يوم وصلت إليه من عُنَيزة، لذلك لم أيأس، ولم يخامرني الشك بأني قريباً جداً سأظفر منه بالرضا والصفح، وهو ما يوفِّر لي توفير كل جهدي للدراسة والتحصيل، لذلك واصلت رسائلي إليه أسبوعياً، بمعدل كل أسبوع خطاب، لا يقل عن أربع صفحات، وكلها تحمل التذلُّل والخضوع والأمل والرجاء في تقدير المهمة النبيلة التي سعيت إليها، ومع ذلك كله، وخلال الأشهر الستة التي قضيتها في هذه المدرسة قبل أن تبدأ إجازة نصف العام الدراسي، ويعود الطلاب إلى أهليهم لم أتلق منه أي جواب، وكنت أكتب لأصدقائي مثل: علي عمر فكهاني، وحسن مشهور، ومحمد أحمد بن حمد، والصديق عبدالوهاب باناجة، والصديق أستاذي محمود عارف رحمهم الله جميعاً.

كنت أكتب لهم، وأرجو منهم أن يتحسَّسوا عن أجواء أخي، وعما إذا كان لديه ما يشير إلى تبديل موقفه مني، وكانت رسائلهم ترد إلي بأنه عندما يتحدثون إليه بشأني كان يغيِّر مجرى الحديث، ويوجهه وجهة أخرى مما يوحي بعدم رغبته في بحث هذا الموضوع.

غسيلي لملابسي بنفسي:

مضت هذه الأشهر، وكنت أعاني خلالها قلقاً نفسياً بالغ الألم، ولكني كنت أكتم غيظي وأتجلّد، ولعلّ قيامي بغسل ملابسي بنفسي ما بين أسبوع وآخر كلما تيقنت من استغراق جميع زملائي في النوم ليلاً، ما يكفي دليلاً على هذا العنت والإرهاق.

كنت أتظاهر بالنوم على سريري وأظل يقظاً مدة ساعتين أو أكثر حتى أطمئن إلى أنهم جميعاً أُخذوا في نوم عميق لا يحسُّون بأيِّ حركة تقع من حولهم، كنت أجمع ملابسي وأدخل الحمام، وأغلق الباب، فأغسلها، ثم أعصرها ثم أحضرها معي في الناموسية، وأنشرها على جوانبها، وبمجرَّد أن أسمع المشرف على المدرسة ينادي على الصلاة أهب قائماً فأجمعها وأضعها على السرير، وأرخي الناموسية عليها، ثم أنزل للصلاة وفي فسحة الظهر تكون قد جفَّت فأصعد إليها وأطويها، وأضعها في صندوق ملابسي.

ما بعته من ملابسي:

بعت المشالح جميعها، وبعت عدة أكوات كان قد خاطها لي الخياط المشهور أحمد بادكوك الأبكم وكان دكان خياطته في شارع الخُنجي بجدة، على بعد نحو مائة متر شمال غرب بيتنا في حارة المظلوم. بعتُ هذه الأكوات الفاخرة بقيمة كان أغلاها أربعين ريالاً، أما البقية فكانت تتراوح بين عشرة وخمسة عشر ريالاً؛ لأنها كانت ممتازةً من حيث جودة القماس وجودة الخياطة.

خطة اقتصادية صارمة:

ومنذ اليوم الذي بعت فيه مشلحي الأول رسمتُ لنفسي خطة اقتصاد صارمة، فكان أولها إلغاء غسيل الملابس عند الغسَّال، ثم تحديد فترتين لشرب الشيشة: الأولى بعد الغداء مباشرة، والأخرى بعد العَشاء مباشرة أيضاً، واستمر هذا النهج حتى غادرت المدرسة عائداً إلى جدة كما سيرد تفصيلُ ذلك مستقبلاً.

المظاهرة الحاشدة التي شهدتها مكة:

بعد مُضي ثلاثة شهور على بداية الدراسة فوجئنا في الصباح الباكر ـ ونحن نتناول طعام الإفطار ـ بمدير المعارف العام السيد محمد طاهر الدباغ يدخل علينا ملقياً السلام، فأردنا أن نقف تحيةً له، ولكنه أشار إلينا بيده أن ابقوا في أماكنكم، ثم أعلن قائلاً: يا أبنائي يومكم هذا يوم عطلة، وستخرجون بعد تناول فطوركم هذا مع أساتذتكم، والعاملين معكم في هذه الدار من مُسْتَخدمين وغيرهم بما فيهم المشرف السيد عقيل الغمري، ستخرجون إلى ميدان الحميدية بجوار الحرم، وستلتقون هناك بإخوانكم وزملائكم من طلاب المدارس الحكومية في مكة، ثم بعد اكتمال جميع المدارس تسيرون طوابير منتظمة ثلاثة ثلاثة تتجهون إلى ميدان القشاشية، فالجودرية فالخَرِيق، ثم تعودون عن طريق المُدَّعىٰ، ثم تتجهون إلى الغزة وبقية المناطق التي سيوجهكم إليها الأساتذة الذين سيتولون توجيه المظاهرة، ويلقنُّونكم العبارات التي ترددونها أثناء مسيرتكم حتى تنتهي المظاهرة بأذان الظهر، ثم تؤدون الصلاة في الحرم الشريف، ثم يعود كل فريق إلى مدرسته، وتكون مهمة تظاهرتكم قد انتهت.

إنَّ هذا اليوم يا أبنائي هو يوم حزين بالنسبة للأمة الإسلامية والعربية، فيه كشَّر أعداء الإسلام عن أنيابهم، وأنْشَبوا أظافرهم في جسم جزء غال عزيز من الأمة العربية، هو بمثابة قلبها النابض وهي أرض فلسطين العزيزة، بما فيها أولى القبلتين، وثالث الحرمين يقدمونها هدية باردة لعبدة العِجل اليهود، ولذلك فقد قررت الأمة العربية في جميع أنحاء العالم العربي أن تتظاهر، وأن تعلن سخطها، وغضبتها لهذا الإجرام الآثم، وقد أكدت جميع المصادر ووسائل الإعلام أنَّ هناك تواطؤاً بين دول العالم الغربي وعلى رأسهم بريطانيا في أن تبذل كافة إمكاناتها لتسهيل مهمة توطين اليهود في فلسطين وإنشاء وطنٍ قومي لهم وهو تنفيذ لما يعرف بوعد بلفور، وقصة هذا الوعد أنَّ وزير خارجية بريطانيا آرثر بلفور عام ١٩١٧م، إبان الحرب العالمية الأولى قد اتفق مع رأس الصهيونية آنذاك الثري المعروف روتشيلد، على أن تصدر الحكومة البريطانية وعداً رسمياً بتمكين اليهود من

إنشاء وطن قومي لهم في فلسطين مقابل صفقة ضخمة من المال يدفعها روتشيلد للخزينة البريطانية.

هتافات الطلاب:

تجمّع الطلاب في الساحات المحيطة بالحرم، ما بين المسعى والحميدية وساحات جياد، ثم ساروا يهتفون بهتافات تشقُّ عنان السماء: فلسطين عربية. دماؤنا فداءٌ لفلسطين. ليذهب الغرب إلى الجحيم. وألفاظ مختارة من هذا النوع، تثير المشاعر، وتلهب الحماس.

وكانت هذه الجموع الزاخرة التي انضمَّ إليها، واختلط بها عشرات أضعاف عددها من المواطنين والأهالي.

كنتَ ترى صاحب الدكان، أو البائع، أو العابر في سبيله، ما إن يسمع الهتاف حتى يبادر بالانضمام إلى هذه الحشود الهائجة.

خطاب حماسي:

كان الأساتذة بين صفوف الطلاب، وعندما يصل الجمع إلى أي مكان فسيح، يقف أحدهم أمام مقدمة المظاهرة، ويلقي خطاباً حماسياً يثير به المشاعر ويلهب الحماس، ولستُ بحاجةٍ لأن أزعم لنفسي بأنني تخلفت عن مجاراة هؤلاء الخطباء، إذ كان شعوري وإحساسي قد بلغ غايته من الانفعال والغليان فقد حدث أن فقدت السيطرة على مشاعري وخاصة في ساحة الغزة وساحة الجودرية وساحة الحميدية.

خطبتي في هذه المناسبة:

فقدتُ السيطرة على نفسي فإذا بي أقف بين هذه الجماهير بحركة غير شعورية، فألقي خطاباً ارتجالياً أهزُّ به مشاعر الجمهور، وقد كان الجمهور يبادلني هذا الشعور بأن يلتفُّوا حولي، ويحملوني على أعناقهم لمسافة عدة أمتار، ومن يقرأ صحف تلك الأيام سيجد تفصيل ذلك.

طافت المظاهرة، وأصوات الجماهير الغاضبة تزمجر، يقدر عددها بالألوف، وأصبح عدد طلاب المدارس عند قرب نهايتها لا يمثل أكثر من ١٥٪ من أعداد الجماهير المنضوية تحت هذه المظاهرة، وكان هذا اليوم عاماً بالنسبة لجميع مدن المملكة، وكذا بالنسبة للأقطار الأخرى كسوريا والعراق وفلسطين والأردن وبقية البلاد الأخرى.





كانت الحياة في مكة آنذاك أعني سنة ١٣٥٦هـ مبسَّطة، محتفظة بطابعها الأصيل من حيث البناء أو الشوارع أو المتاجر أو الجمهور. كنا في كثيرٍ من الأحيان نفضّل أن نقضي أمسية النهار في الحرم المكي الشريف، بدلاً من الذهاب إلى قهوة باجراد، كنا نؤدي فيه صلاة المغرب والعشاء، وكانت تجتذبنا حلقات التدريس المنتشرة في مختلف جوانب الحرم الشريف حلقاتٍ حلقاتٍ، سواء كانت في الحَصْوة أو بين الأرْوقة.

الدروس في الحرم المكي الشريف:

كانت الحلقات كثيرة ومتعدِّدة، ويؤمُّها العشرات من الطلاب، جُلُّهم من الطلبة الأندنوسيين، تجد العالِم يقتعد سجادةً على الأرض، أو مخدة على هيئة مركاة، يحوط به الطلاب على هيئة، حلقة كل منهم ممسك بكراسة، فهذه الحلقة يدرِّس فيها العالم مادة التفسير، وآخر في علم الحديث، وغيرهم في مواد مختلفة، ومتعددة الأنواع: فهذا في النحو، وذاك في الصرف، وآخر في البيان والبديع، وآخر في التاريخ والسيرة النبوية، وهكذا.

كانت ساحات الحرم خليةَ نحل تعجُّ بالدارسين، وكنت وبعض الزملاء الذين يرافقونني نتنقل بين حلقةٍ وأخرى، فنسمع، ونستفيد أيما فائدة.

تستمر هذه الحلقات بعد صلاة العصر مباشرة، إلى قُبيل المغرب بنحو نصف ساعة، ثم تُستأنف بعد صلاة المغرب مباشرة حتى آذان العشاء.

مبنى الأمن العام:

كان مبنى الأمن العام، ويسمى الحميدية، نسبة إلى من أُنشئت في عهده من سلاطين بني عثمان، وهو السلطان عبدالحميد الثاني. كان هذا المبنى واسعاً يتكوَّن من طابقين، على ما أذكر، بابه الرئيس يفتح على الشارع جهة الشمال في مواجهة الحرم الشريف الذي يفصله عنه بنحو عشرة أمتار، وهو يمتدُّ من الغرب إلى الشرق، متَّجهاً إلى شرطة الصفا، فالمسعى فالبريد.

المسعى:

كان المسعى عبارة عن سوق تجاري، تنتظمه الدكاكين في كلا جانبيه، وفي نهاية الشارع القادم من المدعى من جهة الشرق إلى المسعى، يوجد الكثير من الكلاب الرابضة على جوانب المَسْعى، ومع وجود هذه الدكاكين على كلا جانبي المسعى كانت وفود الحجاج تؤدِّي شعيرة السعي بيسر وسهولة، ومن الواضح أنَّ ضآلة عدد الحجيج في تلك الأيام لها تأثير كبير على تيسير السعي وقلة الزحام.

المكتبات في مكة المكرمة:

كانت المكتبات الموجودة تكثر في باب السلام بعد اجتيازك المسعى، داخلاً للحرم، فكانت المكتبات تقع عن يمينك وعن شمالك، وهي كلها ذات صبغة دينية أو تاريخية، تتعلق بعلوم الدين والقرآن والأحاديث والتاريخ وما إلى ذلك.

المرطبات:

كان باعة المرطبات والسوبيا وما شابهها من مياه مبرَّدة، تنتشر على جوانب المسعى، وبالأخص على مقربة من المروة.

دكاكين القماش:

وكان هناك قبل الوصول إلى المروة، على شمال القادم من الصفا،

شارع يتَّجه إلى جهة الشمال الغربي واسمه (سويقة) وعلى امتداده على الجنبين دكاكين القماش.

مقامات الأئمة الأربعة في الحرم المكي:

أذكر حين دخولي الحرم الشريف لأول مرة، وكان ذلك عام **١٣٤٤** حين قدمت إلى مكة من نجد في يوم **٥** ذي القعدة **١٣٤٤** أنه كان يوجد في الحرم الشريف أربع مكبِّرات للأئمة الأربعة الشافعي والحنفي والحنبلي والمالكي متقاربة أمام الكعبة بعضها أمام بعض، كما أن مقام إبراهيم كانت تعلوه قبة من الحديد سميكة ذات شقوق ضيقة، وقد أُزيلت هذه القبة بالنسبة للمقام، في وقت قريب في عهد الملك فيصل، أمَّا المنابر الأربعة فقد أزيلت في عهد الملك عبدالعزيز.

أساتذتنا في مدرسة تحضير البعثات:

سَبَق أن ذكرت ضمن هذه الذكريات أنَّ جهاز التعليم في مدرسة تحضير البعثات إبان افتتاحها في مستهل محرم **١٣٥٦**هـ كان يتألف من أربعة أساتذة فقط: مصريان وهما الأستاذ محمد أبو حامد وزميله رشوان محفوظ، كان الأول مختصّاً بتدريس اللغة الإنكليزية وما يتعلق بها، والآخر مختص بالرياضيات والجبر والهندسة والحساب، وشخصان مكيَّان هما الأستاذ إسحاق عزوز وإبراهيم نوري، وهذان الشخصان يقومان بتدريس العلوم الدينية وما يتعلق بها وكلٌ من هؤلاء الأربعة، كان مثالاً عالياً للخلق الرفيع والصفات الكريمة: أدب جم وتواضعٌ وافر، وصدق وإخلاص في تأدية الواجب، وكنا نختلط بهم، ونعايشهم كأخوة وأصدقاء.

حياتنا اليومية في المدرسة:

كانت حياتنا اليومية أثناء الدراسة تتمُّ على النحو الآتي: نؤدِّي صلاة الفجر في وقتها جماعةً في المدرسة، يؤمُّنا المشرف، أو بعض الأخوان، ثم ينصرف كلٌ منا إلى ترتيب فراشه وتهيئة كتبه، ثم ننزل إلى الصالون في

الدور الأرضي، فنتناول طعام الإفطار، ثم نتَّجه إلى غرفة الدرس في الدور الثاني، فنقضي الحصتين الأوليتين كل حصة خمس وأربعين دقيقة، ويفصل بين كل حصة وأخرى خمسة دقائق، ثم يعقبها بعد ذلك فسحة مدَّتها نصف ساعة، ثم تليها حصتان مماثلتان للحصتين الأوليين، ثم نغادر الفصل إلى الوضوء، ثم نؤدي صلاة الظهر، وبعده نتناول طعام الغداء الذي يكون قد أُعِد لنا، فنتناوله مباشرة بعد أداء الصلاة، ثم يعقب ذلك استراحة نحو ساعة ونصف، تليها دراسة حصتين، ثم نؤدي صلاة العصر. بعد ذلك يكون لنا مطلق الحرية في الذهاب أين نشاء فسحة، على أن نعود بعد صلاة العشاء مباشرة، فكان بعضنا يذهب إلى قهوة باجراد، وبعضنا يذهب إلى الحرم، وبعضنا يذهب إلى جَرْول، وتوجد هناك بعض المقاهي.

اختبارات نصف العام

في جمادى الأولى ١٣٥٦هـ ابتدأت اختبارات نصف العام، واستمرت نحو خمسة عشر يوماً، بعدها مُنح الطلاب إجازة قدرها أربعين يوماً لزيارة أهاليهم، وفعلاً طُلِب من الطلاب مغادرة المبنى تمهيداً لإغلاقه مدة العطلة.

حفل طلابي:

وقد حدث آنذاك أن أقام طلاب «معهد التوحيد» أو «المعهد العلمي»، لا أذكر الاسم بالتحديد، وكان معهداً قائماً ينتظم طلاباً كثيرين متخصصين يدرسون العلوم الدينية، أُقيم حفل أريد به الجمع بين طلاب هذا المعهد وطلاب تحضير البعثات، وكثير من طلاب المدارس الأخرى وأساتذتها، وأقيم الحفل في مبنى في جياد، مقابل لمبنى وزارة المالية، وقد قضينا ليلة ممتعة حتى الهزيع الأخير من الليل، تبودلت خلاله الخطب والمناقشات والمحاورات بين الكثير من الحضور، وكنت ممن شُرِّف بأن يكون من ضمن هؤلاء الخطباء، وعندما حضر إليَّ المشرف على الحفل، ليخبرني بأنه قد وقع عليَّ الاختيار لأكون ضمن هؤلاء الخطباء، وطلب مني في الوقت نفسه إعداد الكلمة التي أرغب في إلقائها وتحضيرها، فأخبرته بأنه لا لزوم

لذلك، لأنني لم أعتد كتابة الخطب والتحضير لها، وفعلاً عندما دُعيتُ إلى المنبر ألقيت كلمة مرتجلة تناسب المقام، وكان الحفل حاشداً، وكان الجمهور لا يقل عن مائتي شخص بين طلاب وأهالي، وكان على رأس الحضور مدير المعارف العام السيد محمد طاهر الدباغ.

كانت أمسية ممتعة حقاً تركت في نفوسنا جميعاً أثراً لن ننساه، وقد حفلت بالكثير من التمثيليات الضاحكة، والمحاورات الجادة، والأحاديث الطريفة، والمناقشات الهادفة، بالنسبة لوقائع التاريخ الإسلامي وبُناته ممن فتحوا الأرض، واقتحموا أبواب الصين وفرنسا: كقتيبة بن مسلم، ومحمد بن القاسم الباهلي، ويزيد بن المهلَّب، وأبيه المهلب بن أبي صُفرة في الشرق، وكموسى بن نُصير، وطارق بن زياد، وعبدالرحمن الغافقي، شهيد بلاط الشهداء في فرنسا، والسمح بن مالك، وعنبسة الكلابي في الغرب.

انتهاء الاختبارات وتأخر عودتي إلى جدة:

انتهت الاختبارات، وتوالت عودة الطلاب إلى بلادهم واحداً، إثر الآخر، بعضهم إلى جدة وبعضهم إلى المدينة، أما أنا فقد تخلَّفت بعدهم ثلاثة أيام، حابساً نفسي على الفراش في مَبْنى المدرسة، زاعماً أنني أشكو توعُكاً في صحتي لا يمكِّنني من العودة، وقد جاملني المشرف على الدار - جزاه الله خيراً - فلم يلح بضرورة المغادرة رغم أنه لم يبق في المدرسة سواي، فقد غضَّ الطرف عن وجودي، وأفهمني بأنه لا عليَّ أن أبقى حتى أستردَّ صحتي.

دوَّامة من التفكير:

ولم أكن مريضاً، بل كنت في عنفوان صحتي، ولكني كنت في دوامة من أمري، في متاهةٍ من التفكير، ظللت أتخبَّط فيها ذات اليمين وذات الشمال، كان مبعث ذلك هو الإجابة على السؤال التالي: كيف أعود لجدة وأخي قد قطع عني كل صلة تربطني به، فرغم توسلاتي إليه التي أضمنها في كتبي المطوّلة إليه في نهاية كل أسبوع، طيلة الأشهر الستة التي مَضَت،

ومع ذلك لم يرد عليَّ بكلمةٍ واحدة إذاً كيف أذهبُ إليه وبأيِّ وجه.

هل أبْتر علاقة الأخوة بيني وبينه بناءً على موقفه هذا مني، فأتّجه إلى أي مكان في أرض الله؟ ولن أعدم من الإمكانات ما يمكنني من العيش بكرامة.

هل أتصل بمدير عام المعارف، فأطلب منه أن يُلحقني مدرساً في إحدى مدارس الحكومة في أي مكان في أنحاء المملكة الشاسعة، ولديَّ من الشهادات ما يؤهّلني لذلك أم أتجه إلى الرياض أو إلى أي مكان، حتى ولو كان خارج المملكة، فأبحث لي عن مكان للرزق في دنيا العرب، وقديماً قال الشاعر:

ونفسُك فُزْ بها إنْ خِفْتَ ضيماً وخلِّ الدار تَنْعَى مَن بناها
فإنك واجداً أرضاً بأرض ونفسُك لن تجدْ نفساً سواها

أو كما قال الآخر:

وكلُّ امرئٍ يولي الجميلَ مُحَبَّبٌ وكلُّ مكانٍ يُنْبِتُ العِزَّ طَيِّبُ

وكنتُ أثق بنفسي ثقتي بالله، أنني لن أعدم العثور على مكان يوفِّر لي كرامة العيش، وبناء مستقبل حياتي.

هذه المعادلات كانت شغلي الشاغل، كنتُ عندما أحسُّ بالميل إلى تغليب فكرة الابتعاد عن أخي، فجأةً أحسُّ بشعورٍ كاسح ينبعث من أعماق نفسي عارضاً أمام ناظري شريطاً واضح المعالم، يمثل مراحل الحياة التي قضيتها مع أخي منذ وصلت إليه قادماً من عنيزة، حتى غادرته متوجهاً إلى مكة للدراسة.

أبصر في هذا الشريط اليد الحانية التي كان يحوطني بها أخي، والرعاية الكريمة التي كان يوفِّرها لي، فتغلب عليَّ العاطفة، وأراني مستعداً لتحمُّل كل ما قد ينالني من عَنَت ومشقة وبؤس وشقاء في سبيل أن لا أفرِّط في هذه الرابطة.

القرار الأخير:

وكان قراري الأخير الذي توصلتُ إليه في فجر اليوم الثالث من بقائي وحيداً في المدرسة هو أن أعود إلى جدة، وأن أقصد البيت الذي خرجت منه بدون أي تردُّد، وبدون أي حساسية، وليفعل الله ما يشاء، واضعاً نُصْبَ عيني أنَّ أخي في أسوأ الاحتمالات حينما يعلم عن وجودي بداره لن يأتي ليمسك بيدي ليخرجني إلى الشارع.





العودة إلى جدة

جمعت ما تبقى لديَّ من ملابس، وكانت قليلة جداً، ثم عدت إلى جدة حيث وصلتها، على ما أذكر ظهر اليوم الخامس والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ١٣٥٦هـ.

صعدتُ إلى غرفتي كالعادة، وعلمت أسرة أخي بوجودي، كما علم أخي من البوَّاب حسين أولاً، ثم من أسرته، فلم يُلقِ للأمر أيَّ بال، واستمرَّ على وضعه، كأنني غير موجود، متجاهلاً وجودي.

البعد عن مواجهة أخي:

وكنت من جانبي أتحاشى الظهور أمامه، أو في المكان الذي يتواجد فيه، كنت أغتنم فرصة ذهابه في الصباح إلى الكنداسة، فأنزل إلى المقعد، وكان يوجد لديَّ مبلغ زهيد جداً في حدود ثلاثة ريالات، كنت أطلب من حسين أن يحضر لي شيشة من سوق الجامع، لأنني كنت قد بعت الشيشة التي كانت معي بعد مضي ثلاثة أشهر من وصولي إلى المدرسة بمكة، واستعضت عنها بالاكتفاء بشرب الشيشة في المساء خارج المدرسة.

وما يكاد يأتي وقت الظهر حتى أبادر بالصعود إلى غرفتي تفادياً لمواجهة أخي، بعد عودته من عمله.

اتصالي بصديقي الحميم عبدالوهاب باناجة:

ولم يكن أحدٌ من أصدقائي يعلم بعودتي إلى جدة من نحو أسبوع،

سوى صديقي الوحيد عبدالوهاب عبدالقادر باناجة ـ رحمة الله عليه ـ، وكان من أعز، وأخلص أصدقائي، بعثت له بالبوَّاب حسين ينبعاوي بخطاب مختصر، أوضحت له أنني موجودٌ بجدة، وفي بيت أخي، وأنني أرغب أن أراه على أن تكون زياته لي إمَّا في الضحى، أو بعد العصر مباشرة، لأنَّ أخي يكون وقتذاك موجود في الكنداسة، ولم أشعر بعد عصر ذلك اليوم إلا وهو يدخل عليَّ في المقعد ولستُ بحاجة لأن أصف حرارة اللقاء بين صديقين ضمَّتهما مقاعد الدراسة أكثر من عشر سنوات، نَمَتْ بينهما رابطة من الود الصافي العميق، الذي يفوق في عمقه وشيجة النسب والقربى.

كان اللقاء حاراً بكل ما تعنيه هذه الكلمة، وقد دُهِش لمنظري الذي ظهر له أنه قد تغيَّر جذرياً، وانقلب رأساً على عقِبْ، فليس الماثل أمامه الآن هو صديقه إبراهيم الحسون الذي ودَّعه منذ ستة شهور، عند سفره إلى مكة، طبعاً لم يكن من الحكمة بحث السبب والمسببات؛ لأنَّ ذلك من شأنه أن ينكأ الجرح من جديد بالنسبة لي، وإنما علَّلتُ له حالتي التي يراها الآن بانحراف صحتي منذ أكثر من شهر (والله يعلم أنَّ الواقع عكس ذلك).

مَكَثَ لدي نحو ساعة ثم انصرف.

جنيه ذهبي:

في ضحى اليوم الثاني لم أشعر إلا بحضوره عندي في المقعد، وقد فوجئت بمجيئه، لأني لم أكن منتظراً حضوره ذاك، ثم نهض قائماً ومدَّ لي يده وهو يودِّعني بجنيه ذهب مقسماً بأغلظ الأيمان قبل أن أتفوَّه ببنت شفة أنني إذا لم أقبل منه هذا هدية، فإنه سيقاطعني مدى الحياة.

بعد ذهابه ناديتُ حسين البواب، وأعطيته الجنيه وأمرته بأن يذهب الآن، ويصرفه عند حسين سكلوع الصَّيْرفي، وكان دكانه شرق مسجد عكاش، وحرَّصتُهُ بأن يكتم هذا السر، وألاَّ يطلع عليه أحداً.

كان هذا الجنيه يساوي عندي في ذلك الظرف النفسي البالغ العمق من الحساسية والألم شيئاً عظيماً، فلأول مرةٍ في حياتي أجد يدي هي السفلى، أجدني أتلقى العون والمساعدة، وهو وضعٌ كريهٌ على النفس مرّ المذاق على من لم يألفه، كان هذا الجنيه يمثّل مبلغاً طائلاً من حيث القيمة المعنوية أكبر وأوسع من أرقام الحساب. وقد استفدت من هذا المبلغ، وأصبح حسين يأتي بالشيشة من سوق الجامع ثلاث مرات في اليوم: في الضحى وبعد العصر وبعد العشاء، حينما يصعد أخي إلى السطح وكنت أقتصر على شربها مرة واحدة وقت الضحى.

ظلّ صديقي عبدالوهاب يكرر زياراته لي ما بين يوم وآخر في المواعيد التي حددناها للزيارة، وهي الضحى أو العصر، وكان ـ رحمه الله ـ في كل مرة يجهد نفسه بالإلحاح عليّ بأن لا أخفي عليه شيئاً من أموري، ويعرض عليّ في كل مرة نقوداً، ولكني كنت أرفض.

ماذا حدث بعد مضي شهر كامل من عودتي إلى جدة؟

ظلّ الوضع بالنسبة لي مستمراً حتى اليوم الخامس والعشرين من شهر جمادى الآخرة، أي أنه مضى عليّ شهر كامل، وأنا رهين البيت لا أفارقه، وكأنني أشبه برهين المحبسين أبي العلاء مع الفارق طبعاً.

في تلك الليلة من ذلك اليوم، وكانت عادة أخي آنذاك أن يقضي الفترة ما بين صلاة المغرب وحتى الساعة الثالثة ليلاً بالتوقيت العربي، أي التاسعة بالتوقيت الحالي موعد صعوده للبيت للنوم، كان يقضي هذه الفترة في البرحة الواقعة أمام بيتنا من جهة الشرق، والمقابل لبيت «جوهر» من جهة الغرب، والموجودة حالياً بنهاية شارع الجامع من جهة الغرب، وكان يجلس معه يومياً طيلة مدة وجوده المدعو عبدالكريم رشيدي، وكان رجلاً مسنّاً، يبلغ نحو الستين من عمره، يعمل صائغاً بسوق الصاغة المتفرّع من سوق حراج العصر من جهة الغرب من ضمن بقية الصاغة، مثل الفتيحي وعزوز، وكان شيخ الصاغة وآخرين لا أذكر أسماءهم.

الصائغ عبدالكريم رشيدي:

كان عبدالكريم يلازم أخي باستمرار كل يوم، وقد فهمت أنَّ أخي يقرضه باستمرار مبالغ من الجنيهات، يستعين بها على عمله، ويستردُّها منه، وفي كثير من الأوقات كان عبدالكريم هذا يذهب إلى مصر ببواخر البوصطة الخديوية «تالودي» أو «زمزم» أو «الطائف»، يحمل معه جنيهات ذهبية إلى مصر، ويشتري بها مصاغاً مصنَّعاً في مصر، يعود به لبيعه في دكانه.

كيف أوصلت إليه الجنيهات الذهبية:

ولما كان تصدير الذهب من المملكة ممنوعاً آنذاك، وكان يخشى من التفتيش والمصادرة، فقد قمتُ ـ بناءً على رغبة أخي، وذلك قبل سفري إلى مكة ـ باصطحاب كمية الجنيهات معي، أضعها في كمر جَاوَة على بطني داخل الثوب وأصعد باللنش إلى الباخرة التي سيُسافر عليها عبدالكريم، أصعد بلنش «حسن سلامة»، الذي كانت تقوم أسرته بمهمة استقبال السفن القادمة إلى جدة، عندما تقترب منها، وترشدها لاجتناب الارتطام بالشعب المرجانية حتى تجد المكان الآمن الذي تستقرُّ به.

كنت أتقابل مع عبدالكريم هذا على ظهر الباخرة، ثمَّ أدخل معه في أحد غرفها، وأسلِّم له المبلغ الذي معي، وفي الغالب يتراوح ما بين الخمسين إلى الثمانين جنيه ذهباً وأقوم بهذه المهمة، لأنني بعيد عن الشُّبهة وأتمتع بصداقات ومعارفٍ واسعة، وأذكر أنني قمت بهذه المهمة مرتين، أو ثلاثة.

استدعاء أخي لمقابلته:

في تلك الليلة بعد صلاة العشاء مباشرة حَضَرَ إليَّ البواب حسين، وأنا في غرفتي في الطابق الأول من البيت، وأفهمني أن أخي يستدعيني الآن للحضور إليه فنزلت في الحال، واتجهت إليه، وكان جالساً كما ذكرت في الساحة خارج المقعد، وكان يجلس معه كل من عبدالكريم رشيدي ومِرْزا

أصفهاني، وهذان الاثنان هما الشخصان المفضَّلان لدى أخي في مجالسة كل يوم.

مناقشة بيني وبين أخي:

وقفت أمامه فسألني: متى تنتهي إجازة المدرسة؟ فقلت له: بعد خمسة أيام، وستبدأ الدراسة في غرة رجب ١٣٥٦هـ.

فقال لي: هل ستذهب إلى المدرسة؟ فقلت: لا أدري.

اشتداد غضب أخي:

وهنا انفجر غاضباً كالبركان الهائج، وأخذ يوجِّه إليَّ عبارات التوبيخ والسخرية والاستهزاء، ووصفي بالعقوق، ونكران الجميل، وكيف أنه بعد أن أتاح لي فرصة التعليم، ووسَّع لي في رفاهية الحياة طيلة مدة وجودي لديه، إذا بي فجأة أنسى هذا المعروف، وهذا الإحسان كله، وأتمرَّد على إرادته، وأترك جدة، وبالتالي عمل البراميل بحجة واهية، وهي الزعم بطلب الاستزادة من العلم والتحصيل، وإني بزعمه لست بحاجة إلى ذلك؛ لأني قد درست في مدرسة الفلاح حتى آخر مراحل الدراسة فيها، وأنني كنت متفوقاً ولوحة قائمة الشرف في المدرسة تحمل اسمي ضمن أسماء المتفوِّقين.

كنت أنصت لعباراته، وهي تزداد هيجاناً، وسخريةً، وتوبيخاً.

مقابلة عاصفته بالسكوت:

ظللت نحو نصف ساعة صامتاً، لا أتكلم، ويبدو أنَّ لصمتي نصيباً في إثارته، فربما كان ينتظر مني أن أناقشه أو أجادله، ولكني في قرارة نفسي لم أجد مبرراً لمثل ذلك، لأنَّ الهدف الذي ضَحيَّت فيه هدفٌ سام نبيل، لا يحتاج إلى بحث أو شرح أو إيضاح.

بعد أن أفرغ جميع ما يختزنه من شتم وسباب وتحقير، التفتَ إليَّ،

وقال لي: ارجع للمدرسة، ثم سكت، وعلمت من هذا أنَّ الموضوع قد انتهى، فلم أَنْبس ببنت شفة، وعدت إلى حيث كنت، ولكن بقدر ما أَدْمَتْ تلك العبارات الساخرة كرامتي ومشاعري، بقدر ذلك، فقد أحسَست بشيء من الغِبْطة، بأنني سأعود للمدرسة، لأواصل الدراسة، ولكن على نحو مختلف.

طلب العم محمد عبدالرحمن الزامل مقابلتي:

في ذلك المساء وصل خادم، يدعى مُشْرِف الغامدي، وهو يعمل صبياً عند المرحوم العم محمد العبدالرحمن الزامل والد زوجة أخي، وكان يسكن جنوب زاوية ابن عفان مباشرة، بحارة المظلوم، على بعد خطوات من بيتنا، وصل إليَّ بعد أن صعد أخي إلى السطح كعادته، ولم يجدني في المقعد كالعادة، سأل البواب حسين عني، فأخبره بأنني صعدت إلى غرفتي، فطلب منه أن يخبرني بأن عمه محمد عبدالرحمن الزامل ـ رحمة الله ـ يطلب مني الحضور إليه الآن.

حضر إليَّ البواب حسين، وأخبرني بذلك، فنزلت وذهبت إليه ـ رحمه الله ـ في مقعده ببيته، وأفهمني بأنَّ القائمقام المعيَّن مؤخراً لمدينة جدة وهو المرحوم إبراهيم بن مُعَمَّر المعروف بالجنيفي، وكان قد وصل إلى جدة منذ يومين فقط قادماً من بغداد بعد أن كان سفيراً للمملكة هناك، ولنشاطه السياسي وصلاته الوتيدة برؤساء قبائل العراق، طلبت حكومة العراق نقله، واستبداله بسفيرٍ آخر، وقد كان قبل أن يعيَّن سفيراً في بغداد من أبرز رجال البلاط في الرياض، ومن أقرب المقرَّبين للملك عبدالعزيز، وكان يعتمد عليه في مهمات الأمور.

قائمقام جدة إبراهيم بن مُعَمَّر يرغب بمقابلتي:

أفهمني العم محمد ـ رحمة الله عليه ـ بأنَّ هذا الرجل ـ أعني القائمقام الجديد إبراهيم بن معمر ـ طلب منه ـ أي من العم محمد ـ بأن يبلغني بأنه يرغب مقابلتي له، ولمّا كنت لا أعرف هذا الشخص، ولم يسبق لي لقاء به

قط، فقد دُهِشْتُ لهذا الطلب واستوضحت من العم محمد: ما الذي عرَّفه بي؟ وما الذي يريده مني؟ فردَّ عليَّ قائلاً: أنا الذي عرفته باسمك، وهاك القصة كما هي.

كيف عرفني القائمقام؟

قال لي العم محمد: تذكر أنه في مساء هذا اليوم قد تمَّ حفل افتتاح شارع فيصل الجديد، وأنَّ القائمقام هو الذي قصَّ شريط الافتتاح، وأنك كنت أنت الذي ألقيت الكلمة أمامه.

شارع الأمير فيصل:

وهنا أحبُّ أن أوضح بدوري للقارىء حقيقة هذا الموضوع، وهو أنَّ الصديق القديم محمد العوضي، وزير التجارة السابق، كان مُشرفاً على بناء الشارع الذي سُمِي فيما بعد بشارع الأمير فيصل، وهو الذي تقع في مكانه الآن عمارة الملكة، وكان هذا الشارع يمتد من الغرب إلى الشرق، من الغرب بدءاً من شارع الملك عبدالعزيز الحالي، ومن الشرق بشارع سوق النَّدى الذي يمتدُّ من الشمال إلى الجنوب، باتِّجاه مسجد عكاش والخاسكية.

كان موضع هذا الشارع ورشة كبيرة من عهد الإشراف، وقيل أنها آلت ملكيتها إلى إبراهيم شاكر أو حسين العويني أو إلى ملكيتهما معاً، ولكن لمّا كان الأخ محمد العوضي وكيلاً عن إبراهيم شاكر، وتقرَّر فتح شارع في مكان هذه الورشة، فقد أسند التنفيذ والإشراف إلى محمد العوضي باعتباره وكيلاً عن إبراهيم شاكر.

حفل افتتاح الشارع:

وعندما تمَّ البناء، وهو يتكوَّن من عدة دكاكين، يعلوها مكاتب وغرف، رأى الأخ محمد العوضي أن يقيمَ حفلاً لافتتاحه، يدعو إليه أعيان البلد، وذوي المكانة، وكان قد وصل إلى جدة منذ يومين فقط القائمقام

الجديد لها، أعني إبراهيم بن معمر، فقد رأى أن يدعوه، ليرأس الاحتفال، ويقوم بقص الشريط، باعتباره هو الحاكم الإداري للبلد، وكنت على صلة مستمرة يومية بالأخ محمد العوضي، فقد كنت موجوداً معه في ذلك النهار من الصباح في جمع الكراسي، وترتيبها، وتهيئة المكان للمناسبة، وما إلى ذلك.

وبعد العصر من ذلك اليوم وقد استكمل الترتيب، وابتدأ المدعوون يتوافدون إلى مكان الاحتفال، ثم أقبل القائمقام بموكبه بعد صلاة العصر، يرافقه مجموعة من الخويا، بسلاحهم، كما يرافقه في سيارته العم محمد العبدالرحمن الزامل، والشيخ إبراهيم الحمد الصنيع، ومحمد السليمان التركي، وعلي العماري - رحمهم الله تعالى -.

خطبتي الارتجالية أمام القائمقام في هذا الاحتفال:

وعندما تكامل حضور الجميع، وابتدأت تدار عليهم القهوة: إذا بالأخ محمد العوضي يضطرب فجأةً، وكنتُ بجواره، سألته عن السبب؟ أجابني بأنه كيف فات عليه ألا يعدَّ كلمة مناسبة، تُلقى بهذه المناسبة، أمام حاكم جدة الجديد، قبل أن يقصَّ الشريط، فطمأنتُه وقلت له: إن الموضوع بسيط لم يفت الوقت حتى الآن. عند ذلك تركته واتَّجهت إلى حيث يجلس القائمقام وسط الحضور وعلى مقربة من الشريط، وألقيت أمامه كلمة ارتجالية تليق بالمناسبة مقرونة بعبارات ترحيبية متضمنة تهنئة جدة بقدومه، وأنها متفاءلة بالخير على يديه، كما تتضمن تهنئته بمنصبه الجديد.

قوبلت الكلمة بعاصفة حادة من التصفيق، لأنها ألقيت بحماس، هو وحي شعور الساعة، كما أنها لم تقتصر على المناسبة فقط، وهي مناسبة محدودة المغزى، لأنَّ خيرها سيعود إلى شخص أو أشخاص، وإنما امتدت إلى أفق أوسع في اللقاء بين الحاكم والمحكوم.

بعد انتهائي وقف الرجل ماداً يده لمصافحتي، فصافحته بعد أن هزَّ يدي بحرارة، ثم قام بقصِّ الشريط، وانتهى الحفل.

سأل الجماعة المرافقين له عني، فأعطوه ملخصاً عما يعرفونه عني، وكان بادي الحرص على أن يعرف عني معلومات أوسع، وقد فهم من العم محمد الزامل بأنني على صلة مباشرة به، لأنَّ أخي متزوجاً ابنته التي يعيش معها في بيت واحد، لذلك طلب من العم محمد بأنه يرغب حضوري إليه في مكتبه بالخزنة في باب جديد في اليوم التالي.

مبنى الحكومة في جدة:

والخزنة تعني مبنى الحكومة الرسمي، وهو عبارة عن مبنى من طابقين، مقابلة لباب جديد من الجنوب، بحارة الشام، لا يفصلها عن سور جدة الشمالي سوى الشارع ويقع مدخلها من جهة الغرب، حيث يقع بجوار الباب من الخارج صندقه، يحتلها جندي الحراسة بصفة مستمرة.

وصف الخزنة:

عندما تدخل إليها من الغرب من بوابتها، تمرُّ في سيب يبدأ من الغرب إلى الشرق، يبلغ طوله نحو خمسة وعشرين متراً، ويبلغ عرضه نحو مترين أو ثلاثة، ينتهي من جهة الشرق بمدخل عمارة ذات طابقين: الطابق الأرضي تحتله مكاتب القائمقام، ومعاونه علي طه رضوان رحمه الله، وهذا الشخص، أعني علي طه، كان يعمل بوظيفة معاون للقائمقام من أيام العهد التركي.

وفي الطابق العلوي من هذا المبنى غرفٌ متعدِّدة، جُهِّزت بأَسِرَّة للنوم، وبكراويت عليها مساند وأغطية من الحرير المخمل الفخمة، وهذه لسكنى القائمقام وأسرته.

عندما تدخل من الباب الغربي، وتسير متجهاً إلى الشرق في السِّيب نفسه تجد عن يمينك مدخلاً يتَّجه إلى اليمين، وآخر يتجه إلى الشمال.

أما المدخل الذي يتجه إلى الشمال، فهو يحتل قطعة من الأرض، فيها أشجار وفي نهايتها من جهة الشمال غرفة كبيرة للجنود، الذين يتناوبون الحراسة على مدخل المبنى، أما المدخل الذي يتجه إلى اليمين فيُفضي إلى

ساحة توجد فيها أشجار مورقة، وساحة تبلغ مساحتها نحو خمسة أمتار يوجد بوسطها نافورة.

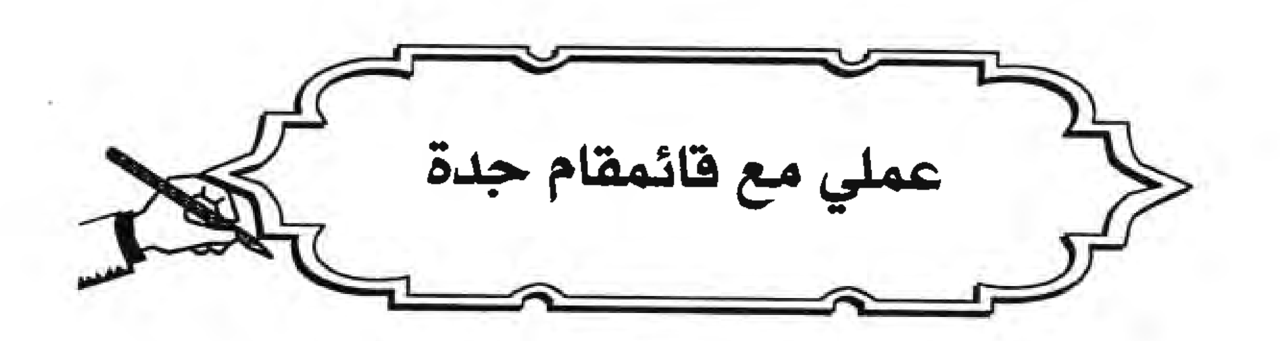
وعندما تدخل إلى هذا الموضع تجد أمامك مبنى من طابقين: الأول أرضي، وتحتله مكاتب موظفي القائمقامية، وهم لا يقلون عن خمسة عشر شخصاً تقريباً، وكان يرأسهم شخص يدعى محمد عبده يماني، وهو شاب أنيق وسيم الصورة، كان يبالغ في الأناقة في ملبسه، ويعتمر فوق رأسه عقالاً ذهبياً مقصَّباً، يعلو هذا المكان طابق علوي، يصعد إليه على درج خشبي، في نهاية الدرجة من الأعلى تقابلك غرفة واسعة، يتوسطها مكتب فخم، وعلى هذا المكتب تلفون، والنوافذ مغطاة بستائر مخملية، وأرضية هذه الغرفة مغطاة بسجاد كاشاني فخم، ويوجد بهذه الغرفة مدخل من جهة الشرق يفضي إلى صالة كبيرة، تبلغ مساحتها نحو سبعة أمتار في أربعة أمتار تقريباً، توجد فيها عدة نوافذ زجاج، مغطاة بالستائر، وأرضيتها أيضاً مفروشة بالسجاد الكاشاني الفخم، وكانت الغرفة الأولى التي كان يوجد بها المكتب، هي المكتب الرسمي للقائمقام منذ زمن الأتراك، والصالة المجاورة خاصة به، للاستراحة، أو للاجتماعات لمن يرغب الاجتماع بهم، وفي جوانب الصالون كرويت يرتفع عن الأرض بنحو نصف متر، تعلوه مخدات ووسائد من ريش النعام.

موظفو القائمقامية:

أما موظفو القائمقامية آنذاك، فكان رئيس الكتاب، كما ذكرت، يدعى محمد عبده يماني، معه مجموعة من الموظفين، لا أذكر أسماءهم، ولكنني أذكر أن مكاتبهم لا تقل عن اثني عشر (ماصة) مكتباً.

أما مكتب القائمقام، ومكتب معاونه علي طه رضوان، فلكلٍ منهما مكتب مستقل، ولكنهما متجاوران والمكتبان يقعان في المبنى الشرقي، الذي ذكرت آنفاً، ويقع في نهاية الممر للداخل من الباب الرئيس للمبنى.





عملي مع قائمقام جدة

عندما أبلغني المرحوم العم محمد العبدالرحمن الزامل برغبة القائمقام في مقابلتي له، أوضحتُ له بأني لا أرى مبرراً لمقابلته لعدة أسباب، أهمها بأنه لم تكن بيني وبينه أيُّ صلة أو معرفة، وفي الوقت نفسه أنا في طريقي إلى العودة إلى مكة غداً أو بعد غد، وقد أمرني أخي بذلك.

أجابني بقوله: ليس من اللياقة أن ترفض مقابلته: أولاً لأنه حاكم البلد، وثانياً أنك لن تخسر شيئاً من هذه المقابلة. وفي وسعك أن تقرِّر أنت ما تراه بالنسبة لمستقبلك، وأردف قائلاً: أننا كنا منذ ساعات عند الشيخ إبراهيم الصنيع، في مكتبه الجماعة كلهم: علي العماري ومحمد التركي، كلهم قد أثنوا عليك عندما استفسر منهم عنك.

لقائي بالقائمقام في مكتبه:

عندئذ رأيت أنَّ ما يقوله العم محمد كلام وجيه، فلأذهب إليه، لأعرف ما عنده. وبعد شروق الشمس بنحو نصف ساعة ذهبت إلى الخزنة، مقرُّ إقامته، ومقرُّ مكتبه أيضاً وجدته جالساً على مكتبه وأمامه بعض الأوراق يقرؤها.

بادرته بتحية الإسلام قائلاً: السلام عليكم. فردَّ عليَّ السلام واتَّجه إلى قراءة الورقة التي كانت موجودة أمامه.

معاون القائمقام علي طه رضوان:

جلست على الكنبة التي أمامه، وقد أشار إليَّ بذلك، وفجأة دخل

علينا معاون القائمقام علي طه رضوان، فسلَّم عليه، ثم وقفتُ أنا فصافحني، وسألني عن حالي، وعن صحة أخي، لأنه يعرفني في مناسبات الحفلات الرسمية، ولأنه يعرف أخي معرفة جيدة، وكنا نتولّى تزويد الماء المخصَّص لبيته من الكنداسة.

جلس على مكتبه المجاور لمكتب القائمقام بالغرفة نفسها، وهنا رفع القائمقام رأسه عن الورق الذي أمامه، واتَّجه بنظره إليَّ، ولما كان علي طه لم يذكر اسمي نظراً للمعرفة السابقة، فقد وقفت أمام القائمقام قائلاً له: أنا إبراهيم الحسون، حضرت حسب ما أخبرني العم محمد الزامل عن رغبتكم بحضوري.

رحَّب بي الرجل كثيراً، واحتفى بي، وطَلَبَ القهوة ثم الشاهي، موضِّحاً أنه كلف محمد الزامل بإبلاغي بمواجهته، ثم انصرف إلى الحديث مع علي طه في معاملات إدارية على مكتبه، أحالها إلى علي طه، ثمَّ خرج مغادراً المكتب.

سألني علي طه: هل القائمقام طلبك؟ قلت: نعم، فأومأ برأسه، وقال: يدعوك.

كبير الخويا ناصر بن صالح:

بعد دقائق حضر كبير الخويا ناصر بن صالح، وطلب مني أن أرافقه إلى القائمقام، وكان في انتظارنا في الطابق الأول من المبنى.

غرفة جلوس القائمقام:

صعد معي الدرج، ثم أشار إلى الغرفة التي يجلسُ فيها القائمقام، وهي صالون طويل، محاطة جوانبه بالكراويت، والمساند الفخمة.

دخلت عليه الغرفة، فأشار إليَّ بأن أجلس بجواره على الكنب، سألني عن أسرتي، وعن حياتي وأين تعلمت؟

وأخبرني أنه قد تحصل في الليلة البارحة من عبدالعزيز الصقير ـ وكان

مقيماً معه في هذا المبنى؛ لأنه كان مقيماً معه في السفارة في بغداد، واصطحبه معه للعمل في جدة ـ وأنه زوَّده بمعلومات كافية عن أسرتي أسرة الحسون، وأنها تنتمي لآل أبو عليان، حكام بريدة، وهي فرع من فروع قبيلة بني تميم، القبيلة العريقة والضخمة في التاريخ.

محاورة بيني وبين القائمقام:

بعد تبادل الحديث بنحو ربع ساعة دارت بيني وبينه المحاورة الآتية، قال لي: أنت تعلم أنني لم أصل إلى هذا البلد حاكماً إدارياً، يقيم فيها ومسؤول عن إدارتها، إلا منذ ثلاثة أيام فقط، وإن كنت قد جئتها مراراً، ولكن مروراً لا إقامة، وتعلم أنَّ وظيفة الحاكم الإداري دقيقة، وحسَّاسة ومتشعِّبة الجهات، فيجب عليه أن يكون ملمّاً بالبلد، وبكل ما يجري فيها. مما يستلزم معه أن يكون بجواره شخص مقيم في البلد تتوفَّر لديه الخبرة والمعرفة عن أهلها وأحوالها، وعندما ألقيت كلمتك بالأمس في حفل افتتاح شارع فيصل سألت عنك، فأعطيت فكرة من عدَّة شخصيات جعلتني أتَّجه لاختيارك للعمل معي سكرتيراً خاصاً يكون مركزه متميزاً، ستكون علاقته بي علاقة مباشرة، بدون أية واسطة، علماً بأنَّ هذه الوظيفة لها مكانة مرموقة، فلها راتب ضخم، لا يوجد في جدة من يتقاضى مثله، وهو مائة وعشرون ريالاً شهرياً، وأنت تعلم أن راتب رؤساء الدوائر كالمالية والكنداسة والشرطة والبريد والبلدية محدداً بأربعة وخمسين ريالاً لكل منهم شهرياً، فوق ذلك فإنك ستكون مرافقاً لي في سيارتي أينما ذهبت، ومقيماً معي في هذا المَبْنى حيث خصَّصت لمنامك هذه الغرفة بمعنى أنك ستكون ملازماً لي طيلة الوقت، ولا نفترق إلا ساعة المنام، وستجد مني كلَّ عونٍ ورعاية.

بماذا أجبت القائمقام؟

أجبته بقولي: إنه ليسعدني ويشرفني العمل بجوارك، وأنني أنظر إليك كما أنظر إلى أبي، وأنني مدرك ومتفهم لأهمية هذه الوظيفة، وما تفضَّلت به من إيضاح عن مهامها ومتطلباتها، بَيْد أنني وأنا أحضر إليك اليوم قد

سبق أن حجزت في هذا المساء مركباً في سيارة البريد للذهاب إلى مكة، لمواصلة الدراسة في مدرسة تحضير البعثات هناك، وأنني لم أفكر قط في الالتحاق بالوظائف، لأنَّ هدفي مواصلة الدراسة هنا في المملكة، ثم في الخارج للحصول على أعلى الشهادات العلمية، وعندما أُدرِك هذا الهدف، وأرجو الله أن يحققه عند ذلك يكون المجال مفتوحاً أمامي لاقتحام مَيْدان الحياة وبناء المستقبل.

بماذا أجابني القائمقام؟

أجابني بقوله: إنني أقدِّر يا بُنيَّ فيك هذا الطموح، وأُعينك وأساعدك على تحقيقه، ولكن دعني أخاطبك بمنطق العقل والواقع، وثق إني أتكلم معك كأب وصديق يهدف إلى مصلحتك، وليس الهدف مجرد إقناعك بالعمل معي: أنت تعرف أنني لو أعلنت عن هذه الوظيفة لتسابق إليها الرؤساء مُهرولين، ولكنني أفضل إنساناً أثق فيه مثلك، أنت تعلم أنه منذ شهور وصل إلى جدة مجموعة من الشباب قادمين من إيطاليا، وهم الذين سبق أن ابتعثتهم الحكومة إلى روما لتعلّم الطيران، وقد عادوا إلى جدة بعد اكتمال دراستهم، وهم المنديلي ورفاقه الستة، وقد بلغني أنك من ضمن الجماعة الذين خطبوا في احتفال استقبالهم حين عودتهم في الكرانتينا.

هؤلاء طيّارون، ومن الواضح أنَّ مهنة الطيار هي بدون شك أعلى الوظائف، وأسماها بالنسبة للدولة.

هل تدري كم راتب الطيار من هؤلاء؟ إنه خمسة وخمسون ريالاً فقط.

افرض أنك ذهبت، وأكملت دراستك، ونلت أرقى الشهادات، أتظن أن راتبك سيفوق راتب هؤلاء؟

كان يتكلم ونظرات الصدق تنبعث من شفتيه، وتفعل في تفكيري كهزة الكهرباء.

ظللت لحظات أفكر، ثم أردفتُ قائلاً له: إنني قد قطعت شوطاً كبيراً في منهج الدراسة وليس من السهل أن أقف في نصف الطريق وأنه خير من

يشجعني، لأنَّ العلم لا يقدَّر بثمن، وفرصة الشباب لن تعود.

فقال لي: ليقدر الله لك ما فيه الخير، وقد نصحتك بما أعتقده في مصلحتك، وعليك أن تفكر في الأمر جيداً إن اقتنعت بما سقته إليك، وأوْضحته لك، فأهلاً وسهلاً، وإن رأيت الاستمرار في مشوارك، فليأخذ الله بيدك ويوفقك، ثم استأذنته مودعاً. وكانت آخر عبارة سمعتها منه، وهو يودِّعني: فكر جيداً بما شرحت لك عن موضوع الطيارين.

إلغاء سفري إلى مكة المكرمة:

عدت إلى البيت، وكان أول شيء فعلته أن ذهبت إلى إدارة البريد موضِّحاً لهم بأن سفري لهذا اليوم سيتأخر، وفي إمكانهم استخدام المقعد المحجوز لي لشخص آخر.

بلبلة فكرية وصراع عاطفي:

مرت سحابة ذلك اليوم وأنا في بَلْبَلة فكرية لا أحسد عليها، وصراع عاطفي لم أجد فيه منفذاً أطمئن إليه وأرتاح. عاملان يتنازعان تفكيري: الحقائق الواقعية، التي سَرَدَها لي القائمقام بالنسبة للرواتب وبالنسبة للطيَّارين، ومن الجهة الأخرى حصولي على الشهادة العلمية التي طالما تاقت إليها نفسي وشغلت تفكيري، خاصةً وقد أصبحت الفرصة سانحة؛ لأنَّ أخي قد أمرني بالعودة إلى الدراسة، ومعنى ذلك أنه سيوفِّر لي من الأسباب ما يمكنني من التحصيل بهدوء وطمأنينة، لذلك فقد رأيت من الأفضل أن أعرض الأمر على أخي، لأستنير برأيه وتوجيهاته، فيما يجب الأخذ به، سواء كان بمواصلة الدراسة، أو الالتحاق بسكرتارية القائمقام.

استشارتي لأخي وموقفه مني:

بعد العشاء من ذلك اليوم، وبعد أن صعد أخي إلى السطح كعادته، استدعيت الجارية (صفا)، وأمرتها بأن تشعر سيدتها (زوجة أخي) بإبلاغه أنني أرغب أن يأذن لي بالحديث معه بضع دقائق.

عادت الجارية إليَّ قائلة: إصعد إليه.

كان - رحمة الله عليه - مضطجعاً على فراش وثير في السطح، متكئاً على عدَّة مخدات، جلست على مقربةٍ من رأسه، وشَرَحت له قصةَ ذهابي في هذا الصباح إلى القائمقام وما دار بيني وبينه من أحاديث، وموضع الوظيفة التي عرضها عليَّ، وأنني الآن جئت آخذ رأيه في الموضوع: هل أذهب إلى مكة لأواصل الدراسة؟ أم ألتحق بالقائمقام سكرتيراً خاصّاً له موضحاً له بأنَّ الوظيفة ذات مكان وخطر، وأنَّ راتبها هو مائة وعشرون ريالاً.

عبارات ساخرة:

ما كدت أنتهي من حديثي حتى استوى قاعداً على فراشه، متَّجهاً إليَّ ومشيراً بأصبعه: أنت تكون سكرتير للقائمقام؟ كررها ثلاث مرات بعبارات ساخرة: هل بلغ بك الغرور أن تكون مرافقاً شخصياً للحاكم وسكرتيراً خاصاً له؟

شعرتُ في تلك اللحظة أنَّ قلبي يكاد ينزو من الألم الذي شعرت به، نتيجة للعبارات الساخرة التي كلها تحقير وامتهان.

لم يكن في وسعي احتمال سماع أكثر مما سمعت، فأسرعت إلى الدرج هابطاً منها، وقد سقطت في درجتين أثناء هبوطي، وكانت عاطفتي في غليان وهياج ما بعده غليان.

العزم على قبول التحدي:

وما كدت أصل إلى غرفتي حتى حزمت أمري جازماً على أن أثبت له أنني غير ما تصوَّره، وأنَّ عباراته الساخرة لم تكن في محلها، ولم يكن لها أي موجب، ولم أكن أستحقها منه، ولست حتى هذه اللحظة أجد تعليلاً يطمئن إليه تفكيري، يبرر ذلك الموقف الذي وقفه أخي مني.

صَمَّمتُ في قرارة نفسي على أن أترك الدراسة واضعاً في اعتباري

أهمية المنصب من جهة الحقائق الواقعيَّة التي ساقها القائمقام أثناء حديثي معه.

وعلى ذلك فقد نمت تلك الليلة، وأنا أتمنى في قرارة نفسي أن تطوى ساعات الليل بسرعةٍ، وتشرق الشمس، فأذهب إلى مكتب القائمقام.

الذهاب إلى دار الخزنة (مبنى الحكومة):

في الصباح الباكر من ذلك اليوم السادس والعشرين من شهر جمادى الآخرة عام **١٣٥٦** توجَّهت إلى مقر القائمقام بدار الخزنة، وهي مقر الحاكم الإداري، وهناك وجدته جالساً في مكتبه، وكان الوقت بُعيد شروق الشمس مباشرة، فما كاد يراني قادماً إليه حتى قام وصافحني بحرارة قائلاً: إني أهنئك بأنك اخترت الأفضل لمستقبلك، شكرته على حفاوته، ثم جلس يحدثني عن الخطوط الرئيسة التي يرى أنَّ عليَّ أن أتقيَّد بها في مهمَّتي الجديدة موضِّحاً لي بأن لا أتقيد بأيِّ أمر أو توجيه إلا ما يصدر عنه نفسه، وخلال ذلك دخل علينا (علي طه) معاونه فرحَّب بي أيضاً، وتمنّى لي مزيداً من التوفيق في مهمتي الجديدة.

مكتب جديد:

بعد ذلك طلب حضور رئيس الخويا، وأمره بأن يحضر أحد المكاتب الجديدة، التي أُحضرت اليوم، وما هي إلا مدة قصيرة حتى حضر أربعة من الخويا حاملين مكتباً ضخماً جديداً، أُمِروا بأن يضعوه في غرفة تقابل مكتب القائمقام من الجانب الآخر، ثم أحضر كرسياً وأشار إليَّ، قائلاً: هذا مكتبك، أحببت أن تكون قريباً مني، ثم أمر بأن يطلب من إدارة البرق والبريد إحضار جهاز تلفون، ووضعه على مكتبي.

دراسة الخطابات الواردة إلى القائمقام:

نهضت بعد ذلك إلى حيث المكتب، وباشرت مهمَّتي، وقد حضر إليّ، بعد نحو نصف ساعة، أحد الفراشين، ومعه رزمة من الخطابات

بعضها مفتوح وبعضها ما زال مغلقاً، ووضعها أمامي قائلاً: اقرأها، واكتب رداً على ما يستحق الرد منها حسب توجيه القائمقام.

كانت الخطابات واردة من مصادر متعدِّدة من بغداد، ومن البصرة، ومن دمشق، ومن القاهرة، وكلها خطابات خاصة باسم الشيخ إبراهيم بن معمر، قائمقام جدة، ويحمل كل ظرف في أعلاه كلمة «مهم وخاص»، وكان مرسلو هذه الخطابات من ذوي المكانة في عالم السياسة، ومن لهم علم واطلاع بما يدور خلف الكواليس من أمور السياسة العليا التي تجري في هذه البلاد التي ذُكِرت، وكان من ضمن الأسماء التي لا زلت أذكرها خطابات من بغداد، تحمل تواقيع عبدالعزيز الصانع، على ما أذكر، وياسين الهاشمي، وصديق شنشل، ومزاحم الباجه جى، وغيرهم ممن لا أذكر أسماءهم الآن.

كما أن الخطابات الواردة من دمشق الشام تحمل توقيع شكري القوتلي، وهاشم الأتاسي، وفارس الخوري، إن لم تخني الذاكرة. ومن القاهرة فوزان السابق، ومحمد علي الطاهر، صاحب جريدة الشورى، وبعض شخصيات لا أذكر أسماءها الآن.

كانت كل هذه الرسائل تقريباً متشابهة في المضمون، فكلها تقريباً تشير إلى أحداث وقعت في الفترة الأخيرة، أو أحداث متوقع حدوثها في المستقبل القريب، وتتعلق بأحداث سياسية في غاية السرية، كتغيير وزاري حدث، وترشيح آخرين لمناصب وزارية، أو اتجاهات معينة مستجدة في سياسة تلك البلد، سواء ما كان منها متعلقاً بالداخل أو بالخارج قرأتها جميعاً ثم وضعت ملخصاً لكل رسالة شبكته معها.

وضع ملخص لتلك الخطابات:

وبعد صلاة الظهر وتناول الغداء مرَّ عليَّ القائمقام في طريقه إلى الصعود إلى غرفته للاستراحة، قائلاً لي: ماذا فعلت بالرسائل التي بعثتها إليك هذا الصباح؟ أجبته بأني قد أنجزتها ووضعت ملخصاً لكل منها فقال: الحقني بها.

بعد بضع دقائق صعدت إليه بالملف، وسلَّمته له، ثم أشار إلى غرفة مجاورة تفصلها بضعة أمتار عن غرفته وبابها يقع في اتجاه مغايرٍ لباب غرفته، وقال لي: اذهب استرح لكي أتصفح الملف.

بعد ساعة تقريباً ناداني فوجدته قد قسَّمها إلى قسمين، بعضها يحمل تأشيرةً بالقلم الأحمر، وبعضها يحمل كلمة «تحفظ» موقعةً منه وكانت الأقلية هي التي حفظت، ثم وجَّه لي الكلام قائلاً: هذه الخطابات المؤشر عليها بالقلم الأحمر خذها معك إلى مكتبك، ولا تمكِّن أحداً من الجلوس عندك، ثم اطلب ورق كربون، وثوب من الورق الأبيض، واكتب من كل رسالة من هذه الرسائل أربع نسخ، وبخط كبير جداً قدر الاستطاعة، وبإبعاد الأسطر بعضها عن بعض، ثم أحضرها لي بعد العِشاء.

نفذت الأمر كما طلب، وكتبت جميع الرسائل وَفْق الطريقة التي أرادها، وقد نتج عن ذلك أن تألفت بعض الرسائل مما يقرب من عشرين ورقة اصطحبتها معي ضمن الملف.

إرسال الخطابات وتوزيعها:

وبعد تناول العشاء استدعاني إلى مكتبه، وأغلق الباب علينا، ثم أخذنا نرتب النسخ من كل رسالة، وكانت الجهات التي اتضح أنها ستستقبل هذه الرسائل هي: أولاً نسخة لجلالة الملك عبدالعزيز في الرياض، ونسخة أخرى لنائب جلالة الملك في مكة سمو الأمير فيصل بن عبدالعزيز، ونسخة أخرى تحفظ في مكتب القائمقام، والنسخة الأخيرة تحفظ عندي مع أصل الرسالة، ثم وضعنا رسالة الملك في ظرف كبير، مع رسالة مختصرة بخط القائمقام وتوقيعه موجهة لجلالة الملك، ومثلها للأمير فيصل مع النسخة الخاصة به، ومضمون هذه الرسائل التي بخط القائمقام وتوقيعه يتلخص بأنه يرفع لجلالته خلاصةً لما ورد إليه من أصدقائه في البلاد العربية المجاورة للاطلاع.

وكانت الرسالتان حالما تختمان تؤخذان بسيارة ونيت جديدة، مُعدَّة لهذا الغرض، يُسَلَّم الظرفان للسائق، ويؤخذ عليه سند باستلامهما، يوضَح

في السند التاريخ والساعة من الوقت، ويؤكد عليه من قبل القائمقام نفسه بأن يواصل السرعة في سيره ما أمكنه ذلك، ماراً ببيت الأمير فيصل بمكة، فيسلمه الرسالة الخاصة به، ثم يستمر في الحال، مواصلاً سفره إلى الرياض لتسليم الرسالة الأخرى لجلالة الملك هناك.

ماذا في تلك الرسائل؟

كانت تلك الرسائل ـ كما ذكرتُ ـ تَذْكُر أحداثاً وقعت خلال الأسبوع التي كُتبت فيه الرسالة أو أحداثاً مستقبلية متوقع حدوثها، وبالفعل فإن ما يتحقق وقوعه مما تشير إليه تلك الرسائل لا تقل نسبته عن ٩٠٪، ولا غرو في ذلك فكل الأشخاص الذين وقعوا تلك الرسائل هم في قمة مجرى الأحداث في بلادهم ويطّلعون على خفايا أسرار الدولة، وما يدور فيها خلف الكواليس من تغييرات أو تبديلات أو تعيينات أو إبعاد أو تقريب.

رسالة من العراق:

ولعلَّ في ذكر حادثة واحدة مما ذكرت تكفي تدليلاً على صحة ما أشرت إليه، فقد وردت من ضمن الرسائل آنذاك رسالة من إحدى شخصيات العراق، ولا أعرف تأكيداً الآن: أهي موقعة من صالح جبر، أو من ياسين الهاشمي، أو السعدون؟ ولكن الذي أذكره أنها ذكرت أنَّ هناك أحداثاً في بلاط الرحاب في بغداد تجري من خلف الكواليس، وهي على جانب من الخطورة، وسيكون لها وقع حاسم في مُجْريات الأحداث. لم يكد يمضي أسبوع على تاريخ تلك الرسالة حتى فوجىء العراق بانقلاب عسكري، لأول مرة في تاريخه يقوده قائد الجيش آنذاك بكر صدقي، فيرغم وزارة طه ياسين الهاشمي على الاستقالة، ويرغم رجال القَصْر على أن يكلفوا المدعو جعفر أبو التمَّن بتشكيل وزارة بدلاً عنه.

برنامج عملي الجديد:

كان البرنامج الذي سرت عليه في عملي الجديد هو أنني ظللت

ملازماً للقائمقام طيلة أربع وعشرين ساعة في اليوم، لا أغادر مبنى الخزنة إلا معه في سيارته، غرفتي بجوار غرفته، في الصباح وبعد تناول طعام الفطور مباشرة نذهب إلى مكتب الصَنِيع بسيارته، فنجد هناك الشلة المعروفة: الصنيع والتركي والعمَّاري وأبو زامل، نمكث معهم نحو ساعة أو ساعة ونصف، ثم نعود إلى الخزنة ثم يتَّجه كل منا إلى مكتبه. بعد صلاة الظهر، وبعد تناول الغداء مع جميع الموظفين والخويا، إذ كانت الإعاشة على حساب الدولة تؤمِّنها وتُشرف عليها بلدية جدة.

بعد الغداء يصعد كل منا إلى غرفته للاستراحة، ثم نؤدي صلاة العصر، فيذهب كلٌّ منا إلى مكتبه لمدة ساعة أو ساعة ونصف على الأكثر، ثم نخرج سويَّةً، ومعنا رئيس الخويا ناصر والعم عبدالعزيز الصّقير، وكان له غرفة معنا في المبنى نفسه، ولكنها بعيدةً نسبياً عن غرفنا، نخرج سوية بالسيارة، فيجلس القائمقام بجوار السائق، ونحن الثلاثة في المقعد الخلفي، وكانت رحلاتنا في الغالب الأكثر تتجه إلى شمال جدة، باتجاه طريق المدينة، وكانت الطرق آنذاك ترابية وذات مطبات وأخاديد، فلم تكن قد سُفلتت بعد.

رحلاتنا اليومية إلى البحر مع القائمقام:

ما نكاد نبتعد قليلاً عن باب جديد حتى يكشف القائمقام رأسه، وكان ذا شعرٍ كثيف متدلٍ، ثم يرفع صوته بالغناء النجدي، مترنماً بأحد القصائد النبطية ذات اللهجة النجدية، يرفع صوته بالشطر الأول من البيت بصوت عالٍ منغَّم، ثم نقوم نحن بعده بترديد المقطع نفسه، وهكذا نستمر في السير إلى ما يقرب من عشرين إلى ثلاثين كيلو على هذا الوضع نفسه، وهناك نأخذ في السَّير باتجاه البحر، حتى إذا كنا على بعد أمتار قليلة منه أوقفنا السيارة، وافترشنا قطعةً من السجاد التركي كنا نصطحبها معنا في مؤخِّرة السيارة دائماً، فنجلس نتجاذب الأحاديث وطرفاً من الأدب والتاريخ، وأخبار القبائل وأنسابها، والذي كان المجلِّي فيها عبدالعزيز بن صقير - رحمة الله عليه - لأنه كان راوية في معرفة أنساب القبائل وبطونها.

وكنت والقائمقام ورئيس الخويا نقف منه موقف الطلبة من أستاذهم، وخلال ذلك يكون رئيس الخويا قد أنهى مهمَّته في صب القهوة والشاهي خلال ذلك، فنؤدي صلاة المغرب، ثم نعود من حيث أتينا، قاطعين الطريق بالغناء بالطريقة الأولى نفسها.

عند عودتنا يتوجَّه كل منا إلى غرفته، ثم يعود بعد ساعة تقريباً إلى المصلى داخل المبنى لتأدية صلاة العشاء، ثم نتَّجه إلى صالون الطعام لتناول العشاء، وبعد ذلك يصعد كل منا إلى غرفته وفي الغالب الأكثر نمكث في مكاننا بجوار البحر حتى نؤدي صلاة العشاء هناك.

سفرنا إلى مكة الأسبوعي:

وفي كل أسبوع تقريباً نتَّجه إلى مكة، وقد يحدث أن نتجه لها في الأسبوع مرتين، وبطريقة الغناء نفسها، خلال الطريق يقوم القائمقام بمهمة المنشد، ونحن خلفه نردِّد ما يقول.

كان توجهنا إلى مكة المكرمة، ينحصر في الذهاب إلى قصر الأمير فيصل النائب العام، وكان بيته يقع على يمين القادم من الحرم، متَّجهاً إلى الغرب على بعد ثلاثمائة متر تقريباً من الحرم.

لقاءاتنا مع الأمير فيصل:

كنا نجد الأمير فيصل، داخل هذا البيت الواسع، جالساً في حوش فُرِش بالزل الفاخر، وأحيطت جوانبه بالمساند والمخدات. فيلقانا بترحاب ويُسَرُّ لوجودنا، ولم يكن يوجد بيننا سوى الشخص الذي يدور علينا بالقهوة والشاهي وهو عبد أسود.

كانت الجلسة بسيطة متواضعة، لا كلفة فيها ولا رسميات، بل جلسة أصدقاء يتجاذبون أطراف الحديث في شتى المواضيع، وكانت الأحاديث عادةً تدور في أكثرها على المساجلة في أبيات الشعر النبطي، الذي كان الأمير فيصل وإبراهيم بن معمر وعبدالعزيز بن صقير يحفظون كماً ضخماً

منه لفحول هذا الفن، كالشاعر ابن لعبون، والشاعر القاضي، وصاحب قصيدة الخَلُوجْ محمد العوني، وابن سِبَيِّل، ولُوَيحَان، والصفراني، وابن عسكر، وغيرهم وغيرهم مما لا أذكر أسماءهم، وكانوا إن اختلفوا في نسبة شاعر وتحديد انتمائه إلى أي قبيلة يحتكمون لعبدالعزيز بن صقير إذ كان (ابن بَجْدَتِها)، والخبير بها.

كان جواً ممتعاً بحق، وكانوا في الغالب الأكثر عندما ينشد الواحد منهم بيتاً أو أبيات لشاعرٍ ما من هؤلاء الشعراء ينشدها بنغمة موسيقية وَفْق لهجتها البدوية.

نؤدي صلاة المغرب في مكاننا هذا، ثم يستمر السمر بالطريقة نفسها حتى صلاة العشاء، حيث نقضيها أيضاً، ثم نتجه معاً إلى سماط الأكل الذي يكون قد أعد، وعليه مختلف أنواع الأطعمة، وكما قلت كان الجو أشبه بجو عائلي يتحللون فيه من الرسميات والبروتوكول، فكلٌ منهم كان حاسر الرأس.

بعد العَشاء نعود إلى حيث كنا، ثم تدور القهوة فالشاهي، وبعد صلاة العشاء بنحو ساعتين نودِّع سمو النائب العام، ثم نعود أدراجنا إلى جدة التي نصلها في حدود ثلاث ساعات؛ لأنَّ الطريق ـ وخاصة بعد الأعلام المتجهة إلى جدة والواقع ما بين الأعلام وبحرة ـ طريق رملي لا تكاد السيارة تجتازه إلا بكل صعوبة وكان يساعدنا في ذلك أنَّ السيارة جديدة.

إعداد الأكل في دار القائمقام:

كان إعداد الأكل في دار القائمقام يتم في مطبخ داخل المبنى، يقع في الجهة الشرقية المقابلة لبيت الهزازي حالياً، والذي يفصل بينهما الشارع المتَّجه لباب جديد، كان المطبخ يشرف عليه طبَّاخ مختص من قبل البلدية يعاونه اثنان من العمال، وكان هذا المطبخ يتصل بدَرَج يهبط إليه من أعلى إلى أسفل، بواسطة هذا الدرج ينقل الطعام إلى حيث يهيأ في أوقاته.

قصتي مع الشيشة:

ولما كنت آنذاك ملازماً لشرب الشيشة، فقد أحضرتُ معي من اليوم الأول شيشةً جلاَّسية، ووضعتها عند الطبَّاخ، وأمرته بأن يهيىء الشيشة بحيث يعبىء الرأس جراك ويضع عليه الجمر عندما تكون الساعة قد بلغت ثلاثاً في الصباح أي التاسعة، وكنت أراقب ساعتي فحالما يأزف الوقت أهرول مسرعاً إليه من تلك الدرج، فأجد الشيشة مهيَّأة ورائحة الجراك تعبق بالمكان، فأمكث نحو عشر دقائق، ثم أصعد إلى مكتبي.

وحدث في اليوم الثالث من بدء عملي أن هبطت عند الطبَّاخ من أجل الشيشة، وسأل القائمقام عني، فلم يجدني على المكتب، ولم يكن أحد من الخويا أو الموجودين يعرف أين ذهبت، وحينما عدت إلى مكتبي علمت من رئيس الخويا أنَّ القائمقام قد سأل عني منذ بضع دقائق، فسكت ولم أجبه كما أن القائمقام لم يعاود السؤال عني، ولم يسألني حينما قدَّمت إليه الأوراق أين كنت:

وفي مساء ذلك اليوم وعندما كنا متجهين لركوب السيارة بعد العصر وقبل أن يصعد إلى السيارة استوقفته قائلاً: أرجو أن تسمح لي دقيقة. قال: تفضَّل.

قلت: علمت أنك سألت عني ضحى اليوم ولم أكن في مكتبي، وكنت أترقب منك أن تسألني عن سبب غيابي عن المكتب وقت العمل ولكنك لم تفعل كرماً منكم، وأنا أحب أن أكون صريحاً معك، وأن لا أخفي عليك أي أمر يتعلق بي ما دمت معك، حتى لو كان تافهاً، أو لا علاقة له بالعمل. إنَّ الوقت الذي سألت عني فيه كنت موجوداً أسفل عند الطباخ أشرب الشيشة، ثم سردت له القصة، وأوضحت له أنني مدمن على الشيشة منذ أكثر من ثمان سنوات، لذا أحببت أن تكون في الصورة، وأن تعرف مكان وجودي حينما لا أكون متواجداً على مكتبي.

هزَّ رأسه وسكت، ثم ركب وركبنا كالعادة متجهين إلى البحر، وعند عودتنا بعد أن كنا قد أدَّينا صلاة العشاء في ذلك اليوم على ساحل البحر

عدنا إلى الخزنة، وعند مغادرتنا السيارة، ودخولنا من الباب وقف ووقفنا معه فنادى على رئيس الخويا (ناصر) الذي أسرع ملبياً للنداء.

وهنا سأله القائمقام: أين مفتاح المكتب هذا وأشار إلى مكتب القائمقام السابق الذي سبق أن أوضحت عن وصفه وتفاصيله، أجابه بأنه عندي، فأمره بإحضاره، ونحن واقفون في مكاننا فأحضره على الفور، وهنا أخذ المفتاح منه، وسلمه إليّ، وقال لي: ابتداءً من صباح غد أنقل أوراقك إلى هذا المكتب وليكن هو مقرُّ عملك الرسمي، وهنا أبْدَيت له ملاحظة خلاصتها أن هذا المكتب لا يصلح لي على أساس أنَّ كثيراً من البادية وأعني رؤساء البادية، الذين يتواجدون عادة في جدة يحضرون باستمرار إلى القائمقام، ليأخذوا منه ورقة إركاب على سيارة البريد، وكان يحيلهم إليَّ لتزويدهم بهذه الأوراق بعد مهرها بالختم الرسمي، فمن الصعب أن يجدوا أمامي شيشة أشربها في المكتب.

أجابني بأن عليك أن تحضر الشيشة إلى مكتبك، ونحن نؤمِّن لك شرطياً يقف أمام أول الدرج، فلا يسمح لأحدٍ بالصعود إليك إلا بعد أن يشعرك ويأخذ السماح له منك بالإذن بالصعود.

موقف نبيل وخلق رفيع:

كان هذا الموقف منه غايةً في النبل والسماحة ورفعة الخلق، وقد أسعدني ذلك، وبدلاً أن أتجه إلى غرفة نومي قلت خير البرِّ عاجله فصعدت مع رئيس الخويا إلى مكتبي الجديد، حيث فتحنا الباب، ثم شاهدنا أثاثه وهو حقاً من الفخامة يليق بمكتب حاكم.

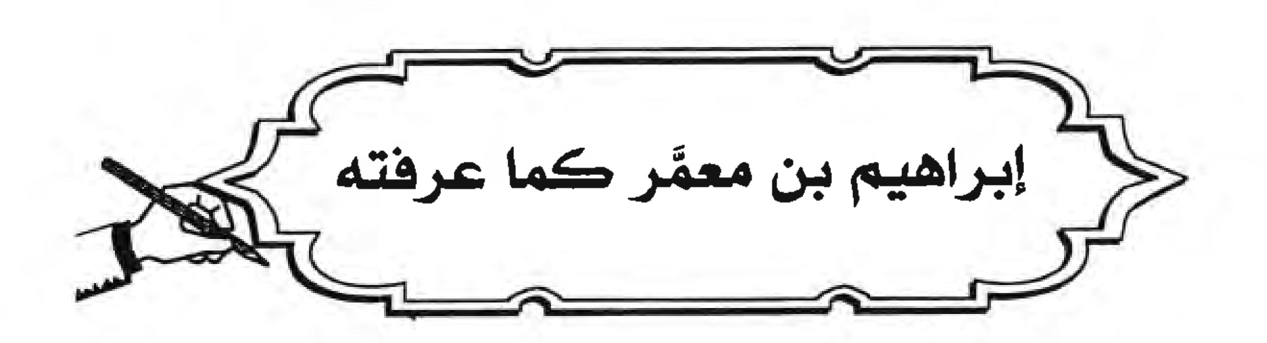
شعوري في المكتب الجديد:

وتصور شعوري وأنا أجلس على هذا المكتب الفخم، وأمامي الستائر المخملية تغطي النوافذ، وتغطي الأرضية قطعة من السجاد الكاشاني الفاخر، كما أنه يفضي إلى صالون معد للاستراحة، تحيط به الستائر والمساند المغطاة بأقمشة حريرية زاهية!!

وثائق رسمية مهمة:

وفي دولاب مثبت بالجدار أبوابه من الزجاج، ممتلىء بالوثائق الرسمية، من برقيات وتحارير، منها ما كان من عهد الأتراك، ومنها ما كان من عهد حكومة الشريف حسين، ثم ابنه علي، وأذكر أنَّ من ضمنها برقيات متبادلة بين رئيس الوزراء في عهد حكومة الشريف علي: عبدالله سراج، وبين قائمقام مدينة العقبة، وكانت توضح بكل جلاء، أن العقبة كانت تابعة للحجاز.





إبراهيم بن معمّر كما عرفته

كان إبراهيم بن معمر شخصية لها وزنها يجمع إلى الحنكة في الإدارة الجرأة في التنفيذ، وكان لا يعرف المجاملة في ما يعتقده حقاً، فلا يقبل التأويل والمراوغة، أو افتراضات الحلول ويمتاز بروح عربية أصيلة، تضع الكرامة والكبرياء في المقام الأول.

وكان عفيف اللسان، وعفيف اليد، يحنو على ذوي الحاجة.

وكان حريصاً أشد الحرص على كل ما من شأنه أن يرفع من كرامة الوطن، واعتزازه بكبريائه، ولعلَّ في الحادثة التالية التي وقعت بحضوري وعلى مشهد مني، ما يؤكد صحة ما أقول.

موقف حازم:

في صباح أحد الأيام كنا متَّجهين من الخزنة إلى مكتب إبراهيم الصنيع، داخل البلد، كما هي العادة اليومية عندنا، كنا نجتاز في طريقنا الشارع المعروف الآن بشارع الملك عبدالعزيز، وكانت البيوت المطلَّة على هذا الشارع، والتي تمثِّل نهاية البناء في جدة من الناحية الشمالية، كلها من عدة طوابق، ومثلها كمثل بقية بيوت جدة مطلية بالنورة البيضاء، ونتيجة لعوامل الطبيعة من أمطار ورياح فقد تساقطت تلك الدهانات من جدران تلك المباني، فأصبح منظرها مشوهاً لا يرتاح إليه النظر، وعندما سألني من يملك هذه البيوت أوضحت بأنني لا أعرف ملاكها، ولكن من المؤكد أن رئيس البلدية يعرفهم.

بعد عودتنا إلى مكاتبنا طلب مني استدعاء رئيس البلدية. وكان آنذاك علي سلامة، وتم استدعاؤه هاتفياً لمقابلة القائمقام في مكتبه. وحضر الرجل بعد نحو ساعة، وعندما شاهدته مقبلاً بعد نزوله من سيارته نزلت إليه، واصطحبته معي إلى مكتب القائمقام، وبعد أن أديرت القهوة وتُبودلت بين الرجلين أحاديث المجاملة، سأله القائمقام: من هم أصحاب تلك البيوت الذين تبدأ مساكنهم بدءاً من بيت باجنيد الواقع غرب الخزنة، يفصلهما الشارع الذي يبلغ عرضه نحو عشرين متراً، ويتجه من الشمال إلى الجنوب بيت باجنيد، ثم يليه من جهة الغرب بيت الناظر التي تشغله السفارة البريطانية آنذاك، والذي يليه من جهة الغرب أيضاً ملعب للتنس تابع للسفارة، ثم يلي هذا الملعب باتجاه الغرب أيضاً عدة بيوت تنتهي بالبيت المقابل لمبنى البحرية آنذاك، وكانت تشغله إدارة الشرطة آنذاك؟ كل هذه المباني تقع في نهاية جدة من الناحية الشمالية، وبالذات بالنسبة لحارة الشام، ويفصلها عن سور جدة الشمالي الشارع العام.

أجابه رئيس البلدية عن أسماء أصحاب هذه البيوت، فأمره القائمقام بأن يكتب لأصحاب هذه البيوت رسمياً بضرورة طلاء واجهاتها بالنورة البيضاء خلال مدة لا تزيد عن أسبوعين.

وبالفعل شرع أصحاب البيوت في تنفيذ الأمر، وكنا نشاهد كل صباح حين مرورنا من ذلك الطريق، السقالات الخشبية منصوبة على واجهات تلك البيوت، وعليها العمال يقومون بالطلاء.

خلال أيام معدودة انتهت تلك البيوت، وأصبح منظرها جميلاً خلاباً، يرتاح إليه النظر، إلا أن بيتاً واحداً من هذه البيوت ظلَّ على وضعه لم يغير فيه شيء، وأعني به مقر السفارة البريطانية.

وهنا أُستدعي رئيس البلدية مرةً أخرى (علي سلامة) ـ رحمة الله عليه ـ بواسطة المعاون (علي طه رضوان) فحضر، وكنت ساعتئذ واقفاً أمام مكتب القائمقام وهو يوقع أوراقاً عرضتها عليه، بدخول الرجل فاجأه القائمقام بقوله: البيت الذي يوجد بجواره ملعب التنس والذي تشغله السفارة

البريطانية لماذا لم يبدأ حتى الآن طلاؤه؟ ألم تبلغوهم بذلك كما بلغتم الآخرين؟

رفض المسؤولين بالسفارة البريطانية طلاء مبناهم:

أجاب رئيس البلدية بقوله: أنه أبلغ مالك المبنى وقد استعدوا بذلك، ولكن عندما أرادوا البَدْء بالتنفيذ رفض المسؤولون بالسفارة السماح لهم بالبدء في العمل، وعندما اتصل رئيس البلدية حسب ما يقول بالمسؤولين في السفارة، موضحاً لهم الأمر، أجابوه بأن امتناعهم عن السماح للعمال بالتنفيذ هو إنفاذ لأمر السفير البريطاني، الذي أفهمهم بأن المبنى يعتبر أرضاً بريطانية، وأنه لا يسمح بتلقي أي أمر بشأنه طالما أنَّ السفارة تشغله.

غضب القائمقام على تصرف السفير البريطاني

وما كاد رئيس البلدية يتلفظ بهذه الكلمات حتى انتفض القائمقام صارخاً في وجه رئيس البلدية بعنف وغضب، طالباً منه أن يذهب في الحال ويبلغهم تليفونياً بأنه لا بد من تنفيذ الأمر، لأنَّ الحكومة السعودية دولة مستقلة، ولا تسمح لأي إنسان أن يخالف أوامرها في داخل بلادها، وأن على رئيس البلدية إمهالهم ثلاثة أيام لكي ينفذوا الأمر، وإلا فإن القائمقام سيأمر بتنفيذه بالقوة وليفعل السفير ما يفعل.

خرج رئيس البلدية من المقابلة ساخطاً، لأنه سمع من القائمقام ألفاظاً حادة، كلها لَوْمٌ وتوبيخ على موقفه أمام تصرُّف المسؤولين في السفارة، وفي اليوم الثالث لهذا الحديث شاهدنا السقالات تنصب على مبنى السفارة والعمل فيها قائم على قدم وساق.

حادثة الطبيب الروسي المسلم:

كان يوجد في حارة الشام بيت ملاصق لبيت آل السُرَّتي من جهة الغرب، تشغله السفارة الروسية، يطلق عليه آنذاك سفارة البولشفيك.

كانت السفارة تحتوي على مركز طبي خاص، موقعه في الطابق

الأرضي من البناية، يشغله طبيب مسلم روسي ومساعدان اثنان معه، وبعض المستخدمين من أهل البلد، وكان هذا المركز أشبه بمركز صحي صغير يقوم بعلاج من يراجعونه من المواطنين، وتزويدهم كذلك بالأدوية مجاناً، أسوةً بمستوصف آخر يماثله كان ملحقاً بالسفارة البريطانية في مبنى خاص، ملاصق لمبناها من جهة الجنوب.

وقد كان وجود السفارة الروسية في جدة سابقاً لدخول الحكومة السعودية أرض الحجاز، وكان من المفارقات العجيبة التي لها مدلولها ومغزاها أن الحكومة الروسية هي من أوائل الدول التي اعترفت بسيادة الدولة السعودية على الحجاز.

كان نشاط السفارة وجهازها الطبي يتقلص شيئاً فشيئاً، ويتخلى عنه المراجعون تدريجاً، وكانت السفارة ورجالها يشعرون بأنهم يعيشون في جوٍ لا يرتاح لوجودهم، وأصبحوا شبه محصورين، ولذلك فقد أزعج هذا الوضع حكومة روسيا، واستشعرت من التقارير التي تقدَّم لها من هذه السفارة أنها أي السفارة مشلولة الحركة، وبالتالي رأت تلك الحكومة أنه لا فائدة إذاً من بقاء هذه السفارة، وأن من الأفضل إغلاقها وسحب موظفيها.

حضرت في تلك الأيام إلى ميناء جدة باخرة حربية روسية لنقل السفارة وموظفيها، ولما كان طبيب السفارة مسلماً، وكانت وكالات الأنباء آنذاك تسلِّط أضواءها على ما يجري في موسكو من تصفيات ومذابح كانت تتمُّ على يد السفاح (بِرْيَا) وزير داخلية روسيا آنذاك وأعوانه، وهو الشخص الذي تمَّت تصفيته هو وأعوانه في أواخر عهد ستالين.

أحسَّ هذا الطبيب وهو يعدُّ أمتعته وحقائبه، شأنه شأن السفير وبقية موظفي السفارة للسفر على الباخرة الحربية الروسية لنقلهم إلى روسيا، استشعر في قرارة نفسه أنَّ عودته إلى موسكو قد تكلفه حياته. فقد يعتَبر فَشِل في مهمته، خاصةً وهو مسلم متمسك بشعائر دينه كما هو معروف عنه في جدة، لذلك فقد انتقل مع بقية الموظفين مع أمتعتهم وحوائجهم إلى

(البنط) أي الميناء، تمهيداً لنقلهم باللنشات إلى الباخرة، وعندما كانوا ينزلون الأمتعة من العربات إلى اللنشات اختفى هذا الطبيب فجأة، فأخذ المسؤولون في السفارة يبحثون عنه، واتصلوا بسلطات الميناء، وبمدير الشرطة للبحث عن هذا الطبيب الذي اختفى فجأةً، وقد تأخرت مغادرة الباخرة ميناء جدة يومين إضافيين، انتظاراً للعثور عليه ونقله فيها إلا أنه لم يعثر له على أثر.

وفي منتصف تلك الليلة أي ليلة الاختفاء، وكان الوقت آنذاك حوالي منتصف الليل، ضرب الجرس على غرفة القائمقام من قبل رئيس الحرس الذي أخبره بأنَّ شخصاً يوجد الآن عند الباب، بجوار جندي الحراسة، ويطلب مقابلة القائمقام شخصياً، فطلب القائمقام من رئيس الحرس أن يأتي بهذا الشخص إلى مكتبه بالأسفل، وكنت قد استيقظت نتيجةً لصوت الجرس، فنزل القائمقام، ثم تبعته بدوري، وإذا بشخص مربوع القامة، أشقر البشرة، يرتدي ثياباً عربية بيضاء، وعلى عينيه نظارة سوداء، تصافح الرجلان القائمقام والشخص الغريب، ثم أخذ الرجل يعرِّف عن نفسه موضحاً للقائمقام بأن اسمه عبدالكريم أوف، وأنه مسلم سنّي، وأنه طبيب في السفارة الروسية الذي تبحث عنه السلطات المحلية، والذي اختفى لعدم رغبته في الذهاب إلى روسيا خوفاً على حياته لأنها دولة ملحدة، تنكر الأديان، ومن ينتمي إليها، وأنه لذلك يعتبر نفسه لاجئاً لدى الحكومة السعودية، ويلتمس منها أن تحميه وأن رغبته أن يستعمل مهنته الطبية في مساعدة إخوانه المسلمين سواء في جدة أو مكة أو أي مكان آخر، وأن جميع أغراضه وأمتعته قد أرسلها كبقية موظفي السفارة إلى الباخرة، وأنه لن يخرج من المكان هذا حتى يرفع أمره إلى ولاة الأمر في المملكة، وأنه يرجو ويتوسل أن تقدِّر ظروفه، ويراعى موقفه، ويحقق له ما طلبه.

كان القائمقام يسمع كلامه بصمت وهدوء، وعند انتهاء حديثه وكان الرجل يحسن العربية إلى حدٍ ما. وجَّه الخطاب إلى الطبيب قائلاً: إنَّ التقاليد العربية تحمي من هو في مثل وضعك، وأنت فوق ذلك يكفي أنك مسلم، والحكومة السعودية ملزمة بالدفاع عن أيِّ مسلم يلجأ إليها مهما

كلفها ذلك من مشاق وتضحيات... أنت الآن هنا في بيتك معزَّزٌ مكرم، وستبقى ما دام لديك رغبة في البقاء، ثم أمر رئيس الحرس أن يضع فراشاً في أحد الغرف، ثم صعد معه، وبقيت أنا والقائمقام وحدنا في المكتب.

برقية لجلالة الملك عبدالعزيز:

ثم طلب مني القائمقام أن أكتب برقية لجلالة الملك تلخص موضوع الطبيب، وتشرح أيضاً بأن القائمقام قد أفهم الطبيب بأنه أصبح الآن في رعاية الحكومة السعودية، ولن يصل إليه أي أذى.

كتبتُ البرقية، وأنا جالس أمامه على المكتب، ثم عرضتها عليه، فأدخل عليها بعض التعديلات بقلمه، ثم أمرني بأن أُشَفِّرها في الحال، وأرسلها باسم جلالة الملك على الديوان بالرياض، ثم اتصل تليفونياً بإدارة اللاسلكي في جدة، مخبراً إيَّاهم بأن هناك برقية عاجلة في طريقها إليهم عليهم أن يسحبوها فور وصولها، ويضعوا توقيت إرسالها على البرقية نفسها، وكان مضمون البرقية أن البارجة الروسية التي انتقل إليها جهاز السفارة في جدة راسية في الميناء، تنتظر إحضار الطبيب.

بعد ذلك بنحو ساعتين، أي مع آذان الفجر تقريباً إذا بموزع البرقيات يطلب من جندي الحراسة الواقف أمام باب الخزنة أن يأذن له بالدخول، لأن لديه برقية مستعجلة، وكان القائمقام عندئذ يتوضأ استعداداً لصلاة الفجر، وكنت على مقربة منه دعاني، آمراً لي باستلام البرقية. قرأ البرقية وإذا هي جوابية على برقيته آنفة الذكر، والتي لم يمض على إرسالها سوى ساعتين فقط ومضمون البرقية الجوابية، على ما أذكر، أو أنه نصها إن لم تخني الذاكرة هو:

ابن معمر ـ جدة

ج برقيتكم رقم... بشأن الطبيب الروسي... أحسنتم في تصرفكم، عمِّدوا المذكور يتوجه إلى مكة، وقد عمَّدنا الابن فيصل بإشعار السلطات الروسية بأنَّ الطبيب المذكور لاجىء لدى المملكة العربية السعودية، وقد

وافقت على طلبه، ومنحته حق اللجوء لديها، ولذا فلا موجب لبقاء البارجة بعد الآن في الميناء، كما عمَّدناه باتخاذ اللازم نحو ما يلزم بتأمين سكن المذكور في مكة، وتوفير كل ما يحتاجه.

التوقيع
عبدالعزيز

نزلت مع القائمقام إلى المصلَّى الذي يقع أسفل المبنى، وكان الطبيب قد سبقنا إلى المصلى، وكان يؤدِّي ركعتي السنة قبل الفجر، فظلَّ القائمقام واقفاً بجواره حتى انتهى من صلاته، وهنا ابتسم القائمقام، وسلَّم البرقية للطبيب، ليقرأها، ويبدو أنه كان يُحسن القراءة العربية، وما كاد يقرؤها حتى كاد يجهشُ بالبكاء من الفرح، ثم ضمَّ القائمقام إلى صدره ضمَّةً تحمل كل معاني الشكر والتقدير.

سفر الطبيب الروسي المسلم إلى مكة:

وفي صباح ذلك اليوم توجَّه الطبيب إلى مكة المكرمة في سيارة خاصة استؤجرت له، وقد علمت فيما بعد أن هذا الدكتور قد فتح عيادة في مكة، وتزوَّج من مكة أيضاً، وأظنه ظلَّ فيها حتى انتقل إلى رحمة الله.



سير العمل مع القائمقام:

سارت بنا الحياة رتيبة هانئة لا يشوبها أي منغص أو كدر كنت أجد منه كل حنوٍ ورعايةٍ وتشجيع، وكان يجد مني الابن المهذب المطيع المتفاني في الإخلاص لعمله، وكان اجتماعي به يتم على فترات: ساعة العشاء، وساعة النوم، وفي أوقات الصلاة، وفسحة العصر، أما سوى ذلك فكنت مشغولاً بعملي، الذي لم يَعُدْ بعد فترةٍ وجيزةٍ مقتصراً على سكرتاريته الخاصة، فقط، بل كان يحيل إليَّ الكثير من المعاملات الرسمية، التي تقدَّم إليه عادة للتوقيع إذا ما اشتبهَ في نص صحة مجريات هذه المعاملة وخاصةً

إذا كانت ذات مرفقات متعددة، كان يبعثها إليَّ مع الفرَّاش في ملفٍّ خاص، وكان قد أفهمني سابقاً أنَّ عليَّ أن أدرس جيداً أيَّ معاملة يحيلها إليَّ من ألفها إلى يائها، وأن أرفق بها ملخصاً يُبيِّن بوضوح مجريات هذه المعاملة، وعما إذا كانت قد تمَّت على نهج سليم، أو أن فيها انحراف أو تضليل، كنتُ أنهي ذلك كله وعادةً ما أُبقي هذه المعاملة على مكتبي حتى نعود من نزهة المساء، ونتناول طعام العشاء، فالصلاة، ثم نصعد إلى غرف النوم. ويوجد هناك صالة فيها مكتب كنا نجلس بها، وأعرض عليه المعاملات معاملةً معاملة، وكان في بادىء الأمر يناقشني فيما كتبته، مناقشة المدقِّق الخبير، ثم يوقِّع المعاملات، أو يطلب مني أن أضع مسودة جديدة لها، يضع عليها تأشيرته، ثم تحال إلى رئيس الكتاب محمد عبده يماني، لتأخذ مَجْراها الرسمي.

كنت في مكتبي، وكان الجندي يقف باستمرار مدة وجودي في المكتب في أسفل الدرج، يصعد إليَّ ويشعرني بكل من هو موجود أسفل، يطلب مقابلتي، حيث إنني قد جلبت الشيشة العدنية الضخمة، والتي اشتريتها فور أن أذن لي، وأعطاني مفتاح هذا المكتب.

استئجار سيارات لرؤساء القبائل:

فإذا كان الشخص من البادية، ممن هو من رؤساء القبائل، ويأتون عادة إلى القائمقام عندما يفدون إلى جدة، ويطلبون منه استئجار سيارات لهم لإيصالهم إلى مكة أو إركابهم في سيارة البريد، وكان يحيلهم إليَّ، إما لإعطائهم ورقة لإدارة البريد لإركابهم، أو لإحدى الشركات إذا كانوا أربعة فأكثر.

شركات السيارات الأهلية:

وكانت هناك شركات أهلية، منها شركة فتح الخير، وشركة قاصد كريم، وشركة السهالة، كنت أكتب ورقة باسم الشركة، أطلب منها إركاب حامل الورقة، أو حامليها، وفي أسفل الورقة توقيع إبراهيم بن معمر قائمقام

جدة، عنه: إبراهيم الحسون، وكانت الشركات تعتمد هذه الورقة، وترحلهم إلى مكة على أحد سياراتها، وفي نهاية الشهر تقدم ما يتجمَّع لديها من هذه الأوراق إلى مالية جدة، لتستلم منها أجور تلك السيارات.

إدارة القائمقام في جدة:

كانت إدارة القائمقام في جدة هي قطب الرحى، ومركز الدائرة فهي تستقبل جميع معاملات الدوائر الرسمية، كما تستقبل عرائض المواطنين ودعاويهم، وتحيل كل دعوى أو شكوى إلى الجهات الرسمية المختصة سواء لسلطات التنفيذ، كالشرطة، أو كانت لسلطات القضاء، كالمحاكم، وكانت أي معاملة لا يمكن أن تتأخر في سَيْرها أكثر من خمسة أيام، لدى أي جهة كانت.

كتّاب الصادر والوارد:

وكان هناك تعقيب مستمر من الموظفين الموجودين في مكتب القائمقام، والمختصين في المتابعة والتعقيب، وهم كتّاب الصادر والوارد، الذين يتوجَّب على كل واحد منهم متابعة المقيَّد لديه في دفاتر تسجيل لمعرفة كم من الوقت مضى على المعاملة التي صدَّرها، فيطلب من رئيس المكتب التعقيب عليها، وهكذا كانت تتم معاملات المواطنين بيُسْر وسهولة، ولم يكن المواطن يحتاج لأكثر من مرة لمعرفة الجهة التي صدرت إليها معاملته فيراجعها ويجد التنفيذ السريع لمضمونها.

كانت الحياة عموماً تسير على نحو متناغم، فلا أحقاد ولا بغضاء، ولا شحناء ولا حقد، تسود الجميع روح المسؤولية والشعور بالواجب، وكان الموظفون على جانب من الانضباط والمواظبة، والحرص على تأدية واجباتهم أولاً بأول، بكل صدق وأمانة، وذلك نتيجة للقدوة الحسنة التي يلمسونها فيمن يرأسونهم، فلا تُسيُّب ولا رشوة، ولا تحكيم هوى، ولا تغليب منفعة، فكانت الأعمال تتمُّ نظيفة مجردة عن الهوى، وعن النفع الشخصي، هدفُها راحة المواطن.

الرؤساء القائمون على الإدارات الرسمية:

وكان الرؤساء القائمون على الإدارات الرسمية كما أذكر آنذاك (السيد هاشم سلطان) في المالية، (ومحمد السليمان التركي) في الكنداسة، و (خليل هجانة) في الشرطة، و (عبدالقادر محتسب) في البريد، و (صالح كيال) في اللاسلكي، و (حامد رويحي) في كتابة العدل، و (محمد إبراهيم الزغيبي) في خفر السواحل، و (مصطفى بدر الدين) في الجمرك، و (علي سلامة) في البلدية.

الدائرة الجبائية:

كما كان هناك دائرة أخرى، لا تقل أهميةً عن هذه الدوائر، لأنها دائرة جبائية، تقوم بتحصيل ضريبة على البضائع الخارجة من جدة، تعرف برسوم التخريجية.

كانت هذه الدائرة تضمُّ شخصين فقط، أحدهما يسمى مأمور التخريجية، وهو المرحوم (صالح المرشد)، ويعمل معه موظف، أمين صندوق، وهو المرحوم (عبدالله عبدالرحمن لنجاوي)، وقد نقل بعد ذلك إلى مالية الرياض، وعمل في رئاستها مدة طويلة، وكان له شهرة واسعة، لأنه كان في تلك الأيام يرأس الإدارة التي يراجعها كل من له استحقاق، أو طلب أو معونات، وهو بشهرته غنيٌّ عن التعريف.

كان الوضع المتبع آنذاك أنَّ طرود البضائع التي تنقلها عشرات القوافل يومياً، من مخازن التجار في جدة على ظهور الجمال إلى مكة وبقية المدن الأخرى، أن تستوفي الحكومة رسماً معيناً على كل طرد. كان هناك أشخاصٌ متفرغون يقومون وسطاء بين البدوي صاحب الجمال وبين التاجر الذي يريد تصدير بضاعته؛ يقوم هؤلاء الوسطاء بالاتصال بالتاجر، لمعرفة عدد الجمال التي يحتاجها لنقل طروده، ومن ثم يأخذون منه ورقةً بالكمية المراد تصديرها، موضحاً بها اسم التاجر المصدر، والتاجر المصدر إليه، في مكة أو غيرها، واسم البدوي صاحب القافلة، وعدد جماله.

يأخذ الوسيط هذه الورقة، مستوفيةً جميع هذه البيانات، ثم يذهب بها إلى مقر استحصال رسوم التخريجية، أي إلى صالح المرشد، الذي ذكرناه آنفاً، وكان مقر عمله في غرفة ذات نافذة واسعة، تقع عند سور جدة من الداخل، ملاصقة لباب مكة - وهو أحد أبواب جدة للمتجه إلى مكة، كما يظهر من اسمه - الذي كان آنذاك يقع شرق سوق البدو مباشرة، وكانت تغلق أبوابه بعد صلاة العشاء كل يوم.

كانت الغرفة كما قلنا ملاصقة للباب من الجهة الجنوبية، ونافذتها تطل على الباب من الجهة الشمالية، بارتفاع متر ونصف تقريباً. في هذه النافذة يجلس صالح المرشد، وأمامه عبدالله لنجاوي، فيعرض الوسيط الورقة عليهما، فيستلمان منه ما هو مستحق عليه من رسوم التخريجية وفقاً لعدد الطرود الموجودة في الورقة، ثم يعطيانه إيصالاً رسمياً باستلام تلك الرسوم، ومن ثم يقوم بتحميل تلك البضائع، استناداً على هذا الإيصال الرسمي.

مأمور التخريجية: صالح المرشد

ذكرنا أنَّ الشخص المسؤول عن جباية الرسوم التخريجية والمؤتمن عليها هو المرحوم صالح المرشد، وهو أحد أبناء عنيزة المقيمين في جدة، فإنه لا يسعنا إنصافاً للتاريخ، وتبياناً للواقع وإشادة بالأريحية والشهامة والتضحية، إلا أن نذكر أنَّ هذا الرجل كان مثالاً مميزاً لنبل الخلق، وسمو الصفات، كان متواضعاً سمحاً عطوفاً على الفقراء، شهماً ذو أريحية قد تكون عديمة النظير في وقت كوقتنا هذا.

كان يسكن في بيت أنشأه خارج جدة، من جهة الشرق، على بعد نحو كيلوين على طريق مكة، وكان هذا البيت يتكوَّن من حوش واسع مكوَّناً من طابق واحد، وذا غرف متعددة بمنافعها، وله بابان: أحدهما من جهة الشمال، والآخر من جهة الجنوب.

كان يقضي أوقاته في هذا البيت، خاصة في أيام الصيف، بعد انتهاء دوام العمل، وكان يتم عادة عمله في حوالي الساعة الحادية عشرة، وكان

هذا الدوام معمولاً به آنذاك، أي الخامسة عصراً بالتوقيت الحالي، وكانت أوقات الدوام في الدوائر الرسمية تتم على فترتين: صباحية ومسائية، تنتهي الأولى بصلاة الظهر، وتنتهي الثانية قبل الغروب بساعة تقريباً.

كان هناك بضعة أشخاص يعملون في التجارة في نطاق محدود جداً ما بين اليمن والمملكة، كان الواحد من هؤلاء يملك بعيراً هو حصيلة عمره، وكانوا معتادين على الأسفار، يتنقلون من بلد إلى آخر، يتاجرون في أنواع محددة بما لديهم من نقود محدودة، وكانت سوق (التمباك الحُمِّى) رائجة جداً، ومربحة أيضاً، فأولئك الأشخاص يغامرون بأرواحهم، ويتعَّرضون لأشد المخاطر، فيذهبون إلى اليمن، ويشترون بما لديهم من نقود محدودة، كميات من هذا الدخان (التمباك)، قد تصل إلى ثلاثين أو أربعين كيلو، وكانت رسوم الدولة على هذا النوع من الدخان تبلغ خمسة وعشرين ريالاً على الكيلو الواحد، والواحد منهم يقوم بمغامرة جلب هذه الكمية على بعيره، سالكاً بها عند دخوله إلى المملكة شتى المنعطفات والتعرُّجات، عبر طرق الحدود، تفادياً لمراكز التفتيش الجمركي، وعيون الرقباء، وينجو أحياناً من قبضة هؤلاء، ويتوغَّل داخل المملكة، فيطمئن نسبياً، ومع ذلك فهو دائماً خائف وَجِل، يسري بالليل وينام بالنهار، حتى يصل قريباً من جدة، وهناك يغتنم فرصة دخول الليل، فما يشعر صالح المرشد إلا بمن يدق عليه الباب، وقد يكون آنذاك مستغرقاً في نومه.

وعندما يفتح الباب يندفع الطارق ببعيره، وما عليه داخل الحوش، ومع هذا فإنَّ هذا الشخص، أعني به صالح المرشد، يقابل هذا الطارق بكل بشاشة وترحاب، رغم علمه ويقينه بفداحة الضرر الذي سيلحق به، والعقاب الذي سيناله لو اكتشف ما يحمله هذا الطارق على بعيره.

يسرع إليه، فيساعده على إنزال الحمولة، ثم يدخلها فوراً إلى إحدى الغرف، ثم يغلق عليها الباب، ثم يأمره بعد أن يزوِّده بما قد يحتاج إليه من طعام أو نحوه، بالخروج ببعيره فوراً، والذهاب به إلى أي مكان يختاره، فلا خطر عليه بعد أن أودع الدخان في مكان أمين.

ثم يأخذ هذا الشخص، أعني صاحب البعير، ببيع هذه الكميات من الدخان شيئاً فشيئاً، وبطريقة سرية جداً، على تجار التمباك في سوق العلوي، وباب مكة، وعلى بعض أصحاب المقاهي، ثم يحضر لهم ما قد باعه عليهم مما سبق أن أحضره إلى داخل جدة عند صالح المرشد نفسه، وعلى الحمار الذي يتنقل عليه.

هذه الشهامة، وهذه الأريحية الماثلة في قيامه بهذا العمل النبيل الخطر، الذي لا يتقاضى عليه أي ربح مادي، وإنما يقوم به مساعدة لهذا الرجل الضعيف، الذي أقدم على هذه المخاطرة، وعرَّض نفسه للمطاردة والعقاب، في سبيل تأمين قوت أسرته.

وكان من ضمن أولئك الأشخاص، الذين كانوا يزاولون هذا العمل مع صالح المرشد، هو المرحوم محمد السليمان الهويش، وهو شقيق عبدالرحمن الهويش، صهر الشيخ إبراهيم الحمد الصنيع، التاجر المعروف.

المستشفى الحكومي:

أما المستشفى الحكومي فقد كان يقع في الجهة الجنوبية الشرقية من مدينة جدة، ملاصقاً لسورها الجنوبي من الداخل، وكان يرأسه أحد الأطباء السوريين الذي لا يحضرني اسمه الآن.

المحكمة الشرعية:

أمّا المحكمة الشرعية، فالذي أذكره، أنه تعاقب عليها آنذاك من القضاة كل من السيد (محمد المرزوقي) رحمه الله، والشيخ (محمد البيز)، والشيخ (أحمد قاري)، وآخرون لا تحضرني أسماؤهم.

صلتي الخاصة بالقائمقام:

بلغ الانسجام والألفة بيني وبين الرجل، إلى أن ارتفعت فيما بيننا مظاهر المجاملات والبروتوكول، خاصة عندما نجلس مساءً في الصالون،

قبل أن يأوي كلٌّ منا إلى فراشه، كنا نتناقش في الكثير من الموضوعات، خاصة في مواضيع الأدب واللغة والتاريخ، وقيام الدول وسقوطها وأحداث العالم الإسلامي التي تعاقبت عليه على مجرى تاريخه.

وكان شغوفاً بمعرفة أخبار الدول الإسلامية، وخاصة التي أخذت حيزاً ضخماً من ساحات التاريخ كالأموية والعباسية والأيوبية والفاطمية والعثمانية.

نتيجة للألفة والثقة، التي أحاطني بها قائمقام جدة إبراهيم بن معمر، فقد أخذ يتغيَّب عن جدة باليومين والثلاثة، وذلك بعد أن يملي عليَّ أماكن وجوده خلال ساعات النهار من كل يوم؛ فمثلاً يكون الساعة الفلانية في مكة عند الأمير فيصل، أو عند الجفالي، أو في الطائف عند الأمير عبدالعزيز بن فهد بن معمر، ويطلب مني بأن أتصل به في حالة ما إذا وردت برقيات مستعجلة من جلالة الملك عبدالعزيز، أو حدث في البلد حدث يستوجب حضوره، ففي أماكن المدن التي يوجد فيها أجهزة تلفون يكون اتصالي به بواسطتها، وفي حالة وجوده في البر، كالخرمة في الجنوب، أو في الأماكن الواقعة شرق خليص حيث يكثر صيد الظِبا في هذه الأماكن - كان يمكث يوماً أو يومين - فكنت أتصل به بواسطة سيارة ونيت فورد، اشتراها خصيصاً لهذا الغرض، وكان يقودها أحد الأشخاص البارعين في معرفة الأماكن، وأظنه من أهل الوشم يدعى محمود.

أما الأعمال الروتينية اليومية، التي ترد من الدوائر داخل البلد فيتولى توجيهها والتوقيع عليها، معاونه علي طه رضوان، وكان القائمقام قد أصدر أمره إلى إدارة اللاسلكي بأن يتم تسليم البرقيات الواردة باسمه شخصياً لي أنا، حيث أقوم باستلامها، وأحلُّ الشفرة إذا كانت مشفَّرة، وفي حالة عدم وجود ما يستلزم إجابة سريعة عليها فإني أقوم بتسليمها إلى معاونه علي طه، الذي يقوم بدوره بالشرح عليها، وإحالتها إلى رئيس إدارة موظفي القائمقامية، لتأخذ دورها المطلوب.

إغراءات المناصب:

كما هي طبيعة البشر، فإن المنصب له إغراءاته، ولعلَّ من أبرزها اتجاه ذوي النفوذ والمكانة إلى مجاملة كل من يرونه يحتل مركزاً ذا أهمية، فتراهم يبالغون في مجاملته، بكثرة السؤال عنه، وبالحرص على التقرُّب منه، والاحتكاك به، ومن الواضح أنه عندما يفقد هذا المنصب ينتهي كل شيء، وقد لاحظ الجميع صلتي الوثيقة بالقائمقام وملازمتي الدائمة له، وكان الكثير ممن يحتلون مراكز قيادية يحاولون الاتصال بي، وقد يبالغ بعضهم في ذلك إلى حد ممجوج، وكان بعضهم يتَّصل بي يومياً بالتلفون لا لشيء إلا للسؤال عن الصحة.

وعكة صحية:

سارت الأمور، ومضت الأيام على هذا النحو الهانىء المريح، بالنسبة لي في الدرجة الأولى، أذكر أنني أصبت بوعكة صحية، اضطرتني لملازمة الفراش نحو أسبوع، ولا أبالغ إذا قلتُ: إنه لم يتخلَّف أحد من هؤلاء المديرين عن زيارتي أكثر من مرة.

طلب الوساطات:

كنت أتلقَّى العديد من الوساطات بطلب إنهاء معاملة فلان، أو مساعدة علاَّن، وكنت شديد الحرص على ألا أقحم نفسي فيما هو خارج نطاق صلاحيتي، فلا أذكر أني تدخلت في أي موضوع، اللهم إلا إذا كان الموضوع ذا أهمية، واقتنعت بوجاهته بعد التدقيق والتمحيص، فإنني لا أتردد في عرضه على القائمقام شخصياً، وكنت دائماً أظفر منه بالموافقة، وكثيراً ما ناقشني في الموضوع، ولكن كما قلت: لم أكن أعرض عليه ذلك إلا بعد القناعة والدراسة والتمحيص، وبأن القيام بهذه الوساطة إنما هو عمل خالص إنساني، يراد به وجه الله فقط، لأنَّ صاحب الموضوع يستحق ذلك.

حال أخي معي وأنا في الخزنة:

مكثت أكثر من شهرين لم أزر بيت أخي، منذ خرجت منه، ويبدو أنه كان يظن أنني قد التحقت بالمدرسة في مكة، وكنت صباح ذلك اليوم الذي باشرت العمل فيه لدى القائمقام قد أخذت وعداً من العم محمد العبدالرحمن الزامل بأن يكتم الأمر، وألا يخبر أخي عن التحاقي لدى القائمقام، وفي أحد الأيام وبينما كنت نازلاً من مكتبي في الضحى أحمل ملفاً للمعاملات لأعرضها على القائمقام في مكتبه شاهدني السقاء أحمد الزيدي، وهو حامل زفة ماء الكنداسة داخلاً بها إلى المبنى، فقد كان متعهداً بنقل مخصَّص القائمقامية من مياه الكنداسة يومياً، وبمجرد أن لمحني، وهو يحمل الزفة، وضع زفته على الأرض، وهي مملوءة بالماء، وأقبل مهرولاً يعانقني، وهو يقول: وينك يا عم إبراهيم؟ كنت أسأل دائماً عنك العم عبدالله، وكان يقول لي: أنك في مكة، فقلت له: نعم إنني في مكة واليوم حضرت لأن لدي معاملة لدى القائمقامية، وأنا عائد الآن إلى مكة، ولكن احذر أن تخبر أخي بأنك رأيتني.

انتشار الخبر:

يبدو أنَّ خبر وجودي في جدة قد تسرَّب إلى أخي، ولكن لست أدري أكان عن طريق أحمد الزيدي هذا أم عن طريق محمد السليمان التركي، أو عن طريق العم أبو زامل، ولكن الخبر تسرَّب إليه، بدون شك، إذ لم يكد يمضي أسبوع على مقابلة أحمد الزيدي حتى فوجئت في أحد الأيام بعد عودتي مع القائمقام من نزهة المساء، وكانت وجهة رحلتنا شمال جدة كالعادة، وكنا بالصدفة في ذلك اليوم قد بقينا في مكاننا حتى أدينا صلاة العشاء، أي أننا رجعنا متأخرين.

شخصٌ ينتظرني:

فوجئت والسيارة تقف بنا أمام مدخل الخزنة فيهبط القائمقام منها، وأنا أسير خلفه فوجئت قبل أن أخطو خطوتين بمن يمسك بطرف مشلحي من

الخلف، فالتفت إليه فإذا هو الجندي الواقف في حراسة الباب، وإذا به يشير إليَّ بأن أقترب منه، فتركت القائمقام، ووقفت أمامه قائلاً: خيراً إن شاء الله. قال لي: إنه كان يوجد هنا شخص حضر قبل غروب الشمس حتى بعد صلاة المغرب، وظلَّ واقفاً عندي حيث سألني عنك: متى تعود؟ فقلت له: أنك عادة تعود بعد المغرب مع القائمقام، فوقف ينتظر وصولك، ولكن لما طال تأخرك ذهب قبل نصف ساعة تقريباً.

سألتُهُ من هو هذا الشخص؟ هل ذكر لك اسمه؟ فقال: إنه لم يذكر اسمه، ولكنه حضر لأنه يرغب مقابلتك في أمر خاص.

طلبت منه أن يصفه لي فقال لي: إنه رجل مربوع القامة نحيل الجسم، وبطبيعة الحال فقد اختلط عليَّ الأمر، لأنَّ هذه الأوصاف التي ذكرها، وإن كانت قريبة من أوصاف أخي، فإنني استبعدت كل الاستبعاد أن يتنازل أخي عن كبريائه، ويحضر شخصياً لمقابلتي، لأن بوسعه أن يرسل لي أحد السقايين، أو أحمد الزيدي على الأقل، أو البواب حسين ينبعاوي، أو المستخدم عابد الطايفي، وأنا بدون شك سأحضر له في الحال. لذلك فقد أهملتُ الموضوع، ولم أُعِرْهُ أيَّ اهتمام للأسبابِ التي ذكرت.

السؤال عني مرة أخرى:

مضى نحو شهر على هذا الحادث، لأني كما ذكرت، لم أُعِرْ الموضوع اهتماماً؛ لأنني استبعدتُ جداً أن يكون السائل هو أخي، ثم تكرَّر الموضوع مرةً أخرى بالطريقة نفسها التي تَمَّت في المرة الأولى، إذ أخبرني الجندي بأنَّ الرجل نفسه قد عاد للسؤال، وأنه انتظر أكثر من ساعتين، ثم ذهب، ولم يذكر اسمه، وإنما قال للجندي: أخبر إبراهيم بأن يزورني في البيت، لأنني في انتظاره مساءَ غد أي بعد المغرب.

عندئذ أخذت أفكر جدياً في الموضوع، وأسائل نفسي عمن يكون هذا الشخص إذا لم يكن أخي، وأستعرض أسماء أصدقائي فلا أجد أنَّ واحداً منهم تنطبق عليه الأوصاف التي ذكرها الجندي للشخص الذي سأل عني مرتين، ويطلب حضوري إليه في البيت. إذاً لا بد أن يكون هذا هو أخي،

ولذلك فقد قررتُ الذهاب إليه عندما أعود من نزهة المساء يوم غد بمشيئة الله.

لقائي بأخي:

توجهتُ إليه في الوقت المحدد، وصعدتُ إليه في الطابق الثالث، وكان إذ ذاك جالساً في غرفته، وبجواره راديو ماركة (زينيت)، وكان قليلون جداً آنذاك من يقتنون أجهزة راديو، إذ كانوا يعدون على أصابع اليد.

فور دخولي عليه هبَّ واقفاً فعانقني بحرارة، هاشاً باشاً فَرِحاً على نهجٍ لم أعهده فيه من قبل، ثم أخذ يعاتبني: كيف أنَّ لي شهوراً وأنا موجود في جدة، لم أقم بزيارته، ولم أشعره بوجودي! فقد كان يظنُّ أنني قد عدت إلى مكة للدراسة كما سبق أن أمرني، وأخذنا نتبادل أطراف الحديث، كنت أحاول أن أُبرِّر انقطاعي عنه طيلة هذه المدة بانشغالي بملازمة القائمقام، التي لا تترك لي فرصة للابتعاد عنه، بينما أخذ هو يحاول بطريقة لَبِقَة ملتوية أن يعتذر عن موقفه معي، حينما عرضتُ عليه موضوع عملي مع القائمقام، بينما كنت أحاول من جانبي أيضاً أن أغيِّر مجرى الحديث وجهةً أخرى، لكي لا أجرح كبرياءه، ومع ذلك فقد كان يصر على الاستمرار في التبرير، ثم أخذ يتلطف إليَّ بقوله أنه بحاجة إلى وجودي بقربه ما أمكنني ذلك لأنه يشعر بالوحدة، لأنه يقضي وقته في كل مساء في مكانه هذا، وهو بحاجةٍ إلى من يحادثه.

مكثت عنده نحو ساعتين، ثم استأذنته بالذهاب، فوافق على أن أعوده في الأسبوع مرتين على الأقل، فوعدته بذلك، وفعلاً كنت في الغالب أزوره في الأسبوع مرة أو مرتين، لأقضي معه ساعتين أو أكثر، وفي كثير من الأحيان أتجاوز عن زيارته أسبوعاً أو أسبوعين، معتذراً له عن اللقاء بمشاغلي الكثيرة.

من ذكريات أخي:

كان رحمة الله عليه خلال المدة التي نقضيها يتبسط معي في الحديث بود واحترام، ويشرح لي الكثير عما كنت أجهله عن طفولته في عنيزة،

كيف كانت حياة الأسرة آنذاك، وكيف ذهب مع خاله عبدالعزيز إبراهيم العضيبي - رحمة الله عليه - إلى الحجاز، عندما أراد أداء فريضة الحج، وكان عمره - كما ذكر لي - نحو سبع سنوات تقريباً، وكيف أنَّ خاله قد توفي حين انصرافه، بعد تأدية الحج إلى مكة، تُوفي بسبب الكوليرا شأنه شأن بقية الحجاج، الذين أصيبوا في ذلك العام بهذا الوباء، وكان الحجاج يتساقطون فيه في الشوارع كما تتساقط الحشرات حينما تُرَش بالمبيد، وعلى حسب ما فهمتُ منه أنَّ مجيئه إلى مكة كان في حدود منتصف العقد الثالث من القرن الرابع عشر الهجري، أي في حدود ١٣٢٥هـ تقريباً.

دوام الصلة بأخي:

ظلَّ الاتصال بيني وبين أخي مستمراً على النحو الذي ذكرتُ، وكنتُ أحرص أشدَّ الحرص على الاستماع إلى ذكرياته عن الشعيبي، أي مزرعتنا في عنيزة، وعن الأسر التي كانت موجودة به آنذاك، وعن أسماء الأفراد، وأسماء الفلايح، أي المزارع بالحي، فهو بذكرياته تلك يضع لي لوحةً مكتملةَ الجوانب عن تلك البقاع التي استنشقت نسيم الحياة على أديمها لأول مرة، وعشت طفولتي بها، وتحت سمائها كما عاشها هو، بحيث احتَفَظْتُ بذاكرتي، عند مغادرتي لتلك البقاع المحبَّبة إلى قلبي، بصورة دقيقة تمثل رموزها من حيث الأشخاص والشخوص والأماكن والبقاع، ذكرى غالية في نفسي.

وعكةٌ صحيَّةٌ ألمَّت بأخي:

استمرت هذه اللقاءات حتى أوائل شوال عام ١٣٥٦هـ، ثم ألمت بأخي وعكة صحية ألزمته الفراش، فأرسل إلى المدعو أحمد الزيدي، وهو يعمل سقاءً عنده، فحضر عندي في المكتب، وأخبرني بأن أخي مريض، وعلى الفور نزلت إلى القائمقام، واستأذنت منه، ثم ذهبت إليه، فوجدته على الفراش، وكانت حرارته مرتفعة، فذهبت إلى الصيدلية صيدلية سعيد تمر، وكانت آنذاك في الطرف الغربي لعمارة الشربتلي الحالية، المقابلة

لمسجد عكاش من جهة الجنوب، أحضرتُ له علبة حبوب كينا، ابتدأ يتناولها ثم استأذنته بعد أن مكثت عنده نحو ساعتين، وعدت إلى عملي، ثم عدته في المساء مرة أخرى، فإذا الحرارة قد هبطت عنه، وإذا به جالسٌ على الفراش في حالة طيبة، ثم إني لمست منه حرصاً بالغاً على أن أبقى معه أطول مدة ممكنة، كان ذلك يتجلّى في إلحاحه عليَّ بالبقاء حينما أنهض مستأذناً منه بالخروج.

لقد أثرت هذه اللقاءات في نفسي أيما تأثير، وحببت إليَّ مجالسته، والتحدث معه أكثر وقت ممكن، ورأيت أنَّ ذلك أجدى لي من نزهة العصر مع القائمقام، إذ أن تلك النزهة أصبحت مألوفة لدي ومكررة، ولا جديد فيها، ولذا فقد استأذنت من القائمقام بأن يعفيني من الخروج معه في تلك النزهة بدعوى أنَّ أخي مريض، وأنني أحب بأن أكون بجواره، فوافق على ذلك، وبدءاً من ذلك اليوم أخذت أتجه إلى الكنداسة، بعد العصر مباشرة لألقى أخي في مكانه على الشيب[1]، ثم في نهاية الدوام نتجه سوياً إلى البيت، ثم أمكث عنده حتى بعد صلاة العشاء.

عندما اخترتُ أخي على عملي سكرتيراً للقائمقام:

في الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة ١٣٥٦هـ كنا نتحدَّث كالعادة أنا وأخي، وقبل أن أستأذن منه بالخروج سألني قائلاً: سأسألك سؤالاً، وعليك أن تجيبني بكل صراحة. قلت له: تفضل. قال: لو خُيرت بيني وبين القائمقام، من منا تختار؟ قلتُ له بدون تردد بما معناه: أن هذا السؤال لا معنى له، ولا مقارنة، إذ أنت والدي، وابن معمر رجل أجنبي، ولا وجه للمقارنة بين الاثنين، وهنا أجاب: إذاً فإن منيرة أي زوجته بحاجة إلى عملية في عيونها، وأطلب منك أن تترك عمل القائمقام وتستقيل لتأخذها مع بناتها إلى مكة، لكي تجري لها عملية في عيونها عند الدكتور الشواف في مستشفى مكة في أجياد، تأخذها والبنات، وقد عمَّدت عبدالرحمن

(١) وهو الخرطوم الذي يصب الماء في وسط البرميل.

الهويش في مكة بأن يستأجر لكم بيتاً هناك، وهو قد استأجره في شارع الراقوبة على مقربة من بازان الجودرية، وعندما تعودون من مكة بعد انتهاء العملية أكون قد أخرجتُ لك جوازاً للسفر إلى القاهرة لتواصل الدراسة في الجامعة هناك أو في الأزهر إن شئت اختصاراً لمدرسة تحضير البعثات.

كان الموقف صعباً للغاية إذ لم أستطع الممانعة أو المناقشة في هذا الموضوع، وهو قد أوضح لي في حديثه هذا بأنه سيجهِّز لي جواز السفر، ويبعثني فور عودتي من مكة إلى القاهرة.

أملي في متابعة دراستي العلمية:

كان هذا الموضوع حلماً يداعب خيالي، لأن رغبتي الدفينة في أعماق نفسي، هي التطلع إلى الاستزادة من العلم والمعرفة والحصول على أرفع الدرجات العلمية، كانت هذه الرغبة تغمر نفسي وتعتِّم بظلالها على جميع نواحي الحياة الهانئة التي أنعم بها لدى القائمقام محاطةً بمظاهر العز والتكريم، ولم أعد لا أبصر أمامي إلا العلم والشهادة العلمية، ولذلك فقد عزمت أمري، وصممت على الاستقالة.

استقالتي من الخزنة:

كتبت الاستقالة في تلك الليلة، وفي الصباح الباكر من اليوم الثاني وبعد تناول الفطور مع القائمقام كالعادة تقدمت إليه باستقالتي تلك، فما كاد يقرؤها حتى كاد يصعق، التفت إليَّ بحدة مشخصاً بصره في وجهي قائلاً: أجننت يا إبراهيم!! ما الذي حملك على الاستقالة! أهناك شيء أزعجك في محيط عملك، أو أن أحداً أساء إليك؟ قلت: كلا يا سيدي، لا هذا ولا ذاك، إنني مدين لك بالشكر والعرفان، ومدين لك بالعطف والرعاية التي كنتَ ولا زلتَ تحوطني بهما، منذ أن أسعدني الحظ بالتشرف في العمل في معيتك، وتحت رعايتك، ولكنه الحرص على الاستزادة من المعرفة، ومواصلة التعليم، لأنَّ سنيَّ العمر لن تعود إلى الوراء. وهنا أطرق برأسه واضعاً كفيه على أذنيه بضع دقائق، ثم رفع رأسه قائلاً: ليوفقك الله يا ابني،

وليحقق لك أملك في ما تصبو إليه، ومع ذلك فإنني سأحتفظ بهذه الاستقالة حتى نهاية شهر صفر من العام القادم، أي: من عام ١٣٥٧، أي: لمدة ثلاثة أشهر لكي أتيح لك الفرصة الكافية، فقد تعدل عن فكرتك هذه، وتعود إلى عملك، وستبقى وظيفتك شاغرةً طيلةَ هذه المدة. شكرته بحرارة وتأثر، وقبلتُ رأسَهُ عرفاناً بجميله وفضله، ثم صافحتُ معاونه الشيخ علي طه رضوان مودِّعاً، وبقية الحاضرين.

التوجُّه لمكة المكرمة:

عُدت إلى البيت بعد أن اصطحبت أوراقي الخاصة معي، وبعد أن ودعتُ موظفي القائمقامية، ومن أحتك بهم خلال العمل، عدت إلى البيت، وكان الوقت ضحى، أي بعد طلوع الشمس بحوالي ساعتين، وإذا بسيارة سوداء تقف عند الباب، وكان أخي قد جهَّز زوجته وبناته وثلاثاً من الجواري، فصعدنا إلى السيارة متَّجهين إلى مكة، وبوصولنا إلى مكة سألنا في المدَّعى عن محل إبراهيم الصنيع، فوجدنا المرحوم عبدالرحمن السليمان الهويش ينتظرنا في المكتب، لأنَّ أخي قد أخبره تليفونياً عن توجُّهنا إليه، فركب معنا إلى الجودرية، وأوصلنا إلى البيت، الذي استأجره لنا في شارع الراقوية.

إجراء العملية لزوجة أخي:

سكنا البيت، وكان مؤلَّفاً من طابقين، مقعد أرضي وسيع، وساحة كبيرة يعلوها عدة غرف بمنافعها، سكنت في المقعد الأرضي، بينما سكنت أسرة أخي في الطابق الذي يعلوني. اتصلت بالدكتور الشوَّاف، وكان يعمل في مستشفى جياد الحكومي، وحدَّد لي موعداً في اليوم الثاني، لأحضر إليه ومعي زوجة أخي للكشف على عيونها، وعمَّا إذا كانت بحاجةٍ إلى عمليةٍ أم لا، وحدَّدَ لنا ضحى اليوم التالي.

في الوقت المحدد ذهبنا إليه فأجرى الكشف وقرَّر موعداً للعملية في اليوم السادس من ذي الحجة ١٣٥٦ وفعلاً ذهبنا سوياً أنا وزوجة أخي،

ومعنا واحدة من الجواري، ذهبنا إليه، فأجرى العملية، وكانت عمليةً بسيطةً، ثم أَمَرَنا بأن تظلَّ مستلقيةً على الفراش لمدة أربعة أيام، وأنه سيزورها خلال ذلك بعد يومين، ليطمئن على نجاح العملية وسلامتها، وكنتُ أذهب إليه، وأصطحبه معي مشياً على الأقدام إلى البيت، زارنا الطبيبُ ثلاثَ مراتٍ على ما أذكر، ثم أوضح أنها ليست بحاجةٍ بعد الآن لحضورهِ، وأنَّ العملية تتَّجه إلى الشفاء بصورة جيدة وطيبة، ويبدو أن أتعابه بما فيها أجرة العملية قد دُفعت له من مكتب الصنيع بواسطة الأخ عبدالرحمن الهويش بتعميد من أخي من جدة.

حشود من النساء:

وأذكر أنني يوم ٩ ذي الحجة ١٣٥٦ كنت متَّجهاً إلى الحرم، وقد خلت مكة المكرمة من سكانها تقريباً فوجئت بحشود زاخرةٍ من النساء حاسرات الرؤوس لا يوجد على رؤوسهن أي غطاء، يسرن بالشوارع، وأعني المنطقة الممتدة من الغزة باتجاه الحرم، وما كدن يرينني حتى اتجهن إليَّ، وكل منهن تطأطىء رأسها إلى الأرض بحثاً عن حجر لتقذفني به، وهنَّ يرددن أنشودة لا أذكر أبياتها بالضبط إلا أنَّ العالق منها بذهني الآن هي: قيس يا قيس، الناس حَجَّت وإنت باقي ليش؟

الفرار من النساء:

وعندما أدركتُ أنهن متَّجهات إليَّ لم يكن في وسعي إلا الفرار منهن عائداً إلى البيت ولازمت البيت مدة خمسة أيام حتى انتهى الحج وعاد الحجاج والأهالي إلى مكة، وقد علمتُ فيما بعد أنَّ هذا التصرف من هؤلاء النسوة هو تقليد متَّبع يقمن به كل عام منذ سنين وسنين، وأنهن حينما يفترسن رجلاً يقع بين أيديهن لا يكتفين بضربه فقط، بل ينتفن لحيته، ولا أعرف صحة هذه الرواية، لأنني لحسن الحظ لم أقع في تجربتها، نظراً لهروبي وفراري.

حماة أخي النكدية:

مكثنا في مكة طيلة شهر ذي الحجة تقريباً، وكانت قد لحقت بنا في اليوم الثاني لوصولنا مكة والدة زوجة أخي وابنتها وابنها زامل، وسكنوا مع عائلة أخي، وقد لقيت عنتاً منها ـ سامحها الله ـ لا زلت أذكر هذا العنت، الذي يتمثل في أنني حينما أقوم في الصباح بإحضار الفطور للعائلة من أحد الفوالة، المنتشرين حول بيت البَو باتجاه الحرم كانت تعيده إليَّ بحجة أنَّ هذا الفول غير صالح، وأنَّ عليَّ أن أستبدله بمطبق أو العكس، وقد فعلت معي ذلك أكثر من مرة، وكنت أتميَّز من الغيظ والحقد عليها، لكنني لا أملك المخالفة، بل أضطر إلى التنفيذ، وكانت ـ رحمة الله عليها ـ لها هوى خاصاً بالتنكيد، وأذكر على سبيل المثال أنني بعد أن أحضرت الفطور، ومعه زبادي اللبن، وإذا بها تفاجئني بطلب إعادة الزبادي بحجة أنها شمَّت فيها رائحة، وتطلب مني إعادة الزبادي واستبدالها بقشطة، فأبقيتُ الزبادي عندي في المقعد، وعدت وأحضرت لها القشطة، ثم أطلعت زبادي القشطة مع زبادي اللبن مُدعياً بأنَّ اللبان رفض إعادة الزبادي.

كان لا يضايقني شيء في تلك الأيام سوى كابوسها، وكانت تلح عليَّ باستمرار: هؤلاء عيال أخوك، ويجب أن توفِّر لهم كل ما يطلبونه.

في ٢٩ من ذي الحجة من ذاك الشهر، وكنت أتصل بأخي عن طريق تليفون مكتب الصنيع كل يومين أو ثلاثة، أخبره عن العيال وعن العملية، وأطلب منه تحويل الفلوس، فكان يحول لي من ثلاثة إلى خمسة جنيهات، في كل مرة، عن طريق مكتب الصنيع، ثم أمرني في آخر مرة اتصلت به وكان ذلك في يوم ٢٨ على ما أذكر من الشهر، بأن أتصل بعبدالرحمن الهويش، الذي استأجر سيارة بوكس من شركة القناعة، وأرسلها إلينا في صباح ذلك اليوم، أعني صباح ٢٩ لتنقلنا إلى جدة.

العودة إلى جدة:

انتقلنا إلى جدة وكانت السيارة واسعة، تستوعب حوالي عشرة أنفار أو أكثر، وقد ركبت معنا أم زوجة أخي وابنها وابنتها، ولم يكن في وسعي أن أمنعهم خاصةً وأنَّ السيارة فيها مقاعد، وصلنا جدة بعد الظهر، وقد غرَّزت السيارة في الطريق الرملي الممتد ما بين الأعلام وحَدَّة، وظللنا أكثر من ثلاث ساعات ندفع بالسيارة بينما كانت هي في السيارة.

وبَّخني أخي على اصطحابي لها، وكيف سمحتُ لها في الأساس أن تسكن مع عائلته، فقلتُ له: إنَّ هذه أم أتت لابنتها، وليس من المعقول أن أمنعها، فقال لي ما معناه: إنك رخو العزيمة، ولم يكن أخي على وفاق مع حماته.

صدمتي بتغيير أخي لرأيه:

كنت في اليوم الذي قدَّمت فيه استقالتي لسعادة القائمقام قد اتَّصلتُ بأصدقائي عبدالوهاب باناجة، وعلي عمر فكهاني، ومحمد أحمد بن حِمد، وحمزة عمر خميّس، وصدقة أبو زيد، وزففت إليهم البشرى، وهي أنني سأسافر إلى القاهرة للالتحاق بالجامعة هناك وأنني الآن متجه إلى مكة وقد أتأخر فيها بضعة أيام، ثم أعود إلى جدة، فأسافر إلى القاهرة.

كنت أخبرهم بذلك، وأنا فرحٌ مزهوٌ تغمر نفسي الغبطة والسرور موضحاً لهم أنني استقلت من سكرتارية القائمقام على أساس مواصلتي للدراسة خارج المملكة، ومن الواضح أنَّ هذا الموضوع قد شاع بين كل من يعرفني، أو له صلة بي. مضت خمسة أيام على عودتي إلى جدة، وكنت على أحر من الجمر انتظاراً للسفر إلى القاهرة، وأن يفاتحني أخي بين لحظة وأخرى بتحديد موعد سفري، ولكن مضت أيام خمسة دون أن يحدث شيء من ذلك وأنا في منتهى الحرج بالنسبة لأصدقائي، الذين يتساءلون عن سبب تأخري عن السفر، الذي سبق أن أخبرتهم بأنه سيتم فورَ عودتي من مكة.

كنت أحسُّ بحرج ما بعده حرج، حيث لا أملك ما أجيب به على

تساؤلهم، وأخيراً استجمعت شجاعتي، وفاتحت أخي في الموضوع: هل أتمَّ جواز سفري؟ وما هي الباخرة التي حجز لي عليها؟ وهنا أجابني بهدوء وببرود كالثلج: أظن أنه من غير الممكن ابتعاثك هذا العام، نظراً للنفقات التي تتطلبها مني العمارة الجديدة.

لم تكد هذه العبارات تفارق شفتيه لتلامس سمعي، حتى وجدتني وكأنني في ظلام دامس، وفي دوَّامة من التفكير والغيظ والحنق، لم تمكنني بأن أتفوَّه بأي كلمة نقاش أو محاجة، ووجدتني أنسحب مغموماً مهموماً، أتمنَّى لو ابتلعتني الأرض.

موقف حرج:

كانت صدمةً مزَّقت أعصابي، فماذا سيقول الأعداء والأصدقاء عندما يجدونني مقيماً في جدة لم أسافر، وفي الوقت نفسه تركتُ العمل في الوظيفة التي كنت أشغلها؟ سيقول الأعداء، بدون شك، أني باق في جدة، لأنَّ القائمقام قد طردني من العمل معه، فليس من المعقول أن أتخلى بطوعي واختياري عن مركز تتطلع إليه الرؤوس آنذاك، إذاً فلا بديلَ ولا مبرر إلا أن أكون قد طردت طرداً من ذلك المنصب، وبالنسبة لأصدقائي ماذا سأجيبهم عن أسباب عدولي عن السفر: هل أقول لهم: إن أخي فعل ذلك معي بدعوى عجزه عن تأمين النفقة، وهم يعلمون أنه ثري، وهل يصدقونني إذا قلت: إنه اعتذر عن سفري فعلاً بهذا المبرر غير المعقول؟ هل يعقل أن يتخذ أخ من شقيقه هذا الموقف الشاذ؟ وهم يعلمون أن هذا الأخ قضى سنوات وسنوات مرفَّهاً منعماً عند أخيه هذا. إذاً لا يعقل أن يكون أخوه قد تخلى عنه بعد أن وعده.

أثر الصدمة عليَّ:

كان الموقف بالنسبة لي عصيباً ممزِّقاً للأعصاب، نزلتُ من عنده، وأسرعت إلى مضجعي أتقلَّب على فراشي كالديغ، أبكي وأبكي بحرقة، ولكن ماذا يجدي البكاء.

لازمت غرفتي عدة أسابيع لا أغادرها، فليس في استطاعتي تبرير بقائي في جدة.

لن يصدق أحد أنني استقلت من عملي بطوعي واختياري، وأنَّ القائمقام كان معارضاً أشدَّ المعارضة لتلك الاستقالة. لن يصدق أحدٌ أنني استقلتُ بناءً على رغبةِ أخي وعلى أساس وعدٍ منه بأن يبعثني إلى الخارج للدارسة والتحصيل، ولن يصدق أحد أنه بعد استجابتي لطلبه، وتركي لعملي تنفيذاً لوعده، قد تنصَّل من الوعد.

ولقائل يقول: لِمَ لم ترجع إلى القائمقام، وقد أمهلك في قبوله لاستقالتك؟ وجوابي على ذلك: إنني لم أملك الشجاعة الكافية للعودة إليه نتيجة الخجل والحياء.

حل اللغز:

ظلَّ موقف أخي هذا لغزاً استعصى عليَّ حلُّه أكثر من ثمانية أشهر، وعلمت من أحد أصدقائي ممن أثق بهم، ممن هم على مقربة من مجلس أخي، أبلغني هذا الصديق بعد وصولي الخُبَر ومباشرتي العمل فيه في أواخر شعبان **١٣٥٧**هـ، بأنه كان شديد الحرص على معرفة السر، الذي عدل من أجله أخي عن الوفاء بوعده بإرسالي إلى مصر، وأنه علم أن السبب في ذلك يعود إلى أن واحداً من جلساء أخي ـ ولن أذكر اسمه ـ هو الذي كان السبب في ذلك، لأنه أفهم أخي أثناء غيبتي في مكة لعلاج زوجته ـ كما سبق أن ذكرت ـ بأن إرسالي إلى مصر وأنا قد أكملت دراستي في مدرسة الفلاح متفوقاً فيها من شأنه أن يكون وسيلة للاحتكاك ببعض العلمانيين وببعض ذوي الضبابية في عقيدتهم، أي أن ذلك من شأنه أن يجرني إلى الانحراف في عقيدتي، وأن أخي بدافع من أميَّته وجهله لأهمية العلم قد اقتنع برأي هذا الإنسان، وبالتالي كنت الضحية لسمومه.





العمل مع بيت الفضل

التحرك مُجدَّداً:

كنت خلال تلك الفترة مريضاً بغير مرض، كانت نفسي تعاف الطعام، يوضع الأكل أمامي، ثم يرفع كما كان. وشيئاً فشيئاً مع مرور الوقت أحسستُ بأنه لا بد لي بأن أتحرك، وأنَّ بقائي على هذا الوضع معناه الانتحار.

تجارة بيت الفضل:

كان هناك صديق لي يدعى عبدالرزاق قشلان، شاب مهذب لطيف، يعمل كاتباً لدى محمد العبدالله المحمد الفضل في تجارته، وكان مقر عمله في بيت الفضل المطل على ساحة الكنداسة، وكانت هذه التجارة تنحصر في التعامل مع تجار يوجدون في ينبع والوجه وأُمْلُجْ، كانوا يرسلون إليه ـ أي إلى بيت الفضل ـ مع السفن الشراعية، ما يوجد لديهم من بضائع كالسمن والجلود والإقط، فيتولى عبدالرزاق هذا استلامها بواسطة ستة صبيان من الحضارم، يعملون لديه، يستلمون هذه البضائع من المينا، وكان يسمى آنذاك البنط.

يقوم هؤلاء الصبيان باستلام هذه البضائع، ويسلمونها إلى تجار مختصين من الحضارم أيضاً، يقومون بتصريفها، ومن ثم دفع القيمة إلى مكتب الفضل، وكانت تأتي مع هذه البضائع، وهي محدودة، كتبٌ عن طريق البريد من هؤلاء التجار باسم محمد العبدالله الفضل وبرفقة هذا الكتاب مجموعة من العملة الورقية أو الجنيهات أو الريالات الفضية على

هيئة صرر صغيرة، يوضح في هذا الكتاب نوع البضاعة التي أُرسلت وعددها واسم الباخرة التي أرسلت، معها، كما يُوضِّح في الكتاب أيضاً مقدار الصُرر المرفقة به، ونوعها وبيان ببضائع يطلبون في المكتب تأمينها لهم من أسواق جدة، ومن ثم إرسالها إليهم مع السفن المتجهة إليهم.

وأذكر أنَّ من ضمن أولئك التجار في ينبع أحمد عبدالقادر، وبيت سبيه، كما أذكر من تجار الوجه أمين بديوي شحاته وآل كركدان، وتجار آخرون، لا أذكر أسماءهم الآن.

مع صديقي عبدالرزاق قشلان:

التقيت بصديقي هذا عبدالرزاق قشلان، بعد أن تركتُ عزلتي، دعاني إلى منزله في حارة الشام، فتواعدنا على أن نخرج سوياً للنزهة بعد العصر من كل يوم، نجلس في مكان مرتفع مطلٍ على البحر، ويقع شمال القشلة الحالية بنحو ثلاثمائة متر تقريباً، إذ كان ذلك الموضع مرتفعاً ونظيفاً.

جلسة على البحر:

نجلس حتى المغرب، وكان يحضر يومياً بعد العصر كل من الأخوين سليمان قابل وعبدالقادر قابل، وهما من أعيان جدة ومن أثريائها، كانوا يجلسون على مقربة من مكان جلوسنا، ويسبقهم قبل حضورهم اثنان من الصبيان الحضارم، أحدهم يحمل قطعة زل تركي كبيرة، ومعها مسندان، وآخر يحمل شَربة فخار من الماء، يعلوها قطعة شاش أبيض، وغطاء نحاس أصفر، فما يكادان ينتهيان من تحضير المحل حتى يكون عمَّاهما قد أقبلا من جهة باب جديد، وكانت المسافة التي تفصل بيننا وبين جلوسهم حوالي خمسة عشر متراً.

الموافقة على العمل مع بيت الفضل:

مَرَّت بضعة أيام، وأنا أخرج يومياً مع الأخ عبدالرزاق قشلان، تدور بيننا أحاديث شتى، وقد فهم مني الكثير عن وضعي الحاضر، وهنا اقترح

عليَّ بأن أعمل معه كاتباً في المحل التجاري، فوافقت معه من حيث المبدأ، فانصرفنا ذلك النهار، موضحاً لي بأنه سيبذل أقصى جهده في إقناع رئيسه محمد العبدالله الفضل بضرورة وجودي للعمل معه، وبأن يسعى جهده للحصول منه على أعلى راتب ممكن أن يدفعه.

في لقائنا في اليوم الثاني فاجأني بقوله: لقد أنهيت لك الموضوع وأرجو أن تكون مباشرتك من صباح غد، وأن الراتب سيكون أربعة وأربعون ريالاً سعودياً شهرياً، فوافقت على ذلك؛ لأنني في أمسِّ الحاجة ولأنَّ المصدر الوحيد الذي كان يمدني بما يؤمن لي الشيشة يومياً هو صديقي الوفي عبدالوهاب باناجة رحمة الله عليه، فكان يعاود زيارتي في البيت كل أسبوع تقريباً، وأذكر أنني قد استلمت منه ما يقرب من خمسة جنيهات ذهبية دفعات متفرقة.

مباشرة عملي مع بيت الفضل:

في اليوم الثاني وبعد شروق الشمس بنحو ساعة اتجهت إلى بيت الفضل، فوجدت عبدالرزاق قشلان في انتظاري، وباشرت العمل معه لأول مرة.

باشرت العمل في مكتب الفضل في شهر صفر تقريباً عام ١٣٥٧هـ، وكان المكتب يقع ضمن بيت الفضل، الذي كان موضعه في الناحية الشمالية من برحة الكنداسة، يلاصقه من الشرق فندق التيسير، الذي يملكه محمد عطا الياس.

قصة انتحار الفرنسي المقيم في فندق التيسير:

ولفندق التيسير هذا قصة ملخصها: أنَّ إحدى الشركات الفرنسية الكبرى، المهتمة بشؤون البترول والتنقيب عنه في الجزيرة العربية، قد أرسلت أحد خبرائها إلى جدة، مفوِّضةً إياه للاتصال بالسلطات السعودية، للحصول على امتياز التنقيب عن البترول، وأن يبرم الاتفاق مع الحكومة السعودية، ويقبل بالشروط التي تعرضها الحكومة السعودية مقابل هذا

الامتياز، وكان هناك آنذاك تنافساً بين الشركات الغربية ذات العلاقة بشؤون البترول وامتيازاته، وكذلك الشركات الأمريكية، وكان التنافس بين هذه الشركات والحكومة السعودية على أَشُدِّه، وعند حضور هذا المندوب إلى جدة، وكان يعتقد أنه سيظفر بعقد الامتياز مائة في المائة، إذا به يفاجأ في اليوم الثالث من وصوله، وكان مقيماً بهذا الفندق، بأنَّ عقد الامتياز هذا قد طار من يديه إلى الأبد، فقد سبق أن تمَّ توقيع عقد الامتياز بين الحكومة السعودية ممثلةً في وزير ماليتها آنذاك عبدالله السليمان الحمدان وبين مندوبي الشركة الأمريكية التي سميت آنذاك (كاليفورنيا آرابيان ستاندرد أويل كومباني) وعرفت باسم (كاسوك) (CASOC)، فما كاد يبلغه الخبر حتى قذف بنفسه من الطابق الثالث للفندق، على الشارع الذي هو جزء من برحة الكنداسة، وتُوفيَ على الفور.

المرحوم محمد العبدالله الفضل:

عند وصولي في الصباح إلى مكتب الفضل، باشرتُ العمل مع الأخ عبدالرزاق قشلان، وكان المكتب يقع في الدور الأرضي من بيت الفضل، وهو يتألف من مكتبين مكتب لعبدالرزاق قشلان، ومكتب آخر أقل منه على مقربةٍ منه.

في ضحى ذلك اليوم، وبينما الأخ عبدالرزاق يشرح لي طريقة العمل ومهام الوظيفة، ويطلعني على سجلات المكتب وملفاته إذا بأحد الصبيان الحضارم يحضر شيشة يضعها على مدخل الدار، ويحضر بجوارها كرسي خيزران على ما أذكر، وهنا أقبل علينا المرحوم محمد العبدالله الفضل، وكنت أعرفه ويعرفني، فقد كنتُ أمرُّ أمامه صباحاً ومساءً كلما حضرت لأخي في الكنداسة، فمكان جلوسه المفضل لديه أن يضع الكرسي والشيشة عند باب البيت في الداخل من الباب مباشرة صباحاً، وخارج الباب مساءً.

وقف أمامنا أنا والأخ عبدالرزاق، وتبادلت معه التحية، وعبارات المجاملة، ثم اتجه إلى حيث الكرسي والشيشة متمنياً لنا التوفيق.

طبيعة عملي:

كان العمل يومي يتلخَّص في استقبال الخطابات، وصرر التحويلات النقدية والبضائع التي ترد من التجار، في كلٍ من ينبع والوجه وأملج والمدينة، تفتح الكتب، وتباع البضائع بواسطة أناس مختصين، وتضاف قيمتها إلى النقود المرسلة من التاجر، بعد أن يتم صرف هذه النقود، وكانت ورقيةً كالجنيه المصري، يتمُّ تحويلها إلى عملة سعودية، ومن ثمَّ يُعرَف مجموع المبلغ الذي يتكون من قيمة البضاعة المباعة مضافاً إليها قيمة النقود المرسلة، ثم ينظر في البيان المرفق، في الخطاب الوارد من التاجر لمعرفة طلبات التاجر الذي يرغب تأمينها، وإرسالها له، فيكلف صبيان مختصين لدى الفضل وهما اثنان لا أذكرهما الآن، يكلَّفان بشراء هذه الطلبات من أسواق جدة، ثم يقومان بتعبئتها، وشحنها بأسماء أولئك التجار في المدن التي يوجدون فيها، ثم يحضِرون لنا فواتير أقيام البضاعة المشتراة مضافاً إليها أجور التعبئة وأجور الشحن في الباخرة، أو السفينة الشراعية، وهنا نقوم بإعداد خطاب إلى التاجر المذكور، يرسل مع الباخرة نفسها مرفَقاً به بيان يوضح قيمة البضاعة التي أرسلها، مضافاً إليها قيمة النقود، وبيان آخر يوضح قيمة البضاعة المرسلة إليه، وتكاليف تعبئتها، وشحنها على الباخرة، مضافاً إلى ذلك نسبة ١٠٪ خدمة، وعادةً قد يبقى على التاجر مبالغ، ولكنها دائماً تكون محدودة ويسددها دائماً في وقت لاحق.

إعداد الخطابات والبيانات:

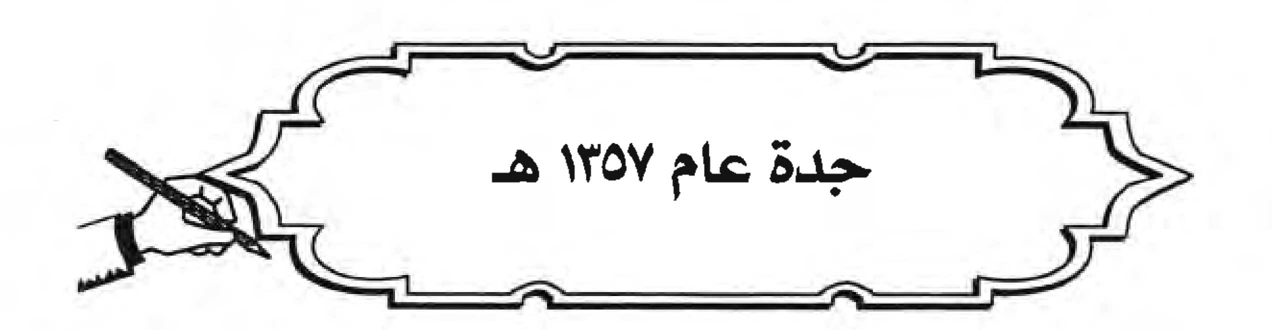
نقوم بإعداد الخطابات لهؤلاء التجار، وإذ لم تكن هناك آلات كاتبة لأنه لم يبدأ استعمالها في الحجاز، فقد كنا نعد الخطابات والبيانات بالكتابة اليدوية، ثم هناك آلة ترتفع عن الأرض بنحو نصف متر، وتنتهي من الأعلى بأسطوانة مدورة، يعلوها أسطوانة مثلها، ولكنها ثقيلة الوزن، عندما ننتهي من الخطاب أو البيان نقوم بوضعه على هذه الأسطوانة وعادةً تكون مغطاة بنوع سميك من القماش أشبه بالقلع، ويكون ندياً نضع الخطاب على هذه الأسطوانة بعد أن نضع تحته ورقة بيضاء، على مساحة الكتاب، ثم نضغط

الأسطوانة العليا الثقيلة على الأسطوانة السفلى، ثم نرفعها ثم نجد أنّ الخطاب قد انطبع طبق الأصل على الورقة البيضاء السفلى، ويكون الخطاب والبيان الأصلي قد تمّ توقيعه من الشيخ محمد العبدالله الفضل، ثم نقوم بوضع صور هذه الخطابات والبيانات في ملف كلٍّ تاجر مرفقةً بالخطاب الذي سبق وروده منه. وتسمى هذه الآلة (بالوظة).

كنا نحضر في الصباح بعد طلوع الشمس بنحو ساعة ونصف، ونغادر المكتب بعد آذان الظهر مباشرةً، وفي أيام السبت والأحد نعود بعد الظهر، لأن هناك أعمال تستلزم وجودنا لإنجازها، أما بقية الأيام فالعمل في فترة الصباح فقط.

سار العمل بطريقة طبعية رتيبة على هذا المنوال، حتى مغادرتي جدة في ٨/٧/ ١٣٥٧هـ، وهنا لا بد لي من لمحة سريعة عن جدة حسب واقعها، آنذاك قبل أن أبتعد عنها غيبة امتدت أربعة عشر عاماً.





جدة عام ١٣٥٧ هـ

كانت جدة آنذاك تمثل طابعها الأصيل الممتد إلى عشرات السنين، فكان جمهورها هو الجمهور الأصيل فيها، ونادراً ما تجد رجلاً أجنبياً، اللهم إلا مجموعات قليلة من السفارات التي كانت موجودة آنذاك، أو في بعض وكلاء البواخر الأجنبية، كشركة جلاتلي هانكي، وشركة لازريني الإيطالية.

سور جدة:

كانت البلد محصورة ضمن سور له أربعة أبواب: من جهة الشرق: باب مكة، ومن جهة الغرب: باب البنط أو باب (الصبة)، ومن الجنوب: باب شريف الذي كان يفضي إلى مجموعة من العشش تمتد إلى مسافة نحو كيلوين، على هيئة قوس يبدأ من الغرب متجهاً إلى الشرق حتى يصل إلى مقربة من مقبرة الأسد، مجموعة من العشش يسكنها أناس من سكان جنوب المملكة أو من اليمن، وقسم من هذه العشش تسمى (نَكَتُو) ويسكنها غالباً الأخوة الأفارقة (التكارنة).

مقهى الحاج مراد:

أما خارج سور جدة من الجنوب مباشرة فعند خروجك من الباب، أي باب شريف، متجهاً إلى اليمين يقابلك مقهى يسمى مقهى الحاج مراد البخاري، وخلفه مباشرةً، مما يلي البحر سبخة كبيرة تعلوها مياه آسنة يتعذَّر السير عليها.

حظيرة أبقار:

وفي الجزء الجنوبي الغربي منها حظيرة كبيرة، تسمى سبخة سعيد بقرة، وهي موضع يجتمع فيه مجموعة من الأبقار يملكها شخص أسود اللون يدعى سعيد بقرة، يقوم بعرض ألبانها في أسواق جدة، صباحَ كلِّ يوم بواسطة صبيان مدربين لديه، يقوم كل منهم في الصباح بحمل (طبلية) على رأسه، تحمل ما مجموعُهُ خمسة عشر إلى عشرين زبدية لبن رائب، يحمل الطبلية على رأسه كما يحمل بإحدى يديه سطلاً مملوءاً بالحليب الطازج، ومعه مغراف صغير في وسط السطل، يذهب هذا الصبي إلى حارات جدة في الصباح الباكر، حارات اليمن والبحر على الأخص، وينادي بأعلى صوته: «لبن وحليب»، فما هي إلا ساعات حتى يبيع ما كان يحمله. كانت قيمة الزبدية من قرش إلى قرشين، أما الحليب فلا أعرف كم كان سعر المغراف منه.

تجارة اللبن والحليب:

وكذلك يوجد في أماكن أخرى في جدة، بحارة الشام والمظلوم، من يمتلكون أبقاراً يتاجرون بألبانها وحليبها على هذه الطريقة نفسها، ومنهم على ما أذكر شخص يدعى عباس دبوس، والبرمبالي، وشعيب.

أفران جدة:

أما الأفران المشهورة آنذاك، فكان فرن الشيخ في نهاية سوق الندى من جهة الشمال، ويعدُّ أمير الأفران، ويليه فرن الصعيدي، ويقع في حارة المظلوم في نهاية سوق الجامع من جهة الغرب، مقابلاً لبيت باذيب من جهة الجنوب، وكذلك عند بداية سوق الجامع من الشرق يوجد فرنٌ شمال بيت قدوري يفصل بينهما الشارع، وهناك فرن الحمبولي، ويقع على مقربة من بيت عزاية في حارة المظلوم، وربما كان هناك أفران في حارة اليمن أو البحر لم أكن أعلم بها. كما يوجد هناك فرن آخر في شرق حارة الشام، يقع في نهاية الشارع من الجهة الشمالية، وهو الشارع الذي يبدأ من فرن الشيخ بنهاية سوق الندى متجهاً من الغرب إلى الشرق.

حلقة الخضار:

كان لجدة حلقة خضار، وموقعها آنذاك على يسار الخارج من باب مكة باتجاه الشرق، على بعد نحو ثلاثين متراً، أي شرق قهوتَي الفحم اللتين حلَّ مكانهما بعد ذلك أملاك المرحوم عبدالله الحسون، والبنايات التي تقع شرقها حتى الشارع المعروف بشارع الملك عبدالعزيز.

كانت الخضار تَرِد إلى جدة على ظهور الجمال يومياً، من وادي فاطمة وأماكن متعددة، وكانت الساحة تمتلىء بالخضار على مختلف أنواعه.

دلالو الخضار:

والعرف المتَّبع آنذاك أن يحضر باعة الخضار إلى هذا المكان فجر كل يوم، وهناك دلالون مختصون يقومون بالحراج على هذه الأنواع من الخضار، ومنهم جميل حسوبة ـ على ما أذكر ـ ومحمد علي أبو زنادة، وسليمان عزاية، ويكون هؤلاء الدلالون قد اتفقوا مع بلدية جدة على أن يحتكروا هم دلالة الخضار لعام كامل، في مقابل مبلغ معيَّن، يدفعونه لصندوق بلدية جدة التي تمنحهم ترخيصاً يتيح لهم مزاولة هذه المهنة، ويقصرها عليهم وحدهم.

وهناك على يمين الخارج من باب مكة، على بعد نحو خمسة عشر متراً، حلقة أخرى لبيع الحشيش والبرسيم والفحم والحطب، والحشيش يأتي على صلايب منها العتري ومنها القبو، وهذه أيضاً يحتكرها دلالون مختصون كحلقة الخضار.

شارع النورية:

أما بيع الخضروات في داخل مدينة جدة، فكانت منحصرة في مكان واحد وهو شارع يمتد من الشمال إلى الجنوب، يقع في الطرف الشرقي من شارع قابل على اليمين للمتجه إلى سوق العلوي، يبلغ طوله نحو خمسين

متراً وعرضه نحو ثمانية أمتار، توجد على جانبيه دكاكين متقابلة معروض عليها جميع أنواع الخضار.

جزّارو جُدَّة:

ومن ضمن هذه الدكاكين نحو ستة دكاكين للجزارين، يعمل فيها جزارون قد علقوا لحومهم في كلاليب، قد يبلغ موجود الدكان نحو ستة رؤوس من الأغنام، وكان أوسعهم عملاً، وأكثرهم نشاطاً، ويمتاز بإقبال الناس عليه أكثر من غيره، المدعو فَرَحَات، أما اسم هذا الشارع فهو (النورية).

أسعار الخضروات واللحوم:

كانت الأشياء آنذاك جِدُّ رخيصة، وأذكر أنني كنت أذهب إلى النورية، ومعي قرطاس يحتوي على عشرين قرشاً، فأشتري جميع حاجاتي من الخضروات من بقدونس وفاصوليا وكوسا وملوخية وثوم وبصل وما إلى ذلك، وكذلك لحماً بما لا يقل عن أُقَّة، وهي أكثر من الكيلو، وكثيراً ما كان يتبقى معي بعضاً من القروش، وأكون قد ملأتُ الزنبيل الذي عادة ما يحمله حمَّال، وهو عادةً إما تكروني أو حجازي أي من الجنوب، وهؤلاء معروفون بالزنابيل التي يحملونها، لأنها تحمل أرقام رخص صادرة من البلدية، وعادةً ما تكون الأجرة قرشاً أو ست هلل أي قرشاً ونصف، وعندما يكون المكان في أقصى البلد تبلغ الأجرة قرشين.

أبو عوف والحلواني صانعا المطبق:

من ضمن المعالم البارزة في جدة آنذاك أي عام **١٣٥٧** هجرية، كان يوجد آنذاك شخصان متميزان في عمل أكلة المطبق، وهو الغذاء المعروف لدى أهل جدة، أحدهما يدعى أبو عوف، ويعمل على فرن لتهيئة هذا النوع من الأكل أعني المطبق، وكان دكانه آنذاك يقع في شارع يبلغ طوله نحو عشرين متراً، ويقع شرق عمارة الشربتلي الحالية، وخلف دكان الصيرفي

أحمد بامُعوضة ورفاقه الصيارفة الآخرين المتواجدين آنذاك.

كان هذا الرجل يمتاز بشهرة واسعة لدى الكثير من أهالي جدة، يتضح ذلك من أنَّ الذين يرغبون الحصول على مطبق من محله يأتون بمواعينهم إليه في نهاية النهار، لكي يحجزوا فيها مكاناً لهم صباح الغد.

أمَّا الآخر فيدعى أحمد حلواني، ومكانه في نهاية سوق الندى، من جهة الشمال على بعد بضعة أمتار من فرن الشيخ، وهذا الشخص لا يوجد لديه فرن، وإنما يعمل مطبقه على صاج حديدي كبير، يضعه على جمر فحم، وهذا الشخص ـ أعني أحمد الحلواني ـ أقل شهرةً بكثير من أبي عوف.

بائع الفول (الأمير):

كما يوجد شخص آخر متميز في أكلة الفول، يدعى الأمير، لا أذكر اسمه الأول، ويقع دكانه ملاصقاً لمسجد عكاش من جهة الجنوب، على مقربة من مدخل المسجد الجنوبي، كان دائماً، رغم كثرة جرار الفول التي كان يصنعها، ما يكاد يفتح دكانه حتى ينفد ما لديه، خلال ساعة أو ساعتين، ويقفل دكانه.

حلوى المشبَّك:

كذلك كان يوجد آنذاك شخص متميز في صنع الحلويات على مختلف أنواعها ومسمياتها، ومن ضمنها المشبك، المعروف، الذي يُعمل عادةً في مناسباتٍ معيَّنة في نهاية صفر من كل عام، وفي ١٥ شعبان أيضاً فيصنع كميات كبيرة من حلوى المشبك، وقلَّ أن تجد بيتاً لا تدخله حلوى المشبك في تلك الأيام.

مباسط الحلويات:

يضاف إلى ذلك أن أنواع الحلويات الأخرى التي كان يقوم بصنعها، ويتقنها كل الاتقان، مثل الهريسة واللُّدو واللبنية والمهجمية، فكان المعتاد

لدى أهل جدة، أن تقام مباسط للحلويات في ليلة العيد، مباسط متعددة، تقع أمام مسجد عكاش من جهة الجنوب والشرق، كان الناس يقبلون على شرائها كشيءٍ لا بد منه ضمن حاجيات العيد، التي يقومون بتوفيرها في تلك الليلة.

إبراهيم الحلواني أشهر طباخي جدة:

هذا الحلواني، واسمه إبراهيم حلواني، كان من أبرز الطباخين الموجودين في مدينة جدة، وكان متخصصاً في القيام بالحفلات والولائم للأفراح والمناسبات، وكان مشهوراً لا ينافسه أحدٌ في هذا الميدان، يعاونه مجموعة من المساعدين تخرَّجوا على يديه واتقنوا فنون الطبخ، منهم أحمد تكروني وزميله فروان، اللذين توليا سدَّ الفراغ وتأمين العزائم والولائم بعد وفاة إبراهيم حلواني، وهذا الرجل، ومن واقع خبرتي به - أعني إبراهيم حلواني - وكان محله يقع بالقرب من بيتنا، وكانت ذريته كلها من البنات، ولم ينجب ذكوراً كان رجلاً نموذجاً في الصلاح والتقوى ومساعدة المحتاجين والضعفاء.

وكما أشرتُ كان مطبخه يقع داخل قاعةٍ كبيرةٍ واسعة ومكانها أمام بيتنا، بيت الحسون الواقع في نهاية حارة المظلوم من الغرب.

كان باب محل إبراهيم حلواني مطلاً على الساحة الواقعة شمال بيت مراد.

القصر الأخضر:

كذلك كان يوجد من معالم جدة بيت أنشأَهُ الشيخ علي العماري، ويقع مكانه الآن خلف عمارة خالد السعد من جهة الشرق بنحو مائة متر تقريباً، وهذا البيت باق حتى الآن، ولكنه لسوء الحظ على وضع مُزر، تعلوه الأتربة، وتوجد فيه بعض التصدُّعات، هذا البيت بناه علي العماري كما قلنا في الأربعينات أي بعد عام ١٣٤٧ هجرية، وأُطلق عليه عند الانتهاء من بنائه القصر الأخضر، ويقع شرق القشلة الحالية

بحي العمارية، وكان ينزل فيه الملك عبدالعزيز وحاشيته، عندما يكون متواجداً في جدة في كل عام، وذلك قبل أن ينتقل إلى القصر الذي أُنشيء له بعد ذلك خارج مدينة جدة في حي النزلة اليمانية، والذي سمى بقصر خُزَام.

ولقد كان من الأفضل لو أنَّ الجهات، المعنية في الحفاظ على المعالم والرموز التاريخية، أوْلَت هذا البيت شيئاً من عنايتها، وحافظت عليه ورممته، أسوة بغيره، كبعض البيوت التي احتفظت بها داخل البلدة، ومنها بيت نصيف وبيت باجنيد، ومقر جلاتلي هانكي، وجعلته مَعْلَماً يزار نظراً لما تمتع به من شهرة تاريخية.

من معالم جدة أيضاً التي اندرست ولم يبق لها أثر: شركات السيارات، التي كانت موجودة آنذاك، ولم يبق منها سوى الشركة العربية للسيارات، وكان يملكها الشيخ المرحوم محمد علي مغربي.

لمحة عن شركات السيارات بجدة:

وهنا لا بد من لمحة تاريخية عن موضوع هذه الشركات، نعود بها إلى عام ١٣٤٥ هجرية، أي في السنة التالية التي آلت فيها مقاليد الحكم في جدة وغيرها من الحجاز إلى الحكومة السعودية، في تلك السنة أُنشئت أوَّل شركة للسيارات، وكان أمين صندوقها المرحوم محمد صالح أبو زنادة، وكان عدد السيارات محدوداً، لا يتجاوز بضع سيارات من القطع الصغير، وكانت تعمل في نقل طبقة معينة من الحجَّاج، وهي الطبقة الموسرة؛ لأن الأجرة كانت عالية جداً، لا يقدر عليها إلا الأغنياء، ظلت هذه الشركة لمدة سنتين، وقد جنت أرباحاً طائلة.

ثمَّ في سنة ١٣٤٧ ابتدأت تظهر شركات في جدة، وكل منها لا يزيد عدد سيارته عن العشر، على أكبر تقدير، وكان من تلك السيارات شركة قاصد كريم، وكان يملكها صالح باغفار، وأحمد غُلُوم، وشركة فتح الخير، وشركة السهالة، وعدة شركات، لا أذكر أسماءها الآن ولا اسم مالكيها،

وإنما كانت تتنافس فيما بينها، ومع ذلك فقد كانت تحققْ أرباحاً طائلةً، بسبب غلاء أجور النقل. إلا أن جميع السيارات لا يكاد يمرُّ عليها عام أو عامين - على أكبر تقدير - حتى تصبحَ خردةً غير قابلة للعمل، وذلك لرداءة الطرق، ووعورتها، بما يتخللها من رمال أو حفر أو مطبات، سواءٌ كان في الطريق من جدة إلى مكة، أو الطريق من جدة إلى المدينة، أو من مكة إلى المدينة، لم يكن يوجد آنذاك أي شارع، أو أي طريق معبَّد، بما في ذلك شوارع مدينة جدة ذاتها.

سيارات الشيخ علي العماري:

وأذكر أنَّ الشيخ علي العماري، وكان مسكنه ملاصقاً لبيت مراد، الذي كنا نسكنه قديماً، قد جلب أربع سيارات وهي من نوع السيارات المعروفة حالياً بالقلاب، وكانت مكشوفة لا يوجد عليها غطاء، كما لا يوجد بها كراسي، فقط صندوق كبير، كان ينقل الحجاج على ظهر هذه السيارات كما ينقل البضائع، كان يوجد لديه عبد مملوك يدعى بشير، يقود إحداها، ويقود الأخريات صوماليون، وظلت هذه السيارات تعمل لديه قرابة ثلاث سنوات ثم أصبحت خردة لا يستفاد منها، ويضاف إلى وعورة الطرق عدم وجود قطع غيار إطلاقاً.

محمد علي مغربي في ذمة الله:

وإذا كنَّا نسجل ذكريات شركات السيارات في بداياتها في مدينة جدة، وذكرنا أنَّ جميعها قد اندثرت، ولم يبق منها مستمراً في العمل حتى الآن سوى الشركة العربية للسيارات، ويملكها الشيخ محمد علي مغربي، وهي الشركة الوحيدة التي صمدت طيلة هذه المدة، صمدت بعزمٍ وقوة، ثم نَمَت وترعرعت، وأصبحت شركةً عملاقةً، تتولى وحدها نقل الحَجيج في مواسم الحج، رغم تضاعف أعداد الحجاج عاماً بعد آخر، حتى أصبحت أعدادهم الآن تفوق المليون.

ونحن نحرر هذه الذكريات في هذا الوقت وفي هذه الساعة، ونذكر

الشيخ محمد علي مغربي إذا بجرس الهاتف يرن من أحد الأصدقاء، وهو الأستاذ إبراهيم المدني، المحرر بجريدة البلاد، ينعَى إلينا الفقيد الغالي الشيخ محمد علي مغربي. أخبرنا بأنه انتقل إلى الرفيق الأعلى عصرَ هذا اليوم الثلاثاء ١٤١٧/٦/٢٤ الموافق ١٩٩٦/١١/٥[١] وأنّ جسده الطاهر سيدفن في مكة المكرمة بعد نقل جثمانه للصلاة عليه في الحرم المكي الشريف فجراً، وبالنسبة لي أنا شخصياً، إبراهيم محمد الحسون، الذي عاصر الفقيد منذ فجر شبابه، أي منذ عام ١٣٤٦ هجرية، وكان آنذاك يعمل في شركة القناعة للسيارات، مع أحد زملائه المدعو حامد سيد أحمد، فإنه لنبأ مفجع محزن، أثار في نفسي العميق من الأسى والحزن، لوفاة هذا الصديق، فقد عرفتُه فتًى مستقيماً جمَّ التواضع، وافر الأدب، ينتمي إلى أسرة كريمة كان والده عبدالواحد مغربي رجلاً معروفاً في جدة بالاستقامة والصلاح، وقد اهتمَّ بتربية أبنائه، وتنشئتهم تنشئةً دينيةً صالحةً، وهم على ما أذكر أربعة: صالح عبدالواحد، ومحمد عبدالواحد، ومحمد علي عبدالواحد، والرابع الصغير لا أذكر اسمه الآن.

الشيخ محمد سرور الصبان:

كان المرحوم محمد علي مغربي هذا منذ فجر حياته متصلاً بالمرحوم الشيخ محمد سرور الصبان، ومحمد سرور الصبان هذا غنيٌّ عن الشرح والتعريف، فهو يعدُّ عين أعيان الحجاز، خُلُقاً، وسماحةً، وقيمةً اجتماعية، سواء بين مواطنيه أو غيرهم، فقد كان كلٌّ منهم يحمل له أصدق الود والتقدير والاحترام، لما اشتهر عنه من عطف على مواطنيه، وبرٍ وإحسانٍ بهم دونما مَنٍّ أو تفريق أو تمييز، وخاصة أنه كان من أعمدة بناء الدولة، وكان يحتل فيها المركز الرابع في القيادة: الملك عبدالعزيز، الأمير فيصل، عبدالله السليمان، ومحمد سرور.

---

(١) وقت تحرير هذه الحلقة من الذكريات.

عطف الصبَّان على الفقيد الغالي محمد علي المغربي:

كان محمد سرور ـ رحمة الله عليه ـ يعطف على فقيدنا الغالي، وكان يخصه برعاية متميزة، ويتيح له مجال العمل التجاري بصورة يقصر عن نيلها الكثيرون، ويكفي أنه أي محمد سرور، هو الذي أسند إدارة شركة القناعة للسيارات إلى فقيدنا الغالي، ويدعمه بكل الإمكانات، حتى استطاعت هذه الشركة أن تشقَّ طريقها، رغم المصاعب والعقبات حتى تبوَّأت المكانة التي هي عليها الآن، واحتكرت وحدها نقل الحجيج، واستمر الفقيد الغالي يديرها حتى لحظة مغادرته لهذه الدار الفانية.

ثروة واسعة:

كان الفقيد الغالي، نتيجةً لاستقامته، ولِجدِّهِ ولاجتهاده، والإشراف على هذه الشركة إشرافاً مباشراً، مستمراً طيلة هذه السنين الطويلة، قد مَنَّ الله عليه بثروةٍ واسعةٍ، جاءت إليه عن طريق الحلال، دونما شبهةٍ أو لبس.

سخاؤه وكرمه:

وكان ـ رحمة الله عليه ـ يقابل هذه النعمة بالشكر للمنعم، وبمواصلة الجهد والعمل، وكان يسخِّر هذه الثروة، أو الكثير منها، في الإنفاق على الضعفاء، وذوي الحاجة، وعلى أولئك القابعين في منازلهم المتواضعة، ولا يسألون الناس إلحافاً، وفوق ذلك كان سخياً كريماً في الإنفاق على كل مشروع خيري يعود نفعه على الوطن والمواطنين، يفعل ذلك ابتغاءَ مرضاةِ الله، دونما ضجةٍ أو إعلان أو مباهاة، حتى ليصدق أن يقال فيه: إن شماله لا تعلم عما تنفق يمينه، ولعلَّ تبرعه الأخير الذي كان حديث المجالس في الأشهر القريبة، وهو دفعه مبلغ ثلاثين مليون ـ كما قيل ـ لشراء أجهزة لبعض مستشفيات جدة، خيرُ دليلٍ على صحة ما نقول، فقد تكتم ـ رحمه الله ـ على هذا التبرع الضخم، وحرص على أن يكون سراً بينه وبين ربه، الذي أنعم عليه بالثروة، ولكن رغم هذا التكتم فقد ذاع الخبر، وانتشر بشكل جعل عشرات الأكف ترتفع إلى السماء ضارعةً إلى المولى ـ

سبحانه وتعالى ـ أن يجزيه أحسن الجزاء، وأن يجعله ممن يأخذ كتابه بيمينه.

كلُّ ابن أنثى وإن طالتْ سلامتُهُ يوماً على آلةِ حدباءَ محمولُ

دعاء ورجاء:

وإذا كان هذا أمراً لا مناص منه، محكوم به على كل حي، وإذ كنتُ أحسُّ بالفجيعة والألم لفقدك ـ أيها الصديق ـ فإني أحس أيضاً بأن الله سبحانه وتعالى سيعوِّضك أحسن الجزاء، وسيكافؤك عما بذلته للبؤساء والمحتاجين ابتغاءَ للأجر والمثوبة، فليرحمك الله، وليتغمدك بوافر عطفه وإحسانه وليكرم مثواك في جنة الخلد، ولتستقبل نفسَك الحبيبة ملائكةُ الرحمة، مرددةً قوله تعالى ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠] صدق الله العظيم.

جوامع جدة:

كانت جدة تحتضن بين جدرانها أربعةَ (جوامع) رئيسة، كما أنه يوجد الكثير من المساجد الصغيرة، وتسمَّى زوايا وهي، منتشرة في أحياء جدة الأربعة: في المظلوم، وفي حارة اليمن، وفي حارة الشام وفي حارة البحر.

أما الجوامع الرئيسية الأربعة التي ذكرت فإيضاحها كالتالي:

مسجد المعمار:

مسجد المعمار، ويقع في نهاية شارع قابل من الشرق، على بعد نحو خمسينَ متراً تقريباً للمتَّجه إلى سوق العلوي، ويقع على شمال المتجه إلى الشرق، وهذا الجامع قديم جداً، وربما كان أقدم الجوامع في جدة، وكان أحد الرواد الأوائل، الذين قاموا برحلات في أنحاء العالم الإسلامي في القرن السادس والقرن الثامن الهجري، وهما ابن جبير وابن بطوطة ذكر أحدهما ـ ولا أعرف أيهما بالضبط ـ هذا المسجدَ مُوضحاً أنَّ البحر يقع

على مقربةٍ منه من الجهة الغربية، بمعنى أنَّ المصلي يتوضأ من شاطىء البحر، ويصعد للصلاة في هذا المسجد، ولا أذكر بالضبط اسم الإمام الذي كان يتولَّى الإمامة والخطابة فيه في ذلك العام أعني عام ١٣٥٧هـ.

مسجد الشافعي:

أما الجامع الثاني فيقع في حارة المظلوم، في وسط سوق الجامع، ويعرف بمسجد الشافعي، وكان خطيبه وإمامه آنذاك هو فضيلة الشيخ محمد صالح شيخ، وهو والد المرحوم عابد شيخ وزير التجارة السابق.

مسجد الباشا:

أمَّا المسجد الثالث فيقع في حارة الشام، على مقربة من ساحة الكنداسة مقابلاً للمدرسة الرشدية، التي كانت موجودة آنذاك، مقابلاً لها من جهة الشرق، ويعرف بمسجد الباشا، وكان إمامه وخطيبه آنذاك المرحوم علي هلال وكان مثالاً للورع والزهد والوقار، وكان يجمع إلى إمامة المسجد وخطابته التدريس في المدرسة الرشدية.

مسجد الحنفي:

أمَّا الجامع الرابع فيقع أيضاً في حارة الشام شرق بيت آل باناجة البيت المعروف في جدة كان خطيب هذا المسجد وإمامه رجلاً يدعى محمد سعيد عطية، وهو أخو عبدالحميد عطية والد القارىء والمأذون المشهور حالياً في جدة عبدالقادر عبدالحميد عطية، وهذا الجامع يعرف بمسجد الحنفي، وله ثلاثة أبواب أحدهما من الشمال، والآخر من الجنوب، والثالث من الغرب حيث يلتقي بسوق الندى.

أسرة باناجة:

كان في الجزء الغربي من هذا المسجد مقعد ذو نوافذ خشبية، تطلُّ على المسجد، كان آل باناجة يصلُّون في هذا المقعد، وهو بناء مستطيل

تبلغ مساحته نحو سبعة أمتار في ثلاثة مفروش بالسجاد، وله باب يفضي إلى داخل بيت باناجة.

وكان الملك عبدالعزيز رحمة الله عليه، حينما تحين صلاة الجمعة، وهو موجود في جدة، يحضر مع حاشيته إلى بيت باناجة قبيل الأذان الأول بنحو نصف ساعة، ويؤدي صلاة الجمعة مع كبار حاشيته وحرَّاسه، وآل باناجة في هذا الصالون، وكنا نصلي في هذا المسجد، ولا يفصلنا عنه إلا بعض القضبان الحديدية الموجودة في النوافذ.

ونظراً لما لهذا البيت ـ أعني بيت باناجة ـ من شهرة واسعة، يعرفها الجميع، لما حباها الله به من وفرة الثراء، والعطف على المساكين، ويكفي أنها بالنسبة للحجاز كله من حيث الثروة تعدُّ في المقام الأول، فإنه لا بد لنا من لمحة مختصرة تعطي صورة عن هذه الأسرة الكريمة، وكيف نشأت وتأسست، وأصبحت الآن يكاد أن يطويها النسيان، وينساها الجميع، وأصبح قصرها الفخم في حارة الشام، الذي يحتوي على أنفس أنواع الخشب المستورد من أوروبا وغيرها بأغلى الأثمان، هذا البيت الفخم الذي تحمل نوافذه وغرفه ومجالسه وأسقفه من النقوش والإبداع، ما لا يوجد في غيره في أيِّ مكانٍ في الحجاز، وأصبح الآن لسوء الحظ مأوى للبوم والقطط والكلاب، وهو موجود قائم حتى الآن، ولكن أهله وساكنيه طواهم الزمن.

مؤسِّس هذا البيت:

هذا البيت شهد من العز والجاه والمكانة ما لم يشهده أي بيت آخر في عهده، كان يعجُّ بسكانه ومن العبيد والصبيان والمستخدَمين كخليةِ النحل، لم يكن هناك كتاب يرجَع إليه لمعرفة كيف نشأت هذه الأسرة؟ وكيف تحصَّلت على هذا الثراء الواسع؟ ولكن المعلومات التي توفَّرت لدي، وهي نقلاً عن أفواه المجاورين لهذا البيت، ومن لهم علاقة به تتلخص في أن مؤسس هذا البيت هو الشيخ عبدالرحمن باناجة حضرمي الأصل، قدم صغيراً إلى جدة لا أعرف تحديد تاريخ قدومه، وعمل صبياً في أحد البيوت، ثم أصبح حمَّالاً لدى أحد التجار، يُشرِف على المخازن

التي يخزنون بها بضائعهم، وكان يحمل الأكياس التي تباع على ظهره، حتى يخرجها من المخزن إلى العربة التي ستنقلها، أو يحمل الأكياس القادمة على العربات، ليصفَّها بعضها فوق بعض في المخزن، يفعل ذلك لكي يأخذ أجرة الحمالة لنفسه، وبما أنَّ هذا العمل عملٌ مرهق، فقد اضطر إلى أن يعمل وقاية لظهره، هي عبارة عن مجموعة من أكياس الخيش، خاطها بعضها فوق بعض، يضعها على ظهره عندما يقوم بعملية التحميل، ثم نشأ شيئاً فشيئاً، وأخذ يتعاطى التجارة بما تجمَّع لديه من كدِّ ظهره، وعرق جبينه، ثم اتَّسعت تجارته، وفتح الله عليه، وأصبح لديه موظفون وعمَّال، ونَمَت ثروته وتضاعفت، حتى تمكن من بناء هذا البيت الذي يشغل مساحةَ ما بين سوق النَّدى حيث يطلُّ باب مدخله الرئيسي، والشارع المحاذي لمسجد الحنفي من جهة الشرق، ثم تضاعفت ثروته، واقتنى الكثير من العبيد والإماء، كان الرجل عصامياً أميناً صادقاً، محباً للخير، متواضعاً، وقد أنجب من الذرِّية الذين أعرفهم أحمد باشا باناجة، وأحمد هذا كان وزيراً للمالية في عهد الشريف حسين بن علي، إبان حكمه للحجاز ما بين **١٣٣٤** و **١٣٤١**هـ.

ولكي يُذَكِّر الشيخ عبدالرحمن باناجة أبناءه وأحفاده بضرورة شكر النعمة وكيف أنه بدأ بسيطاً، فقد علَّق تلك الخيشة، التي كان يضعها على ظهره عندما كان ينقل البضائع، في مجلس خاص، يجلس فيه ويستقبل ضيوفه، وهذا المجلس يدخل إليه من باب يفتح على الجنوب على شارع يمتد من سوق الندى بمحاذاة الشرق حتى يتصل بقصبة الهنود، وقد رأيتُ هذه الخيشة بنفسي في أحد المرات التي قدِّر لي فيها زيارة ذلك المكان.

وكان له الكثير من الإماء والعبيد الذين يعتقهم بكثرة.

سفيان باناجة وأبناؤه:

ومن هؤلاء الشيخ سفيان باناجة ويُعَدُّ من وجهاء جدة، وولده عمر، الذي تولى رئاسة بلدية جدة في فترة من الفترات.

وإنَّ لفي ذكر هذا البيت، ونشأته وما بلغه من رفعة وثراء ثم إذا به تطويه الأيام، ويصبح في غياهب النسيان وقد ترك هذا البيت أهله، وينطبق على هذا البيت قول الشاعر:

وللموتِ تغذو الوالدات سخالَها   كما لخرابِ الدهر تُبنى المنازلُ

وقد بلغني أنَّ أبناء الشيخ المرحوم سفيان باناجة، وهم: عبدالسلام وعبداللطيف، وعبدالمجيد ما زالوا سوياً يديرون شركاتهم، ومنها شركة التوريدات المختصَّة باستيراد الأدوية وبيعها، كما أنهم يسكنون سويَّة في مجمع واحد بحي الحمرا الراقي بجدة.

عبدالقادر باناجة وأبناؤه:

كما علمتُ أنَّ بعض أبناء المرحوم عبدالقادر كرامة، وهم: عبدالعزيز وسليمان، قد تركوا هذا البيت، وانتقلوا إلى منازل خاصة بهم، وسليمان وعبدالعزيز هم أحفاد للشيخ أحمد باشا من جهة الأم، ولستُ أعرف إذا كان أشقاؤهم سالم وعثمان لا زالوا أحياء في وقتنا الحاضر.

صديقي الحميم عبدالوهاب باناجة:

أما أخوهم الخامس من أبناء عبدالقادر كرامة وهو صديقي الحميم وزميلي في الدراسة، عبدالوهاب عبدالقادر باناجة (هكذا أعرف) فقد كان يعمل في آخر حياته موظفاً في البنك الأهلي التجاري، ثم انتقل إلى رحمة الله قبل أربع سنوات تقريباً[١]، وكان رحمة الله عليه قد تزوج شقيقة المرحوم عبدالرزاق ملا الذي انتقل إلى جوار ربه قبل أربعة شهور فقط[٢] تزوج شقيقته فوزية، وأنجب ابنه محمداً، وهو يعمل حالياً موظفاً بإحدى الإدارات، وشقيقته هي حرم الدكتور عبدالله عمر نصيف، أمين رابطة العالم الإسلامي، ونائب رئيس مجلس الشورى سابقاً.

---

(١) أي في عام ١٤١٤ هـ.

(٢) أي: من وقت تحرير هذه الحلقة من المذكرات.

تجّار جدة:

كان التجار المعروفون آنذاك في جدة، الذين كانوا يزاولون مهنة استيراد البضائع بكميات تجارية واسعة من الهند أو من أوروبا، هم أشخاص معروفون، كان في طليعتهم فيما أعلم بيت آل باناجة، ثم بيت آل زينل: الحاج زينل علي رضا قائمقام جدة آنذاك، وبيت باغفار: الشيخ أحمد باغفار، وبيت الفضل: الشيخ عبدالله المحمد الفضل، وقد كان نائباً لرئيس مجلس الشورى آنذاك، وبيت نورولي، وبيت الصنيع: الشيخ إبراهيم الحمد الصَنِيع، وبيت محمد صالح باعشن، وبيت الجمجوم، وبيت إسماعيل: الشيخ علي إسماعيل بحارة المظلوم، وبيت البسام: الشيخ محمد الصالح البسام، وكذلك عبدالله العلي البسام، وبيت حسين فايز مختصون بالبواخر، ويوجد إلى جانب هؤلاء الكبار تجارٌ، تجارتهم متواضعة، وفي الغالب الأكثر يتعاطون تجارة المفرَّق والأقمشة خاصة، ومن هؤلاء مجموعة من الهنود يستوردون كميات من الأقمشة والبسط، وتوجد دكاكينهم متلاصقة في زقاق يسمى قصبة الهنود، بنهاية حارة المظلوم غرباً جنوب المسجد الحنفي. وبعضهم يتعاطى تجارة الحبوب، يستوردونها من البصرة ومن السودان ومن جازان في المنطقة الجنوبية، كالمرحومين عمر حفني وعبدالوهاب نشار اللذين يقومان في الوقت نفسه بالتدريس في مدرسة الفلاح؛ أولهما، وهو: عمر حفني يعمل مدرساً ومعاوناً للمدير محمد حسين عبدالقادر مطر، والآخر يعمل مدرساً للفقه وهو الشيخ عبدالوهاب نشَّار.

أول صيدلية في جدة:

من ضمن الذكريات التي أحتفظ بها، وأعيها الآن، وتقع في حدود أواخر الأربعينات من القرن الرابع عشر الهجري، وهي تعدُّ من الأوليات: بالنسبة للصيدليات؛ فإن جدة ـ على ما أذكر ـ لم يكن فيها آنذاك سوى صيدليةٍ واحدة يملكها أحد السوريين المقيمين في جدة، يعرف باسم (سعيد تمر)، وكان موقعها شمال غرب عمارة الشربتلي الحالية، الواقعة جنوب

مسجد عكاش، وكانت عبارة عن غرفة، أشبه بدكان فيها رفوف خشبية وفيها كميات محدودة من علب الأدوية المعروفة آنذاك، وفي مقدمتها علب دواء الكينا والإسبرين وما شابه ذلك.

أول مصوِّر فوتوغرافي في جدة:

أما التصوير الفوتوغرافي، فكان أول من زاول هذه المهنة، حسب علمي، أحد أبناء السيد عمر صائم الدهر أحد أعيان جدة، والذي كان مسكنه مواجهاً لمسكن قائمقام جدة آنذاك، الحاج علي زينل رضا في حارة اليمن.

وكان ابن السيد عمر صائم الدهر هذا قد افتتح محلاً للتصوير الفوتوغرافي، في غرفة تعلو أحد دكاكين مسجد عكاش من الجهة الشرقية، مواجهة لمتجر الخواجة اليوناني أكيلي يني المتخصِّص ببيع الأجبان والزيتون وما شابهها.

وكانت آلة التصوير تلك بدائية من النوع الذي يوضع على قوائم ترتفع عن الأرض بنحو متر أو أكثر، وتنتهي من جهة المصور بقماش أسود يغطي جهاز الماكينة، ويغطي أيضاً رأس المصور في حالة التصوير.

الخياطان الزقزوق، وبادكوك:

كما أتذكر أنَّ هناك جماعة من الخياطين الممتازين، منهم الزقزوق بسوق الندى، ومنهم أحمد بادكوك الأبكم، ومحله في زقاق الخنجي بنهاية حارة المظلوم غرباً.

السَمَر والطرب في جدة:

كذلك من ضمن الذكريات في ذلك الوقت، أنه رغم التشدد من هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان يرأسها آنذاك رجل يدعى أبو حجر، ثم تولاها فترة محمد حسين نصيف ابن الأفندي حسين نصيف، رغم الشدة التي كانت تبديها هذه الهيئة، فقد كانت جدة لا تخلو من ليالي سَمَر، يقام فيها سهرات تحفل بالطرب والغناء.

سعيد زقزوق:

ولعلَّ من أبرز ذلك أن المرحوم سعيد زقزوق رحمه الله كان مُولعاً بالطرب، والضرب على العود، وكان من أجل ذلك قد أقام له بيتاً من الشعر، وبجواره خيمة تقع شرق جدة على بعد نحو كيلوين أو أكثر على مقربة من حفرة الشرفية، مكان المطار القديم، وكان من عادته أن يذهب إلى بيت الشعر هذا مساء كل يوم خميس ومعه العود ويرافقه شخص آخر يدعى رضا أمين ـ على ما أذكر ـ يجيد العزف على الكمان، وكنت والمرحوم محمد باجسير، وحامد أبو تومان، وحسن عبدالولي، ومحمود عارف أمد الله في حياته، وكلهم من المدرسين في مدرسة الفلاح، كثيراً ما نخرج من جدة بعد صلاة العشاء، ونتوجه سويةً، مشياً على الأقدام إلى مكان سعيد زقزوق، وكان ذلك يتم في الغالب في الأيام المقمرة أي ما بين ١٠ إلى ٢٠ في الشهر كنا نقضي الليل بكامله نستمع إلى أغاني العم سعيد زقزوق، وبجواره رضا أمين يعزف على الكمان، وكان عم سعيد زقزوق هذا أجش الصوت لأن بعض أسنانه قد فارقت محلها، وكان مغرماً بالأغاني اليمانية، ويجيد الأنغام أتم الإجادة ومما تعيه الذاكرة الآن من تلك الأغاني هي قصيدة:

بات ساجي الطَّرف والشوق يلُحُّ ... والدُّجى إن يمضِ جنح يأتي جنحُ

لا تسل عن حال أرباب الهوى ... يا ابن ود ما لهذا الحال شرحُ

إنما حال المحبين البكا ... أيُّ فضلٍ لسحاب لا يسحُ

ولَكَمْ أشكو ومالي سامعٌ ... فكأني حينما أشكو أبحُ

وكذا القصيدة المنسوبة إلى يزيد بن معاوية في زوجته ميسون، والتي يقول في مطلعها:

نالت على يدها ما لم تنله يدي ... نقشاً على معصم أوهت به جَلَدِي

كأنه طرق نمل في أناملها ... أو روضة رصعتها السحب بالبرد

وكالأغنية التي مطلعها:

يا عروس الروض يا ذات الجناح ... يا حمامَة

سافري مصحوبة عند الصباح ... بالسلامَة

كنا نقضي الليل بطوله والعم سعيد يكاد يُنطق العود من بين أصابعه، وكنا نتناول ثلاثة وجبات في تلك الليلة، وبعد صلاة الفجر نعود على الأقدام إلى جدة.

سَنابيك البحر ورجالها:

كانت وسائل نقل البضائع وتنزيلها من ميناء جدة وإليها، تتم بواسطة عشرات من المراكب الشراعية المعروفة بالسنابيك، ومفردها «سنبوك»، وكانت منتشرة على مقربة من الشاطىء، الذي يحيط بجدة من الجهة الغربية، وكانت هذه السنابيك مملوكةً لفئةٍ من المواطنين في جدة، متخصِّصون في هذه المهنة، وكانت هذه السنابيك تُصنع في جُدة من الخشب، وهي منتشرة بكثرة على امتداد الساحل بالعشرات، وقد يملك المواطن الواحد اثنين أو ثلاثة منها، والعاملون عليها، وهم رجال أشداء، أقوياء البنية، يعرفون برجال البحر، وكانت البواخر الضخمة، القادمة من الشرق كالهند وباكستان وجاوة، أو كانت قادمة من أوروبا أو مصر، وسواء كانت حاملةً حجاج في موسم الحج، أو كانت تحمل بضائع مختلفة الأجناس، كانت هذه البواخر لا تجرؤ على الاقتراب من شاطىء جدة، نظراً لكثرة الشعاب والتعاريج فيه، ولذا فهي تقف على بعد ثلاثة إلى أربعة كيلات من الميناء، وهناك تنطلق هذه السنابيك إلى تلك السفن، حال وصولها، لتفريغ بضائعها، أو نقل ركابها.

علماً بأن هناك أسر متخصصة، يعدُّ رجالها أدلاء في البحر، وذوي خبرة في التعاريج والشعب حول ميناء جدة، ولذا فإن هؤلاء الأدلاء أو المرشدون على الأصح يهرعون لملاقاة السفينة عند قدومها، أيُّ سفينة كانت يلاقونها في عرض البحر، ثم يتولون قيادتها، متفادين بها الشعاب والتضاريس إلى أن يوصلونها إلى أقرب مكان يمكن الوصول إليه بالنسبة لجدة، ومن هذه الأسر على ما أذكر بيت سلامة وبيت الرقبان والمناع وغيرهم.

المزاورية:

كان العاملون على هذه المراكب الشراعية، يعرفون بالمزاورية، الذين يقومون بتنزيل البضائع من تلك البواخر الكبيرة وإيصالها إلى الميناء، وكانوا يجتمعون بعد عصر كل يوم في مقهى يقع في الطرف الجنوبي الغربي من مسجد عكّاش، مما يلي الشارع، يجتمعون في هذا المقهى ويسمًّى (قهوة المشوَرة)، ويكون رئيسهم المدعو حسن بكر قد جمع من التجار أصحاب البضائع التي تكون بضائعهم قد أنزلت ذلك اليوم بواسطة هذه السنابيك، قد جمع من هؤلاء التجار الأجور المستحقة عليها، لقاء تنزيلها، فيقوم بتوزيعها على هؤلاء المزاورية، كلٌّ حسب ما نقله من بضائع.

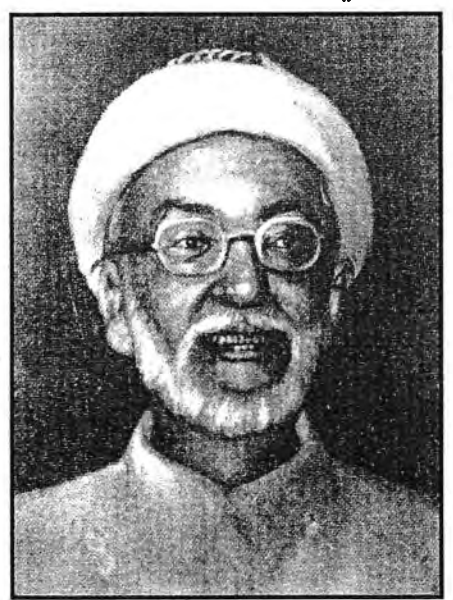
أشهر بيوتات حارة البحر:

ومن أشهر بيوتات حارة البحر بيت أبو داود، وبيت يحيى، وبيت الزاهد، وبيت كابوها والبحيري وغيرهم لا يحضرني اسمهم الآن.





صورة شقيقي الكبير عبد الله المحمد الحسون



الحاج محمد علي زينل



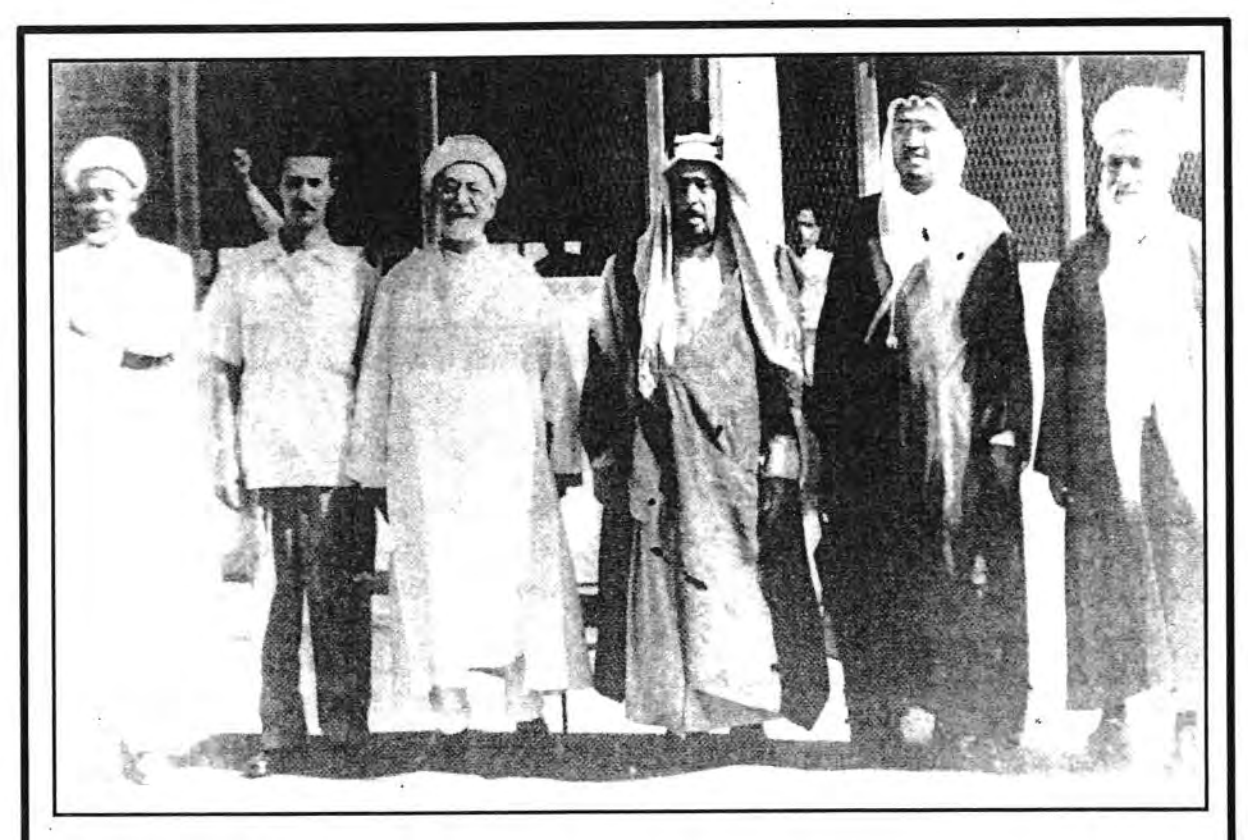
الجالسون من اليمين: ١- عبد الوهاب نشار ٢- سيد أحمد سرحان
٣- عمر حفني ٤- طاهر كردي ٥- حسين مطر ٦- عبد العزيز فتح الله
٧- عبد العزيز المرزوقي
الواقفون من اليمين: ١- علي جمجوم ٢- ابراهيم سعود
٣- حمزة ياقوت سعداوي ٤- عمر عبد ربه ٥- عابد شيخ ٦- محمد مطر
٧- عوض مصري ٨- عايش دشاش ٩- أحمد يوسف
بالخلف: ١- صدقة أبو زيد ٢- سالم محمد أشرم
الأطفال: ١- عبد الله حفني ٢- محمد عبد العزيز فتح الله



الحاج يوسف زينل والحاج محمد علي زينل - عمر عبد الله عقيل



من اليمين الشيخ عبدالرحمن العقيبي - الشيخ محمد العلي البسام الشيخ صالح الشايع
سمو الأمير عبد المحسن بن جلوي - الشيخ محمد علي زينل - الشيخ حمد القاضي.



من اليمين أحمد يوسف الفارسي أحد العاملين بالقنصلية السعودية في بومباي - الشيخ محمد بن عيسى آل خليفة الشيخ ابراهيم يوسف زينل - علي الفوزان والشيخ حسن ياقوت مدير مكتب علي رضا بالهند.



عبد الرؤوف جمجوم



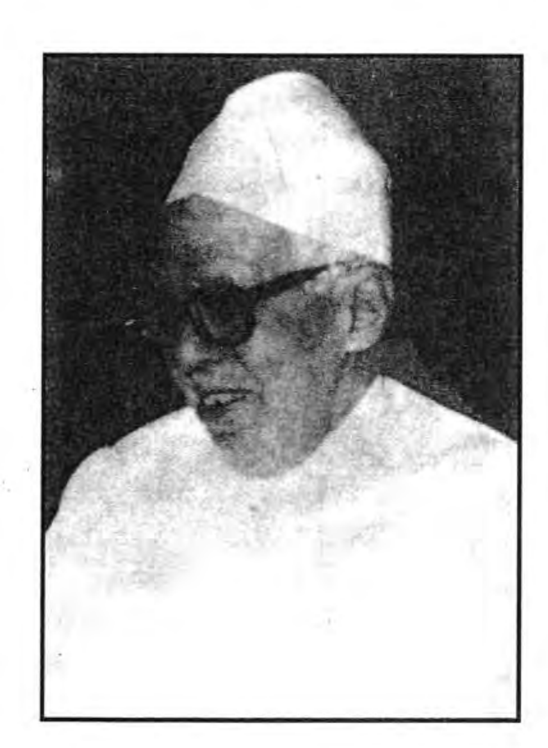
عبد الوهاب نشار
المولود سنة ١٣٢٠ المتوفى سنة ١٣٨٨
تولى إدارة الفلاح منذ عام ١٣٦١
حتى ١٣٧٩/١/٣٠



صالح الخزامي



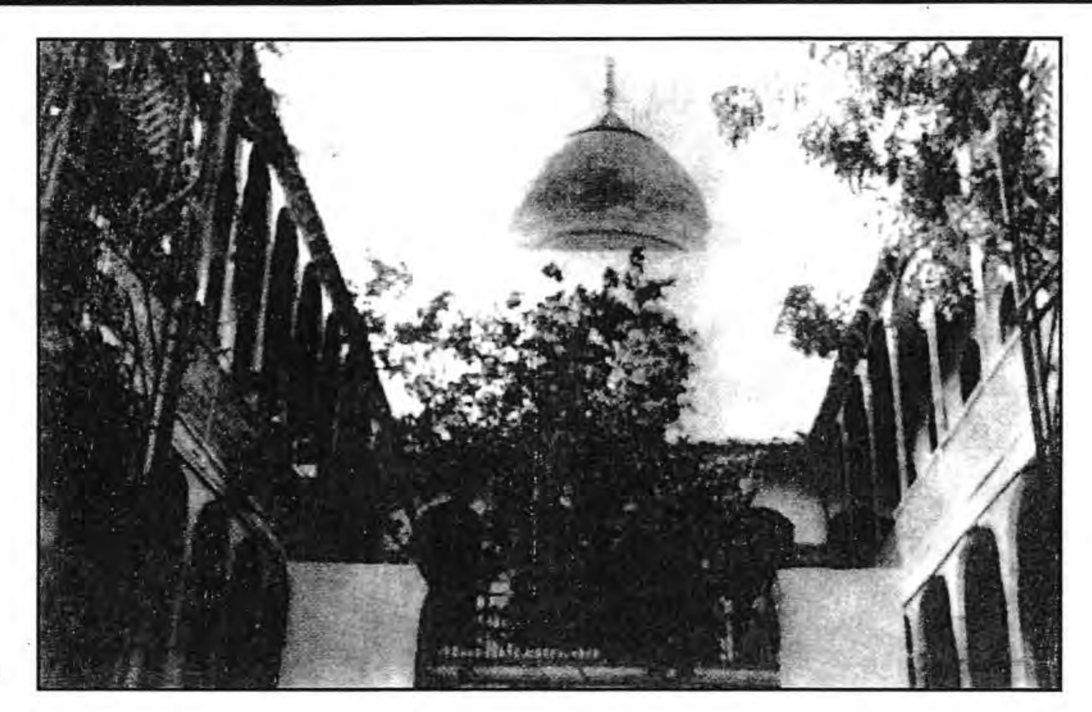
معتوق حسنين



عبد الحميد حسين مطر



محمد ابراهيم مسعود



مبنى مدرسة الفلاح الابتدائية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيرا ﴾

الالحاق

وشروط قبول الطلبة بمدرسة الفلاح بجدة

﴿ بجده ﴾

(١) الغرض من مدارس الفلاح تعليم الدين وخصوصاً أهل الحجاز العلوم النافعة ...

(٢) التدريس بمدارس الفلاح ثلاثة أقسام تحضيري ومدته سنة . وابتدائي ومدته ثلاث سنوات . وثانوي ومدته ثلاث سنوات أيضاً

(٣) التلميذ الذي يلحق بالقسم التحضيري أو القسم الابتدائي يجب على وليه أن لا يخرجه قبل اتمامه لدروس القسم الابتدائي وأخذ شهادته

(٤) إذا تم التلميذ الدراسة الابتدائية فوليه مخير بين إخراجه وإدخاله بالقسم الثانوي

(٥) لا يجوز لولي التلميذ إخراجه من أحد الأقسام قبل إتمامه بغير عذر شرعي

(٦) إذا طرأ على التلميذ عذر شرعي يوجب خروجه من المدرسة فعلى وليه عرض العذر المذكور على إدارة المدرسة لاستحصال الإذن منها

(٧) إذا أخرجه من أحد الأقسام المذكورة بلا عذر شرعي فيكون وليه ملزوماً بدفع المصاريف المقررة أدناه

(٨) تعتبر مصاريف المدرسة بحسب ما يأتي عن كل سنة

ثلاثة جنيهات لكل من قسم الحفاظ والقسم التحضيري وللدرجة الأولى والثانية والثالثة من القسم الابتدائي

ستة جنيهات لكل من الدرجة الأولى والثانية والثالثة من القسم الثانوي

(٩) يجب على ولي التلميذ أن يدفع القيمة الشهرية المتفق عليها بأول كل شهر بدون تأخير وقدرها مجاناً

(١٠) يجب على ولي التلميذ أن يقبل جميع قوانين المدرسة ويشتري جميع لوازم التلميذ من الأدوات المدرسية والكتب اللازمة وخلافه بدون تأخير

(١١) للمدرسة الحق في قبول أو إخراج أي تلميذ في أي وقت شاءت

(١٢) لا يجوز لولي التلميذ تأخيره عن مواقيت المدرسة المقررة كما أنه لا يسوغ له أن يؤخره عن المدرسة يوماً أو يومين بلا عذر شرعي فإذا دعت الضرورة إلى تأخيره فعليه أن يرسل تذكرة للإدارة مبينة بخطه

قد صار إلحاق التلميذ محمد عمر ابن المحترم عمر باسلامه المولود بجده البالغ من العمر ... سنة من أهالي جده

بواسطة المحترم ... المقيم بحارة الشام المتعلم ... وقد صار امتحانه وفي دفتر الالحاق نمرة ٦١

وصار إدراجه في القسم التحضيري من الدرجة ... بمدرسة الفلاح في يوم ٨ محرم سنة ١٣٤٤

امضاء الولي بأنه قابل جميع الشروط المحررة أعلاه

امضاء المدير

صورة عن الالتحاق بمدرسة الفلاح وضوابط قبول الطلبة بالمدرسة

الحاج عبدالله علي رضا • بمباي

تلغرافيا • زينل رضا

HAJEE ABDULLA ALI RIZA
SITARAM BUILDING, D. BLOCK,
BOMBAY.

Telegraphic Address :
ZAINALRIZA.

بسم الله الرحمن الرحيم

في خصوص المدرسة

من بمباي الى جده في ٢٠ شعبان ١٣٤٢ سنه

جناب الاجل الاكرم حضرة سيدي الاخ العزيز الشيخ عبدالرؤوف جمجوم ابن الشيخ عبدالعزيز جمجوم المحترم ... سلمه الله تعالى

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

[illegible]

وثيقة من محمد علي زينل الى عبد الرؤوف جمجوم توضح مدى اهتمام الرجل بأحوال كل تلاميذ المدرسة ومحاولاته المتعددة لارضائهم حتى لا ينقطعوا عن الدراسة وبذل العطاءات والوعود لهم حتى ينهوا دراستهم وتعهده لهم بالحاقهم بالوظائف سواء الحكومية أو الاهلية.



المملكة الحجازية والنجد وملحقاتها

ديوان جلالة الملك

عدد
٦٠٧

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل إلى جناب الأخ مدير مدرسة الفلاح وهيئة المعلمين الكرام حفظهم الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد فقد وصل كتابكم رقم ١١ منه وقد وافقنا على رأيكم الذي رأيتم فيه طريقة التبرع وأمرنا المالية بأن تدفع لكم ثلاثمائة جنيه إعانة منا للمدرسة فيلزم عند ما تريدون فتح الاكتتاب أن تراجعوها في ذلك وتجعلوه هي في صدر القائمة وتقوم بالدفع لكم حالاً ويكون معلوم والله يحفظكم [illegible]

رسالة من الملك عبد العزيز في التبرع لمدرسة الفلاح

رسالة من الملك عبد العزيز في التبرع لمدرسة الفلاح

الحمد لله والصلاة على نبيه وعلى آله وصحبه وناصري دينه وحزبه

وبعد فقد حصل الاتفاق والرضى بين كاتب الحروف الشيخ محمود بن رشيد العطار من اهالي دمشق الشام

وبين رئيس مدرسة الفلاح واعضائها وهم الشيخ عبد الرؤوف [?] والشيخ عطاء الله الهندي والشيخ عبد الله [?]

الكائنة بجدة ومكة المكرمة ان اكون معلما ومدرسا في مدرسة جدة العلوم الدينية والعربية للاصناف

التي يرغبونها ستة دروس في اليوم في ستة ساعات باصول التعليم اللائق باحوال التلامذة حسب قانونهم

المحرر عندهم وان يكون ذلك ابتداؤه في اول شهر المحرم سنة ١٣٣٤ بمعاش كل شهر بثمانية ليرات عثمانية

عين وتدفع الاجرة بدون تاخير في اليوم الاخير من الشهر وتحسب ايام البطالة وذلك [?]

وعلينا القيام بالوظيفة المذكورة بالاعتناء التام وعلى الرئيس المذكور دفع المعاش بلا تاخير

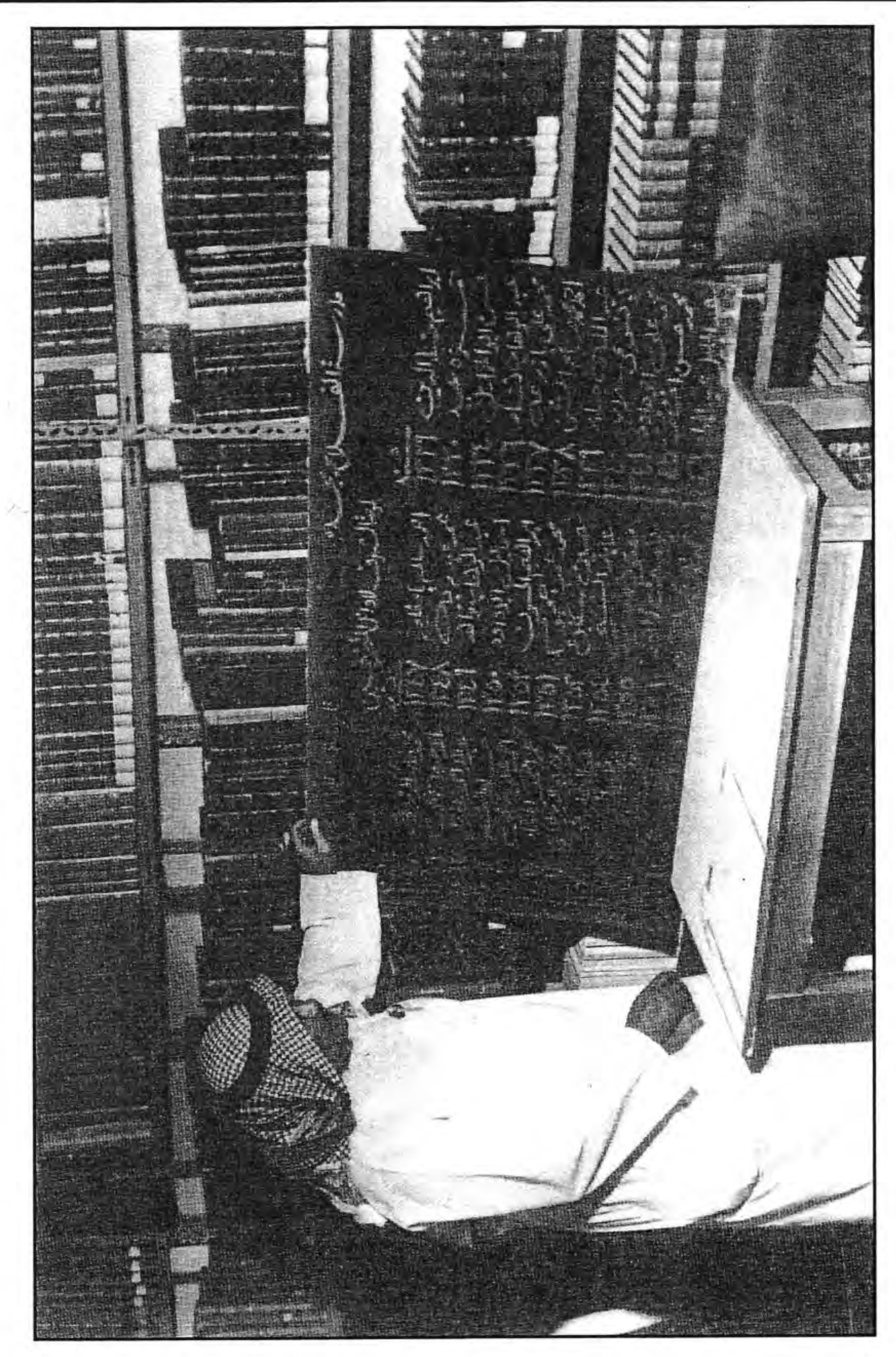
واذا وافق الهواء والصحة للمكث بجدة نمكث بها مدة سنة ثم نصير (ان اقتضى الحال) بتبديل لجهة مكة واذا ما وافق

ذلك وطلبت الاستعفاء والرجوع للوطن لا اكون ممنوعا من ذلك بعد ان اقبض الاجرة الماضية

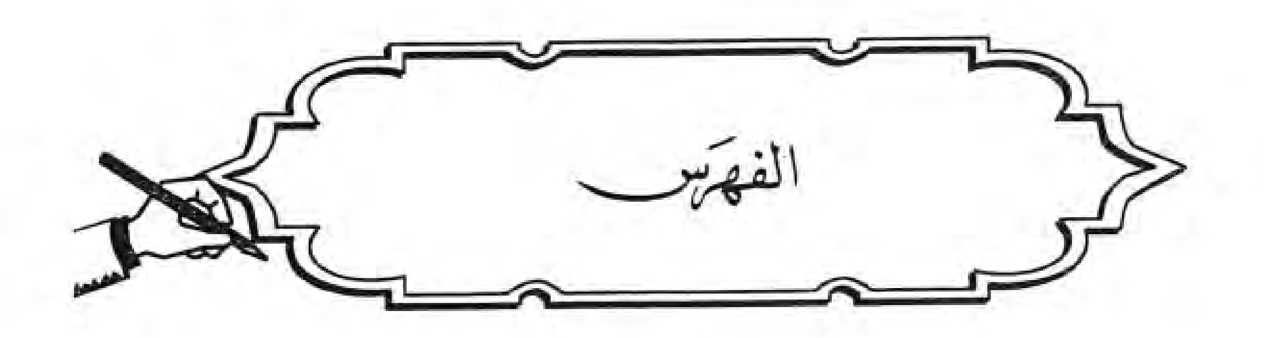
وتمامها ونرجو تعالى التوفيق والنجاح لاسباب الرشد والفلاح

حرر ١٨ ذي الحجة ١٣٣٣

صورة من عقد الاتفاق بين العلامة الشيخ محمود رشيد العطار السوري الجنسية وهيئة مدرسة الفلاح على العمل بها وما له نت حقوق وما عليه من واجبات .. وقد حررت الوثيقة في الثامن عشر من شهر ذى الحجة عام ١٣٣٣ هـ .



لوحة الشرف لأوائل المتخرجين منذ عام ١٣٢٩هـ
ويظهر فيها اسم إبراهيم الحسون عام ١٣٥٢هـ



الفهرس

الموضوع	الصفحة
ماء الدفينة	٥٧
رُكبة	٥٨
هياكل عظمية	٥٩
ضربة صاعقة	٥٩
ألم مبرّح	٦٠
مواصلة السير	٦٠
ماء عذب وظل ظليل	٦٠
آبار مرّان	٦٠
قبيلة بني هلال	٦١
عين الليمون	٦٢
السَّيْل الكبير	٦٢
الوصول إلى مكة المكرمة	٦٣
السؤال عن عبدالكريم الحسون	٦٣
دكان عبدالكريم الحسون	٦٤
عناق حار	٦٤
أبو أربعة	٦٤
أخي في جدة	٦٥
العودة إلى خيامنا	٦٥
صرير السَّواني	٦٦
التوجه إلى منى	٦٦
مَجْرى عين زبيدة	٦٧
المحمل المصري	٦٧
صدام رجال البادية مع المحمل المصري	٦٨
إلى عرفة	٦٩
جبل الرحمة	٦٩
إلى مزدلفة	٧٠
إلى منى	٧٠
إلى مكة المكرمة	٧١

الموضوع	الصفحة
العودة إلى منى	٧١
نحر الهدي	٧١
رمي الجمار آخر أيام التشريق	٧٢
العودة إلى مكة المكرمة	٧٢
صحن الفول	٧٢
البحث عن أخي عبدالله في جدة	٧٤
بماذا أجابنا أخي عبدالله	٧٤
ساحة جَزْوَل	٧٥
سَيْر القوافل من مكة إلى جدة	٧٥
وصف أحد رجال القوافل	٧٦
في الطريق إلى جدة	٧٦
قوافل الجمال	٧٦
طول المسير وشدة التعب	٧٧
ركوبي على الحِداجة	٧٧
أجناس بشرية جديدة!	٧٨
مجتمع النسوة العجائز	٧٨
حكايات أم الدقسي	٧٩
موقف مرعب	٧٩
الوصول إلى بحرة	٨١
عمود من الدخان	٨١
محاولة للوصول إلى مصدر الدخان	٨٢
الوصول إلى المقهى	٨٣
مشاهد جديدة	٨٤
العودة إلى القافلة	٨٥
البحث عن الجمل	٨٥
سير القافلة	٨٦
نوم عميق	٨٧
الوصول إلى جدة	٨٧

الموضوع	الصفحة
سرُّ وجود القريبة ليلة العرس	٢٠٩
خلافي مع زوجة أخي	٢٠٩
صفعة لن أنساها	٢١٠
الخادمة زهرة	٢١٠
الماعز المصري	٢١١
تكليفي بواجبات الخدمة	٢١١
فطور أخي	٢١١
زواج أخي الثالث	٢١٢
الإعداد للزواج	٢١٢
إضاءة الأتاريك	٢١٢
الوصول إلى بيت العروس	٢١٣
خمسة جنيهات على جبين العروس	٢١٣
وخز الإبر	٢١٤
التعتيمة	٢١٤
زوجة أخي مصباح	٢١٥
الانتقال إلى بيت مراد	٢١٥
مرض أخي المفاجئ، وسفره لأسمرة	٢١٥
تأمين حاجات البيت	٢١٦
عودة أخي سالماً معافى	٢١٦
الصفعة القاسية التي نلتها من أخي	٢١٧
البِنْة	٢١٧
أحمد السحرتي	٢١٨
استعادة الوعي	٢١٨
فزعي من أخي	٢١٨
قسوة أخي وشدته	٢١٩
حبه وحنانه وعطفه عليَّ	٢١٩

الموضوع	الصفحة
الساعة الذهبية	٢١٩
ملابسي	٢١٩
قيمة الجنيه الذهب	٢٢٠
من سجايا أخي	٢٢٠
حفظي من الانحراف والانزلاق ..	٢٢١
زواج أخي الرابع	٢٢١
اقترانه ببنت العم محمد بن عبدالرحمن الزامل	٢٢١
أسرة العم محمد عبدالرحمن الزامل	٢٢٢
زواج بطريقة هادئة	٢٢٢
طلاق زوجته مصباح	٢٢٣
السفر إلى عنيزة	٢٢٤
وفاة أبي رحمه الله	٢٢٤
قلة السيارات في ذلك الوقت	٢٢٤
أول سيارة ركبتها	٢٢٤
استئجار سيارة صغيرة	٢٢٦
الوصول إلى مكة المكرمة	٢٢٦
الجودرية	٢٢٧
تأخُّر سفري وسببه	٢٢٧
سفر (أم قَذْهي) معي إلى عنيزة ...	٢٢٨
إلى الطائف	٢٢٩
منطقة ركبة	٢٣٠
مركز المويه	٢٣٠
مزرعة في عمق الصحراء	٢٣١
صوت الساقية يثير الشجن	٢٣١
استئذان سائق السواني في مساعدته	٢٣١
ذكريات عُنيزة	٢٣٢

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة